غالي شكري

عرس الدّم في لبنان

دار الطّليعة للطّباعة والنشر
بيروت

الطبعة الاولـى
يناير ـ كانون الثاني ١٩٧٦

عرس الدم في لبنان

الــى معجزة الارزة اللبنانيــة
التي ازهرت بين اغصانها الخضر
وردة حمراء !

« اهالي لبنان اشبه بالنـــار تحت الرمـــــاد ، فما ان تلمسها حتى تندلع من هذه الشعلة » .

الامير بشير حاكم لبنان
٣١ أيار ١٨٤٠

برولوغ

عشية العرس الدموي

نريــــد ان نعيش

يا فخامة الرئيس لا تصدق .

لا حكومة جديدة يريد اللبنانيون ولا طرقا ولا مشاريع .

هذه يريدها السياسيون ونحن الشعب البسيط نريد ان نعيش يـا فخامـــة الرئيس . نريد أن نعيش ولا نريد شيئا آخر .

مبروك لك عيدك ومبروكة لك الاعوام ماضيها وحاضرها وآتيها والهمك اللـه . ولكننا لو حلمنا بهدية منك في العيد فلن تكون غير الهدية التي نحلم بها كـل يوم ، كل ساعة ، كل لحظة : ان نعيش بلا خوف ، ان نعيش بلا تهديد ، ان نعيش بـــلا شعور القلق الذي يهدم كل طموح ويجفف كل حماسة ويحرق أعصاب الوطن مـــن جذوره الـــى جبــاله .

كل مطلب آخر ياتي في الدرجة الثانية . الحياة أولا ، واول شـروط الحيــاة الشعور بالامن : شعور الجسد بالامن وشعور النفس كذلك ، النفس بكرامتها وحرية نموها وازدهارها الذي به يتحقق كل ما هو حق وخير وجمال .

★ ★ ★

بحكومة فتية او بحكومة عجوز ، لا يهم اللبنانيين كيف يتأمن لهم العيش فـــي امان بل يهمهم ان يتأمن . كل الازمات الاخـرى سيقوم منهـا لبــنان باذن اللـه ، سيقوم منها حالا عندما تعود الى لبنان روح احترام القيم الكبرى وتقديس حيـــاة الانسان . فلبنان الآن لا يعاني أزمة اقتصاد ولا ازمة حكومة ولا أزمة تعليم ولا ازمة سياسة خارجية ولا حتى ازمة مياه . ان هذه كلها موجودة . لكن لبنان لا يعانيهـا

بل يتحملها . فما يعانيه لبنان بالفعل هو ازمة حياة بالمعنى البسيط للكلمة . ازمة حياة في جسده وروحه . وهذه لا تحتمل التاجيل ولا ينفع فيها اخفاؤها تحت غيرها مـن الازمـات .

خذ الضمان الاجتماعي وخذ الضمان الصحي وخذ كـل منجـزات الدولـة في السنوات الاربع الماضية من ولايتك ، واعطنا محلها الامان يا فخامة الرئيس . فمـا نفع الضمانات الاجتماعية ما دام الانسان لا يتمتع بضمان حياته ؟

★ ★ ★

شعور التهديد يسكن كل بيت ، وما اطلاق الرصاص في المناسبات غير نوع مـن الصراخ في الظلام لاعطاء النفس احساسا مصطنعا بالثقة . شعور التهديد يسكن كل واحد . تهديد من ؟ تهديد المجهـول . تهديـد أي كـان لاي كان . تهديـد فـردي وتهديد جماعي وتهديد دولي . تهديد الاجرام العادي وتهديـــد الاجرام السياسي وتهديد الاجرام العالمي . حتى النبات لا ينمو بل يختنق اذا لم يكـــن لـه الفضاء منفسحا رحبا ، فكيف بالانسان ؟ لقد هبط الفضاء علينا حتى صرنا لا نـرى فوقنا لونا أزرق بل اسود ، والدهشة في عيوننا ليست دهشة الطفل الفـــرح وانما هـي دهشة البريء الذي يتساءل بحزن عميق لماذا يحدث له ما يحدث وهو لم يفعل مـا يستحق عليه كل هذا العقاب .

ام اننا فعلنا ما نستحق عليه كل هذا العقاب ونحن لا ندري ، أو نحن نـدري ونتظاهـر بالبـراءة ؟

لكن ذلك ليس مهما الآن على كل حال . المهم هو أن نبقى .

المهـم هـو الخـلاص .

★ ★ ★

اننا نتوجه اليك بهذا الكلام يا فخامة الرئيس لاننا نعتقد انك لا تزال قـادرا على اعادة الامن الى الشعب . لقد كان في اعماق العقل الباطن لهذا الشعب ، عندما اختارك بملء حماسته رئيسا ، انك الرجل القوي الذي يحتاج اليه البلد الضعيف. وما يكمن في العقل الباطن للشعوب لا يخطىء . واللبنانيون يشعرون انـك لا تـزال تختزن طاقات كبيرة لم تستنفدها بعـــد . وفي ساعات الضيق ينظرون اليـك كانهم ينظرون الى ساحر يستطيع ان ينقذهم .

أن ينقذهم من الخوف .

هذه هي الهدية يا فخامة الرئيس .

لا اصلاح الادارة الفاسدة ، ولا تشكيل حكومة جديدة ، ولا الاشتراك في مؤتمر جنيف ، ولا زيادة عدد المستشفيات والمدارس ، ولا شق الطرق وبناء الجسور .

الجسر المطلوب بناؤه هو جسر الطمأنينة . والطمأنينة تكون بتوفير الحماية المادية والمعنوية لكل مقيم على أرض لبنان ، وبمنح لبنان مناعة حقيقية ضد كل تهديد من اي نوع كان .

قبل كل شيء هو الامان .

يجب ان يعود لبنان الامان .

اعطنا الامان يا فخامة الرئيس .

النهار ٧٤/٨/١٨

انسي الحاج

العشائر اللبنانية المتحدة

هل يجب ان يشتري كل لبناني « دولاب كاوتشوك » يحرقه على الطريق او امام بيته ، حتى يحمي نفسه او يدافع عن حقوقه ؟

هل يجب أن يقتني اللبنانيون قشر موز ، يفرشون به الطرق فتنقطع ، حتى يتذكر المسؤولون ان للناس مصالح وحقوقا وحريات وحرمات ؟

هل نقتني حجارة ؟ وعصيا ؟

و ... كلاشنكوف ، بالطبع ، وبقية انواع الاسلحة ، من المسدسات الى المدافع ... حتى يشعر المواطن منا — نعم « المواطن » — انه محترم وحياته آمنة ، ومستقبله مضمون ، ولو بعد الوفاة ؟

هل ، هل يجب أن ينتمي المواطن — نعم « المواطن » — الى عشيرة ما ، عشيرة كبيرة قوية ، حتى يكون موجودا وتدرك الدولة انه موجود وتحس بوجوده ؟

★ ★ ★

ليس الوقت وقت فلسفة !

ولكن ، هل نسيت الدولة « المبدأ الاول » لقيامها وشرط وجودها بل مبرر هذا الوجود ؟... ان يتنازل الانسان الفرد عن ارتباطاته القبلية والعشائرية ليصبح « مواطنا » ، ليس بينه وبين الدولة وسيط ، ترعاه فيحترمها ، تضمن حقوقه فيطمئن اليها ، تصون حياته فيدافع عنها ...

هل نسيت الدولة ، هل ؟...

يبدو انها — نعم انها نسيت !

في لبنان ، لم يعد هناك مواطنون ..

أصبح لبنان مجموعة عشائر ، ومن لا عشيرة له راحت عليه !

أما الدولة ، فوسيط بين العشائر ليس الا ... بالكاد لها سلطة على أحد !

والعشائر ليست « العشائر » العائلات فحسب ... من أقصى البقاع الـــى أقصى الجنوب ، مرورا بالجبل طبعا وباحياء بيروت !

هنالك عشيرة صيادي السمك .

وهنالك عشائر الاحزاب والطوائف ، وميليشياتها طبعا ...

وعشيرة مزارعـي المـوز

وعشيرة العطشانين ...

وعشيرة الذين يشربون من آبـار ملوثـة ...

وعشائر الذين لا طريق الى قراهم او بيوتهم ..

وعشائر الذين تقصف اسرائيل بيوتهم وحقولهم ولا من يحميهم ولا من يسالون.

فضلا عن العشائر الاخرى الاكثر حضارة : النقابات ، واصحاب المهن الحـرة (مبدئيا) والمهن الاقل حرية ، وجمعيات التجـار والصناعيين ... التـي تقابلهـا عشائر المتسلطين على مرافق الحياة : حياة الآخرين طبعـا ومصالحهم ، في الشوارع والاسواق ، في المرفا ، عـلى المطار ، في الريجي ، عـلى ابـواب الادارات العامـة والخاصة ، وفي كل مكان آخر يطلب منه انسان رزقا ، فيأتي فارض خوة او سمسرة يقاسم المواطن رزقه !

عشائر ، عشائر ، عشائر ...

وليس اقلها بالطبع عشيرة ، بل عشائر الفلسطينيين ، الذيـن يمتازون عـلى العشائر اللبنانية بان ثمة سلطة عندهم تقدر ، عند الحاجة ، على ضبطهم او عـلى الاقل معرفة ما يحصل عندهم ، حتى اذا خرجوا على « ميثاق العشائـر » عرفت ، هي ، كيف « تضرب بيد من حديد » وكيف تتكلم عاليا وكيف تعيد ما ترى اعادته ، بما في ذلك الهيبة والامن !

★ ★ ★

حيال هذا الوضع ، ماذا يمكن الدولة ان تفعل ؟

تجرد « حملات أمن » كتلك التي ذهبت الى عكار ، قـرى وجرودا ، فعـادت بعشرات « المطلوبين » ، الا الذين ذهبت للقبض عليهم ، فظلوا فارين ؟

تتفرج على تحول لبنان الى « ولايات متحدة لبنانية » ، الى عشائر متحدة حينا ومتحاربة احيانا ، وبيروت العاصمة ، بيروت السلطة ، تتصرف كانها « جنيف » ، مدينة مؤتمرات صلح ، توفق بين هؤلاء واولئك ، تتوسط ، تحاول ، تحاول جهدها ، وترسل قواتها كانها « قوات طوارىء دولية » تفرق بين المتخاصمين وتقيم السلم بين المتحاربين ، فاذا نجحت ، طبلت لنفسها وزمرت ، ورفعت الوية الصلح ... اما اذا فشلت ، فيكون لها من كونها « العشيرة الاضعف » الف عذر وعذر !

★ ★ ★

ليس الوقت وقت فلسفة ؟!

وقد لا يكون وقت مزاح وتمهزؤ !...

نريد الدولة ان تصبح دولة .

نريد المواطن ان يعود مواطنا :

مواطنا محترم الحقوق مؤمن المصالح ، آمنا على حياته مطمئنا الى مستقبله .

نريد القانون ان يعود يسود .

ولكن كيف ؟ كيف ؟

ليس شغلنا نحن ، بل شغل الدولة .

شغل الدولة ان تخترع وسيلة ، نعم تخترع وسيلة ، وتقولها هي لنا ، تطلب ثقتنا ، ثقة الناس على اساسها ، تدخل معنا في تعاقد اجتماعي جديد على اساسها. تفرض هذا التعاقد علينا جميعا ، تفرضه فرضا عند الحاجة ، بالمساواة ولو ظلما ، فنرضى ونطمئن .

اذ ذاك تصبح الدولة دولة ...

اذ ذاك يخرج المواطن من عشيرته الى « عشيرة الدولة » ، الى حماها ...

يعود المواطن مواطنا .

اما اذا لم تفعل الدولة ، اذا لم تفك العشائر وتجمع سلاحها ...

اذا لم تقم حماية للناس اقوى وامنع من حماية العشائر ، فيظل الناس يستجيبون من ينادي :

اشتروا دواليب كاوتشوك للحرق ...

اشتروا عصيا ، وحجارة ، وقشر موز ...
اشتروا اسلحة ، اشتروا حماية ...
واقطعوا الطرق ، كل الطرق ، بما فيها طريق المستقبل !
لان المستقبل يصبح اذا ذاك قليل الاهمية قياسا باليوم الحاضر ، سلامة وحقوقا ، ماء وخبزا ، وطرقا وخدمات ، وامنا وحياة !

غسان تويني

النهار ١٩٧٤/٩/٢

حقائق في الواقع اللبناني

قد يتهم من يحاول تبيان حقيقة اوضاع البلد بالاغراق في التشاؤم ، ذلك ان نزعة طبيعية في الناس تحملهم على تفاصيل سماع ما يبعث فيهم الطمانينة ولو خادعوا في ذلك النفس . ولكن من مصلحة اللبنانيين امام ما يحيق بهم اليوم من جسيم الاخطار ان تقال لهم الحقائق من دون تغطية او تمويه .

★

قام لبنان في حدوده الحاضرة عام ١٩٢٠ اثر مآس وجهاد مرير اضطلع به احراره بعد احداث ١٨٦٠ المؤسفة ، واثر ما لاقى اللبنانيون من عنت على يد الحكم العثماني . ويكفي التذكير بمحاولة الافناء في تجويع منظم مدروس اثناء الحرب العالمية الاولى وباحكام المجلس العرفي في عاليه عام ١٩١٦ .

وكانت لفرنسا ، التي اضحت بعد مؤتمر فرساي الدولة المنتدبة ، يد في بعث « لبنان الكبير » بعدما رعت ، عهودا طويلة ، حقوق الطوائف المسيحية على امتداد « مرافق المشرق » حفاظا على تراث يرتد الى أيام ملوكها الاقدمين . ولم تجد فرنسا تناقضا بين موقفها من لبنان عام ١٩٢٠ وكونها « امبراطورية مسلمة » . فالاوضاع العالمية ، بعد خروجها وحلفائها ظافرة من الحرب الكبرى ، كانت تعطيها وسواها من الدول المستعمرة او المنتدبة حرية التصرف . هذا الى ان العالم الغربي لم يشأ يومذاك حتى مجرد افتراض نهضة عربية شاملة وامكان بروز العرب على المسرح الدولي عاملا فعالا في تكييف مصائر الكون بفعل المواقع الاستراتيجية وتصاعد العدد تصاعدا قياسيا وهذه الثروة الضخمة التي خرجت من احشاء الارض .

ولقد كرس قيام لبنان الجديد عام ١٩٢٠ مبدأ الطائفية الدينية وتركزت الحياة

العامة على اساس ذلك . فحمل البلد منذ تكوينه عوامل الضعف والتفكك . ولا بد من القول ان الطائفية الدينية ونشدان توازن واهي الاساس انما تثار بين الحين والاخر ، من هذا الفريق او ذاك ، لا صدورا عن عاطفة دينية ترتبط جذورها بالايمان العميق ، انما لاسباب ظرفية مصلحية بحتة يستغل الدين تأمينا للمكاسب فحسب. فالايمان الحقيقي بعيد عن ذلك بعد الارض عن السماء .

★

رافق التطورات اللبنانية العميقة منذ عام ١٩٢٠ نشوء حالات خطيرة في الشرق الاوسط ، طليعتها القضية الفلسطينية التي وضعت على عاتق البلد اعباء جساما ، والزمته بها بدافع من المصلحة الواحدة ومن المصير الواحد ، وبدافع ايضا من عاطفة صميمة تغمر اليوم قلوب اللبنانيين جميعا شعورا منهم بمدى الظلم الذي احاق بالعرب في فلسطين وايمانا بان الغرب المسيحي هدر الحق التاريخي الثابت وامتهنه وتنكر للمبادىء التي طالما حاول ان يدخل في روع البلاد الضعيفة انه متمسك بها ، يعض عليها بالنواجز . وعلى رغم ما لقي لبنان وما يلقى من متاعب نجمت عن تجميع هذا العدد الضخم من الفلسطينيين على أرضه ، ذات الرقعة الضيقة ، فلا سبيل الى مداواة الشيء الا بالتؤدة والتعاون ، وبشد اواصر التضامن مع اخوان لنا في العرق وفي الانسانية ، اجلتهم القوة الغاشمة عن ارضهم وموطن ابائهم واجدادهم منذ العديد من الاجيال ، وهم يدفعون كل يوم ضريبة الدم في سبيل استعادتها .

والى جانب مضاعفات القضية الفلسطينية وقيام اسرائيل وترسخها على الارض العربية ، نشأت ايضا تفاعلات تنعكس في خطير نتائجها على الاوضاع اللبنانية بعدما استقلت البلاد العربية تباعا ، وتقدمت الى العالم تواكبها الامكانات الهائلة في العدد والمواقع الاستراتيجية والثروة الضخمة. واستاثرت، وتستاثر، باهتمام القوى الدولية الكبرى . ونحن اليوم في مرحلة تصارع هذه القوى على سيادة الكون ، تصارع يتسم حينا بالتأزم والحدة فيخال ان النزاع على وشك الانفجار ، ولا يلبث ان يعود الهدوء ويرتدي التزاحم طابعا سليما يستهدف اجتذاب العالم الثالث بالملاينة والرفق. ونحن لم نزل نشهد تغليب سياسة المصالح التي كرسها غلادستون في عبارته المشهورة في مجلس العموم يوم كان الاسد البريطاني يشكل مركز الثقل الدولي : « ليس لبريطانيا اعداء دائمون ولكن لها مصالح دائمة .. »

تلك هي على قساوتها حقيقة التاريخ . وقد تعددت عليها الادلة على كر العصور . وما نشهد اليوم من مآس في قبرص وسواها من انحاء العالم يجب ان يفتح العيون والاذهان لمن يستمرئون خداع النفس ويصرون على التعلق بآمال الصداقات التقليدية والحمايات ، ذلك ان عهد لبنان « المميز ، المدلل » قد جرفته التيارات الدولية الجديدة .

ولقد قامت في بعض البلاد العربية انقلابات مدنية وعسكرية اسفرت عن تطور عميق في النظم الدستورية وفي الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، نتيجة لاخذها بمبادىء غالت في تطبيقها مغالاة قاسية من دون نظر الى واقع كل بلد وظروفه ، ومن دون كبير تبصر بعواقب الشيء ومدى خطورته . فراينا فئات عدة من التي جردت من كل ما تملك ، واحاق بها الاذى وضروب الاذلال ، تهجر اوطانها ضاربة في دنياالله . وكان نصيب لبنان من ذلك ان حلت فيه افواج كثيفة من هؤلاء « اللاجئين الجدد » تقبلهم على ضيق الرقعة من دون كبير روية ومن دون ان يرسم حكامه لذلك سياسة موضوعية عاقلة . وشعر اللبنانيون مع الزمن بشدة وطأة هذه الجماعات التي اخذت بالتكتل وبالمطالبة بحقوق اجتماعية . ومن بينها فئات حملت معها الى لبنان الخبرة وبعض الثروة ووضعت في حذق ومهارة اليد على العديد من المرافق الاقتصادية . واذا كان الشيء قد ساعد في الظاهر على الازدهار ، فمخاطره على المدى البعيد اشد من النفع الآني . وليس من اقل هذه المخاطر ان اللبنانيين معدون الى ان يضحوا اقلية في بلادهم . الى جانب فقدانهم تدريجا السيطرة على قطاعات مهمة من اقتصادهم . وهنا يجب التحدث في صراحة محتومة من حق اللبنانيين ان يتطلبوها .

ثمة مقومات اولية في مطلق بلد يريد لمواطنيه ان يحيوا حياة كريمة عزيزة الجانب ، وان يحافظوا على طابع وطنهم الاصيل . واهم هذه المقومات ان يظل المواطنون الاصليون الكثرة الغالبة بنسبة كبيرة، وان لا تخرج من يدهم ملكية الارض. ومن المؤسف والخطير ان هذين العمادين قد وهنا اليوم على الاقل في لبنان اذا اردنا ان لا نقسوا في التعبير . لقد كادت روما الامبراطورية أن تزول بفعل تدفق جحافل الاغراب اليها على رغم ان هؤلاء جاؤوها من بلاد خضعت لسلطانها بحكم الفتح . فكيف ببلد ضعيف كلبنان ؟ ولماذا ، مثلا ، تمتنع بلاد عربية عدة عن تقبل جحافل

القادمين للاقامة وتختار فقط الاختصاصيين ، وتنظم وجودهم وتربطه بشروط محدودة الى ان يتمكن ابناؤها من الاستغناء عنهم ؟

اما التفرغ عن ملكية الارض فقد ادركت مخاطرها الشعوب الكبيرة نفسها . فراينا بلادا ، كألمانيا الاتحادية وسويسرا وايطاليا وفيها ما فيها من شروط القوة والمناعة ، تلجا الى سن قوانين صارمة لدرئها .

ان القوانين اللبنانية الحاضرة لا تكفي اطلاقا للحفاظ على الارض اللبنانية للبنانيين وحمايتها من غزو راس المال من عربي وغير عربي معا فالى جانب التهافت على تملك الارض نشهد اكتساحا منظما لقطاع اقتصادي مهم تؤول بموجبه ملكية معظم المصارف اللبنانية الى الشركات الاميركية والاوروبية . ولا بد امام ذلك كله من قوانين جديدة يصعب التحايل عليها ، تقي اللبنانيين من ضعفهم نفسه وترد عنهم عوامل الاغراء . اما اذا ظل الامر على ما نرى فقد يصحو اللبنانيون ذات يوم وقد فقدوا الارض وفقدوا السيطرة على الاقتصاد وتبددت الاثمان المغرية ولسان حالهم البيت القديم :

كما قبض الدينار في الليل حالم واصبح لا يلقى الذي هو قابضه

★

ولا تقف الاخطار المحدقة بنا عند هذا الحد . فثمة عوامل اخرى تنخر كالسوس في الجسم اللبناني وتهددنا كيانا ووجودا .

ان لبنان بلد مشرعة حدوده لدخول وخروج من يشاء . والرقابة على ذلك بالكاد تقريبية . ولقد تدفقت شطر البلد جحافل لا عداد لها من الشرق والغرب ، وجعلت منه مسرحا لتصارع جميع القوى العقائدية ، تسرح وتمرح وتعبث بقوانين الامن وانظمته حتى اصبحت اعمال الاجرام على الارض اللبنانية ، بفعل عناصر غريبة غير مسؤولة ، من السهولة بحيث انها تتم ، وتعرف الاسباب والدوافع ، وتعرف اسماء الفاعلين وامكنة وجودهم ، ويمشي التحقيق في بطء واحيانا يدور على نفسه ، ولا يبلغ مداه « خشية المضاعفات » . وهنا يجب ان لا نلوم المقاومة الفلسطينية ولا ان نندد بها . فالفلسطينيون في معارك مريرة لاستعادة وطنهم السليب يمهرونها كل يوم بالدم الغالي . والمقاومة الفلسطينية تسير في طريق التنظيم والانضباط الكليين ، والمسؤولون فيها يبذلون جهدا صادقا لمعاونة السلطات اللبنانية

في قمع الاجرام . لكن السؤال الكبير الذي يطرح نفسه على ضمير اللبنانيين وضمير المسؤولين فيهم يظل قائما : اين ذلك كله من السيادة الوطنية على الارض وماذا فعلنا بهذه السيادة وكيف وصلنا ببلدنا الآمن المطمئن الى هذا الحد الزري الخطير؟ وهل يسأل الغير عن تقلص سلطاننا على ارض الوطن ام نسأل نحن ؟ واين لبنان اليوم من سياسة التخطيط العلمي ، اذا جاز ان نتحدث وسط هذه الموجات الهادمة ، عن التخطيط والدرس الهادىء ؟ واين هو لبنان من العمل لمستقبل افضل؟ وماذا سيكون من امر لبنان الغد ؟

ويقتضينا الواقع والانصاف ان لا نحمل عهدا معينا مسؤولية هذه الاوضاع الخطيرة . فالمسؤولية مشتركة بين جميع العهود التي تعاقبت ، منذ الاستقلال ، من دون استثناء . وعقلية الحاكمين هي هي لم تتغير ولم تتبدل . لقد عرفنا رئيسا كان يعد الايام التي تفصله عن نهاية ولايته على ما هو معروف ، الى جانب صفاته ، من تأثير الحظ في وصوله الى قمة الدولة . وسواء انم هذا القول عن تبرم حقيقي وزهد في الحكم ام لا ، فهو يعبر على كل حال عن الذهنية التي تسود الحكم وعن روحيته وشعوره الصميمين .

ان الوصول الى الحكم كان منذ الاستقلال ولم يزل هدفا نهائيا لمتطلبيه يسعدهم بمقدار ما يسمح بالتغلب على الخصوم ، وبشفاء الاحقاد ، وبتحقيق حلم راود الذهن طويلا ، وبالامساك بالسلطة وبالارتياح الى ترامي الناس على اعتابهم . ولم نعرف من بينهم واحدا تغلب على نفسه وساد الضعف البشري وصرف الجهد كل الجهد لتسهيل تحقيق تطلعات البلد المستقبلية واهدافه . ولم نعرف احدا صدر في الحكم عن القول المأثور : « الحكم هو افتراض المستقبل » .

تلك اسئلة يطرحها اللبنانيون في قلق ومرارة ، وتقض منهم المضاجع . وهم اذ يستذكرون موجة الحماسة الدافقة التي رافقت انتخاب الرئيس الحالي ، ما زالوا يأملون في الكثير من حزمه ووطنيته وما زالوا يعتقدون ان الوقت لم يفت امامه بعد كي نشهد الانتفاضة الصلبة المرجوة .

★

وقد يكون من الفائدة في ختام هذا العرض للواقع اللبناني الحاضر ان نعود الى بعض نقاط وشؤون مصيرية :

١ – لقد عفا الزمن على الاسباب التي ساعدت على قيام لبنان الجديد عام ١٩٦٠ وطويت حتى مرحلة الميثاق الوطني عام ١٩٤٣ . وعلينا ان نفكر ونتصرف في نطاق معطيات جديدة ملزمة .

٢ – نحن نتفاعل في محيط عربي واسع ، تشدنا اليه روابط عاطفية ومصلحية معا . ومصير لبنان وراحته وأمنه ترتبط الى حد بعيد بالقضية الفلسطينية . وليس في وسعه ان يتمكن وحده من مجابهة الاطماع الاسرائيلية الاكيدة . لكن هذا الوضع الملزم يجب ان لا ينسينا امر المحافظة على استقلالنا الكامل وعلى سيادتنا الوطنية المطلقة .

٣ – ان اللبنانيين يأملون في تغيير شامل جذري في ذهنية الحكم واساليبه يقضي على الماضي ورواسبه في كل المرافق العامة . وما من شك ، مثلا ، في ان ريمون اده مصيب كل الاصابة في تركيزه على وجوب حماية البيئة من التلوث وعلى منع تشويه وجه البلد الحضاري . فالامور كلها ترتبط بعضها بالبعض ويكمل احدها الآخر .

٤ – ان اللبنانيين يعيشون في اجواء الاستقبالات الفخمة والمآدب الكبرى والمهرجانات ، وينتشون بخمرة جمال سيدات المجتمع واناقتهن . ويرفضون ان يحذروا هذا الازدهار الظاهري تحسبا للمفاجآت .

نعم ان من المبهج ان يسود المرح والتفاؤل الحياة اللبنانية وان نأخذ نصيبا من مباهج العيش وحتى ان نتوسع في الانفاق شريطة ان يكون البلد في اوضاع اقتصادية متينة وفي منأى عن الهزات والازمات من عالمية واقليمية وان يتحسب لها .

ان اللامبالاة التي تبدو في مظاهر البذخ والترف ، كأنها احيانا تتحدى الفقر والتخلف ، تنم عن روح اللامسؤولية الخطرة وتفسد صحة الرؤيا . واذا كان علينا في ختام هذا البحث الموضوعي البحت ان نفكر في حلول اساسية « للمأساة اللبنانية » وجب التأكيد ان الحقيقة التي كرسها التاريخ في مطلق بلد تقوم في توحيد المواطنين توحيدا صادقا عميقا . فاذا حزم شعب امره واجمع في مختلف فئاته على السير في طريق واحدة وعلى نهج واحد امكنه ان ينقذ نفسه وينقذ وطنه ، وان يفرض ارادته على الغير . ونحن اليوم في عصر يمنع على الكبار اخضاع الشعوب الصغيرة قسرا . فزمن سياسة القوة قد انقضى على الاقل آنيا وقام تزاحم المعسكرين الجبارين على

النفوذ بالاغراء وبالاستمالة وبشتى الدعايات .

ان اللبنانيين مدعوون قبل كل شيء الى تاكيد انتمائهم الى وطنهم وتاكيد صفتهم اللبنانية وتغليبها على اية صفة اخرى ، دينية او سواها . فالايمان الحقيقي الذي تزخر به القلوب لا يعني عدم الولاء للوطن . وما من شك في ان اشقاءنا العرب ، وفي طليعتهم الفلسطينيون الذين نحس بمأساتهم ونعيشها ، يجدون في لبنان هادىء ، متحد ، خير نصير لهم في قضيتهم . ولا يفيدون شيئا من بلد تسوده الفرقة والاضطراب . ولعل المجابهات الطائفية المفتعلة تنفيذا لمآرب بعيدة كل البعد عن المصلحة الوطنية ستقضي عليها نهائيا فطنة اللبنانيين وتبصرهم في أمورهم فينزعون عن بلدهم الطابع الطائفي ويطلعون على العالم بوجه حضاري يذكر بتاريخهم وبتراثهم المجيد .

ان وضع لبنان يختلف عن اوضاع البلاد العربية الاخرى وحتى عن كل بلاد العالم . فقد تعددت فيه الطوائف الدينية منذ القدم وتوازنت ومهرته بطابع فريد يضحى فذا اذا رددناه الى اطار طبيعي مسالم وفصلناه عن السياسة ، ويضحي دعما للفكرة الوطنية وضمانا للمستقبل الكريم الذي نتطلع اليه .

جوزيف ابو خاطر

النهار ١٠/١٠/١٩٧٤

حســن والبيــك

(مهداة الى سلام الراسي) .

مشهد مسرحي في ٢٠ دقيقة ، تأليف عصام محفوظ ، تقديم شوشــو (حسن علاء الديــن) .

في خاتمة الاحتفالات بالعيد الخمسين للحزب الشيوعي اللبناني قدم شوشـو (حسن علاء الدين) ويوسف محمد شامل ، مشهدا مسرحيا عنوانه « حسن والبيك » في المقهى الشعبي « عروس البحر » في حضور آلاف المتفرجين .

نص المشهـد .

(شرطي على جسر . رجل في الستين في ثياب فلاح جنوبي عتيقة ، يمر قـرب الحاجز الذي يقف الشرطي الى جواره ، دون أن ينتبه اليه) .

الشرطـي ـ هيـــه .

حسن ـ هيـــه .

الشرطـي ـ هيـــه .

حسن ـ هيـــه .

الشرطي ـ ولـك هويتـك .

حسن ـ ولا مواخده يا حضرة الافندي عمتحكيني ؟

الشرطي ـ ليش شايف حدا غيرك هون ؟

حسن ـ (يتطلع حواليه) لا . يمكن . شو بيعرفني . يمكن متخبيين . يمكن عميراقبونـا .

الشرطي ـ مين اللـي عميراقبنا ؟
حسن ـ شو عرفني يا افندي . انا ما بفهم بالسياسة .
الشرطي ـ مين اللي عميراقبنا . حكي .
حسن ـ مية مرة قلتلو للمختار هالدوريات هالدوريات ...
الشرطي ـ شو بها الدوريات ؟ عمتحكي عن دورياتنا ؟
حسن ـ دورياتكم . دورياتهم . دوريات هول دوريات هوديك ... ضيعتوني .
الشرطي ـ هيدي مش شغلتك .

حسن ـ مش شغلتي عارف مش شغلتي . الله يقطع ولاد الحرام . انـا شـو كان جابني لهون . قطعولنا المعزى . ٥٥ معزاية وفحل . ما بقي غير ٣ روس . الله يوفقك يا بو يوسف .

الشرطي ـ مين هيدا أبو يوسف ؟

حسن ـ ابو يوسف ما بتعرفش ابو يوسف . زلة معتبر متل افضالك . نـط فوق المية وبعدو متل الحصان . قال ما بيترك الضيعة ولو بدها تطربق السمـا على راسو . تركت عندو معزايتين وكبش . بس شو كبش ولا تـل الكباش كان يعشر عشر معزايات بالنهـار .

الشرطي ـ بـلا طـق حنك . معك هويـة .

حسن ـ انا . منين يا حسرتي . ما بقي شي . هه هه (يضع ابهامـه تحـت اسنانه) مشي . ما بقي شي . ولو بخبي عليك ؟
الشرطي ـ أوقف ع جنب .
حسن ـ ع جنب . ما انا ع جنب يا حضرة الافندي . انا دايما على جنب .
الشرطي ـ اوقف ع جنب وارفع ايديك .
حسن ـ والحرمة والولاد بيكونوا صاروا بالنبطية . بدنا نلحق نقطع تصاريح.
الشرطي ـ منشان شو التصاريح ؟
حسن ـ كيف منشان شو . منشان نفوت ع برج البراجنة ، ع لبنان .
الشرطي ـ ليش انت وين هلق ؟
حسن ـ هـون .
الشرطي ـ وين يعني هون .

حسن ـ هون . الله يخليك انا رجال عقلاتي على قدي .

الشرطي ـ والرجال اللي عقلاتن على قدهن ما بيحملوا هويات ؟

حسن ـ نحنا ما عنا هيك شي .

الشرطي ـ شو يعني هيك شي . شو الهوية عيب .

حسن ـ انا ما قلت شي . الله يسامحك يا ام آيد . انا شو كان جابني لهون . لولا هالطيارات . والله يا افندي لو عارف انك معصب هالقد كنت جبت معي شي . بس يا حسرة . ما بقي شي . هالطيارات هالطيارات ... شو بدي قول .

الشرطي ـ قول .

حسن ـ ليك . اذا ضلينا طيبين ورجعنا ع الضيعة راح استفقدك برطلين لبن معزى وشي كيسين بعر . مش هيك يا دريس .

الشرطي ـ انا ما اسمي دريس .

حسن ـ ولا غنى عن حضرتك . عمبحكي مع حماري . انا دايما بحكي مع حماري . عادة يا حضرة الافندي عادة . الله يجازي ولاد الحرام . طلع فيه لغم وفطس . الدنيا رح تعتم بخاطرك .

الشرطي ـ محلك .

حسن ـ يا افندي هلق بيستعوقونا الولاد بيفكروا في شي .

الشرطي ـ شو يعني شي ؟

حسن ـ شي ايد غريبة انحطت علينا . شي كلة مدفع طلعت فينا . انا عارف . خلينا نموت بارضنا مش أحسن . والله كنا ممشين الحال لو ما صارت البركة تنقص ...

الشرطي ـ اي بركة ؟

حسن ـ بركتنا . بركة زلاية . ما بتسمع ببركة زلاية اللي ما بتزيد ولا بتنقص .

الشرطي ـ لا .

حسن ـ صارت تنقص يا حضرة الافندي . صارت تنقص . المعزاية ما عاد فيها تطال لتشرب . ما كان حدا يصدق . من مية سنة ما نقصت ولا نقطة . صارت

تنقص الله لا ينقص عليك شي . صارت تنقص . بخاطرك .

الشرطي ـ اللي ما معو هوية ما بيمرق

حسن ـ مرقني الله يمرقك . قلنا لك ما بقي عنا شي . تع فتش . وحق دم الحسين لولا هالطيارات ما كنت شفتني واقف ع الجسر . انت مفكر هينه علي . هينة يا دريس . الولاد سبقونا . دخلك ما شفت هالولاد مارقين من هون . عندي ولد الله يخليلك ولادك شب متل سن الرمح . خزى الله الشر . كان يكسر قرن الفحل باصبعتين . كل ما طل البيك ، كان يكسر لو قرن قرنين . تغيرت الحالة تغيرت . البيك بطل يطل . ولولد بطل يكسر قرون .

الشرطي ـ شو اسمك ؟

حسن ـ معاز .

الشرطي ـ ما عمبسألك شو بتشتغل . سألتك شو اسمك .

حسن ـ معاز . اسأل كل أهل الضيعة .

الشرطي ـ ولك اهل الضيعة شو بيندهولك ؟

حسن ـ يا معاز .

الشرطي ـ الله يطولك يا روحي . طيب ولادك شو بيندهولك .

حسن ـ يا بيي .

الشرطي ـ ومرتك

حسن ـ يا رجال

الشرطي ـ روح اوقف ع جنب وارفع ايديك . الحق على اللي بيقلل عقلو وبيحكي معك .

حسن ـ بدك الحقيقة يا افندي .

الشرطي ـ ارفع ايديك .

حسن ـ الحق على ابو شاكر .

الشرطي ـ مين هيدا ابو شاكر .

حسن ـ كيف مين هيدا ابو شاكر . مية مرة قلو المختار انتبه لحالك هودي ولاد الحرام ما بينسوا . مش هيك يا دريس . الهن تار عندو من لمن قتل ابنو تلاني منهم قبل ما يقتلوه

الشرطي – ولك مين قتل مين ؟

حسن – مش انا يا حضرة الافندي ، هيدا ابنو اعند منو . ما بيسمع الكلمة . قالولو شو بدك فيهم . بس الولد كبر راسو . بيني وبينك ابنو بينشاف الحـــال فيه . قتل تلاتة قبل ما يقتلوه .

الشرطي – تلات روس معزي ؟

حسن – لا تلات بني ادمين من هوديك .

الشرطي – عن مين عمتحكي .

حسن – كيف عن مين عمبحكي ؟ ما شفت صورتو بالجرايد . الحكومة راحت شافت بخاطرو . علقتلو نيشان بعدما مات . كيف لكان . مش هيك يا دريس . الله يرحمو طول عمرو كان يقول . ما في حكومة . لو عاش كان شاف . اللــــي بيعيش كتير بيشوف كتير . مش هيــك يــا دريس . واللــه وبالاخير شفنــــا الحكومة . علقولو نيشان واعطو اهلو قرشين . الله يسامحو . طول عمرو كان يقول مـــا فـــي حكومة . كان لازم يفهموه يا حضرة الافندي . كان لازم يفهموه .

الشرطي – عمتحكي عن ابن العنز ، طربيه العنز .

حسن – ينصر دينك يا فندي . هيدا هو . كيف لكان . قتلوه بارضو . كـــان نازل يسقي الارض . تقبر الارض وصحابها . لو كان البيك هون بس .

الشرطي – شو خص البيك .

حسن – كيف شو خص البيك . لو كان البيك هون كان بيسترجوا يفوتوا . خليني امرق الله يخلي ولادك .

الشرطي – كيف بدي خليك تمرق . هوية ما معك . اسمك ما بتعرفو . بتعرف حدا من المعروفين يعرف عنك ؟

حسن – يا حضرة الافندي . انا رجال درويش على قـــد حالي . كافي الناس شري . تلاتين سنة وانا بالبرية مع المعزايات . وحق شواربك . عشرة المعزي احسن من عشرة بني آدم ولا مواخذة منك . بس هالطيارات هالطيارات . مـــا ظـــل فيه شي . آخ لو كان البيك هون . والله لو كان هون مـــا كان بيسترجوا يفوتوا كيف لكان . مش هيك يا دريس . بيناتنا البيك بخوف . البيك الو هيبة ، بعرفش ليش ما طل . قاعد عند الحكومة ، الله يطول عمرو ويخليه . كيف لكان . الناس معلقين

برقبتو . يا ما في ناس برقبتو . قلنا لها الحرمة بكرا بيجي وبتتغير الحالة . كيف لكان . بس الحرمة بتخاف . بتحب تتنقل . من قليل الله سبحانو وتعالى سمى المرا حرمي . لانو حرمها من العقل . متل المعزاية . ان تركتها على هواها بتاكل الاخضر واليابس . بس المعزاية جناها اكتر من اذاها . مش هيك يا دريس . بتاكل من لبنها بتاكل من لحمها . بتاكل من شعرها . بتاكل من بعرها بلا مواخذة من حضرتك . وان ماتت بتعمل من جلدها جراب للزوادة . بشير قطبان يرحم مواتك ومواتو . دعس بالميه وعشر سنين وظل حافظ لياقتو ، ولمن نوي يموت طلب يكتبولوا وصيتو . جمع ولادو وولاد ولادو وولاد ولاد ولادو ، واحد وعشرين ضراب عصا عدا المفروخ والجلابيط . وقال . والمرجال بتنذكر بقوالها وفعالها وصيتي : « المعزي عز لا تقطعوها من دياركن » . قطعوها يا افندي قطعوها الله يقطعن . بخاطرك .

الشرطي – قلتلك اوقف وارفع ايديك او ارجع ع مطرح ما جيت .

حسن – علواه يا افندي . علواه . بس ما بقي حدا . الله يحننك عليهم يا بو يوسف وياخذ بيدك . والله يا افندي تارك وقلبي عندهم . انا شو كان جابني لهون لولا هالطيارات . بخاطرك .

الشرطي – آخر مرة . اوقف وارفع ايديك . معي اوامر صريحة اللي ما معو تذكره ما بيقطع الجسر .

حسن – مين قالك ما معي تذكرة . تذكرة مختمة من اربع قراني ، خود شوف عليها امضا المختار ومأمور النفوس وزلمة الحكومة . قال ما معي تذكرة قال شايف يا دريس .

الشرطي – عجيب صارلي ساعة بسألك وانت بتنكر ؟

حسن – انا عمبنكر . ينكروني ولادي انا عمبنكر . انت كنت عمتسألني عن شي تاني .

الشرطي – ولك شو هالتذكرة يا حسن . هيدي من ايام الاتراك .

حسن – لا يا افندي . هيدي من ايام الفرنسوية .

الشرطي – هالتذكرة ما بتمشي . الرقم المتسلسل ممحي . الارزة مش مبينة . وين الارزة .

حسن ـ انا عمري ما شفت ارزة يا حضرة الافندي . الارز مش عنا . بالشمال. مش هيك يا دريس . نحنا ما منشوف غير الشوك والبلان . يريتنا ما بنتطلع ارز يا افندي .

الشرطي ـ شو بتقصد يا شاطر . في براسك شي . حكي . في شي ؟

ـ انا . هه . هه . (يضع ابهامه تحت اسنانه) ولا شي يا حضرة الافندي ، ولا شي .

الشرطي ـ هيئتك حابب تزور بيت خالتك .

حسن ـ بيت خالتي . الله يرحمها ماتت من سنتين . بعدين ما كنش عندها بيت .

الشرطي ـ بقصد الحبس يا ذكي .

حسن ـ الحبس . علواه يا افندي . علواه . عالقليلة منعيش بأمان . ماكلين شاربين . الولاد الهن الله . بس قالولنا ما بقي في محل من الزر\ـة . بدو يكون الناس مبسوطين بالحبس . ما بعرف باي مطرح فاتو ليطلعونهم ما كانوش يرضو ! يمكن معهم حق . شو في برا . هالارض حفرا نفرا . ما حدا راح ورجع . البيك ما عاد طل . كان ان يطل ، بعد ما يخلص الضرب ، اللي مات مات واللي عاش عاش . كان يونسنا . كان يحكيلنا عن الحكومة . كان يقول انطروا هالسنة وبتشوفوا مش هيك يا دريس . بس اللي شفنا ما حدا شافوا . البيك صاحب مبدا . من عشرين سنة ما غير كلامو . بس وين . من زمان ما عاد طل . خربت الدنيا بغيابو . قال مسافر بعرفش وين .

(هنا تسمع ضجة حوربة) .

الشرطة ـ شو ها ...

حسن ـ هذا البيك ... البيك . انا بشم ريحتو عن سفر سنة . طل البيك طل البيك . قلتلها يا ام كايد البيك ما بينسانا ، البيك ما بيتركنا . شوفي النا ببرج البراجنة . عمرو ابو يوسف ما راح يعرف يرعى المعزايات . الرعاية بدها عناية . والله البيك ابن اصل ، بيقول المثل اذكر الديب وهيي القضيب . طل البيك طل (يصيح) يا هلا بالبيك . عينك تشوفي يا ام كايد كيف نزلوا الزلم من السيارة . عالكتاف يا شباب ع الكتاف والله البيك ما بيمشي غير ع الكتاف .

(يدخل الزلم الى المسرح حاملين البيك على الاكتاف وهم ينشدون) .

زلم البيك ـ يا بيكنا محمد عنيد ـ ورصاصنا يرعد رعيد ـ يا بيكنا محمد عنيد .

(يلتحق حسن بالجماعة مهللا . يطلق احد « الزلم » طلقات ابتهاجا . بعد لحظات فجأة صدى طلقات تبدو كأنما رد على الطلقات الاول . فاذا الرجال يتركون البيك يقع ويهربون في كل اتجاه . حسن ينظر الى البيك غير مصدق) .

حسن ـ وقع البيك . وقع . مش معقول . ما بيصير . يا بيك . عيب يا بيك شو بقولوا الناس . شد حيلك . صار لنا زمان ناطرينك .

(يحاول ان يساعده لكن عبثا . ينظر الى الجمهور) .

يا عمي ساعدوني . شو القصة ما حدا عميتحرك . مش شايفين البيك ، تعوا ساعدوني تنحملوا ، ما حدا بيتحرك . تعوا احملوا . طول عمركم حاملينو على كتافكم . شو نسيتوا . بدها تكون الدنيا تغيرت . مدري انا مش عمبفهم . يا عمي ساعدوني تنقيم **البيك** .

(يلتفت نحو الجمهور في كل اتجاه . ييأس . يجلس قرب البيك . يضع رأس البيك في حرجه . يتمتم لحاله) .

حسن ـ يا دريس . الولاد سبقونا . شو بدنا نعمل . والافندي معصب . والبيك واقع ، (بعد وقت) مين راح يطلعلنا تذكرة جديدة تنفوت ع لبنان ؟

النهار ١/١١/١٩٧٤

عصام محفوظ

بيان الجميل في مؤتمر الكتائب

ايها الرفاق ،

بودي لو نعود بالذاكرة سنة واحدة الى الوراء .. الى لقائنا السابق في هـذه القاعة بالذات ، فنرى كم تغيرت دنى وتبدلت احوال وكم اسرع زمن وقصرت ايام !

.. من حرب تشرين .. الى حرب قبرص ، وعبور القنال ، وتحرير القنيطرة، واتفاقات الفصل بين القوات .. وغيرها ، وغيرها من الاحداث التـي تبـدو وكانها صنعت نفسها بنفسها وبمعزل عن الانسان .

حتى ليكاد المرء يتساءل ، احيانا ، عما اذا كان العقـل البشري قادرا ، بعـد الان ، على استباق الزمن ، او اللحاق به على الاقل .. وعما اذا كانت توقعاتـه ، وحسابات المستقبل ذات جدوى ، فلا تكذبها الاحداث المتدافعة وتحكم ببطلانها !

التاريخ ، طبعا ، هو من صنع الانسان .

ولكن كم مرة يضع الانسان من الزخم في الاحداث ما يخرجها من اطار سيطرته، فتندفع هذه كسيارة افلتت من ضوابطها .

.. فاذا الانسان نفسه امام احوال لم يردها .

تمزيق قبرص ، مثلا ، بدأ محاولة انقلاب تافهة .

وازمة الطاقة حبلت بها حالة اللاحرب واللاسلم التي فرضها العالم على المنطقة العربية ردحا من الزمن .

وهكذا دواليك .

حقيقة تفرض علينا ، في لبنان مزيدا من اليقظة ، واقل ما يمكن من المجازفات، والتهور .

.. وَاقل ما يمكن ايضا من اللهو والعبث .

فسماؤنا غير صافية .. اي خلافا لما هي طبيعتها ، وافاقنا ملبدة ، بعد ان كانت اوسع الافاق وارحبها واشدها نقاوة .

والنفوس كذلك مضطربة ، وهي التي تميزت دائما بالهدوء والرصانة والاستقرار .

.. وباختصار ، حالنا حال متوترة .

فقد صدف ان سقطت فلسطين ، وانفجر الصراع في المنطقة العربية ، عندما كان لبنان في بداية بناء نفسه كدولة .

وصدف ايضا ، ان اصبح هذا الوطن مقر الثورة الفلسطينية ومتنفسها الوحيد تقريبا ، وهو ، بعد ، طري العود فتي .

فليس غريبا اذا احس بالضيق ، واضطربت نفسه ، واستبد به القلق . بل الغريب الا ينفعل وتتوتر احواله .

وفي اعتقادي ،ان اية امة اخرى ، ما كانت لتصمد كما صمد ربما لو بدات حياتها كما بدأ هو ، او عانت الذي عاناه على مدى ربع قرن ويزيد .

من هذا القبيل ، يستحق هذا البلد ثناء الانسانية كلها .

.. يستحق التقدير ،

ويستاهل ان يصان بالمهج والارواح عند الضرورة .. او على الاقل ، الا يجازف به ، ايا كان الغرض من المجازفة !

وبتعبير اوضح : لا ليستاهل هذا الوطن النموذجي ، بان يضحى به على مذبح انانياتنا ، او من اجل سلم مزعوم في المنطقة ، او لاجل عالم يريد ان يتلخص من عقدة مزمنة تنغص عليه عيشه ، وتقلق راحته ، منذ سنوات !

اقول هذا ، لانه اذا كان من خطر على لبنان ، فهو يبدأ من هذه الجوانب بالذات .

انانياتنا تعمي بصائرنا ، فننسى قيمة ما بنيناه .. ننسى قيمة هذا الوطن .

والانانيات الاخرى ، في المنطقة العربية وفي العالم ، خطر اخر اصبح هو ايضا واضحا واكيدا بعد الذي رأيناه في قبرص !

.. دولة عضو في الامم المتحدة ، يضحى بها هكذا ، في لحظة ، فلا يتحرك

ضمير ، او وجدان ، او شرعة من الشرائع التي وضعها البشر لحماية امنهم المشترك واشـاعة السلام في العالم !

فماذا يعني هذا سوى ان الضمير الدولي ضمـير نسبـي في بعض الاحيـان ، والمواثيق ايضا نسبية ، وكذلك المعاهدات والاتفاقات الدولية ؟!

واقع يحتم علينا الاعتماد على انفسنا قبل الاتكال على اي فريق اخر ، فنلتفت الى ذاتنا الوطنية ، نقويها ، نحررها من الانانيات حزبية كانت ، او شخصية ، او طائفية ، او فئوية . ان لم يكن تحريرا كاملا ونهائيا ، فعلى الاقل ، بالقـدر الـذي يمنع الصراع في ما بينها من تجاوز حده المألوف .

فغني عن القول ان التضامن الوطني هو ما ينقصنا او ما يحتـاج الـى ترسيخ وتدعيـــم .

مسالة تحتاج الى وقت .. الى اجيال ربما ، لكي تستقيم . ولكن ، ماذا لـو تساءلنا في هذه المرحلة بالذات ، عما اذا كان انهيار لبنان ، لا سمح الله يخدم هذه الفئة او تلك .. هذه الطائفة او تلك ؟

انا لا اقصد هنا ، بطبيعة الحال ، افتعال موجة ذعر في البلاد ، بعد ان كثـر الكلام على « قبرصة » لبنان وما اليها . فمثل هذا الاسلوب لا استمرئه . فضلا عن ان لبنان ليس قبرص !

انما قصدي من التساؤل هو ان نرتفع فوق انانيتنا قليلا ، لانهـا اذا تركناهـا تحكم الحياة في بلادنا وتتحكم بها ، اضحى الصراع في ما بينها بحدة الصراع الـذي مزق البلـد الجـار .

وقصدي ايضا ، الا يغيب عن البال ، ان تفكيك لبـنان ، مشـروع وارد ، او احتمال بين الاحتمالات التي قد يفرزها النزاع في المنطقة .

فالتضحية به للتخلص من المقاومة الفلسطينية ، فكرة شريرة تراود الاشـــرار في كـل حـين .

وثمة من لا يزال يحلم بتجزئة المنطقة مرة اخرى ، قياسا على الاصول والاعراق والاديـــان !

فماذا يعني كل هذا الا اننا نواجه حالــة في منتهى الدقـة ، اذا اصيب لبـنان بعدها ، بمكروه ، كانت الاصابة عامة ومشتركة ؟

حالة تقضي بالتضامن الى ابعد الحدود وتجميد كل نـزاع ايـا كانت اسـبابه والدوافـع .

مشكلاتنا وكيف نحلها

اما مشكلاتنا ، فمشكلات قومية يجب ان تكون . ومواقعنـا منهـا ينبغـي ان تتبـدل .

.. بل من موقع واحد يجب ان ننظر اليها من حيث نقف كلنـا لـدرء الخطـر المشتـرك .

فهل هـذا مستحيل ؟

انه لمن المسلم به باننا شعب يبنـي نفسه بنفسه . فليس عيبـا ان اعترفنا بعيوبنا وقلنا اننا لم نبلغ المحجة بعـد .

بل العيب هو في ان نتجاهل امراضنا ونتظاهر بالعافية .

فلبنان .. لبنان الجديد اذا جاز القول بدأ منذ ربع قرن .

.. محاولة تستمر ولما تكتمل بعد . وهي ، في خطواتها تتعثر ، ولا مناص مـن التعثر ، ما دامت هي تمشي وتتقدم الى الامـام .

واذا كانت قد بدت عفوية تلقائية في البداية ، ففضل اللبنانيين عليها انهـم ، من اجلها ، تحملوا الكثير وتبادلوا التضحية غير مرة .

وليعذرني ، هنا الذين ينطلقون في مفهومهم للبنان ، مـن نظريـات قـد تكـون صحيحة وقد لا تكون ، ولكنها ، في الحالتين ، لا تنفي البدايـة التاريخيـة التـي اشـير اليهـا .

وقد كانت من نقطة انقسام عميق .

من هنا بـدأنا ...

ولمـا ننتـه بعـد !

ولكي ننتهي ، ويكون لنا ما عزمنا على تحقيقه في الاربعينات ، يجب ان نتعاون على امراضنا وعيوبنا .

وبتعبير آخر ، ان مسائل النظام .. نظام التمثيل الطائفي ، والمشاركة كمـا تطرح دائما ، والاحساس بالظلم في هذا الجانب او ذاك ، وتعديل الدستور لا تعالـج كما عولجت حتى الان .

فليس بالرفض ، والمطالبة الفئوية ، والاعتراض ، وما اليها من وسائل سلبية، نتخطى النظام ونحقق المشاركة ، ونقيم العدل بين شتى الفئات اللبنانية .

بالتفاهم الوطني فقط نتجاوز كل هذه العقد . تماما كما كان من امرنا في الاربعينات يوم كان ذلك اشبه بالمستحيل .

هل نذكر ذلك ؟

هو نذكر كم كام الاتفاق صعبا ، من حدة الانقسام ، وكم كانت المجازفة كبيرة ؟

لبنان ، لبنانين كان ، الفوارق بينهما وكانها تعادل الظلام التام .

.. واحدا في الشرق ،

واخر في الغرب !

ومع ذلك ، استطعنا ان نلملم صفوفنا ونقدم على الخطوة التاريخية ، وان نحقق ما كان يبدو مستحيلا .

معجزة حقيقية كانت . اذا ذكرتها فللدلالة على ان التغيير ممكن ، في اي شان كان ، اذا اجمعت عليه الامة وتلاقت على ضرورته .

في الحالة الاخرى ، لا يتم اي تغيير .

فمن المستحيل تغيير النظام اذا كان اللبنانيون فئتين ، فئة تطالب به وفئة ترفضه .

والكلام نفسه يقال بالنسبة لسائر الامور المماثلة .

مسالة المشاركة

ناخذ على سبيل المثال ، هنا ، مسالة « المشاركة » ، وقد اردناها عنوانا رئيسيا من عناوين هذا المؤتمر ، والينا على انفسنا ايضا بان نظل ندرسها ، ونتصدى لاسبابها ، بالتعاون مع كل القيادات السياسية والفكرية .

نلاحظ ، اولا ، ان هذه المسالة لا تطرح الا في الازمات عندما تكون النفوس قلقة ، واحوال البلاد مضطربة ..

ونلاحظ ، ثانيا ، بان طرحها نادرا ما كان مجردا . فاذا الغرض السياسي وراءها في اغلب الاحيان ، والحساسيات الشخصية ايضا ، وشهوة الحكم كذلك . ناهيك بالعصبية الطائفية التي لم تكن غريبة دائما عن هذه المناسبات .

ونلاحظ ، ثالثا ، بان « الطرح » كان ايضا باسلوب لا يؤدي الى اي حل .

فالبيانات في الصحف ، وفي مناسبات معينـة .. والمذكـرات ، والتصريحات الموسمية وسائل قلما تؤدي اغراضها في قضية كهذه .

يؤكد صحة تقديرنا ، ان مسالة المشاركة تطرح ، منذ ثلاثين سنة على الاقل ، ولا تـــزال .

وفي اعتقادي انه لولا الاعلان عنها دائما على هـذه الصورة لكانـت ربمـا قـــد انتهـت !

ولكن ، ما هي مسالة المشاركة ؟

كما تقال ويعلن عنها ، انها تعني مشاركة متكافئة بين المسلمين والمسيحيين في ادارة شؤون البلاد . فلا يكون الحكم ، او السلطة حكرا على جانب دون الاخـر .. والا يكون تسلط واستئثار بالصلاحيات .. والا تكون سياسـة الدولـة ، سياسـة فئوية ، تعكس اتجاها دون الاتجاه الاخـر .

وفي اعتقاد طلاب المشاركة ، ان حرمان المسلمين من حقهـم في بعض المناصـب ومراكز المسؤولية ، يعطل المشاركة ويفسدها . ناهيك باحساسهم بالظلم ، اذ تبدو المناصب هذه مغلقة عليهم دون وجه حق . وهو منطق مناف للعدالة والمساواة .

لسنا هنا ، طبعا ، لنقرر الاستجابة لهذا المطلب ام لا . وهذا ليس من شاننا . انما هو ، كما قلت ، من شان الامة جمعاء .

ولكننا نؤكد موقفا نؤمن به سبيلا افضل من سواه للوصول الـى المشاركـــة الحقيقية ، ونفتح ابواب الحوار ، وندعو الى التفاهم .

انه لمن الطبيعي ان نكون مع مبدا المشاركة الى ابعد الحدود ، كما هو مطروح ، وكما هي المشاركة في معناها الواسع الحقيقي .

فمستقبل لبنان ، يرتهن ، الى حد بعيد ، بقيام صيغة تحقق هذه المشاركة ، بصورة فعلية وعلى اوسع نطاق ، ولا تكون منة او منحة يتفضل بها فريق على اخر .

ولكن ، كيف .. ومتى ؟

تلـك هـي المسالـة ؟

فالاختلاف ليس على المبدا بقدر ما هو على وسائل تحقيقه والطرق المؤدية اليه.

ان احدا لا يتمسك بالنظام المعمول به الان .

على الاقل ، نحن ، في الكتائب ما قبلنا به الا صيغة مرحلية بدونها كان لبنان قد بقي تحت السيطرة الاجنبية ، او كان قد تمزق منذ سنوات .

ولكننا لا نجد سبيلا لتخطي هذه الصيغة الا بالتفاهم الوطني الذي اوجدها .

فالذي قرر هذا التوزيع للصلاحيات والمسؤوليات ، هو وحده الذي يقرر خلافه او بديلا له .

وبدلا من ان نتوجه في مطلب المشاركة ، الى جهات لا تملك اية صلاحية .. ولا اية قدرة او سلطة في هذا المجال ، لنتوجه به الى الجهة الرئيسية .. الى صاحب الحق بالذات واعني به ، الارادة الوطنية المشتركة .

فلا رئيس الجمهورية ..

ولا الحكومة ..

ولا اي حزب وكذلك لا هيئة او مؤسسة ، تستطيع لوحدها ان تبت بمطلب كهذا .

وحدها الارادة الوطنية تقرر ذلك . وهي تعني عزما من الجانبين يتوافق على صيغة اخرى .

تماما كالعزم المشترك ، الذي تكون في الاربعينات ، على التحرر من الانتداب وتحقيق السيادة والاستقلال .

واذا قيل بان الارادة الوطنية تتجسد في السلطات والمؤسسات المعبرة عنها ، وعلى هذه بالتالي ، ان تبلور هذا العزم ، وتقرر الخطوة التاريخية الاخرى ، فكلام يبقى في حدود النظريات والتمنيات ..

ان هذه السلطات المؤسسات لا تملك اية صلاحية من هذا القبيل .

وان تامنت لها الصلاحية ، فالقدرة تعوزها ، نتيجة عجز الامة وعدم وضوح ارادتها في هذا المجال .

هلا تذكرنا حال الحكومة .. وحال مجلس النواب ، في الازمات ؟

حالة عجز مطلق .

★★★

اما التغيير بالقوة والعنف فهو اسوا تغيير لانه يقود الى تسلط اخر .. او الى نكبة وطنية ، او الى نكسة تعود بنا ربع قرن الى الوراء !

نحن ضد مبـدا العنف

بالنسبة الينا ، نقف بصراحة ضد مبدأ العنف ، وخاصة على هذا الصعيـد .
لانه اذا لجأ اليه بعضنا ، او هدد به ، قوبل بعنف مماثل وتهديد مماثل ايضا .

وفي اي حال ، واجبنا الحؤول دون هذا الاسلوب مقصودا جاء ام غير مقصود .
وقد بات واضحا ان استمرار الكبت والاحساس بالظلم ، من هذا الجانب او ذاك .. او من الجانبين معا ، قد يؤدي هو ايضا الى العنف !

اما السبيل الى ذلك ، فلا نراه الا بالتفاهم الوطني .. تفاهما روحيا عميقا ، تكون بدايته محاولة صادقة من قبل المسيحيين للوقوف على حقيقة مشاعر المسلمـين والعكس بالعكس .

فمن الضروري ، مثلا ، ان يدرك المسيحيون حقيقة مطلب المشاركة ، ومكوناته النفسية والاقتصادية الاجتماعية .

فثمة احساس عند المسلمين بان النظام القائم يصنفهم في مرتبة ثانية .. خطـأ كان ذلـك ام صوابـا ؟

وقد صدف ايضا ، ان بدأ الاستقلال ، عندما كانت المناطق والاوساط الاسلامية على قدر كبير من التخلف والحرمان .

لماذا .. وكيف ؟.. الاسباب عديدة ، لا يسال عنها المسيحيون بقدر ما تسال عنها الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مر بها لبنان وافرزت هـذا التفاوت وعززته مـع الايـام .

ولكنه في الحالتين ، واقع حي ، ندرك حجمه واثره في النفوس ، متى تذكرنـا اي جهد بذلناه ، منذ الستينات على الاقل ، لكي نحد منه ومن شروره .
وانا بالذات شاهد على ذلك . والانصاف يقضـي بالاعتراف للكتائب هنـا ، بأنها كانت في صميم محاولة النهوض بالمناطق المحرومة ، عندما سخرت رصيدها في المناطق المسيحية ، لتوجيه الانفاق العام ، بقسطه الاكبر ، نحو المناطق الاخرى .
هل نذكر مشروع الاربعمائة والخمسين مليونا ؟.. ومشروع الثمانين مليونا ؟.. وغيرها وغيرها من المشاريع المماثلة التي كان لي انـا شخصيـا شـرف العنايـة بهـا والاشراف على تنفيذها .. من مدارس ، وطرق ، ومشاريع مياه وانارة وما اليها ؟

رغم كل هذا الجهد ، فالتخلف باق . اذ ليس سهلا ان نعوض بعشر سنـوات مثلا ما افرزته عقود السنين من فقر وحرمان .

يجب ان يدرك المسيحيون كم يتاذى لبنان من هذه الحال .

يجب ان يتذكروا دائما بان الفوارق الاجتماعية بين المتن وكسروان مثلا ، مـن جهة وعكار والهرمل والجنوب من جهة ثانية ، لا تزال فوارق بالغة ناتئة تترك اثرها الكبير العميق في النفوس والقلوب .

من الضروري ان ياخذوا علما بهذه الحقيقة ويتصرفوا على اساسها .

من الضروري ان يكونوا عونا للمسلمين في ممارسة الضغوط على الدولة لكـي تتحرك وتعمل دائما في هذا الاتجاه . ان مصلحتهم بالذات تقضي بذلك . لانهـم هم ايضا محرومون في غير منطقة من مناطقهم ، متساوون احيانا من هذا القبيل ، مـع اخوانهم المسلمين .

اما مسالة المناصب والمراكز ومـا اليهـا ، فمسالـة معقـدة . المهـم بالنسبة للمسيحيين وبالنسبة لكل اللبنانيين ايضا ، الا تعتبر المناصب امتيازات او اقطاعات. فهي في الاساس ، ليست كذلك . انها ضمانات ، واداة لاشاعة الاطمئنان وتعزيـز الثقة . فمتى تامن ذلك انتفت الحاجة الى هذه الضمانات وتحققت المساواة مـن هـذا القبيـل .

★★★

وبالمقابل ، ننتظر من اللبنانيين المسلمين تفهما اخر لحقيقة مشاعر اخوانهـم اللبنانيين المسيحيين .

انه لمن الضروري مثلا ، الا يغيب عن اذهانهم ، بان التخلف ليس وقفـا عليهم وعلى مناطقهم . فهو ايضا في مناطق اخرى عديدة فمنطقة البتـرون مثـلا المسيحية محرومة مثل اية منطقة اسلامية . ناهيك بالمناطق المختلطة حيث يتقاسم المسيحيون مع المسلمين شظف العيش . وفقدان الامن والعدل والاستقرار ايضا .

فالمسالة ، هنا ، مسالة تنمية اقتصادية واجتماعية .. ومسالة عجز في الدولة ومؤسساتها ، ودوائرها .. ومسالة حكم اوضاعـه هـي ايضا متخلفـة . ولا شان للمناصب ومراكز النفوذ في ذلك .

وسواء كان رئيس الجمهورية مارونيا او غير ماروني ، تبقى المسالة مطروحة ما

دام الحكم في اوضاعه الراهنة .. وما دام الصراع السياسي والذهنية السياسية في احوالهما المتخلفة ايضا .

وعندما يكون الواقع كذلك ، يبدو مطلب المشاركة ، بنظر المسيحيين ، وكانـه مطلب اخـــر !

وانا هنا ، لا اتكلم من موقع المسيحيين ، بل من الموقع الذي يتيح لي الوقوف على حقيقة مشاعرهم . وعلى ماهية مشاعر المسلمين ايضا .

فمخاوف المسيحيين ، مخاوف قديمة متاصلة في النفوس ، تماما « كاصالـة » التخلف الاقتصادي في المناطق اسلامية . فمن المستحيل ، ان نعوض بعشر سنوات ، او بعشرين سنة ما صنعه الاضطهاد الديني وتسبب فيه على مدى فترات عـدة مـن تاريـخ هـذه المنطقـة .

.. فكيف اذا جاءت هذه الفترة حافلة هي ايضا بما يعزز الخوف ويعمقه فـي النفوس احيانـــا ؟!

واذا بدا الحذر هنا للمسلمين تشكيكا بولائهم للبـــنان ، فخطـا في الرؤيــة . والمسالة في اي حال ، كناية عن احساس ، لا يستاصل الا باحساس اخر يتفوق عليه ويغمره . عنيت بذلك ، الشعور بالامان . فبقدر ما يقوى هذا يضعف ذاك وبالعكس.

واذا قيل بان استقلال لبنان ، الذي طالما اقلق بال المسيحيين ، واقع قائـم ، مسلم به ، ونهائي ، يؤمن به المسلمون قدر ايمان اخوانهـم المسيحيين ان لـم يكـن اكثر ، فدلالة اخرى على ان المسلمين ما ادركوا بعد حقيقة القلق المسيحي من هـذا القبيـــل .

انـه خوف مـن طغيـان معين .

طغيان سياسي .. طغيان حضارة على حضارة .. طغيان فكر عـلى فكـر .. طغيان عددي .. ســمه مـا شئت !

يدرك المسلمون هذه العقدة ، متى تذكروا شعورهم هم بالذات ازاء ما يوصف احيانا من قبل بعضهم بالاثرة .. والاستئثار بالسلطة .. والتسلط ، وما اليها من اوصاف تطلق غالبا على النظام اللبناني واوضاع الحكم المنبثقة عنه .

فمثلما يرفض المسلمون ان تكون حالهم حال اقلية في لبـــنان ، كذلــك يتصور المسيحيون بانهم امام اكثر من احتمال يردهم الى مثل هذه الحال ، حال الاقليـات

فـــي الشــرق .

ومن هنا يفهم تمسكهم بالضمانات التـي اعطيت لهـم في الاربعينات ، وتـدرك همومهم ، التي هي ، اولا واخرا ، هموم استقلالية وليست دينيـة او مذهبيـة او طائفيـــة .

وليعذرنا هنا الذين ياخذون علينا تصورنا الواقعي للبنان وتاريخه واحواله .

فليس اسهل علينا من ان نقول مع القائلين بان الطائفيـة في لبـنان مصطنعـــة ومفتعلـــة .

وليس اهون علينا من ان نقول ايضا مع القائلين بان الطائفية قد تزول بمجرد ازالــة النظـام الطائفـي ..

وليس احب على قلوبنا من ان يكون لبنان فعلا ، كما تقول هـذه التصـورات والنظريات ، التي ما استطاعت حتى الان ان تحرر اللبنانيين من عقدهم .

على العكس من ذلك ، ضاعفت من مخاوفهم .

طبعا ، لبنان اليوم ، ليس لبنان الاربعينات . والعالم قد اجتاح القمر وسائر الكواكب ، والحياة تبدلت الى حد ، يبدو الكلام على ما بين اللبنانيين من اختلافات وتباين في الراي والنظرة الى لبنان ، وكانه كلام قديـم عتيق لا يقولـه الا القدمـاء والعتاق ، شيوخ الماضي ومخلفاته !

لكن ، كل هذا لا ينفي واقع الحال الذي انا تحدثنا عنه ، فلكي نكـون عمليين ولا نغرق في النظريات ، او نظل في حدود التمنيات .

لبنان ، فعليا ، هو كما وصفتـه

وهذه هـي احـوال المسيحيين

.. واحـوال المسلمين ايضــا .

ولا ينقذه ابناءه من احوالهم الا اذا اتحدوا في طموحهم واما لهم .

الى اي لبنان يطمح المسلمون ؟

والى اي لبنان يطمح المسيحيون ؟

لبنان الدولة العصرية العلمانية يقول بعضهم .. لبنان المجتمع التمدن الـذي لا تمييز بين ابنائه ولا تفريق ، المتحرر من الاقطاعية والنفوذ الاجنبي .. الى اخـر السلسلـة .

لبنان كيف نريده ؟

في اعتقادي ، ان السؤال لا يطرح من هذه الزاوية ، لان الاختلاف يذر قرنه من زاوية اخرى . فاذا صورة لبنان .. لبنان المستقبل هنا ، تتغير وتتبدل ، قياسا على تبدل الانتماءات الدينية او الطائفية .

تلك هي الحقيقة دون لف ودوران .

ومن هنا كان السؤال الذي عرضناه مدخلا الى الحوار والتفاهم : اي لبنان نريد ؟

من جهتنا نريد لبنان متفوقا ، بديلا لكل اللبنانات الاخرى ، واقرب ما يكون الى طبيعته ، وتاريخه ، ومرتزه ، وخير ابنائه وخير العرب وخير الانسانية ايضا .

لقد رفضنا ، في الماضي ، ان يكون لبنان مثلما كانت اسرائيل !

ويعز علينا اليوم ، ان يصبح بلدا عاديا دولة مثل سائر الدول الصغيرة ، عضوا في الامم المتحدة وفي جامعة الدول العربية .. او كاية دولة من دول العالم الثالث !

.. ليس مكابرة او تعاليا على الدول والامم الاخرى التي قد تكون افضل منا بكثير في اكثر من ميدان ومجال . العكس هو الصحيح اننا ابعد ما يكون عن هذه العنجهية التي لا تتفق ابدا مع طبيعة بلادنا الانسانية .

بكل بساطة ، نريد لبنان غير « موناكو » مثلا .. وغير ما في العالم العربي من دول لكل فيها دورها ورسالتها ومركزها ومكانتها .

نريد ان نضيف شيئا جديدا الى القوى العربية ، ودورا اخر غير سائر الادوار .

اذ ما فضلنا .. وما الذي يبرر وجودنا كوطن سيد مستقل اذا كانت المسالة فقط مسالة تعايش سطحي بين مسيحيين ومسلمين ؟

وما فضلنا .. وما يبرر وجودنا ، اذا كانت المسالة صوتا اضافيا في جامعة الدول العربية او في المنظمات والمحافل الدولية ..

في هذه الحال ، نقسم لبنان الى دولتين فنصبح صوتين ، ومقعدين ، ورقمين كالمصير الذي الت اليه دولة قبرص مثلا !!

طموحنا ان يحقق لبنان ذاته ، بوصفه وطن حريات ، وملتقى حضارات . وهي

اوصاف لا تدرك معانيها ، الا عندما نتذكر كم من اديان ومذاهب ومعتقدات تتفاعل في لبنان .. وفي اي مناخ من الحرية تلتقي وتتفاعل .. والى اي حد الانسان فيه حر في ايمانه ومعتقده .. وكم هو صالح وجميل هذا الوجود الانساني الذي لم يكن له مثيلا في التاريخ .

وطنا نموذجيا نريد لبنان ، ومقياسا عالميا وطريقة حياة جديدة يؤخذ بها حيثما تتعثر الحياة بسبب الفوارق في المعتقدات ، حجة عربية ، ومشعلا ، وعلما بايدي العرب يطوفون به العالم عنوان محبة وتسامح وانفتاح حضاري ، واداة نضال وكفاح ايضا ضد العنصرية والعصبية المذهبية والتحجر والرفضية .

او يكون لبنان هكذا ..

.. او لا يكـون .

فلا مبرر لوجوده الا ان يكون هذا النموذج وتلك الرسالة .

فليس المهم ان نعيش بل المهم ان نحيا وان نكون رسل حياة فضلى .

هـذا هـو طموحنـا .

واذا خيل لبعضنا بانه خروج على الطموح العربي ، وانحراف عن خط الحياة العربية ، وانسلاخ عن عالمنا ومحيطنا ، فتقدير خاطىء .

لا قيمة للبنان هذا ، بل انه لن يكون ، بمعزل عن العالم العربي ، وفكـره ، وحضارتـه وقيمـه .

ولا معنى له الا اذا كان درة عربية ، وخلاصة لما في طموح العالـم العربـي مـن قيم ، وحضارة ، وفكر ، وانفتاح على سائر القيم والافكار والحضارات .

ولا فضل للتعايش المسلم ـ المسيحي في لبنان الا اذا انبت درة كهذه .

ولا فضل للمسيحيين على مسيحيتهم وللمسلمين على اسلامهم ، الا اذا اتاحوا للاسلام والمسيحية ان يتبادلا ما فيهما من غنى وثراء روحي ، وان يرتفعا بالانسـان هكذا الى اعلى مدارك العقل والروح .

ساعة يصبح لبنان بهذه القيمة ، ونكتنهه على هذه الصورة، ونتحد فيه اطهارا من كل انانياتنا ، هل تبقى طائفية ، وهل يبقى حـذر مسيحي مـن هنـا واحساس بالظلـم مـن هنـاك ؟

حول هذه القيمة يجب ان ينعقد الحوار بين اللبنانيين .

اقول حوار وليس مفاوضات لاقتسام المغانم والمناصب والمراكز كما هي الحال في بعض الاحيان .

انما كحوار الاربعينات الذي بدا هو ايضا من هذا السؤال :

اي لبنان نريد ؟

.. السيد المستقل ؟

ام ذاك الذي يستعين بالحماية الاجنبية ليبقى .. ولكن ، غريبا عن محيطه ؟

.. وكان ذاك الاختيار التاريخي !

خطوة ، تتطلب الان خطوة اخرى مماثلة تاريخية هي ايضا . والاوطان ، في اي حال تبنى هكذا ، خطوات متلاحقة الى الامام . والاستقلال ، كما قالت الكتائب في الثلاثينات خلق مستمر .

فحري بنا ، بعد هذه المسيرة ، ان نتوقف قليلا ، لنراجع حساباتنا ، ونتساءل : لبنان الى اين ؟

.. اي درب دربه ، واي افاق افاقه ؟.. ام يبقى بلا دروب ولا افاق ؟!..

ولا باس ، في هذه الاثناء ، ان نتدبر امر المناصب والمراكز .

فليس قصدنا التخدير .. تخدير المطالب وتجميدها والهاء اصحابها .

ففي الامس القريب خطونا خطوة في هذا المجال ، اردناها نحن مقياسا للوقوف على اهلية البلاد للانتصار على عقدها .

نذكر هنا ، بان مؤتمر الكتائب عام ١٩٧٠ ، اوصى بالاقلاع عن الخلافة الطائفية في المديريات العامة ورئاسات المصالح والدوائر والاكتفاء مؤقتا بحفظ النسب بصورة اجمالية تمهيدا لالغاء الطائفية كليا .

كان ذلك قبل التشكيلات الادارية الاخيرة باربع سنوات تقريبا ، وفي الوقت لم تكن مسالة المشاركة مطروحة . ولما صدرت هذه التشكيلات ، كان لنا موقف ، وللاخرين موقف ، الفارق بينهما فارق تقدير لظروف البلاد واحوالها .

كان تقديرنا مثلا ، ان التجربة التي مضى عليها ربع قرن ويزيد ، تستاهل ان نجري عليها هذا الاختبار . فاذا كانت لا تتحمله ، بعد هذه المدة ، وكل هذه التضحيات فمعناه انها تجربة لا تستحق الحياة !

وعندي انه اذا نظرنا دائما الى مثل هذه الامور بوصفها خطوات لتعميق الثقة،

وعملية اختبار للثقة نفسها ، تهون علينا الحلول وتسهل الدروب .

فاي مانع ، مثلا ، ان يصار اليوم الى تعزيز مركز رئاسة الوزارة ، ودورها ، وامكاناتها ، بما يتلاءم وحاجة البلاد الى قيام تعاون حقيقي على شؤون البلاد بين رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة ؟

المهم ان طرح هذه المسائل يجب ان يكون بالصيغة التي لا تستثير ردود فعل مضـــادة .

والمهم ايضا ، الا تكثر المجازفات .. والا نراهن بالكل دفعة واحدة .

ان كل مطلب ، منمطالب المشاركة ، ممكن ، حيثما يتحقق حولـه التفاهـم الوطني ، ويشارك الجميـع في صنعـه .

وفي مطلق الاحوال ، يجب ان يعيش كل فريق الام الفريق الاخر ، على الاقل من قبيل التعزية ، اذا تعذر انقاذه من متاعبه .

مشاركة في الالام ..

مشاركة في الهموم ..

مشاركة في الامـاني والامـال !

تلك هي المشاركة الحقيقية التي تبني وتصنع المعجزات .

وماذا لو تذكرنا ايضا ، انه بقدر ما يكون المسيحيون مسيحيين ، والمسلمـون مسلمين يسهل التفاهم ويهون تذليل الصعاب .

لان ما ينقصنا ، هو الايمان الحقيقي ، نقيض التعصب والطائفية .

فاتحادنا بالله ، هو الذي يحقق اتحادنا على الارض . لان الله ، لا هو مسلم ، ولا هو مسيحي ، ولا هو يهودي ، انما هو الخير المطلق ، والعدل المطلق ، والجمـال المطلق . فبقدر ما نؤمن به روحا ، بقدر ذلك يخف استغلالنا لاسـمه عـلى الارض كأية مادة من مواد الارض .

فمزيدا من التأمـل ..

ومزيدا من الايمان ايضا ..

ولنتعاون على مشكلاتنا بهـذا الايمان .

بعد هذا ، يبقى ان نتفاهم ايضا ونعلن بان مسالة المشاركة لا تطرح فقط مـن ناحية المناصب والمراكز والوظائف . وهي ، في الاساس ، وكمـا تتوخـى المشاركـة

الحقيقية ، مسالة تنمية اقتصادية واجتماعية ، تتاخر وتتعثر ، بسبب اوضاع الحكم والدولـــة .

ونتساءل هنا ، عما اذا لم يكن الاختلاف على المناصب ، وشهوة الحكم ، مـــا يلهينا غالبا عن مكافحة الحرمان في بؤره الحقيقية !

الديمقراطية ليســت فوضــى

في اعتقادنا انه سواء كان مسيحي في هـذا المنصب او مسلـم في ذاك ، تبقـى القضية قضية ديموقراطية باتت اقرب الـى الفوضـى منهـا الـى الديموقراطيـة الحقيقية . حتى ليصح القول ، بانه ما يحكمنا ، هي « ديكتاتورية الفوضى » .

واقصد بذلك ، ان الديموقراطية تعني في بعض اصولها ، الا يكون الحكم وقفا على شخص ، او جماعة تحتكر المسؤولية لنفسها وتمارسها على هواهـا . وهـــذا يستدعي وجود بديل للحاكم ، وصيغة اخرى .

وفي غياب البديل ، لا تكون ديموقراطيــة .

وفي اعتقادنا ، نحن اللبنانيين ، ان تبديـل الاشخاص .. تبديـل الـــوزراء والنواب ، هو الديموقراطية . فيما الحاجة هي حاجة الى ذهنية اخرى ، وبرنامج اخر ، ونهـج اخـــر .

فاية ديموقراطية هي هذه الديموقراطية عندما تاتي الحكومات مثـلا بدافـــع الشهوة الى الحكم ، وتذهب بالدافع نفسه ايضا ؟!

يخيل الينا ، احيانا ، بان اصلاح النظـام الانتخابـي مثـلا .. او الاصـلاح السياسي .. او كما يتصور بعضنا تغيير النظام السياسي بوجه عام وتنقيته مـــن الطائفية ، امور كفيلة بانقاذ البلاد من هذه الديموقراطية المتخلفة .

ولكن ، اليس غباء ان ننتظر ونتوقع اصلاحات جذرية من هذا النوع ، مـــن حكومات تاتي وتذهب بالطريقة التي اشرت الى بعض جوانبها وملامحها ؟!

كما في كل اصلاح ، لا بد هنا من بداية او بالاصح ، لا بد من وجود جماعـــة مصلحين تاتي الى الحكم ، بالاصول الديموقراطية الشرعية بطبيعة الحـال ، بعـــدة كاملة لاطلاق الاصلاح ، ولتحقيق هذه البداية .

وسنظل ندور في الحلقة المفرغة ، حتى تقوم جبهة سياسية واسعة ، تطرح نفسها حركة انقاذ ، وتكون البديل الذي نبحث عنه .

جبهة متجانسة يجب ان تكون ، يجمع بين افرقائها ، منهاج عمل مشترك ، واضح وعملي . فيلتزمه هؤلاء ، ويكون هو المحور والغاية .

المسالة كلها ، الا نرتجل الحكم والحكومات .. الا نرتجل صيغة « الائتلاف » الذي فرضته طبيعة البلاد منذ الاستقلال حتى اليوم .

فلا بد من هذه الصيغة .

ولا بد من التعاون بين القوى السياسية والوطنية ما دامت هذه مجموعة اقليات .

فحري بنا ان نعطي الائتلاف معناه ، وان نحققه قبل الازمات الوزارية ، وتلافيا لها .. والا يكون الغرض منه فقط « انصاف » الكتل والاحزاب في توزيع المقاعد والحقائب الوزارية ، بل ايضا « انصاف » البلاد وتمثيل حاجاتها ، والتعبير عن امال المواطن وامانيه .

اتصور المحاولة ، تجمعا بين قوى سياسية عدة ، في ما يشبه الندوة الدائمة ولجانا مشتركة ، تدرس احوال البلاد من شتى جوانبها ، وتدرس مسالة المشاركة ايضا وتخلص الى « برنامج حكم » يتخطى المبادىء والنظريات الى الحلول العملية .

نحن لا نجد بداية للاصلاح .. وبداية انقاذ لاحوال البلاد ، الا على هذه الصورة .

وفيما نعلن هذا الايمان ، وعزمنا على القيام بالخطوة الاولى ، نامل ان نكون بذلك قد فتحنا نافذة ، وشققنا دربا ، وبدانا الحوار الوطني الذي ندعو اليه ، وننتظر من ورائه ، تفاهما ، وميثاقا اجتماعيا وسياسيا جديدا ، يكمل الميثاق الوطني ، ويطوره ، ويعمق جوهره وابعاده القومية .

قضية فلسطين

يبقى امامنا هنا ، « الاستحقاق » الاخر ، الكبير ، الذي ترتهن به سائر الاستحقاقات ، عنيت ، قضية فلسطين ، وشعب فلسطين .

اوليست هي المسالة التي حرمت المنطقة هناءها ، وعرقلت مسيرة شعوبنا ،

واخرت النهضة ، وفجرت الثورات والانقلابات ، والحروب ايضا اربع مرات ؟

ولبنان ، بات في حالة حرب ، وفي ميدان ثورة بكل ما لهذه الكلمة من معان وابعاد ، حتى ليبدو ، من هذا القبيل ، وكأنه فلسطين نفسها شعبا ، وثورة .. وكذلك ارضا الى حد ما !

او بتعبير اخر ، فلسطين ، بانسانها ، وآلامها ، وتمردها ، انتقلت الى لبنان !

فاذا مصير لبنان يرتهن بمصير فلسطين وبالعكس .

هذا في مرحلة من اشد مراحل الصراع ضراوة .

فماذا ترانا فاعلين ؟.. ما شأننا عند هذا المفترق ؟.. ما دورنا ومهماتنا ؟.. ماذا ينتظرنا ؟.. ما سوف تكون حالنا ، غدا ، او بعد غد ؟.. الى اين .. لبنان والى اين فلسطين ؟؟

اسئلة ، قد يكون الجواب عنها رجما في الغيب ، اذا بقي دورنا دور معاناة فحسب .. معاناة لادوار الاخرين ، ومعاناة للاحداث والشرور والمكائد والمصاعب !

ولكن ، ماذا لو جعلنا من الجواب خطا لنا واضحا ، ورؤية تتجسد مواقف صريحة ، تفعل في الصراع فيتطور كما نريد لا كما تريد اسرائيل مثلا ؟!

من البديهي ان تكون « عودة » الفلسطينيين قبلتنا ومرمانا الاساسي .

ليس فقط لانهم اصحاب حق . بل ايضا لان عودتهم تعني ، « عودة » لنا نحن بالذات ان لم تكن مماثلة ، فبالاهمية المصيرية نفسها .

ولا يهم السؤال ، بعد ، عما اذا كان هذا الربط بين المصيرين ضروريا لفلسطين ام لا .. وهل كان ذلك بارادة الفلسطينيين وارادتنا ام لا ؟!..

فما صار قد صار . المهم ، ان ننظر الان الى الامام .. الى افضل سبل العودة ، واقصرها مسافة ، واقلها اساءة وويلات للشعبين معا .

اول همومنا ، ان يكون الشعبان صفا واحدا ، قلبا وقالبا . وقد بات واضحا انه ليس ما يمنع العودة ، ويحول دونها ، مثل الاختلاف بين اللبنانيين والفلسطينيين ، اختلافا يتطور ، لا سمح الله ، الى اصطدام وتصفية متبادلة !

انه « الحل » الامثل الذي تبحث عنه اسرائيل ، واقل « الحلول » كلفة ومشقة بالنسبة اليها !!

ومن يدري ، اذا لم تكن السياسات الدولية تنظر عند الضرورة ، بعين الرضى

الى « حل » كهذا ياتيها عفوا ، فترتاح !!

فعند تعذر التوفيق ، بين سلامة اسرائيل من جهة ، والتسوية السياسية من جهة ثانية تصبح التضحية بلبنان ومن فيه ، مخرجا « معقولا » .

ازاء احتمال كهذا : تكون سلامتنا المشتركة ، موقوفة على ارادتنا المشتركة ، واتحادنا ، لبنانيين وفلسطينيين .

انها حقيقة واضحة كالشمس في رابعة النهار .

اليس غريبا ، في هذه الحال : الا تكون العلاقة اللبنانية الفلسطينية دائما ، كما تقضي الحقيقة هذه ، فلا يعتورها اي سوء تفاهم او توتر او اضطراب ؟!

ام لان المصيرين يتشابكان هكذا ، تكثر الضغوط على الشعبين ، والمكائد ايضا والمؤامرات ؟!

الارجح ان اخطاءنا هي السبب ، والمنافذ التي نتركها نحن بالذات ، لبنانيين وفلسطينيين امام الكيد والتآمر والاستغلال .

واول خطأ كان من اعتبار الكلام على الاخطاء مذمة ودليل عداء !

هكذا منذ بداية الثورة والعمل الفدائي .

فاعتراضنا ، مثلا ، على بعض الممارسات كان يفسر دائما اعتراضا علـى الثورة نفسها .. واحيانا على القضية الفلسطينية بالذات .

والغريب هنا ان ماخذنا تقريبا ، كانت مصيبة بشهادة الثورة نفسها ولو انها شهادة متاخرة .

فالظهور بالملابس المرقطة وبالسلاح ، واقامة الحواجز في الطرق « والعراضات » النارية في الشوارع والاماكن الاهلة ، وما اليها من ممارسات ، كنا نعترض عليها، منعتها الثورة وحدت كثيرا من مثيلاتها .

.. ناهيك بالعمل الفدائي نفسه ، الذي بـــدأ يستعيد سربته ويرتد الـــى اصالته واصوله وينتقل الى داخل اسرائيل تماما كما كنا نقول بدلا من ان يظل عملا استعراضيا على تخومها .

فلو اصغت الثورة الينا منذ البداية ، لكنا وفرنا على انفسنا وعليهــا ، تلــك السلسلة الطويلة من الحوادث والاضطرابات والاشتباكات التــي نحصد ثمارها المرة الان ، ولكانت الممارسة قد استقامت منذ البداية وكانت الاذية لاسرائيل اكبر !

نذكر هذه الوقائع ، كيلا نستمر في الخطـــا ، ولا تظـــل انتقاداتنا وملاحظاتنا ومواقفنا تفسر بالمقياس القديم ذاته .

فلا غنى للثورة عمن يراقبها ويكشف عن عيوبها واخطائها ..

وفي مطلق الاحوال ، ان لم تكن ملاحظاتنا مصيبة دائما ، فمن المؤكد انهـــا دائما مخلصة . فليسمح لنا بان نمارس حقا هو الوقت عينـــه واجب مـــن واجباتنا نحو القضية وثورتها .

في اعتقادنا ان احوالنا ، واحوال الثورة الفلسطينية ، تحمل غير سبب مـــن اسباب التصادم والفتنة .

اولها واهمها ، ان الدولة قد اضحت اضعف فريق على ارضنا ، فيما المصلحة المشتركة تقضي بان تكون اقوى الاقوياء .

فاذا وقع حادث او اختلاف او اصطدام ، تجد نفسها عاجزة عن التدخل وحسم الامر قبل ان يتفاقم ويستفحل ويشتد ويستحيل فتنة .

واكثر من هذا ، انها عاجزة ايضا عن تلافي حوادث الاخـــلال بالامن .. امـــن الثورة وأمن لبنان .

فاذا المهمة .. مهمة الدولة ، الاساسية موزعة هنا وهنالك .

واذا الامن والسلامة ، ومـــا اليهما ، موقوفان عـــلى الافرقاء الذيـــن يتقاسمون المهمة دون اي تكليف .

وهيهات ان يكون الجميع يمارسونها بذات الشعور بالمسؤولية والاخلاص الذي يفترضه واقع الدولة واحوال البلاد .

طبعا ، ليس الوقت ، وقت الكلام على ما اوصل الدولة الى هذه الحال .

فهي منقوصة العافية قبـــل ان تاتـــي الثورة الفلسطينية وتصبح فريقا اخر على ارضنا .

ولكن بدلا من ان تكون هذه الاخيرة ، عضدا للدولة وعونا لهـــا ، وجدت نفسها منذ البداية في نزاع معها وصراع فكان مـــن الطبيعي ان تطلب الغلبة لهـــا دائمـــا والهزيمة للدولة !

وكان من الطبيعي ايضا ان نبدا نحـــن اللبنانيين كافـــراد ، نعنى بسلامتنا ، بصورة مباشرة ، بعد ان بدا النزاع يقلل من حجم الدولة ودورها وفعلها في البلاد .

ولم تدرك الثورة اخطار هذا التورط ، الا متاخرة .. اي بعد ان اكتمل تقاسم دور الدولة ومسؤولياتها ، وانتشرت ظاهرة التسلح والسلاح والميليشيات .

.. وكانت هذه الحال .

.. وكان الوضع الشاذ الذي ينذر باوخم العواقب ، فما العمل ؟

قبل كل شيء ، ان الحملة على الميليشيات لئلا تكون ظالمة ، يجب ان تستهدف، مباشرة اسبابها البعيدة القديمة ، والا بدت تحريضا يزيد من حجم الميليشيات بدلا من ان يقلل منه ويرده الى اصغر الاحجام .

ولو انصفنا ، لاعتبرت حملتنا نحن بالذات على الوضع الشاذ ، حملة مباشرة وفعالة على الميليشيات . ونحن ، في اي حال ، ضد مبدأ العنف في الصراع ، ضد الثورة بلدا يكون السلاح فيه بيد ليست يد رجل المادية ، ضد الميليشيات . ونعتبر ايضا ، ان الامن ، لهو بلد في منتهى التخلف واقرب الى الجماعة القبلية منه الى المجتمع المتحضر .

يبقى هنا ان نبحث عن صيغة تعيد للدولة ادوارها .. دورها الامني على الاقل منعا للفتنة التي تؤذي الثورة بالقدر الذي تؤذينا نحن بالذات .

وهي محاولة لم تعد مستحيلة ، بنظرنا بعد ان زالت الاسباب ، وتلاشت الاصوات التي كانت توحي للثورة ، بان الدولة تعمل على تصفيتها !

فهل من المتعذر انتتعاون ، « الثورة » ونحن ، وكل من له علاقة بهذا الشان ، على اقامة سلطة قوية فعلية فوق الاراضي اللبنانية ، نرتاح اليها ، لبنانيين وفلسطينيين ، ويطمئن الجميع الى قدرتها في حماية ارواح الناس وكراماتهم ، والى حماية الثورة ايضا وكرامتها ؟

نحن ، في اي حال ، على استعداد للتنازل عن كل ما آل الينا من ادوار الدولة في حماية انفسنا .. عن الميليشيات وسلاحها عند اول بادرة تؤكد لنا باننا ، فعلا ، بحمى الدولة .

فالتسلح والسلاح ليس هواية عندنا ، ناهيك بان همومنا هموم جماعة تريد لبنان وطنا مستقرا ودولة بالمعنى الصحيح . فلمثل هذا كانت الكتائب .

ولم يخطىء الذين قالوا عنها مرة بانها « حزب الدولة » ، ولو كان ذلك على سبيل المزاح !

ولكن هل بمجرد عن الغينا الميليشيات او تنازلنا عنها للسلطة ، تصبح هذه فعلا قوية قادرة ، والسلامة مؤمنة ؟!

لو كان هذا الافتراض صحيحا ، لكانت السلطة قد تصرفت ، تلقائيا ، بما يوحي بذلك ، فيسقط مبرر الميليشيات ، او تسقطه هي بنفسها .. بارادتها القوية الصريحة !

لكن المسألة ان قدرة الدولة لا ترتهن بخضوعنا نحن لها واطمئناننا اليها .. آنها تحتاج الى خضوع الافرقاء الاخرين ، واطمئنانهم ايضا .

فلنتصرف جميعا على هذا الاساس .

.. الا اذا كانت الثورة على وشك ان تنتصر ، « والعودة » قد باتت قريبة . فلا معنى ، في هذه الحال ، لالهائها عن الاهم ؟ — كما يحلو لبعضهم ان يقول .. وانسب لنا ولها ، ان نتركها تحصر جهدها في اتجاه مؤتمر جنيف ، والامم المتحدة، حيث تنتظرها المعركة الدبلوماسية الفاصلة !

وهو منطق مقبول فيما لو كانت الطريق الى جنيف وسواها ، طريقا مامونة .

العكس هو الصحيح . فلان المرحلة ، مرحلة حسم ، والمعركة الدبلوماسية على اشدها ، يكون ضرب المقاومة افضل وسيلة لعرقلة تقدمها . فاذا امنها في لبنان .. وامن لبنان ايضا ، شرطان اساسيان لضمان الفوز في المعركة ونتائجها .

وماذا ايضا لو تأجل موعد الحسم ، وتأخرت العودة ، وطال الانتظار .. وطالت الثورة ايضا واستمرت اوضاعها هذه الاوضاع ؟

في مطلق الاحوال ، لا غنى لها ولنا عن حد معين من التضامن في ما بيننا ، كيلا تكون يوما ، حملا ثقيلا على لبنان يتافف منه ويتبرم .

ولا غنى عن التضامن هذا ايضا ، كيلا نظل نعاني ظروف الثورة ونتائجها دون ان يكون لنا يد او كلمة في ما تخطط له وتبني .

فاذا كان المصير مشتركا الى هذا الحد والخلاص ايضا .. او الهلاك ، فمن بديهيات الشراكة الا تكون حصتنا فيها ، حصة الفريق الذي يعاني ولا يسال .

السنا شركاء في « الراسمال » وشركاء في الجهد كذلك ، وفي المجازفة والرهان ، وفي الارباح والخسائر ، وربما الخسائر قبل المكاسب ؟

فكل خطوة تقررها الثورة ، ترهن خطانا وتؤثر في مصيرنا . الامر الذي يقضي بالا نكون غرباء عن التقرير .

واذا كانت الثورة تحاذر الوقوع تحت اية وصاية عليها ، فنحن بالحرص نفسه ، ان لم يكن اكثر . المطلوب انما هو تعاون بين فريقين متساويين .. بين اخوين . ولا نطلب اكثر .

من زاوية لبنانية
وعربية نظرتنا الى القضايا

ايها الرفاق ،

قد يبدو ما قلته ثقيلا على الاذان . فالاخوان في المقاومة الفلسطينية ، ياخذون علي دائما هذه النبرة ، وكثرة الكلام على الاخطاء .

.. يريدون مني .. ومن الكتائب كلاما اخر ، اقل قسوة ، واكثر لطافة .

.. ويفضلون ربما لو اكون كما سواي متسابقا على الاشادة بالثورة ، وتعظيمها ، وتبجيلها ، والتستر على اخطائها .. فلا اقول الا الكلمة الحلوة التي يغلب فيها الثناء على الاعتراض ، وتكون العصبية فيها اقل لبنانية بقليل ، واكثر فلسطينية بقليل !

بودي ، في هذه المناسبة ، ان ارد على هذه الملاحظات ، ليس من قبيل دفع اللوم عني والعتب . بل لانها تتصل مباشرة بايماني ومعتقدي ، لبنانيا ، وفلسطينيا ، وعربيا .

الحقيقة انني ارى الامور كما لا يراها الاخرون ، وخلافا لما يصورها ابطال المزايدات .

انظر الى مسائل العروبة والمقاومة والثورة والقضية الفلسطينية من زاوية لبنانية .. من خلال مفهومنا للبنان ومركزه وطبيعته ورسالته .

وفوق ذلك ، انا من الذين لا يحسنون التظاهر بعكس ما يضمرون .

لا احسن الغش . فلا يطلب مني ما يتنافى مع طبيعتي وايماني .

فهل ما يصدر عني ، في هذه الحال ، دليل عداء ، او نقص في الايمان بفلسطين وعدالة قضيتها ، ونقص في المحبة لابنائها وثوارها ؟

العكس هو الصحيح . فصديقك من صدقك . وانا ، في اي حال ، اعتبر نفسي اقرب الناس الى خط الثورة الفلسطينية واهدافها . وثمة من بدأ ياخذ علي التطرف ويضعني في مصاف « جماعة الرفض » ! لانني لا اؤمن باي حل للمسالة الفلسطينية الا الحل الذي يكفل عودة ابن الجليل الى الجليل .. وابن حيفا ، الى

حيفا ، وابن القدس الى القدس . والمسألة عندي ، ليست ان يكـون للفلسطينيين دولة ، في اي مكان كان ، بل ان يكون لهم الوطن الذي افتقدوه ، واقتلعوا منه عنوة، وحرموا حق الانتماء اليه ، بحجة انه كان يوما وطن اليهود ودولة اسرائيل !

هذا هو ايماننا ومعتقدنا ، رفاقي وانا .

ربمـا لاننا على هـذا المعتقد ..

وربما لاننا ننظر الى الامر بعقائديتنا ، نقسو احيانـا في الكلام ، ونفرط فـــي الصراحـــة .

وربما ايضا لاننا لا نفرق بين لبنان وفلسطين ، ونخشى ، بالتالي ، الا يظـــل لبنان يطرح نفسه مقياسا للحل الجذري الذي ينقذ فلسطين وينقذ السـلام فـــي المنطقـــة .

اجل ، نحن ننظر الى فلسطين ، من خلال لبنان ، ونتصورها على قياسه .

.. مـن اجلهـا ،

من اجل السلام الحقيقي ،

ومن اجل لبنان ، والعرب جميعا ..

ومن اجل اليهود ايضا ، ما دامت دولة اسرائيل شرا عليهم كما هي شر عـلى سـواهم !

ولاننا ايضا لا نريد اغراء جديدا للاوطان العرقية او الدينية في الشرق . بـل نريد ان يظل لبنان هو الصيغة التي تغري ، وان يكون ابدا الشهادة التـــي تنقض شهادة اسرائيل وتثبت بطلانها .

هذا لا يعني باننا نعترض على المفاوضات السلمية ، والتسويات السياسية ، اذا راى العرب والفلسطينيون فيها بداية فرج وخلاص .

بل نفهم جيدا ماهية الكلام على الكيان الوطني الفلسطيني ، واتفاقات الفصل بين القوات وما اليها . ان منطق الصراع يوحي بذلـــك ، وميـــزان القوى ايضا . ناهيك بالقدرات العربية والفلسطينية ، التي لا تستطيع ان تبنـي ، بخلال سنة ، ما تهدم على مدى قرن كامل !

كل هذا واضح ومفهـوم .

ولكننا لم نتمكن ، حتى الان ، من تصور مجاورة معقولة بين الكيان الفلسطيني

من جهة ، والكيان الاسرائيلي من جهة اخرى .. واعترافا متبادلا بينهما ، وتفاعـلا مهمـا كـان .

فالدولة العبرية ، لا تستطيع الا ان ترفض تسوية كهذه .. والا ان تقاومهـــا حتـــى المـوت .

واستطرادا فمشروع ، الكيان الفلسطيني يبدو وكانه مشروع حرب خامسـة . مشروع لا يولد الا بعملية قيصرية . ذلك في منطق الاشياء ، وفي منطق الصراع .

فاذا كان تحرير القنيطرة مثلا وقناة السويس ، قـد تطلب حربـا مدمـــرة ، تدافعت الدبابات والطائرات فيها بالالاف ، وكان المقاتلون فيها بمئات الالوف ناهيك بسلاح النفط الذي هز العالم من اقصاه الى اقصاه ..

.. اذا كان التحرير الجزئي ، قد تطلب كل هذا الجهد ، فكم يجب ان يكـون الجهد مضاعفا لكي نفرض الكيان الفلسطيني على العقل الاسرائيلي وعلى العالم قبله بطبيعـة الحـــال ؟!

قصدي الا نسترسل في التفاؤل بالنسبة للمعركة الدبلوماسية التي تدور رحاها الان هنا وهنالك .

فالمسالة ليست بهـذه السهولـة .

.. ولا هي بالبساطة التي تعكسها المواقف العربية ، اجمالا ، عندمـا توحـي للناس بان كل شيء صار ممكنا ومستطاعـا .

ان ثمة استحقاقات عديدة تنتظرنا ، وتنتظر العرب في شتى اقطارهم . ذلـك قبل أن يستتب السلام ، او تكون هدنة حقيقية .

فالنزاع ليس على سيناء او الجولان . هذه قضية جديدة ، فرعية .. وملهاة صرفت الانظار عن الجوهر والاساس . فخيل للعالم بان « الحدود » هي المشكلـة ، او انه العداء المستحكم بين العـرب واسرائيل مـا يتسبب في الاحتكـاك والاضطراب احيانا . فاذا تامن الفصل بين المتقاتلين ردحا مـن الزمـن مثـلا تهـدا النفوس ، ويستحيل العداء صداقة !

لقد كان من الضروري ، ان يخوض العـرب ، والفلسطينيون بنـوع خـاص ، معركة اخرى ، دبلوماسية طبعا ، لتذكير العالم ، والدولة المسؤولة ، بـان تشريـد الشعب الفلسطيني هـو المسالـة .

.. هذا بعد اثنين وعشرين عاما ، غابت القضية هـذه بخلالهـا عـن المسـرح الدولي ، او غيبتهـا التفاصيـل !

حالة كان يمكن ان تستمر ، وان تصبح دائمة ابدية ربما، لو ثورة الفلسطينيين.

فعندما اتذكر ذلك ، اتذكر ايضا ، كم كانت الثورة لازمة وملحة . وكم هـي ضرورية هذه المحاولة الرامية الى التمييز بـين قضيـة الشعب الفلسطينيـي .. والقضايـا الاخـرى .

لقد استردت القضية فلسطينيتها .. هويتها واصالتها .

وعلى هذا ، يكون الصراع قد دخل مرحلته الاشد ضراوة في نظري ، والاكثـر دقـة وخطـورة .

ندرك هذه الحالة بصورة اعمق ، عندما نراقب انفعالات الكيان الاسرائيلي ، اذ يشعر بالخطورة اكثـر مـن سـواه .

فهو ادرى الجميع بما يشكل مساسا بسلامتـه .. وادرى النـاس بمستقبلـه ومصيـره .

فمن الغباء ان نتوقع منه ، اقل مما يتوقع عادة ، مـن امرىء خائف حـذر حتى المـوت !

ومن الغباء ايضا ان يواجه العرب ، المرحلة الجديدة ، باقل ما كانوا عليه ابان حرب تشرين .. الحرب التي كلما تكلمنا عليها واستعرضنا وقائعهـا ، كانت صورة التضامن الصورة الاكثر بروزا ، والاقل اهتزازا .

طبعا ، ماهية هذه الحرب كونها المعركة التي تجلت فيهـا البطولـة والخبـرة العسكرية كمـا لـم تتجليا مـن قبـل .

وماهيتها ايضا ، انها احدثت في ذات الاسرائيلي ، نوعا من الارتجاج لم يعرفه من قبل . فاذا ايمانه ، الذي كان فعلا ايمانا ينقل الجبال يبدا يخالجـه الشـك . فلاول مرة تساءل : الى اين اسرائيل ؟!

قبلها بلحظات ، كان يهزأ بكل الاحتمالات .

فمن حق مصر هنا ، ومن حق سورية ، بنوع خاص ، ان يعترف لهمـا دائمـا بفضلهما في الاقدام على رهان كان الحد الفاصل بين الاحساس بالهزيمة ، والاحساس بالكرامة .. بين الياس ، والثقة بالنفس ..

ومن حق العرب ، الذين كان يؤخذ عليهم زورا ، الاستسلام للثراء وتبديده ، ان يعترف لهم ايضا ، بان قيمة القدس عندهم مثلا ، لا تعادلها اية قيمة اخـرى ، وفي سبيلها تهون كل التضحيات .

لكن اهم ما حققته حرب تشرين ، كونها وحدت العرب كما لم يتحدوا مـن قبل ولعل لبنان ، من هذا القبيل ، هو افضل مقياس ، اذ نادرا ما احسسنا بالتضامن العربي كما فيحرب تشرين !!

فهل يعني ان وحدة الصف لا تكون الا في الحروب ؟!

انه السؤال الذي يتحدى الوجدان العربي امام التاريخ ، علـه يلتفت الـى ذاته ، ويبني نفسه من جديد قياسا على تجربة حرب تشرين ، حيث التضامن كـان تلقائيا ، عفويا دون اي اكـراه !

في اي حال ، حرب اكتوبر ، لما تنته بعد ما دام الغرض منها ـ كما تأكـد فـي حينه ـ اذابة الجليد الذي كان قد بدا يجمد الصراع ، ويجمد اسبابه الحقيقية .

كان القصد بعث دينامية جديدة في النزاع ، بما يكفل حمل العالم على اعـادة النظر في مواقفه ورؤاه . فحققت المجازفة بعض اغراضها ، ولم تحقق الكل .

لذا ، فالتضامن يجب ان يستمر ، وان يتعمق .

تلك هي المسالة الاولـى .

اما الثانية ، فهي التي تطرح تكرارا عندنا في لبنان . حيث هي ايضا ، وقبـل اي شيء ،مسالة تضامن ، بدات بها كلامي . وعندها اود ان انتهي .

فمن هنا تبـدا همومي ..

.. وهنـا تنتهـي !

فاقول : ماساة الاخوان الفلسطينيين في لبنان .. بـدات عندمـا راح بعضنـا يتساهل مع ثورتهم ، وتجاه اخطائهم التي لا تخلو منها اية ثورة على الاطلاق ، تساهلا لم يكن كله بدافع خدمة قضيتهم قدر ما كان بدوافع اخرى . فتصوروا هـم ، ان المتساهل هو الصديق ، والاخر هو الخصم !

وخيل الينا نحن ايضا ، ان الثورة ، ثورة علينا بالذات قبل ان تكون ثورة على الظلم والتشرد ..وعلى اسرائيل ..

هكـذا بدات الماسـاة .

ولم يلحظ الاخوان هذا التورط ، الا بصورة متاخرة .

ليس سهلا ان نعود الان الى نقطة البداية ، وكأن شيئا لم يكن . فكيف اذا كان « التساهل » المغرض يتواصل حلقات ، مقرونا بتحريض ما بعده تحريض ؟!

بالتضامن وحده نلجم الاستغلال السياسي لقضيتهم ، ونتعاون على استبعاد الاخطاء ، شرط ان يكون الكلام على الخطأ ، مقبولا في الجانبين ، فلا يفسر دائما بالعداء .

لبنانيا ، نقترح ميثاق شرف ، نعلن فيه ، جميعا ، ايماننا بالقضية الفلسطينية ـ اذا كان هذا لا يزال يحتاج الى اعلان ! ـ وتضامننا مع الشعب الفلسطيني حتى النهاية .. والتزامنا ايضا ، الفصل التام بين الصراع السياسي المحلي من جهة ، وكل ما له علاقة بالشأن الفلسطيني من جهة ثانية .

بتعبير اخر ، يجب الا تكون قضية فلسطين وما يتصل بها ، مادة من مواد هذا الصراع ، اوموضوعا من مواضيعه ، او سببا من أسبابه .

واذا بدا هذا الاقتراح لبعضهم على شيء من المثالية ، فان صمت الفلسطينيين منذ مدة ، وامتناعهم المطلق عن الدخول في اية مشادة بين اللبنانيين ، لهو اوضح دلالة على ان اقتراحي في منتهى الواقعية . انه التحدي لمقدار اخلاصنا لهم ولقضيتهم ، ولقدرتنا ايضا ، على الاستغناء عن رصيد قضيتهم ، تعزيزا لارصدتنا !

يحيا لبنان

برمانا ٢٧ ايلول ١٩٧٤

بيــار الجميل
رئيس الكتائب اللبنانية

مقدمة

تسألني ولا شك ، ما قصة هذا البرولوغ ؟
واجيبك في نقطتين :

الاولى ، هي انني اردت ان اقدم العرس الدموي في لبنان ، بمقدماته الواقعية ، بذلك الاحساس الشامل الحاد بضرورة التغيير وحتمية الانفجار ، كما هجست بذلك مجموعة الاقلام التي اخترتها برولوغا .. اي ان المذبحة لم تكن مفاجأة لاحد .

والنقطة الثانية ، هي انني اخترت تيارا فكريا محددا من بين التيارات العديدة التي تصطخب بها الساحة اللبنانية . وبالرغم من الفوارق بين قلم وآخر ، فان ما يجمعها هو انها لا يمكن ان تتهم بموالاة الفريق الذي قاتل دفاعا عن التغيير ، بل ان بعضها اقرب الى الفريق الآخر ، واحدها على الاقل من زعماء هذا الفريق . رغم ذلك فان وثائق عشية العرس الدموي توضح بجلاء ان اصحاب هذا التيار ، قد نادوا يوما بالتغيير لهذه الدرجة او تلك وانهم يعترفون بخلل حقيقي في الواقع اللبناني لا يقبل الانتظار .

★★★

ثم
تسألني ولا شك ، لماذا « الفت » هذا الكتاب ؟
واجيب بأمانة ان هذا الكتاب ليس « مؤلفا » ، فلم يكن هناك

وقت للتأليف .

هذا الكتاب هو « حركة قلب » لم يرض لنفسه أن يكون شاهدا .

وكان ذلك ممكنا الى غير حد ، والمغريات متاحة . .

فانا عربي من مصر لا من لبنان !

وحرفتي الاولى والاخيرة هي الفكر والفن ، وليست على الاطلاق الكتابة السياسية او العمل السياسي !

ومن عليه ان ينام سعيدا فوق هرم من الجثث وتلال من الجماجم ونهر من الدماء ، يستطيع ذلك وجواز سفره في يده يخترق كافة الحواجز من ملهى الى ملهى ومن مقهى الى مقهى . . يستطيع !

ولكني لم استطع .

وكنت ولا أزال عاشقا .

احب لبنان .

احبه .

لا تسألني كيف ومتى ولماذا ، فكل ما ادريه انني احب !

وان الحب سحب مني كافة مغريات السلامة .

لم اشعر الا بأنني في قلب الميدان ومقدمة الجبهة اقاتل عن حبي بأضعف الايمان ، وهو القلم .

لم اكن اكتب .

كنت احيا واحب واموت واحب دون توقف طالما ظل القلب العاشق ينبض .

وهذا الكتاب ليس اكثر من تسجيل يرسم حركات قلبي .

★★★

لا تسألني في اي ميدان كنت وفي اية جبهة ؟

كل ما اعرفه انني وجدت نفسي في جبهة لبنان ! في صف لبنان ، في جانب الشعب والوطن . لا تسألني عن الاسماء والزعماء

والفرقاء والطوائف ، فاني كنت ولا ازال عاشقا للبنان .. لا لهؤلاء !

★★★

يبقى هذا الكتاب مدينا :

اولا لجريدة « المحرر » اللبنانية التي اتخذت منها منبرا وبيتا ومعبدا للحب .

فيــه اعشق .

واصلــي .

فهذا الكتاب هو صلاة الحب .

انني لمدين لكل من في « المحرر » بدءا من عمالها وموظفيها الى محرريها وكتابها ورئيس تحريرها .

فقد هيأوا لي جميعا بحرارة العشاق المقاتلين مناخا استثنائيا كالحلم من أصغر الاشياء الى اكبرها بدءا مما أشعر بالحاجة له الى لا يخطر على بال .

وانني مدين ثانيا لعشرات الكتــاب والصحفيين والمؤلفين ، الذين اتاحت لي قراءتهم فهم الكثير الكثير . انـــي مديــن للذيــن اختلفت معهم في الراي كالذيـــن اتفقت معهم ، فكلهم اناروا لــي المجاهل والظلمات .

★★★

ثــم ..

انني مدين للبنان .

انه المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب .

غالي شكري

بيروت ــ ٥ كانون الثاني ــ يناير ١٩٧٦

القسم الأول

مفترق الطـرق

لبنان الباحث عن هوية

(١)

يختلف تعريف « الثورة الثقافية » من بلـد الى آخـر حسب **الخط السياسي الذي تنتهجه قيادة هـذه الثورة .. فبينما رات** الصين مثلا أن ازالة التراث القديم سواء كان صينيا أو أجنبيا هـو أحد أبرز مظاهر هذه الثورة ، رأت ليبيـا مثـلا أيضـا أن البعـث **الاسلامي هو الثورة الثقافية الحقيقية. وبينما اتجهت بعض حركات** الطلاب في الجامعات الغربية الى الصدام الدمـوي مـع الدولـة ، اتجهت حركة الطلاب المصريين الـى العمـل السياسـي السلمي . وبينما اقتصرت بعض الثورات الثقافية على الدعوة الى تغيير مناهج التربية وبرامج التعليم ، فان ثورات أخرى تجاوزت هذا المفهوم الى المعنى الشامل للتغيير السياسي والاجتماعي للنظام القائم .

لذلك حين ننادي ــ مع البعض ــ بثورة ثقافية لبنانية ، فاننا لا ننقل تعريفا من هذه التعريفات ، لاننا نجد أنفسنا ــ في لبنان ــ أمام واقع نوعي متميز ، لا سبيل الى قسره داخـل أحـد القوالب السالفة الذكر ، وهي في حقيقة الامر ليست أكثر مـن تعريفـات جزئية مبتسرة للثورة الثقافية الحقيقية الشاملـة ، وأحيانـا هـي **تشويه لوجه او آخر من وجوه هذه الثورة .**

ان الثورة الثقافية في خاتمة المطاف هي تصويب الخلـل أو ردم الهوة بين المقومات المادية والمقومات الروحية للمجتمع ، باتجاه

التقدم التاريخي والحضاري لهذا المجتمع . ومن هنا نبادر مباشرة الى القول بأن ثمة « مفارقة » صارخة في البناء اللبناني بين قاعدته الاجتماعية الاقتصادية السياسية ، وقمته الفكرية والثقافية .

وليست صدفة ان أدباء لبنان ومثقفيه ـ طيلة الاشهر الثمانية الماضية ـ لم يفتحوا افواههم بالتعليق على الاحداث ولم يرفعوا اللافتات ، باستثناء اجتماع يتيم في اول الازمة وكلمة تلفزيونية لميخائيل نعيمة قرب نهايتها . ليست صدفة على الاطلاق ، لان هؤلاء المثقفين بمختلف اتجاهاتهم وانتماءاتهم واجيالهم ، قالوا كل شيء ، كل ما يمكن ان يقال ، طيلة السنوات الثلاثين الماضية . وكان ما قالوه امتدادا حيا متطورا لاعرق تقاليد الفكر العربي والثقافة اللبنانية خلال ما يزيد عن قرن ونصف من عمر « النهضة » . وكان ما قالوه في جوهره انجازا فكريا رائدا في طريق التقدم ، حتى ان بعضهم في هذه المرحلة أو تلك كان « مدرسة » للتطور العربي . ومن هنا كان صمتهم الراهن يكاد يكون « صدمة تاريخية » لهول المسافة بين « الوعي » الذي زرعوه في العقول والضمائر ، والثمار المرة التي انضجتها الارض في الاشهر الثمانية الماضية ، وكأنها تطل عليهم متحدية ساخرة من شقاء العمر بل الاعمار التي أفنوها من من أجل هذا الوطن . ولا بد أنهم جميعا ـ الاحياء منهم والاموات !! ـ قد تساءلوا بينهم وبين انفسهم : هل ثمة خطأ فيما كتبوه أو نادوا به ؟ وربما كبر السؤال الى درجة الاحساس بالذنب . وربما تساءلوا مرة اخرى : هل يمكن لارقام البيع والتوزيع واحصاءات خريجي الجامعات وجمهور قاعات المحاضرات ودور السينما والمسارح أن تكون كلها أرقام كاذبة ، وبالتالي فان « الكلمة » لم تصل الى الآذان ؟ ولا بد أن بعضهم في ضوء ـ أو ظلمة ـ المذابح الهمجية قد توقف عن الاحساس بالذنب والشك في الارقام ليتساءل عن « السر » في هذا الانفصال المروع بين الفكر والفعل على الارض اللبنانية . ذلك أن « الثقافة » بمعناها العميق الشامل

في لبنان ، تبدو فوق بحيرات الدم وكأنها في « واد » اخر ان لم تكن في كوكب اخر . ان خطوطها العامة الغالبة على اللوحة ، هي خطوط الفكر الوطني العلماني الديمقراطي الذي افاد « ثقافات » اقطار عديدة في الوطن العربي . وهي كأية ثقافة عربية تنقسم يمينا ووسطا ويسارا وغير ذلك من درجات اليمين والوسط واليسار ، ولكنها ابدا في جملتها لم تكن ثقافة عشائرية طائفية . حتى سعيد عقل فان شعره الاصيل سواء اراد او لم يرد هو جزء لا ينفصل من تراث الشعر العربي . وحين ينادي باللهجة اللبنانية أو الاحرف اللاتينية فان « دعوته » من الضعف والوهن وخفوت الصوت بحيث لا يأخذها احد على محمل الجد . وحتى كمال يوسف الحاج عندما يساوي بين القوميتين العربية و « الصهيونية » داعيا الى ما يسميه بالقومية اللبنانية ، فان صوته لا يخرج عن جدران قسم الفلسفة وطلابه هم أول من يثورون عليه .

واذن ..

ينبغي الاعتراف سلفا بأن الواقع اللبناني يحتوي على تناقض مثير ، بين مستوى ونوعية « الوعي » ، ومستوى ونوعية « الثوابت الرواسخ » في البناء الاجتماعي .

ولنعرض أولا لهذه الثوابت الرواسخ :

● لم يكن « لبنان الكبير » توحيدا أصيلا لوطن ، بل كان ولا يزال معادلة توفيقية بين « الطوائف » . لقد كان البديل الطبيعي – ولا أقول الثوري – لعهد الانتداب هو عودة الارض الى الارض ، وعودة الحدود الى الحدود . ولكن العقدة التاريخية عند المسيحيين وبعد النظر الاستعماري عند الفرنسيين والضعف العربي في سوريا وفلسطين والاقطاع المحلي مجسدا في شيوخ العشائر وزعماء القبائل ، اتاح منذ البداية للمعادلة الطائفية ان تكون أساس « الاستقلال » ، كبديل ثابت للمعادلة الوطنية التي اذا اخذت مجراها فان الحدود تمتد لتشمل سوريا وفلسطين .

● باعتماد المعادلة الطائفية اساسا للتكوين اللبناني الجديد مع « الاستقلال » لم يعد « الوطن » بمعناه الراسخ في ضمير الانسانية ومشاهد التاريخ هو القبلة التي يصلي في اتجاهها المواطنون ، بل اصبح « تجمع الطوائف » هو المحور الاجتماعي الذي يدور داخله ومن حوله نشاط المواطن .. حتى ان هذه الكلمة « مواطن » لم يعد لها مدلولها الشرعي ، بل حلت مكانها الهوية الطائفية للفرد ، فهو ماروني وسني وارثوذكسي وشيعي وكاثوليكي وهكذا ، ولكنه ليس « مواطنا » تتلبس ضميره اللاشعوري « حدود » الوطن ، بل حدود الطائفة . وهكذا لم تعد هناك دائرة واحدة كبيرة ، بل عدة دوائر صغيرة تحتك وتتماس ولكنها لا تتفاعل ولا تنصهر . وبينما كان التفاعل والانصهار يؤدي من جديد الى الوحدة ، فان الاحتكاك والتماس كان من الطبيعي أن يؤدي الى الانفجار .

● في مثل هذا النظام — ان جازت تسمية الدوائر الصغيرة نظاما — لا تكون هناك في الواقع « اكثرية واقلية » بل تكون هناك مجموعة أقليات ، لان الاكثرية والاقلية تعبير يرتبط بالمصالح الجوهرية المصيرية (الوطنية الاقتصادية الاجتماعية السياسية) **اما الاقليات سواء زاد عدد هذه الطائفة او قل ، فانها تشكل « حالة » اجتماعية مغايرة للتكون الوطني . ويمكن ايجاز ملامح** هذه الحالة في كونها مجموعة من الدويلات ذات المراكز الدينية **المنفصلة عن بعضها البعض والتي لا يجمعها في واقع الامر المركز** المدني الموحد . اي ان ما يسمى بالدولة ليست تعبيرا سياسيا موضوعيا عن الواقع الحي ، بل هي تسمية مجازية عن كيان غير قائم بالفعل . وانما يمكن وصفها بأنها « مجلس مشترك لمراكز الدويلات الطائفية » قصد به تنظيم حركة الدوائر الصغيرة حتى لا يتسبب احتكاكها الضروري وتماسها المحتم في الانفجار .

● وبغياب الادارة المركزية اي الدولة وحضور المراكز الطائفية **المتعددة ، تصبح الوحدة البشرية هي « العشيرة الدينية » التي**

ينتفي داخلها الصراع الطبقي وقيمه الاجتماعية ليحل مكانها الولاء الهرمي من القاعدة الى القمة . كذلك ينتفي هذا الصراع وقيمه بين العشيرة وبقية العشائر ، ليبرز فقط الصراع الطائفي بالاحتكاك والتماس بين الدوائر الصغيرة ، مهما كان بعضها اكبر من البعض الآخر في العدد البشري او الامتيازات الاقتصادية . وقد اتاح هذا « النظام » دعم العشائرية اجتماعيا لحضور الاقطاع اللبناني المتميز عن الاقطاع الاوروبي ، فالنسيج القبلي على صعيد الانساب ظل باقيا . وبالرغم من ان « ملكية الارض » ومن عليها ليست هي الاساس الوحيد لبقاء الاقطاع ، فانها ساعدت على نوع غريب من الاقطاع المالي ان جاز التعبير . هكذا بقيت العشائرية اجتماعيا وخلقيا دون ان تكون القاعدة الاقتصادية الاساسية هي الزراعة والرعي . ولكن هذا النظام الذي دعم العشائرية اجتماعيا فرسخ حدود الدويلات الطائفية لم يدعم بنيتها الاقتصادية بل عمل على تمزيقها ، وذلك باحتلال قطاع الخدمات مركز الصدارة في الاقتصاد اللبناني والذي يبلغ حوالي ٦٠ بالمئة من الدخل العام ولا اقول الدخل القومي . ولما كانت النسبة الباقية (٤٠ بالمئة) موزعة بين زراعية تجارية ـ وليست صناعات زراعية ـ وكذلك صناعة استهلاكية ، فان البنية الاقتصادية للمجتمع اللبناني تناقضت تناقضا حادا مع الاساس العشائري لهذا المجتمع .. فقد كان لا بد للدوائر الصغيرة من ان « تنفتح » على بعضها البعض انفتاحا ضيقا لتنظيم الدولاب الاقتصادي المعتمد على الخدمات والاستهلاك . ولم تسمح هذه الثغرات خلال ثلاثين عاما بالتفاعل الحر بين مجموع الدوائر (او مجموعة الاقليات) بحيث تذوب الفواصل الدينية في مجتمع مدني موحد . ولم تسمح بالتالي بتذويب الكيان الطائفي للعشيرة في كيان وطني للمجتمع . ولم تسمح اخيرا بانصهار شامل للطبقات الاجتماعية ، بحيث يبرز التمايز الطبقي ويتبلور بين مجموع المستغلين (بكسر الغين) ومجموع المستغلين (بفتح الغين)

والدرجات الاجتماعية الواقعة بينهما حسب « دورها » في هيكل الانتاج ودولاب الاستهلاك لا حسب هويتها الطائفية .

وانما سمحت هذه الثغرات الضيقة التي حتمتها دورة الاقتصاد اللبناني (الخدمات ـ الاستهلاك) بأن كشفت عن حقيقة الحقائق في هذا النظام ، وهي ان احدى الدوائر (اي احدى الاقليات) تستأثر لاسباب قديمة وجديدة بالمقدرات العليا ـ اي بالامتيازات ـ للدورة الاقتصادية ، تشاركها في ذلك مراكز الدوائر الاخرى (أقطاب الاقليات الطائفية الاخرى الدينية والمدنية) دون بقية شرائح التسلسل الهرمي وخصوصا القاعدة العريضة . بعبارة ابسط كان « الاكتشاف » على النحو التالي : ان الاقلية المارونية بأغلب مستوياتها الاجتماعية ، تمسك بزمام « الامن » الاقتصادي للعبة اللبنانية ، تشاركها في ذلك « المستويات الرفيعة » من الاقليات الاخرى (مسيحية ومسلمة) دون المستويات الوسطى والدنيا من هذه الاقليات .

● وكان من الممكن لهذا الاكتشاف أن يؤدي الى نوع من الخلل او التمرد في ابنية الدوائر المستغلة (بفتح الغين) بانشقاق قواعدها عن قممها . ولا شك ان شيئا من هذا القبيل قد حدث في الآونة الاخيرة بظهور التكوينات الحزبية الناشطة كالناصريين والماركسيين والقوميين الاجتماعيين . ولكن هذا « التمرد » ليس من القوة بحيث يحطم الدوائر المغلقة لعديد من الاسباب اهمها التضامن الاستراتيجي غير المعلن بين المراكز القطبية لمختلف الدوائر ـ الدويلات ، بسبب الامتيازات المشتركة من دوام هذا « الهيكل » . وهي ليست امتيازات مادية فحسب بل امتيازات سياسية ايضا رسختها التشريعات التي جعلت من مجلس الوزراء مجرد لجنة للتنسيق ومن مجلس النواب مجلسا للتوفيق . غير انه في هذه الحدود ذاتها ظهر خلل جديد في ما يسمى بالتوازن (والمقصود به حالة السكون بين الدوائر المتلاصقة) . هذا الخلل هو ان الدائرة

الطائفية التي تمسك بزمام الحكم الاقتصادي قد اخذت نظام الدوائر ـ الدويلات بصورة جدية فأمسكت ايضا بزمام الحكم السياسي والعسكري لا عن طريق احتكار مركز رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش وحدهما ، بل بتكوين الجيوش المستقلة عن « جيش الدولة» والرئاسات الحليفة لمركز رئاسة الجمهورية . ان الخلل يبدو هنا في أن الاقلية المارونية كانت اكثر الاقليات تنبها الى فحوى « نظام الاستقلال » واكثرها منطقية مع فكرة الدويلات الطائفية القائمة .. بينما كانت الاقليات الاخرى من المسيحيين والمسلمين واهمة ومتناقضة مع نفسها حين تعاملت مع « مركز الدولة الواحدة » وكأنها ضمن حدود وطنية ، وعاملت نفسها في اللحظة عينها كعشيرة طائفية على صعيد القيم والعلاقات الاجتماعية . أي انها صدقت الواجهة فسلمت نفسها لمقادير « قوى الانتاج » وعلى رأسها دائرة متمايزة وشذت في « علاقات الانتاج » بأن حرصت على اسلوبها الذاتي العشائري الطائفي . ونتيجة الخلل أنها لم تكون جيوشها المستقلة ودويلاتها السياسية . ومن نتيجة الخلل ايضا ـ **وقد اظهرته بجلاء الاشهر الدامية ـ ان شعرت المراكز القطبية لهذه** الدوائر بضعف معنوي صارخ أمام هيمنة المركز الماروني المهيمن ، مما اقام وشيجة اتصال بينها وبين قواعدها التي تشعر بالضعف المادي والمعنوي معا . وكانت هذه الوشيجة ـ بطبيعة الحال ـ على حساب التضامن الاستراتيجي بين المراكز القطبية لجميع الدوائر .

● ان الثغرة الاولى ـ الاكتشاف الاجتماعي لقواعد الدويلات المسحوقة ـ وكذلك الثغرة الثانية ، الاكتشاف السياسي لاقطابها ، **قد اتسعت كثيرا بفضل المتغيرات الدولية في روح العصر والمتغيرات** العربية في روح الامة . ولكن هذا الاتساع لم ينته الى تذويب الاسلاك الشائكة حول الدويلات الطائفية في كيان وطني موحد **لعاملين رئيسيين : اولهما الهيكل الطائفي للنظام في التشريع**

والتنفيذ ، وثانيهما المعارضة المسلحة للدائرة المتميزة المغلقة على ذاتها سياسيا ، والمنفتحة الى النهاية ـ اقتصاديا ـ على قمم وقواعد الدويلات الاخرى محليا (الاولون بالمشاركة من مركز قوة والاخرون باستغلال الايدي العاملة الرخيصة) والمنفتحة ايضا على المال العربي القادم من النفط ، والمنفتحة اخيرا على السياسة والاقتصاد الغربيين .

وهكذا تجمعت تحت السطح وطيلة ثلاثين سنة مجموعة هائلة من التناقضات : بين التكوين الاجتماعي العشائري المغلق على مجموعة من القيم والعلاقات الاجتماعية البالغة التخلف وبين الاسلوب الاقتصادي البالغ الحداثة التي تتطلبها الخدمات كما يفرضها الاستهلاك . كذلك بين واجهات الدولة المركزية الموحدة والتعدد الواقعي لمراكز الدويلات . وايضا بين بشاعة استغلال الدورة الاقتصادية الكومبرادورية للكادحين من طوائف معينة وامتيازات الغالبية من ابناء طائفة واحدة وقلة من قمم الطوائف الاخرى . وكان التناقض الشامل الذي يحتوي هذه التناقضات كلها مجتمعة ، هي بقاء لبنان ـ هذا العمر الطويل ـ يبحث عن هوية سواء كانت هوية وطنية او هوية انسانية .. فلبنان الكبير ـ المقسم عشائريا وطائفيا بفعل التشريع والتنفيذ القائمين ـ هو جزء منفصل ومتصل في آن واحد بالوطن العربي . ولبنان الحديث بحكم الخدمات التكنولوجية والمتخلف بحكم القيم والعلاقات الاجتماعية ، هو جزء منفصل ومتصل في آن واحد بروح العصر والعالم الحديث .

ان بحث لبنان عن هوية هو مغالطة وحقيقة في آن واحد ، فهويته التاريخية والجغرافية والمصيرية هي الانتماء العربي ، ولكن هويته الاقتصادية والاجتماعية هي هجين من العشائرية والطائفية والترانزيت والكمبيوتر . أن بحث لبنان ـ مرة اخرى ـ عن هوية هو مغالطة وحقيقة معا ، لان هويته الحضارية والانسانية هي

الانتماء الى العالم الحديث وروح العصر ، فقد حمل ابناؤه العظام منذ اكثر من قرن ونصف مشعل النهضة كأجداد اجدادهم الذين حملوا الى العالم شعلة الحرف .. الفرق الوحيد والجدير بالنظر العميق ، هو ان الحرف الذي حمله اليازجي والبستاني وشبلي شميل وفرح أنطوان ونقولا حداد ومي زيادة وجبران وميخائيل نعيمة والريحاني وغيرهم ، كان حرفا عربيا ، علمانيا ، ديمقراطيا أيقظ الكثيرين من العرب على فجر اليقظة القومية والنهضة الحضارية الحديثة .. فلماذا ، لماذا لم يوقظ لبنان وينهض به ؟

هذا هو السؤال .

★★★

قبل الجواب لا بد من الاشارة الى مجموعة المعطيات التي ادت الى الانفجار الكبير خلال الاشهر الثمانية الماضية :

١ — ان طول مدة القتال (هل انتهى بعد ؟) ودرجة وحشيته، لا يمكن ان تكون بأية حال وليدة المصادفة (رصاصة معروف سعد او حادث عين الرمانة) ولا يمكن ان تكون نتيجة السنوات القليلة الماضية التي شهدت مدا وطنيا وتقدميا ، ولا يمكن ان تكون مجرد تغطية لاتفاقية سيناء الاخيرة . ان نظرة تحليلية مقارنة بين احداث **١٩٥٨ واحداث ٧٥ تؤكد ان ما وقع بين نيسان وتشرين الثاني من هذا العام، هو انفجار كيفي لتغيرات كمية بطيئة جرتتحت السطح** طيلة الاعوام الثلاثين الماضية ، بمعنى ادق هو البرهان الدموي على زيف المعادلة التي اسستها اتفاقيات ١٩٤٣ .

.. فليس صحيحا ما يقال عن تنازل المسلمين في ذلك الوقت عن الانتماء العضوي للوطن العربي مقابل تنازل المسيحيين عن **الانتماء الحضاري للغرب (وهو تعبير مضلل يقصد به اصلا الحماية** الاجنبية ، وفرعا الارتماء في احضان النفوذ الاستعماري) . ليس هذا صحيحا لان المسلمين لا يملكون في حقيقة الامر « اختيار » الانتماء الوطني للبنان ، لان هذا الانتماء قدر ومصير وواقع

موضوعي مستقل عن « رغبات » هـذا الفريق او ذاك . والصحيح هو ان المسلمين والمسيحيين جميعا ، على صعيد المراكـز القطبيـة للدوائر ــ الدويلات قد ارتضت المعادلة المارونية اساسـا ، وهـي الانتماء الاقتصادي والسياسي للغـرب !! وذلـك لاسباب محليـة وعربية ودولية محددة : محليا هناك التفوق التاريخي للموارنة ــ لا عدديا ــ بل لامساكهم بأسباب التقدم ومشروع « المدنية » بمعناها المادي الضيق ، وقد توفر لها عن طريق ارتباطها الوثيق اقتصاديـا وثقافيا بالاجانب من الصليبيين الى الفرنسيين. محليا ايضا بسبب تصور « زعماء العشائر » الاسلامية وغير الاسلامية مـن الاقليـات الاخرى انه يمكن للدوائر الصغيرة المتجاورة ان تراوح فـي اماكنها الى الابد دون اية انفجارات بل ويمكن الحصول عـلى مكاسب مـن اسلوب تشكيل هـذه الكيانات الطائفية . عربيـا هناك الرجعيات العربية المحيطة ــ وخاصة سوريا انذاك ــ والتي لا يعنيها في كثير او قليل فتح الملف العربي للبنان ، ولا يستبعد انها كانت تطمح الى ارباح ما من داخل الحدود او خارجها ثمنا للصمت عـلى المؤامرة . دوليا كانت هناك اواخر الحرب العالمية الثانية ، والغرب يتطلع الى « منح » استقلالات شـكلية لبعض المستعمرات . وكـان « لبـنان الكبير » هو المشروع الفرنسي لانهاء عهد الانتداب والاحتفاظ براس جسر الى الوطن العربي .

وهكذا كان .. فلبنان الكبير فيَ واقع الامر هو لبنان الصغير المقسم فعليا الى دويلات تتزعمها واقعيا الدائرة المارونية .

ولما كان بقاء الدوائر المتلاصقة في حالة سكون ليس اكثر من وهم ميتافيزيقي يعادي قوانين الحركة الموضوعيـة فـي الطبيعـة والمجتمع على السواء ، انفتحت الثغرات التي اشرت اليها في جميع الدوائر دون الدائرة المارونية المغلقة باحكام فلم يكن من المستطـاع احداث فتحة في جانب منها بسبب التقارب الطبقـي بين شرائحها

الاجتماعية والنظام الايديولوجي الذي يحيطها بسلاح عقدة الاضطهاد التاريخية والاعتماد على الاجنبي والتنظيم الحديدي .

ومن هنا كان رد الفعل لدى الدوائر الاخرى هو الا تتسع ثغراتها وان تبقي على الكثير من معالم البناء العشائري الطائفي . والمهم انها لم تقدر على تذويب هذه الكيانات في وطن موحد تلتقي فيه مصالح الشرائح الاجتماعية من كل العشائر والطوائف ، فالعمال مثلا من كافة الملل والنحل في خندق واحد ، والفئات المتوسطة من كافة الدويلات في خندق اخر ، والراسماليون في خندق ثالث وهكذا. غياب ذلك كان بسبب انغلاق اهم الدوائر اقتصاديا وثقافيا، فكان ان ادت الثغرات المفتوحة الى عكس ما كان متوقعا منها ، وهو انها يسرت الاصطدام بالدائرة الممتازة ، فكان الانفجار المدوي .

٢ ــ من الشائع في الفكر السياسي اللبناني ان الطائفية غطاء للصراع الطبقي . وليس هذا في ظني تصويرا دقيقا للواقع ، وانما الادق ان يقال ان الطائفية هي غطاء للعشائرية .. فالتكوين العشائري هو الاساس الاجتماعي اللبناني (اكرر دون ان تكون القاعدة الاقتصادية العشائرية هي الغالبة كالزراعة والرعي) فهي اقرب لان تكون « تراثا راسخا » ، وليس من الصعب ان نجد طائفة لبنانية يمزقها التناحر العشائري بين زعماء القبائل . لذلك كان الصراع الاجتماعي اللبناني صراعا مركبا وبالغ التعقيد . ان البناء الهرمي للعشيرة الواحدة ، ينفي الصراع الاجتماعي من مقومات وجوده ، ولكنه لا ينفيه من الواقع الحي بين القاعدة الجماهيرية المسحوقة والقمة القائدة . ولكن هذا الصراع يلتوي عنقه في احيان كثيرة بفاعلية القيم والعلاقات الاجتماعية العشائرية . ومن مظاهر « لي العنق » بطء معدلات هذا الصراع والخشية من تعارضه مع اقدس المقدسات والخلط بينه وبين المقومات الطائفية للعشيرة ، ومن ثم فهو يأخذ اشكالا ابعد ما تكون عن الصراع الطبقي الكلاسيكي ، ويتطلب ــ في النضال ــ وصل

قنوات بين هذه الاشكال والصراع الاجتماعي داخل بقية العشائر من ابناء الطائفة الواحدة ، ثم بين هذه الطائفة وبقية الطوائف . من هنا كانت الطائفية غطاء للتكوين العشائري ذاته (ويمكن اعتباره مع الفارق صورة بدائية للتكوينات النازية والفاشية . وهنا ايضا يمكن اعتبار الدائرة المارونية اكثر منطقية واتساقا مع نفسها لانها انتقلت من مرحلة البداوة النازية الى مرحلة متقدمة في الفكر العرقي فهم شعب لبنان المختار ، وفي التنظيم العسكري ايضا) . ثم يمكن التدرج بعدئذ من الاقرار بأن الطائفية غطاء للعشائرية الى الاقرار بأن العشائرية حائط منيع ضد الصراع الاجتماعي . والنتيجة الاساسية لهذا التصور ، هي ان الصراع اللبناني ليس بين المسيحيين والمسلمين ، ولا هو صراع بين العمال والبرجوازية، وانما هو صراع بين العشائرية والمواطنة ، بين التكوين العشائري والتكوين الوطني . انه صراع مراكب وليس صراعا بسيطا بين فريقين ، وان تلبس في احد جوانبه بالازياء الطائفية (التي لا تحجب الوجه الاجتماعي بقدر ما تحجب الوجه العشائري) وان تلبس ايضا في جانب اخر بالازياء الطبقية (التي تسهل رؤيتها في الصراع بين قواعد الدوائر المظلومة والدائرة ذات الامتيازات ، ولكن تصعب رؤيتها وبلورتها داخل ابنية الدوائر المظلومة نفسها ، في صلب نسيجها العشائري) .

٣ — وقد ترتب على هذا التكوين الخاص لما يسمى مجازا بالمجتمع اللبناني ، تداخل مثير بين « الطبقات » ، اذ هناك طبقات وليست هناك في وقت واحد .. ففي ظل اقتصاد « الخدمات — الاستهلاك » هنالك شرائح طبقية يمكن تمييزها بوضوح سواء في حقول الزراعة التجارية او الصناعة الاستهلاكية او الخدمات المصرفية . هناك تجار واصحاب مصانع وحرفيون وعمال وزراع ، وقبل هؤلاء جميعا هناك وكلاء الشركات الكبرى ذات الجنسية اللبنانية او المتعددة الجنسيات . هناك ايضا احزاب ونقابات

واتحادات وغرف تجارية وصناعية ومالية تستقطب المصالح الفئوية لكل شريحة طبقية . ولكن المسافة بين التكوين الاقتصادي والتكوينات الاجتماعية هائلة ، كذلك المسافة بين القاعدة الاقتصادية للهرم وقمته السياسية في التشريع والتنفيذ . اي انه ليست هناك « نقاط » تتقاطع عندها الخطوط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، لانعدام التوازي المحكم بين النظام الاقتصادي (غير المتأصل في الارض الوطنية بالزراعة والصناعة ، والمعتمد اساسا على التوكيلات والخدمات والاستهلاك ، والمتحضر بأحدث وسائل التكنولوجيا المعاصرة) والنظام الاجتماعي (المعتمد في علاقاته على تفتت الدويلات وقيم العشيرة) والنظام السياسي (المعتمد على معادلة طائفية مزيفة الولادة ولكنها ترسخ الانقسام الظاهري وتحجب الانقسام الاجتماعي) .

نتج عن ذلك تداخل مثير بين الطبقات داخل العشيرة الواحدة ، وبالتالي داخل الطائفة الواحدة ، ومن ثم داخل « المجتمع » ككل ، فقد تميعت الحدود والفواصل ، واصبح القوام الطبقي مهتزا وسائبا تحت عنوان كبير زائف هو « الازدهار اللبناني » وتحت شعار اكثر تضليلا هو « ارتفاع مستوى المعيشة اللبنانية » . وذلك كله نتيجة الفصام بين « الحدود الوطنية » و « الحدود الاجتماعية » . وعلة العلل كانت ذلك « التقسيم » الذي وقع عام ١٩٤٣ تحت راية « التوحيد » بل « لبنان الكبير » . وهو في واقع الامر لبنان الصغير الذي ارادته احدى الاقليات ونفذت ما تريد في لحظة مواتية من الزمن المحلي والعربي والدولي .

لبنان ١٩٤٣ اذن هو لبنانها ، وحربها الوقائية التي اشعلتها عام ٧٥ هي للابقاء على هذا اللبنان ، ولم تكن كافة مشاريع التقسيم الا مناورة سياسية بارعة ، قصدت بها الضغط للحفاظ على لبنانها الراهن . ولكن طول مدة القتال ودرجة وحشيته برهنت بالدليل الدموي الدامغ ، على زيف المعادلة التي توصل اليها « رواد

الاستقلال » . انها المعادلة التي ابرزت وجه لبنان كما لو كان بـلا ملامح ، بلا هوية . بينما كان رواد الاستقلال الحقيقيون من المفكرين اللبنانيين الكبار قد حددوا منذ منتصف القـرن الماضـي هويـة لبنان في ثلاثة ملامح : هي الانتمـاء العضـوي للوطـن العربـي ، والعلمانية الديموقراطية ، والعدل الاجتماعي .

وكان هؤلاء الرواد هم مصدر « العطـاء » اللبنانـي الفريـد والمتميز ، هم رمز الحضارة العربية الحديثة ونهضتها ، فلنستمع اليهم ماذا يقولون .

★★★

يقف المفكر والاديب والصحفـي اللبنانـي العظيـم بطـرس البستاني (١٨١٩ ــ ١٨٨٣) في صف واحد مع كبار رواد فجـر النهضة العربية الحديثة من امثال الطهطاوي والافغاني ومحمد عبده وخير الدين ، وان تميز عنهم جميعا بانه كان اكثـر جذريـة فـي الفكر والسلوك ، ومن ثم كان اعمقهم استيعابا لمعنى « النهضـة » واكثرهم شمولا في ترسيخ معنى « التغيير ». ورغم ذلك كله ــ او بسببه ــ كان اقلهم انتشارا ، بل واقل تأثيرا في مسقـط راسـه لبنان . ورغم ضيق الرقعة البشرية التي ترك عليها بصمته ، فانها كانت بصمة عميقة اثرها لا يزول .

ولعل المواطن العربي اينما كان لا يزال يذكـر البستاني مـن قاموسه الشهير « المحيط » وموسوعته التي لا تقل شهرة « دائرة المعارف » التي لم تكتمل بوفاته . اما تاريخ الادب العربي فسوف يظل يذكره كواحد من ابرز الرواد للنثر العربـي الحديث حيـث اسهم في عملية الانتقال باللغـة العربيـة مـن مستواها البلاغـي المتوارث الى مستوى حضارة العصر الجديد ، وذلك بان جعلها ــ الفاظا وتركيبات ــ لغة حية مطواعة لتمثل العلوم والاداب الحديثة، بالاشتقاق والتوليد والتعريب . ولم يتوقف في هذا الصدد عنـد حدود البحث النظري ، بل شارك في هذا الخلق الجديد للغـة ،

بابداعاته المختلفة في ميادين القصة والرواية والصحافة .

ولم تكن مساهمة البستاني في هذا السياق لفجر النهضة ترفا شخصيا ولا مهارة حرفية ولا مصدرا للرزق ، وانما كان « ايمانا » يعمر قلب احد انبياء العصر العربي الجديد : هو من ناحية ايمان بالوطن ، ومن ناحية اخرى ايمان بالحضارة . وليست انجازاته كلها الا « همزة وصل » بين المواطن والحضارة . كان رسولا لبنانيا للنهضة العربية من عصور الانحطاط الى عصر النور الوافد من الغرب . ولم تكن اعماله ومؤلفاته الا « وسائل » لهذا الانتقال من مرحلة تاريخية تميزت بالسبات الطويل الذي اغفى عيون العرب حوالي الف سنة الى مرحلة تاريخية تعرف باليقظة القومية او النهضة العربية الحديثة .

ومن هنا لم يكن البستاني هاويا ولا متخصصا في علوم اللغة حين اكب على تأليف القاموس وتوليف الموسوعة وتحديث الاسلوب وعصرنة الصحافة وكتابة القصة والرواية وفتح المدارس المدنية وتكوين الجمعيات السرية وحلقات الحوار الضيقة . وانما كان البستاني « مناضلا » بالمعنى الحقيقي الاصيل لهذه الكلمة التي انتهكت من كثرة الاستعمال في وقتنا الحاضر . وكان مناضلا من نوع خاص يترجم العمل السياسي الى عمل نهضوي شامل يتسع للسياسة والثقافة والعمل الاجتماعي . ولم يكن ذلك النضال اختيارا ذاتيا محضا بل ثمرة موضوعية للعلاقة بين ملكات الذات واحتياجات الواقع .

كان « الواقع » في زمن البستاني هو الامبراطورية العثمانية التي بلغت مرحلة الشيخوخة وامست رجل اوروبا المريض . كان الواقع ايضا هو النمو المتصاعد للبرجوازيات الاوروبية التي ما فتئت تتطلع الى مفاتيح « الشرق » على سواحل البحر الابيض المتوسط . واذن فالصراع الدولي ــ بالنسبة لبر الشام المقصود به آنذاك سوريا ولبنان وفلسطين ــ كان في ذلك الحين ، بين اوروبا

الصاعدة وتركيا الآفلة . اما **الواقع العربي فقد كان من ناحية** نهبا للصراع الدولي بين القوتين المتنافستين الاولى باسم التراث والاخرى باسم الحضارة وكلاهما في واقع الامر يخفي الهدف الحقيقي للسيطرة والهيمنة الاستعمارية . وكلاهما التقى موضوعيا — للوصول الى هذا الهدف — عند كثير من الوسائل ، وفي مقدمتها **ترسيخ الحدود المفتعلة والمزيد من التجزئة ان كان ذلك ممكنا** . والتقيا ايضا في الابقاء على طائفية هذه الحدود وعشائرية مضمونها **الاجتماعي ، اي الابقاء على « التخلف » وان تباينت الرايات** ، فالعثمانيون يرفعون علم الخلافة ، والاوروبيون يحملون علم حماية الاقليات . واذا كان الاتراك لا يملكون سوى المشاعر الدينية ، فان الفرنسيين والانجليز كانوا يملكون الآلات والماكينات الحديثة .

نظر البستاني امامه ووراءه وحواليه ، وغرس قدميه في عمق اعماق الارض ورفع عينيه الى اعلى اعالي السماء ، فراى « الخلاص » من التخلف الداخلي والشهوات الخارجية عبر طريق واحد هو « الاستقلال » . ولكن اي نوع من الاستقلال ؟ وهل يؤدي الاستقلال عن « القوتين الاعظم » الى الفراغ ؟ وكان جواب البستاني ان الوجه الآخر للاستقلال هو « الانتماء » . ولكن اي انتماء .

لم تكن المسألة يسيرة على الاطلاق ، كما يبدو لنا الامر الآن من طرح هذه الاسئلة « البسيطة » فالواقع المر كان بالغ التركيب . لقد اثمر السياق التاريخي الكثيف والمعقد « وقائع » لا سبيل لتجاهلها ، اثمر مصالح ومخاوف وتركيبات لا يجوز القفز من فوقها بهدف الوصول الى حل سهل وسريع . كانت هناك المجازر الطائفية تغذي المشاعر الدينية ، وكانت العقد التاريخية قد استولت على افئدة البعض وعقولهم . وكانت هناك حسابات المكسب والخسارة **من الارتباط بالخلافة العثمانية والانتماء للحماية الاجنبية . وكان** هناك تهرؤ الدولة العربية القديمة وانحلالها ، ومن اخطر مظاهر

انحطاطها الحروب العشائرية والمذهبية التي شكلت حدود الدويلات على اكثر الاسس تخلفا في تاريخ البشرية . كان هناك كل ذلك والبستاني « يرى » الخلاص بالاستقلال والانتماء .

لهذا حين نتساءل معه اي استقلال واي انتماء ، يتحتم علينا ان نحشو هذه التساؤلات في مخيلتنا بكثافة الواقع المر وتعقيداته المذهلة . كان لا بد بالتداعي مثلا ان تتطور الاسئلة هكذا : الاستقلال « عمن » والاستقلال « لمن » ، وكذلك الانتماء : انتماء « من » والانتماء « لمن » . ثم « كيف » يتم الاستقلال ويتبلور الانتماء : ما هي الاسس والوسائل ؟

وفي الجواب على هذه التساؤلات جميعها ، تكمن « رؤيا الخلاص » عند البستاني . ليست نبوءة ميتافيزيقية تنتهي عند حدود « ابلاغ » الرسالة ، وليست شهادة محايدة لضمير معذب . بل كانت نبوءة البستاني وشهادته « برنامج نضالي » مارس تنفيذه بالفكر والعمل الى ان مات . ولم يمت البرنامج بموته ، لان « الواقع » ظل بحاجة اليه ، فانتشر تلاميذه يدعون اليه ويكافحون من اجله . وحين انتهى عهد التلاميذ ، اصبح فكر البستاني ونضاله تقليدا عظيما من اروع تقاليد النهضة العربية الحديثة .

★★★

اجاب البستاني ، لا بقدح الذهن او بتفجير القريحة ، وانما راح يتلمس واقع الارض الواقف عليها، ويستشرف آفاق المستقبل المنظور . هكذا جرته احتياجات الواقع الموضوعية المستقلة عن حسابات الارباح والخسائر الفئوية ، الى ان « الاستقلال » هو « للشعب العربي في المشرق » . وكان يقصد بالدقة ما دعى في ذلك الوقت« سوريا الكبرى » . وهنا يجب التمييز بحسم بين دعوة البستاني الى « عروبة سوريا » ودعوات اخرى الى « سوريا السورية » في مواجهة العروبة. ان فكر البستاني كان يتجه ــ اكرر

في ذلك الوقت ! ـ الى « قومية عربيـة مصغرة » تصلـح نـواة للدولة العربية الكبرى ، بينما كان فكر الاخرين نواة لدولة « الهلال الخصيب » . وشتان ما بين الدعوتين . لقد اخـذ البستاني فـي اعتباره ان « واقع بر الشام » اكثر استعدادا للتوحيد العربي واكثر احتمالا من ان يضم اليه العراق او شبه الجزيرة ، حتى لا يتحول الامر الى « مجرد حلم » . هكذا كان البستاني « مقتنعـا بعروبـة جميع الناطقين بالضاد مسيحيين ومسلمين » كمـا يقول البـرت حوراني في كتابه « الفكر العربي فـي عصر النهضة » (ص ١٢٨) حتى انه يعد اول كاتب جاهر معتزا « بدمه العربي » (ص ١٢٩). ولكنه راى الوطن العربي كالطهطاوي في مصر مجموعة من الوحدات الاقليمية « فسوريا ككل هي وطنه اذ ان جميع سكانها مشتركون في أرض واحدة وعادات واحدة ولغة واحدة » (ص ١٢٩) .

هذا هو الشطر الاول مـن جـواب البستاني عـلى سـؤال الاستقلال : استقلال من . اما الشطر الثاني فهو الاستقلال « عن » الامبراطورية العثمانية والغرب معا . ولعل هذا الشطر من الجواب ينطوي جزئيا على رفضه لان يكون « الديـن » اساسـا للانتمـاء (والكلام هنا موجه الى المسيحيين والمسليمن معا ، فلا حاجة الى الخلافة من ناحية ولا الى الحماية من ناحية اخرى) . وكان فـي ذلك يصدر عن عدة معطيات : الاولى انه شخصيا ومـن تجربتـه الذاتية كان يشعر بفرح الانتماء الى دائرة اوسع من البشر (حتى انه انفصل عن اصله الماروني واعتنق البروتستانتية) . والثانية انـه كان يرى ان « الوحدة الوطنية » هي مشروع الحياة الوحيد لجميع الذين يعيشون في بلد واحد على قدم المساواة وذلك لان « جميـع الاديان واحدة » . وبالرغم من ان هذه الفكـرة تلقـى تأييدا مـن العقيدة الاسلامية بينما يصعب تبنيها مـن جانب المسيحية الا ان البرت حوراني يؤكد « ومع ذلك فقد تبناها جميع الكتاب المسيحيين من مدرسته » (ص ١٢٩) . وقد اتخذ البستاني من عبارة « حب

الوطن من الايمان » المنسوبة الى النبي شعارا لاشهر مجلاته « نفير سوريا » . غير ان المصدر الرئيسي لفكرة فصل الدين عن الدولة لدى البستاني (وكانت تعني سياسيا فصل المسلمين من العرب عن تركيا وفصل المسيحيين منهم عن الغرب) هو ايمانه العميق بالثورات البرجوازية الاوروبية ولب لبابها ـ فيما يرى ـ هو العلمانية والليبرالية « فاذا كان على سوريا ان تتمدن ، فعلى حكامها ان يقوموا بأمرين : الاول اصدار قوانين عادلة متساوية تتفق مع روح العصر ، وتلتفت الى الموضوع لا الى الاشخاص ، وتقوم على الفصل بين حقلي الدين والدنيا . والثاني : انشاء تربية باللغة العربية ، اذ يجب ان لا تصبح سوريا بابل لغات كما هي بابل اديان » (نفير سوريا عدد ٧ مجلد ١٨٦٠) .

كان البستاني اذن بدعوته الرئيسية الى فصل الدين عن الدولة يضرب عصفورين بحجر واحد : اولهما الاستقلال عن تركيا والغرب معا ، والثاني ترسيخ الوحدة الوطنية بين ابناء الوطن الواحد . ولكن الاستقلال عن الغرب ، كان له عند البستاني معنى ابعد ما يكون عن الانطواء على الذات القومية المتخلفة ، فهو يقصد الاستقلال السياسي والاقتصادي ، ولكنه يلح في ضرورة الانفتاح على اعلى الذرى الحضارية في العالم الحديث « اوروبا » لا باستيراد منجزاتها المادية فحسب ، بل باستيراد منجزاتها الفكرية اولا . لذلك كان هدف « التربية » عنده هو « فهم العلوم الحديثة وما يكمن وراءها من طريقة عقلية دقيقة للتفكير والعمل » و « تغيير عقول الناطقين بالضاد وقرائها وجعلهم مواطنين في عالم العلم والاختراع الحديث » . وفي مجلته « الجنان » التي اسسها عام ١٨٦٠ والتي ظلت تصدر ستة عشر عاما ، راح يؤكد على ازدهار الحضارة العربية وانها لم تفسد الا بسبب « الحكم الفاسد » وانه ليس من علاج لفسادها الراهن الا بالحكم الصالح « الذي لا يمكن ان يقوم الا باشتراك الجميع فيه ، وفصل الدين عن السياسة ،

وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية ، وفرض ضرائب نظامية (يقصد تصاعدية) واجراء اشغال عامة مفيدة ، وجعل التعليم اجباريا ، وقبل كل شيء اقامة العدل والاتحاد بين ابناء الاديان المختلفة وتقوية الشعور الوطني الموحد » .

وفي عام ١٨٥٨ القى البستاني محاضرة شهيرة افصح فيها بوضوح لا يقبل الجدل بان هناك كيانا متجانسا هو « العرب » واننا ننتمي الى شيء اسمه « الثقافة العربية » . وقبل ان يموت بثماني سنوات — عام ١٨٧٥ — اسس بعض الشبان المسيحيين من حلقة البستاني جمعية سرية صغيرة وعلقوا بين عامي ١٨٧٩ و ١٨٨٠ منشورات فوق جدران بيروت تدعو ابناء سوريا الى الوحدة في اطار حكم ذاتي يضم سوريا ولبنان ، وبالاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية . وكان لهذه الدعوة دويها الصارخ بالخطر في قلب الامبراطورية العثمانية .

★★★

وهكذا استكمل بطرس البستاني معالم « الهوية » الضائعة فوق قمم الجبال وبين الانهار والوديان والسهول ، تحت ركام السلطنة العثمانية والهيمنة الغربية . وكان اول الملامح وابرزها هو « عروبة » هذا الشعب بمختلف طوائفه ومذاهبه . وكان الملمح الثاني هو الانتماء الى الحضارة الحديثة في اكثر مظاهرها تقدما : العلمانية والليبرالية والوحدة الوطنية . وكان الملمح الثالث والاخير هو العدل الاجتماعي .

كان — دون ان يدري ربما — احد انبياء العصر العربي الجديد ، عصر الثورة الوطنية الديمقراطية . ولم يكن « عمله » طيلة ٦٤ عاما الا انجازا رائدا لفكر النهضة العربية الحديثة . . فقاموسه « المحيط » وموسوعته « دائرة المعارف » وصحفه ومجلاته المتعددة وقصصه ورواياته لم تكن سوى ادوات « البشارة»

بهذه المعاني كلها .

هل كان سابقا لعصره كما يقال احيانا في بلاغة المبالغين ؟ ام كان ابنا وفيا للعصر .. وواقعنا هو الذي خان الامانة ؟

ولكن روح البستاني العظيم ، ظلت باقية في موكب رائع من الانبياء الجدد .

(٢)

« تحولت الكنيسة المارونية في بداية القرن التاسع عشر الى مالك اقطاعي ضخم للارض وانتشر نفوذها انتشارا كبيرا بين الاهالي الموارنة الذين يفوقون الدروز عددا . بيد ان دورها السياسي في البلاد لم يكن يتناسب مع وضعها . فالرتبة الدينية العليا لم تكن تعطي حقا في الملكية الاقطاعية المشروطة ولم يكن رجال الدين – باستثناء الحالات التي يكونون فيها من الارستقراطيين – يتمتعون بامتيازات اصحاب المقاطعات : السلطة الادارية على السكان والحق في جباية الضرائب .وغالبا ما كان رجال الدين انفسهم في تبعية لصاحب المقاطعة تجعلهم يضيقون ذرعا بهذا الوضع مما دفعهم لتأييد سياسة بشير الثاني الرامية الى الحد من نفوذ الارستقراطية الضخمة . وبما ان اقتصاد الاديرة كان عادة يرتبط بالسوق ارتباطا اوثق من ارتباط اراضي الاقطاعيين به فان رجال الدين كان من مصلحتهم خلق ظروف مناسبة لتطور التجارة دونما عائق ، الامر الذي لا يمكن تحقيقه الا عند جعل السلطة في البلاد مركزية . وقد عمد الامير بشير لاعتناق المسيحية واعطاء امتيازات للسكان المسيحيين وذلك لتوطيد الكسب الذي حققه في نوال تأييد رجال الدين والسكان الموارنة . وقد دفعه الى هذا ايضا العلاقات الاقتصادية والسياسية المتنامية بين لبنان واوروبا. وكان من نتيجة هذا ازدياد الوزن السياسي لرجال الدين والاقطاعيين الموارنة في البلاد مما اثار صراعا حادا بين فئتي الدروز والموارنة داخل الطبقة الاقطاعية . وقد لعب هذا دورا في

استفحال الصدام بين الدروز والموارنة وخلق الوضع السياسي الذي تطور فيه النضال المناهض للاقطاعية ما بين السنوات الاربعين والخمسين من القرن التاسع عشر » .

هذا ما تقوله حرفيا المستعربة الروسية ا . سميليانسكايا في كتابها المترجم للعربية « الحركات الفلاحية في لبنان » (٦٧) . وهي ترسم دون ان تقصد صورة حية للمناخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي نبتت في ارضه الافكار الكبيرة لفجر النهضة العربية الحديثة على ايدي الرواد المسيحيين اللبنانيين وفي مقدمتهم المعلم العظيم بطرس البستاني . وحتى نتلمس الخطوط والالوان والاضواء والظلال التفصيلية في اللوحة التي رسمتها المستعربة الروسية ـ لمعرفة الفعل ورد الفعل الذي اثمرته في فكر النهضة ـ علينا ان نقرأ بعض النصوص بدقة وامعان . تقول (ص ٢٢) ان التطور الفائق الذي اصاب الاستغلال التجاري الربوي في الريف والذي كان في نهاية المطاف يعرقل نمو العلاقات السلعية ـ النقدية ، لم يتأت من علو درجة الاستغلال الاقطاعي فقط بل ومن الاتجاه الذي اتخذه تطور الاقتصاد في سوريا ولبنان « فقد سبب سيل السلع الصناعية المنهمر الى المنطقة بعد اكتمال الانقلاب الصناعي في اوروبا تدهور الحرفة والمانوفاكتورة في سوريا . وتقلص الى حد بعيد عدد سكان المراكز الحرفية في البلاد ، في حلب ودمشق . ولم يكن الفلاحون الذين حل بهم الخراب بقادرين على مغادرة القرية الى المدن طلبا للعمل ، بل كانوا مضطرين للتمسك باستثماراتهم وللوقوع فريسة في ايدي المرابين » . ونتيجة لتهدم الانتاج الحرفي والمانوفاكتوري الذي وقع في اواسط القرن التاسع عشر في دمشق وحلب تحت تأثير سلع المصانع الاوروبية « لم يصاحب في لبنان بهلاك الصناعات الريفية لان هذه السلع كانت مخصصة لسوق اضيق وكان مصدروها اكثر مرونة في تقدير مطالب الفئات الواسعة من الاهالي . وفضلا

عن هذا فان الحرفي الريفي لم ينقطع عن الزراعة التي كانت تؤمن له وسائل المعيشة . ولكن منافسة السلع الاوروبية كانت تعرقل نجاح تطور اشكال التنظيم الراسمالية العليا للصناعة داخل الحرف الريفية » (ص ٢٦ ، ٢٧) . وكانت القرى في لبنان « تتمركز في الجبال بالقرب من منابع المياه حيث توجد الاراضي الصالحة للزراعة . وكانت بعض القرى تتألف من خمسة او ستة بيوت ، ويصل عدد بيوت البعض الاخر حتى الثمانين بيتا . وكانت القرى الكبيرة تقسم الى احياء تربط بين سكانها قرابة الدم ، وتشغل كلا منها اسرة ابوية كاملة تدعى بالبيت . واحيانا كانت تحتل الحي عشيرة مؤلفة من اقارب تجمعهم صلة قرابة واسعة » (ص ٥٦) .

ونحن نستخلص من هذه الصورة التي انطوت في المقابل على افكار النهضة الاولى ان القرن التاسع عشر قد شهد البذور المبكرة للمشكلة والحل معا . فالكنيسة من ناحية ليست فقط معبدا يؤم للصلاة ، بل هي عنصر اقتصادي ــ ملكية الارض ــ يلح في استكمال الوجه السياسي للسلطة . والكنيسة المارونية ــ آنذاك ــ لا يتطابق دورها في الانتاج الاقطاعي ودور الجماهير المسيحية التي اتجهت مع طموحات الانقلاب الصناعي الاوروبي الى التجارة والسمسرة والربا بدلا من الزراعة . وربما كانت تلك المرحلة التاريخية الخطرة ــ أواسط القرن التاسع عشر ــ هي الجذر الرئيسي لما نسميه الان بالمسألة اللبنانية . تقول المستعربة الروسية في كتابها المذكور انه « في السنوات العشر الاخيرة من حكم الامير بشير ساء جدا وضع الفلاحين الدروز الذين جردوا من امتيازاتهم ، وقد نكل بأكابر الارستقراطية الاقطاعية الدرزية واضاعوا نفوذهم السياسي . وقد ساعدت دورات التجنيد على التدهور الاقتصادي للفلاحين الدروز وتقوية تبعيتهم للمرابين والتجار المسيحيين مما كان يؤدي بدوره الى نشوء العداوة بين

الفئتين » (ص ١١٣) . وتذكر المؤلفة بعدئـذ حقيقتين جديرتين بالتأمل ، وهما استغلال الامير بشير لهذا التناقض واذكائه نـار الفتنة بين الطرفين بمختلف الوسائل . والحقيقـة الثانية هي استغلال الدول الاوروبية لاحداث ١٨٦٠ وما لعبتـه من دور استفزازي لاشعال الحريق ، هي والسلطات التركية . ولقد كانت « اللجنة الدولية » هي التي كلفت الباب العالي بوضـع ما يسمى « النظام الاساسي » عام ١٨٦١ وهو أول تشريع طائفي في تـاريخ البلاد يكرس الامتيازات المارونية (ص ٢٤٢) . وعـلى الصعيد الاقتصادي كان ذلك المناخ هو الجذر الحقيقي لنشأة المجتمـع الطفيلي القائم على الخدمات والاستهلاك رغم التكوين العشـائري للمجتمع « فحتى الربع الثاني من القرن التاسع عشر كان سكـان جبل لبنان من الريفيين الموزعين في مقاطعات الاقطاعيين ، اما الان فقد اخذ تتنشأ القرى المهنية الضخمة ، الى جانب مدينتيـن يتألف سكانهما من التجار والمرابين والمهنيين الصناعيين الذيـن يتعلقون اقتصاديا بالاقطاعية ويتصفون بالتلاحم والتنظيم اكثر من الفلاحين ، وقد اصبحت المدن مركزا لمقاومة التعسف الاقطاعي » . وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر تسارع تغلغل البـلدان الاوروبية الاقتصادي وتطفلها على الحياة السياسية داخل لبنـان « واخذت البلدان الاجنبية تشق الطرق البحرية الى شـواطىء لبنان ، وتأسست الشركات التجارية وأولى مصانع الحرير ، وأول بنك في البلاد ، وشق طريق دمشق ــ بيروت . واخذت البـلاد تستقبل الرحالة ورجـال السياسة والصحفيين والضبـاط الاوروبيين . وبدأ السكان يطلعون على اشكال الحياة الاجتماعيـة والافكار الجديدة في اوروبا خارقين بهذا عزلة لبنان وانغلاقه على نفسه . وهكذا تشكلت تربية اجتماعية جديدة لتقبل الافكـار البرجوازية ومهدت السبيل لنفوذها الـى لبنان » (ص ٢٤٥) .

نعم ، لا شك انه كان للعامل الخارجي وجهه الايجابي رغـم

ان هدفه الرئيسي هو السيطرة الاقتصادية والسياسية على الشرق ، ورغم ان وسائله بالذات كانت ضد افكار الثورة الفرنسية والثورات البرجوازية عموما . انه في الاقل كرس الطائفية والعشائرية اي التخلف والثيوقراطية في مواجهة العلمنة والديمقراطية ، وتحالف مع الامبراطورية العثمانية في هذا التكريس حين كانت موازين القوى والمصلحة يقتضيان ذلك . ولكن الوجه الايجابي على صعيد الفكر كان ساطعا . لقد استطاع الفكر اللبناني – وخاصة المسيحي – ان يضع منذ ذلك الوقت « برنامجا للتغيير » لا زال سخيا في العطاء الى وقتنا الراهن ، بل انه اللهب الذي يشعل حتى هذه اللحظة اكثر التيارات الفكرية اللبنانية المسيحية تقدما وجذرية ، واقدرها بالتالي على معالجة المأساة التي يحياها لبنان اليوم .

ولان الفكر ليس مجردات نظرية في الفضاء تتعاطاها العبقرية من الوحي الميتافيزيقي ، ولان الفكر اللبناني كأي فكر آخر لم يكن قط مجرد صدى للصوت الخارجي ، فانه يتعين علينا ان نشير الى ان مجموعة من الانتفاضات الشعبية للبنانيين قد سبقت وتلت الفكر الثوري لفجر النهضة ، تفاعلت معه والهمته ، تبادلت واياه الخبرة الواقعية للحياة والنظر التغييري المؤثر .. فلم يكن بطرس البستاني مثلا – وقد ولد عام ١٨١٩ – صوتا صارخا في البرية او مترجما هاويا للغرب الحديث ، بل كان وتلامذته ورفاقه وخلفاءه نبتا أصيلا في ارض أصيلة .

اننا نعلم مثلا ان التقسيم السياسي للبنان قبل عام ١٨٦١ – حين اعلن البروتوكول اللبناني وبموجبه وضع لبنان الصغير تحت حماية الدول الغربية السبع – يختلف كثيرا عن لبنان الراهن .. فالاقطاع اللامركزي كان الشكل السائد على المجتمع والحكم ، اي ان البلاد كانت مقسمة الى اقطاعيات يتولى حكمها « صاحب عهدة » او « متسلم » وهؤلاء يدفعون الضرائب للامير

المركزي الحاكم . وفي عامين متتاليين ١٨٢٠ و ١٨٢١ وقعت انتفاضتان مشهودتان تسببت اولاهما في هرب الامير بشير الشهابي الى حوران . وتسمى هذه الانتفاضة الاولى بكومونة انطلياس حيث رفض الاهالي دفع المزيد من الضرائب « وعرفوا كيف ينقلون البارودة من كتف الى كتف » كما يقول يوسف خطار الحلو في كتابه « العاميات الشعبية في لبنان » (ص ١٥) . والانتفاضة الثانية تنسب الى « لحفد » عام ١٨٢١ « وهي ثاني ثورة شعبية مسلحة ضد الاقطاعية في لبنان ، ثورة قام بها الفلاحون المتحدون من مختلف الملل والنحل » (ص ٢٦) . اما الذي جرى بين ايار وحزيران عام ١٨٤٠ فقد كان نقطة تحول في تاريخ الحركة الشعبية اللبنانية ، حيث تجاوزت « المطالب » النطاق الضرائبي المحض الى « النضال في سبيل الحرية والمطالبة بالعدالة ضد الظلم والطغيان » . وبالرغم من انه لم تكن هناك خطوط واضحة للتغيير السياسي الا ان العمل الاستثنائي الذي وقع استهدف اساسا ان يشجب « نظام الحكم باكمله » . وتعلق المستعربة الروسية « الامر الذي اثر فكريا في مجرى الاحداث بعد ذلك » . وقد تشكلت جمهورية فلاحية في كسروان حققت المثل العليا للفلاحين اللبنانيين التي عبروا عنها جزئيا عام ١٨٤١ . « فلم تعد الضرائب تجبى والغي حق الاقطاعي في اقامة المحاكم ، واصبح جميع السكان يتمتعون بحقوق متساوية ، وحلت المسألة الزراعية بالاستيلاء على اراضي الاقطاعيين وتوزيعها » (ص ٢٤٧) وفي عام ١٨٤٥ كانت الجماهير الشعبية المارونية بقيادة اعيان مدينة دير القمر المتأهبة للصدام تحاول ان تقضي على الرجعية الاقطاعية في فترة الصدامات .

.. ولعله بات الان واضحا غاية الوضوح ان المذابح الطائفية المفتعلة كانت ثمرة تناقضات اقتصادية واجتماعية وسياسية اصيلة في البناء الاجتماعي العشائري ، تغذيها للانضاج السريع

تحالفات العثمانيين والاوروبيين . وان الانتفاضات الدموية العادلة كانت تستقطب الكادحين من مختلف الطوائف ضد « اسيادهم » الاقطاعيين والاجانب معا .

★★★

وفي هذا المناخ — اكرر — ولد الفكر الوطني الديمقراطي لرعيل المسيحيين الاوائل ، والذي كان بطرس البستاني بموسوعيته وشموله رائده الاول .. واذا كان الرائد قد مات - ١٨٨٣ — فان تياره الفكري لم يمت . ومن الملاحظ ان هذا التيار قد اثر على مجرى النهضة العربية الحديثة اكثر مما اثر على لبنان . ومن الملاحظ ايضا ان حلفاء البستاني قد اعطوا انضج اعمالهم في اوروبا والاميركتين وفي مصر على وجه الخصوص . قبل ان نبحث عن الاسباب ونلحق بالنتائج ، علينا اولا ان نتذكر السمات الرئيسية لهذا التيار وهي : عروبة لبنان ورفض الوصاية الاسلامية العثمانية من ناحية والوصاية المسيحية الاوروبية من ناحية اخرى . ثم وطنية الاقتصاد اللبناني بزرع القرية وتصنيع المدينة ورفض ان يكون لبنان مجرد ممر للسلع الاوروبية وان تكون كل مهمته القيام بدور السمسار والخادم والمستهلك . ثم علمنة الدولة والمجتمع بصهر التكوين العشائري ورفض الصيغة الطائفية حتى تصبح للحرية والديمقراطية مدلولها الحقيقي فلا تكون حاصل جمع توازنات دينية بل تفاعلا وطنيا صميما لارادات الشعب وتجسيدا اختياريا لطموحاته في التقدم. ومن ثم لا حرية سياسية بغير حرية اقتصادية على الا تصل الى تخوم الفوضى وبالتالي دكتاتورية الاقلية وعبودية الاكثرية ، فلا بد من تأصيل الحدود الدنيا للعدل الاجتماعي .

تلك هي الافكار الرئيسية لعصر التنوير اللبناني ، الذي اتسعت فيه المسافة بين الواقع والفكر — لهيمنة العثمانيين ثم الاوروبيين وبالتالي ترسيخ التخلف والانقسام — مما ادى باعظم

المفكرين اللبنانيين الى الهجرة نحو الغرب او التوطن في مصر منذ الربع الاخير من القرن الماضـــــي الى نهاية النصف الاول مـــن هذا القرن .

وقد كانت مجلتـــــا « المقتطف » ـ ١٨٧٦ ـ و « الهلال » ـ ١٨٩٢ ـ هما ابكر واخطر المنابر اللبنانية المسيحية التي حملت لواء الدعوة بتنويعاتها المختلفة سواء فـي المهجـر او فـي الوطن الثاني . أسس الاولى يعقوب صروف وفارس نمر ، واسس الثانية جرجي زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤) . وقـد عنيت الاولـى بالعلـوم الطبيعية عناية فائقة ، كما عنيت الثانية بالعلوم الانسانية عنايـة فائقة كذلك . ولكن الفكر والسياسة كانـا هامشا رئيسيا فيهمـا معا . ويكفي القول ان مقال صروف عام ١٨٧٦ حول دوان الارض كان اول كلام بالعربية حول هذا الموضوع ، وقد اقام الدنيا واقعدها حينذاك . كذلك كانت البدايات الاولى عن نظرية التطور ونظريات فرويد وسبنسر ومل وماركس . ويصف البرت حوراني في كتابه « الفكر العربي في عصر النهضة » هـــاتين المجلتين ـ المقتطف والهلال ـ بأنهما ارادا ان يطلعا جمهور قــراء العربية بأن « المدنية خير بحد ذاتها ، وان بتكارهــا وصيانتها انما هما محـك العمل وقاعدة الخلقية ، وان العلـم هـو اساس المدنيـة ، وان للعلـوم الاوروبية قيمة عالمية ، وان بامكان العقـــــل العربي ومن واجبه تحصيلها بواسطة اللغة العربية ، وانه بالامكان ان نستخرج مـــن الاكتشافات العلمية نظاما للخلقية الاجتماعية التي هي سر القـوة الاجتماعية ، وان اساس هذا النظام الخلقـــي انما هو التحسس بالمصلحة العامة ، اي الوطنية ، التي هي حب الوطن والمواطنيـن الذي يجب ان يعلو على جميع الروابط الاجتماعية الاخرى حتـى الدينية منها » ص ٢٩٥) .

غير ان اول صياغة شاملة لهذه المعاني كانت القصة الرمزية التي كتبها فرانسيس مراش (١٨٣٦ ـ ١٨٧٣) بعنـوان « غابـة

الحق » والتي الفها بصورة حوارية حول تأسيس « مملكـة المدنية والحرية » التي ينبغي ان تقوم على الحرية والمساواة ويمكن للعرب تحقيقهما بوسيلتين هما المدارس الحديثة والوطنية الطليقـــة من الاعتبارات الدينية .

ولكن نقطة التحول التاريخية في الفكر العربي المسيحـي ، انجزها رائدان لبنانيان عاشا معظم حياتهما في مصر ، وهمـــا شبلي شميل (١٨٥٠ – ١٩١٧) وفرح انطون (١٨٧٤ – ١٩٢٢).

اما الاول فقد اسس نضاله وفق رؤية شاملة للطبيعة والمجتمع على السواء ، اي وفق رؤية فلسفية . اهم اركان فلسفة شبـلي شميل هو نظرية التطور والتفسير المادي للكون . وكما ان يعقوب صروف هو اول من قال بدوران الارض في العربية فزلزل الرجعية العربية وخاصة في لبنان زلزالا مدويا ، كذلك كان الامر مع شميل اذ هو اول من قال بالاصل الطبيعي للانســـان والاساس المادي للفكر والمجتمع والوجود ، فما برح ان فجر الارض العربية ومـن عليها تفجيرا كالصواعق . جمع شميل بين داروين وبوخنر وهيغل في سلة واحـدة ، سبق لهـا ان اطاحت فـي اوروبـا بالكنيسة والفلسفات الغيبية جميعا . وهو لا يحتمي بأبراج الفلسفة المشيدة في الذهن من عواصف الحياة الواقعية ، بل هو يأخذ في تطبيـق معتقداته الجديدة ، فيرى ان الحكم الديني والحكم الاستبدادي صنوان يعاديان الطبيعة وجوهر الوجود قبل عدائهما للانســـان . ذلك ان الحكـــم الديني « يرفع بعض النـــاس فوق سواهم ، ويستخدم السلطة لمنع نمو العقل البشري نموا صحيحا » ، امـا الحكم الاستبدادي فينكر حقوق الافراد « وبذلك يعرقلان ذلـك التقدم التدريجي الذي هو ناموس الكون ، ويسمح بالتالي لتطور النمو الكوني ان يستمر وللانسان ان يعيش وفقا لطبيعته . ومثل هذا النظام ينبثق عن المبادىء ذاتها التي تنبثق عنهـــا نواميس

الطبيعة ، وهي ان الاشياء كلها سائرة الى التبـاين والتغير » .
وكما ان الجسد لا يصلح للبقاء الا عندما تعمل كل اجزائه في تعاون ، هكذا يقوم المجتمع بعمله على احسن وجه عندما تعمل اجزاؤه في سبيل خير الجميع « وعن هذا ينتج ان القوانين والمؤسسات يجب ان لا تعتبر معصومة وغير قابلة للتغيير ، اذ ما هي سوى تدابير في حقل الحياة الاجتماعية ، تقاس قيمتها بمقدار ما تخدم الخير العام وهي تتغير بتغير شروطه » .

ولكن الجسد الاجتماعي ، ما هو بالضبط ، حتى يصبح التشبيه بينه وبين الجسد العضوي قائما ؟ يجيب شبلي شميل بأن « لا تكون ارادة عامة بغير وحدة اجتماعية تقوم عليها ، مما يقتضي فصل الدين عن الحياة السياسية » . وذلك في مطلع الرد على اللورد كرومر وكتابه عن « مصر الحديثة » حيث خلط خلطا مفزعا بين الاسلام والمسلمين والتطبيقات الاسلامية ، واستنتج ان لا علاج لجسد ميت ـ الحضارة الاسلامية ـ الا بدفنه . ويعلق البرت حوراني على موقف شميل قائلا : « وقد يبدو غريبا ان يسارع شميل المسيحي الى الدفاع عن الاسلام ، لكنه كتب عن الاسلام بحرية اوسع مما كان بامكان مسيحي عربي من جيل سابق ان يكتب » (كتابه المذكور سابقا ص ٣٠١) .

وحين يقول شميل ان الحكومة الوحيدة القادرة على تحقيق العدل هي حكومة « الجمهورية الديمقراطية التي تكون الامة فيها هي الكل والحكومة لا شيء » فانه يواصل نضاله السياسي جنبا الى جنب مع نضاله الفكري صارخا « لا ينتظر ان تكون الحكومة اصلح من الامة ، بل لا تـلام الحكومة اذا داست بأخمصها رقاب الرعية ، وهل تداس رقاب تأبى ان تداس ؟ ان من ينتظر الاصلاح عفوا من اية حكومة كانت يجهل لا شك تاريخ نشوء الامم ، وها التاريخ امامنا ان الحكومات في كل زمان ومكان هي من يذعن للاصلاح » .

ولعل شبلي شميل لذلك كان اول من نشر بالعربية فكرة الاشتراكية في العديد من المقالات التي كتبها خصوصا طيلة السنوات الاولى من القرن العشرين ، ولقي بسببها كل اتهام وتهديد واجحاف . ولكن ما ان مات حتى توجه الخوري بولس الكفوري صاحب جريدة « المهذب » في زحلة بنداء الى المصريين واللبنانيين لطبع الاعمال الكاملة لشبلي شميل . وكشف التبرعات الذي يضم اسماء الياس صباغ وعلي بك جنبلاط وبولس طراد ويوسف هاني وعشرات غيرهم من المسيحيين والمسلمين ، يؤكد لنا كم كان لبنان يتابع افكار بنيه خارج الديار . (راجع بتفصيل اكثر كتاب د. رفعت السعيد « ثلاثة لبنانيين في القاهرة ») .

لا بد انه ايضا — من مواجع الالم — قد تابع الرائد الآخر فرح انطون . وكما اختلفت رسالة «المقتطف» عن رسالة «الهلال» في ان الاولى اهتمت بالعلم والاخرى بالادب وان توحد بينهما « برنامج التغيير » نحو العروبة والعلمنة والديمقراطية ، كذلك كان امر الاختلاف بين شبلي شميل عاشق العلم الطبيعي ، وفرح انطون عاشق الفكر الانساني . نزح من طرابلس عام ١٨٩٧ متنقلا بين مصر واميركا وراس تحرير عدة مجلات اهمها على الاطلاق « الجامعة » التي نقلت الى القراء العرب ازكى ثمرات الفكر والادب الاوروبيين خاصة عصرهما الرومانسي . ولكن اخطر كتابات فرح انطون كانت حول الفيلسوف الاسلامي ابن رشد . اهداها الى « أولئك العقلاء في كل ملة وكل دين في الشرق ، الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين في عصر كهذا العصر ، فصاروا يطلبون وضع اديانهم جانبا في مكان مقدس محترم ، ليتمكنوا من الاتحاد اتحادا حقيقيا ومجاراة تيار التمدن الاوروبي الجديد لمزاحمة اهله ، والا جرفهم جميعا وجعلهم مسخرين لغيرهم » . وبالرغم من ان الوجه النظري المجرد — والذي اثار للاسف حملة عاتية على فرح انطون — لا يشكل سوى القناع الذي تخفى داخله صاحب الدراسة ، الا ان الوجه السياسي لم يكن خافيا تماما .

يقول البرت حوراني في كتابه السابق الذكر ان فرح « توخى وضع اسس دولة علمانية يشترك فيها المسلمون والمسيحيون على قدم المساواة التامة . ورأى ان هنالك اساسين : الاول فصل الجوهري عن العرضي في جميع الاديان . فالجوهري هو مجموعة المبادىء ، والعرضي مجموعة الشرائع عامة كانت او خاصة . فاذا تفحصنا مجموعة المبادىء وجدنا انها واحدة في جميع الاديان : فمسألة التثليث ليست الا مسألة شعرية مجازية (العبارة لفرح انطون) وليس المسيح ابن الله بسبب طبيعة خاصة به ، بل لانه حاز بمقدار اكبر على روح الله الذي هو فينا جميعا ، والذي يجعل منا كلنا بمعنى من المعاني ابناء الله . كذلك اذا تفحصنا مجموعة الشرائع لوجدنا ان غايتها الوحيدة انما هي حث الناس على الفضيلة . فالثابت فيها هو اذن المبدأ الخلقي الكامن وراءها ، ويجب ان نفسرها تفسيرا يسمح لها بالقيام بوظيفتها حتى اذا اقتضى ذلك تأويلها . وبعبارة اخرى ان جميع الاديان انما هي دين واحد يعلم بعض المبادىء العامة . اما الشرائع الدينية فلا قيمة لها بحد ذاتها ، اذ ما هي الا وسائل لغاية . فالطبيعة البشرية واحدة اساسيا في نظر جميع الاديان ، والحقوق والواجبات البشرية واحدة ايضا . حتى ان الذين لا دين لهم لا يختلفون عن غيرهم في الطبيعة والحقوق » (ص ٣٠٥) . ويحدد فرح انطون خمسة اسباب لعلمنة الدولة والمجتمع : اولها الخلاف الجوهري بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية . ولما كان كل دين يتصور نفسه الحقيقة الوحيدة المطلقة فان سلطة احد الاديان لا بد وانها ستضطهد مباشرة او غير مباشرة اتباع الدين الآخر . ثانيا ، ان المجتمع الصالح يقوم على مساواة مطلقة بين جميع ابناء الامة تتعدى فروق الاديان . ثالثا ، ان السلطات الدينية تشترع للاخرة ، لذلك كان من شأن سلطتها ان تتعارض وغاية الحكومة التي تشترع لهذا العالم . رابعا ، تلج الحكومة الدينية او الطائفية

على ما يفرق بين الناس لا بين ما يوحـــــدهم مما يضعف الدين والمجتمع معا . خامسا ، ان الحكومات الطائفية تؤدي الى الحرب « فمع أن الدين الحق واحد ، فالمصالح الدينية المختلفـة تتعارض ابدا مع بعضها البعض ، ولما كان الولاء الديني قويا بين الجماهير فمن الممكن دائمـــا ان تثير المشاعر » (ص ٣٠٦ عن كتـــاب حوراني) .

وهكذا ينتهي فرح انطون الى ان الوحدة الدينية غير ممكنة ، وان على الدولة أن تجد لها نوعا آخر من الوحـدة اذا ما ارادت البقاء . امـا في العصر الحديث فالوحدة تتم بخلـق الولاء القومي والفصل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية « فلا مدنية حقيقية ولا تساهل ولا عدل ولا مساواة ولا امن ولا الفة ولا حرية ولا علم ولا فلسفة ولا تقدم في الداخل الا بفصل السلطة المدنية عـــن السلطة الدينية » كما يقول حرفيـا .. ولا شـــك ان الاندمـاج التدريجي بين الكنيسة اللبنانيــة والحيـاة السياسية فـي ظـل الارتباط الاقتصادي بين وجهي العملة ، هو الذي كان يلوح لخاطر فرح انطون اكثر من الازهر الذي لا يربطه بالدولة سوى الخضوع والولاء كأية مؤسسة اخرى . ولما شاء محمد عبده الاعتراض بأن الدين والدولة كالجسد والروح لا سبيل للفصل بينهما ، وحتـى اذا كان هناك انفصال دستوري ، كيف يستطيع الحاكم ان يتخلص من مشاعره الدينية ؟ اجاب انطون بأن الحاكم لا ينبغي ان يحكـم وفقا لارادته الخاصة او معتقـــداته الشخصية ، بل في ضوء القوانين التي تقرها جمعية ممثلي الشعب « ولممثلي الشعب حكمة اوسع من حكمة اي حاكم منفرد ، وذكاؤهم المشترك ادق من ذكاء اي واحد منهم بمفرده » .

لم يكن تيار الفكر المسيحي اللبناني المستنير مقصورا عـلى مصر ، ولكن ازدهاره في القاهرة ، وتأسيسه لدور كبرى كالاهرام والهلال والمقطم بالاشتراك مـع جهوده التي تفتحت عـلى خشبة

المسرح (من مارون نقاش الى جورج ابيض ونجيب الريحاني) وعلى شاشات السينما (بدءا من اسيا وماري كويني مرورا ببشارة واكيم وعبد السلام النابلسي والياس مؤدب وانتهاء بألوف الفنيين والعاملين واصحاب رؤوس الاموال) .. لا يمكن تفسير هذا الازدهار اللبناني في مصر — وغالبيته الساحقة من المسيحيين — انه كان مجرد رهان اقتصادي على الحياة ، او انه مجرد ارتباط سياسي بالاحتلال الاجنبي او الخلافة العثمانية . وانما لا بد في ضوء هذه المفارقة الجديرة بالالتفات ، وهي ان المصريين غالبيتهم مسلمون ، من القول بأن مصر قد هيأت للمسيحيين اللبنانيين مناخا مغايرا جذريا للمناخ الاقتصادي الاجتماعي السياسي جميعا، واساسا المناخ الاجتماعي .. فالعشائرية الطائفية لم تلائم المواهب الكبيرة ولا التجار الصغار على السواء ، بالقهر المذهبي والجمود الانعزالي والتخلف المريع عن بديهيات العصر . لقد كانت الامبراطورية العثمانية جاثمة على صدر مصر في ذلك كلبنان تماما ، كذلك كان الاجانب . ولكن الكيان الحضاري لمصر كان يختلف كيفيا عن المناخ القبلي اللبناني . وهكذا لم تكن الديمقراطية المصرية مناخا دستوريا صالحا للتجرة او العمالة وحدها ، بل كانت ديمقراطية اجتماعية اولا واخيرا ، الوحدة الوطنية هي ركنها الركين ، والتجانس مع الاختلاف الطبقي هو ركنها الثاني ، والانفتاح مع التسامح والرغبة في الاستنارة هو ركنها الثالث الذي ميزها بهذا المستوى الرفيع من التطور برغم كافة ادران التخلف .

كان ازدهار الفكر والفن اللبنانيين في مصر ادانة مباشرة للواقع العشائري الطائفي المستمر في لبنان ، ليس هروبا منه بقدر ما كان نضالا ضده .

ولكن المهجر الاوروبي كان ميدانا آخر للنضال. كان الصحفي لويس صابونجي ، وهو الذي اسس في لندن عام ١٨٧٧ جريدة

« النحلة » ، كاهنا كاثوليكيا ، ولكنه كرس جريدته التي اصدرها لعدة سنوات ، لفكرة الاصلاح الديني « بلهجة العربي القومي » كما يقول حوراني (ص ٣٢٢) وفي عـــام ١٩٠٤ تأسست « عصبة الوطن العربي » في باريس بقيـــادة نجيب العازوري الكاثوليكي ايضا . وقد اصدر في حينها مجلة لم تعمر طويلا باسم « الاستقلال العربي » . وفي كتابه الصادر بالفرنسية عام ١٩٠٥ بعنـــوان « يقظة القومية العربية » يقول بأن هناك أمة عربية واحدة تضـم مسيحيين ومسلمين وبأن المشاكل التي تنشأ بين ابنـــاء اديان مختلفة انما هي بالحقيقة مشاكل سياسية تثيرها اصطناعيا قوى خارجية لمصلحتها الخاصة ، وبأن المسيحيين لا يقلون عروبة عـن المسلمين وبأن من الضروري ان تقوم كنيسة عربية صرف ، ويدافع في هذا الصدد عن المسيحيين الارثوذكس ضد الزعامة الاكليريكية اليونانية . ويرى العازوري ضرورة استقلال الامة العربية عـن الاتراك ، فالاتراك في نظره هم سبب خراب العرب . وبرؤيـة ثاقبة لما هو ابعد من البعيد يقول انه « تبرز في هذه الآونة فـي تركيا الاسيوية ظاهرتان خطيرتان متناقضتان همـا يقظة الامة وسعي اليهود لاعادة ملك اسرائيل القديم على نطاق واسع . انـه مكتوب لهاتين الحركتين ان تتصـــارعا باستمرار حتى تتغلب الواحدة على الاخرى » . ويكتفي برسم الخطوط العريضة للدولة العربية المستقلة ، فهي يجب ان تكون سلطة دستورية ليبراليـة يراسها مسلم .

وفي عام ١٩١٣ عقد في باريس « مؤتمر عربي » ـ هكذا كان اسمه ـ اشتـرك فيـه حوالـي ٢٥ شخصا كلهـم مـن سوريـا الجغرافية عدا اثنين من العراق ، وكان نصفهم من المسيحيين والنصف الآخر من المسلمين ، وكانت القضيـــة المطروحة هي « القومية العربية المشبعة بالليبرالية » والتي تتكون بانصهار فعلي له مقوماته المتوفرة للمسيحيين والمسلمين .

يقول البرت حوراني ان الكيان العربي كان امرا مسلما به في عهد الامبراطورية العثمانية « كما كان ينظر الى مختلف الولايات العربية كوحدة كاملة . الا ان التقسيم الناجم عن اتفاقيات ما بعد الحرب جاء يضع فكرة الامة العربية موضع التساؤل ويهددها بمنافسة فكرة الامة السورية والامة اللبنانية والامة العراقية لها ، وذلك بتشجيع من السلطة المنتدبة » (ص ٣٥٠) . ويشهد صاحب « الفكر العربي في عصر النهضة » ان القومية العربية كانت « في تعبيرها عن نفسها حركة علمانية » (٣٥٣) و « الواقع ان معظم العرب الذين فكروا في هذه القضية كانوا متيقنين ان غير المسلمين من العرب هم جزء لا يتجزأ من الامة العربية » (ص٣٥٤) . وربما كان كتاب « الوعي القومي » لقسطنطين زريق – وقد صدر عام ١٩٣٩ – من بواكير الاعمال الفكرية التي ميزت بين العروبة والاسلام وفرقت بين الروح الدينية والعصبية الطائفية . وهي الفكرة التي اخصبها وعمقها ادمون رباط فيما بعد في كتابه « الوحدة السورية والمصير العربي » حيث قال بوضوح وحسم انه ليس هناك امة سورية بل امة عربية .

★ ★ ★

ثم عاد الطائر المهاجر الى وطنه . في عام ١٩٢٠ صيغت ملامح ما سمي منذ ذلك الوقت « لبنان الكبير » . وفي عام ١٩٤٣ تحقق ما سمي منذ ذلك الحين « بالاستقلال » . ولم يكن هذا التاريخ أو ذاك حلا للبنان الباحث عن هوية ، ولكن التاريخين كلاهما وضع التجربة في المختبر . كان الامر كله يدعو العين البصيرة الى رؤية ما حدث وكأنه تكريس لادواء التخلف العشائرية والطائفية والاقتصاد الطفيلي . كان الامر كله يدعو ايضا الى رؤية ما حدث وكأنه تكريس لانقسام البلاد لا توحيدها.

ولكنه مع ذلك – أو بسببه ربما ! – هيأ المناخ اللبناني لاحتضان النقيض ، لاحتضان التمرد على ما هو كائن والحلم بما

سيكون .. فقد كان من النتائج المأساوية المواكبة لصيغةالدستور المكتوب والميثاق غير المكتوب ، ذلك النوع الخفي من الاستلاب اللبناني الذي تتبلور افدح مظاهره في البنية الاخلاقية والسلوك بدءا من العشق المجنون لقشور الحياة والتصوف في « مباهجها » وكان هاجسا بالموت المفاجىء يطارد اللبناني في النوم واليقظة ، الى كثافة الجريمة وتشعب فنونها حتى .. قيادة السيارات والمعجم اللفوي السخي بألفاظ الحب والخاوي من شحنةالعاطفة.
كان الامر كله اغترابا للروح عن هوية الوطن .

لذلك لم يكن غريبا البتة ان يكون الصدى الفاجع لهذا التشوه قادما من الكنيسة ، من قلب الفكر المسيحي اللبناني . من رجال الدين انفسهم ومن المثقفين ومن الشباب. لم يكن ذلك غريبا قط ، فالمناخ الجديد افسح لهم المجال في رؤية الوجه الآخر للصورة . وقد وهبوا العين القادرة على الرؤية . ومن الرؤية الصافية كانت النبوءة ، كان البحث عن هوية هو ذاته اكتشاف الهوية :

● فمن صميم الجماهير المارونية نشأت الحركة المسماة « كنيسة من اجل عالمنا » . تتساءل في احدى وثائقها « لا مجال هنا لذكر الدور التاريخي الذي لعبته كنيستنا في هذا الشرق . وعملها في سبيل حفظ الايمان والدفاع عن كرامة الانسان وحريته . ولكن اين هي اليوم من دورها التاريخي ؟ هل تعيش كنيستنا اليوم ، مؤسسات وافرادا رعاة ومؤمنين ، واقعها التاريخي بروح النبوءة ؟ الا يبدو غالبا ان كنيستنا تكتفي من دورها هذا بالتمسك ببعض الامتيازات والحفاظ على بعض التقاليد دون الاهتمام الكافي بعالم اليوم ؟ فهي قليلا ما تصغي وما تتكلم ، قليلا ما تتحرك وتحرك لتخلق الجديد لعالم يتجدد من حولها » (عدد ن ١ ــ ٧٣) تجيب وثيقة الحركة ان الكنيسة اللبنانية « اهملت قطاعات مهمة من المؤمنين كالطلاب والعمال والمزارعين

وهي لا تهتم بمشكـــلاتهم ولا تتحسس آمـــــالهم ولا تقاسمهم همومهم » (ص ٩) .

● وقد اجاب من قبل الاب هكتور الدويهي في لقاء يســـوع الملك (١٩٦٨) بأن « كنيسة المسيح ليست من حجر ، كنيســـة المسيح من بشر ، هي البشر ، حيث البشر تكون هي » (مجـــلة مواقف عدد ١٥) .

● ويجيب الاب انطوان ضو في افتتاحية مجلة « نور وحياة ــ عدد ١٥ ــ ١٩٧٣ » ان المسيحيين « باتوا يعرفون اليوم بفئـــة المحافظين واليمينيين واللامبالين ، واقتنعوا بفكرة الحياد وعـدم التدخل في اي حدث وصاروا يعتقدون مع من يعتقد ان كل تحرك هو هدام ويساري ومخرب .. نريد كنيستنا كنيسة المـــواقف والمشاركة بالتضحية والمحبة . كنيسة من اجل عالمنا تناضل مـع المناضلين في سبيل الانسان الجديد والمجتمـــع الذي تسوده العدالة الاجتماعية الصحيحة » .

● ويصارحنا المطران جورج خضر في كتـــابه « فلسطين المستعادة » بأن « اضعف الايمان الا نرى اليوم قضية تتقدم قضية العرب ، أن نلتمس المسيح حيث هم مصلوبون » ثم « اننا ننتظر بزوغ العلمانية عند الجميع على حد سواء . واذا كان وجودها في الاوساط الاسلامية شرط اشتراك المسيحي بالتاريخ العربي يعني ذلك ان المسيحي قد سلم مسبقا ان المسلم وحده يصنع تاريـــخ العرب وانه هو ــ اي المسيحي ــ يدخل اليه منحرفا بعد ان يكون قد جنى الثمار من اتعاب الآخر » (ص ٩٥ ــ ٩٦) .

● ويجيب الاب مكرم قزاح بأن الذين يعلنون « ان الكنيســـة خارج التاريخ ، يناقضون انفسهم على الصعيد العملي ، اذ يقفون في صف من يرفض للفئات الشعبية طاقـــة الوجود والتقدم » و « في الحقيقة ، يمكن للفقراء فقط تصور مستقبل مختلف تماما عن حاضرهم وذلك بقدر ما يبلغون وعي انفسهـــم كمستغلين »

و « لا يمكننا القبول بموت الله .. انما من المحتمل جدا ان يكون موت شكل معين من الكنيسة ، من كنيسة لبنان وكنيسة الشرق الاوسط ، شرطا لحياة الله في عالم اليوم ولحياة المسيح في العالم العربي » (مجلة آفاق ـ حزيران ١٩٧٤) . ويضع الاب قزاح في هذا المقال شرطان لذلك هما : غطسة او معمودية في العالم العربي، عالم الفقراء في طريقه الى المطامح العظيمة . وغطسة او معمودية في الانجيل تحرر الكنيسة من التواطؤ مع الراسمالية والاستعمار والصهيونية « وكل ما هو انكماش » .

● واخيرا يضع بولس الخوري النقط كل النقط فوق الحروف كل الحروف حين يقول : « اذا كانت الثورة تعتبر اعادة بنـــاء او تغيير بنيان ، اتضح ما في التجميد في التراث من اتجـــاه معكوس ، وما في التغيير الشامل والذي يبقي على شيء من اتجاه معكوس ايضا . ففي الحالة الاولى يتم اختيار اللاعيش ، وفي الثانية تفتقد كل هوية . فالثورة العربية لا تهدف الى محو الطابع العربي عن الانسان العربي ، كما لا يمكنها ايضا ان تعزل الانسان العربي وتسجنه في ماضيه ، بحجة المحافظة على هويته ضـــد التغيير . الثورة تعني بالوقت نفسه استمرار الهوية والتغيير » (آفاق ـ ايلول ١٩٧٤) .

★ ★ ★

تلك هي انتفاضة الفكر المسيحي اللبناني المعاصرة ، وهـي امتداد موضوعي متطور لارسخ تقاليـد هـذا الفكـر العظيم منـذ فجر النهضة .

وهي انتفاضة « الاكثرية الصامتة » وان بدت على السطـح وكأنها الاقلية غير المسموعة الصوت .. ففي نهار السـلم تلتف الجماهير حول هذه المعاني والافكار والقيم ، اما في ليل المذبحـة فان الصوت الاصيل يتوارى قليلا .. ولكن ليس كل الوقت .

اطول يوم في التاريخ اللبناني

(١)

في الثاني والعشرين من حزيران عـام ١٩٧٤ كتب الرئيس اللبناني سليمان فرنجية الى السيد ليونيد بريجنيف امين عـام الحزب الشيوعي السوفياتي رسالة عاجلة تقول : « ان اسرائيـل لا تكتفي بتشريـــد الشعب الفلسطيني ، وباستمرار محاولاتها لطمس شخصيته ومحو معالمها من الناحيــة القانونية ، بل تكيل الضربات العنيفة ، وتعتمد الاساليب البربرية لتدمير هذا الشعب تدميرا فعليا ، مستغلة كل ابطاء من قبل الـــدول في الاعتراف بحقوق الفلسطينيين الكاملة » . ويختتم الرئيس رسالته الـــى الزعيم السوفياتي قائلا : « ونحن على ثقة بأن ما تضطلعون به من مسؤولياتعالمية ، وما تكنونه للبنان ولشعبه منمشاعر الصداقة، يجعلكم تقدرون الموقف على كامل حقيقته وخطورته ، وتعملون على الاسراع بالحلول الناجحـــة ، الكفيلة باعادة الحق الـــى نصابه وترسيخ أسس ثابتة للاستقرار وللسلام العادل » . وفي الثـامن من تموز عام ١٩٧٤ تسلم الرئيس اللبناني ردا من امين عـــام الحزب الشيوعي السوفياتي يقـــول : « .. وتأكدوا يا فخامة الرئيس ان الاتحاد السوفياتي سيـــــدعم كما في السابق نضال الشعوب العربية من اجل احلال ســـلام عادل ودائم في الشرق الاوسط ، وهو قائم على جلاء الجيوش الاسرائيلية من جميـــع

الاراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ وعلى صيانة الحقـــوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني » .

كانت الرسالة والجواب عليها في اعقاب مسلسل جهنمي من الحملات الوحشية الاسرائيلية على جنوب لبنان بدات مع النصف الثاني من عام ١٩٧٤ ، وقد بدت لبنان في ذلك الوقت وكانهـــا الجبهة العربية الوحيدة المشتعلة بعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣ اذ كان الهدوء المسلح يخيم على الجبهتين الجنوبية والشمالية بعد توقيع الاتفاق الاول لفصل القوات . وكان واضحـــا ان الامور تقترب حثيثا من جوهر المشكلة ، أي المسألة الفلسطينية . وكان واضحا ايضا ان المشروع الاميركي الاسرائيلي لحل المشكـلة هو التسوية الجزئية المنفردة المرحلية مع مصر وسوريا ، والتفاهم مع الاردن بصدد الضفة الغربية .

وقد بدا لفترة من الوقت ان المشروع الاميركي الاسرائيــلي يجد صدى لدى الجانب المصري الاردني فكان بيان الاسكندريـــة الشهير . ولكن الحمـــــلات الوحشية الاسرائيلية على الجنوب اللبناني بعثت الى دائرة الضوء الساطع قضية الوجود الفلسطيني في لبنان ، فكانت رسالة الرئيس اللبناني والرد السوفياتي عليها من ناحية وتجميد المقاومـــــة الفلسطينية لعملياتها من الاراضي اللبنانية من ناحية اخرى .. ففي مساء اليوم الاخير من حزيران ١٩٧٤ حملت قيادة المقاومة الى رئيس الحكومة اللبنانية تقي الدين الصلح قرارا بالغ الاهمية يقضي « بتجميد كـل العمليات الفدائية التي يمكن ان تنطلق من لبنان ، ومنـــــع اي تسلل من الاراضي اللبنانية الى اسرائيل ، لكي لا يكون للاسرائيليين اي حجة لضرب لبنان » كما ورد في الصحف اللبنانية الصادرة اول تموز ١٩٧٤ .

وجاء الرد العربي — في مناخ الحماس للتسوية السلمية — اجتماعا لوزراء الدفاع العرب حضرته المقاومة ولبنان ، ولم ينته الى شيء محدد .. فالدعم العربي بالرجـــــال او بالسلاح ظل

مرفوضا ــ بحياء ــ من الجانب اللبناني . وبدت اجتماعات وزراء الدفاع العرب في القاهرة لبحث العدوان الاسرائيلي على لبنـــان مثيرة للدهشة ، ذلك ان الوفد اللبناني ــ باختصار شديـــد ــ لا يدري ماذا يقول او ماذا يريد . وكانت قـــلة من المخضرمين وحدهم هم الذين يهمسون في الكواليس بأن ثمة اوضاعا خاصة في لبنان تحول اصلا دون تقوية الجيش اللبناني ، وتحول قطعا دون تدخل عربي مباشر فـــي الصراع على الحدود . وكانت هناك بعض الدول العربية ذاتها تلتقي مع الوفد اللبناني في الاهـــداف دون المنطلقات ، فالذي يهمها هو تهدئة الجبهة اللبنانية فحسب حتى يصبح « الهدوء » مناخا ملائما للتســـوية السلمية ، وحتى لا يظهر لبنان الذي لم يشارك في قتال تشرين كأنه الجبهـــــة الوحيدة المقاتلة وحتى لا تبدو هذه البلدان « المنتصرة » امـــام جماهيرها قصيرة اليد كسيرة الجناح لا تستطيع مواصلة تحديها لاسرائيل على ارض عربية اخرى تدعى لبنان . لذلك كلــه انتهت اجتماعات وزراء الدفاع العرب الى طريق مسدود .

.. ولكن ماذا كان « التعليق » الاميركي على هذه الاحداث ؟ الآن فقط نستطيع رؤية هذا التعليق بكل ما انطوى عليه مـــن مخاطر ومضاعفات قادما من قبرص ! ففي بداية الاسبوع الاخير من شهر تموز عام ١٩٧٤ كلفت المخابرات الاميركية بالتعاون مـــع الحكم العسكري في اليونان صحفيا قبرصيا موتورا بقيادة انقلاب على الحكم الوطني للاسقف مكاريوس . وبدأ الفصل الاول فـــي رواية تقسيم قبرص .

ولا شك ان هذا الحدث في « مدخل » الشرق الاوسط قد اثار المخاوف العربية ، ولكنهـــــا بقيت في الارجح مخـــاوف ستراتيجية عامة من ان تتحول قبرص في اوضاعها الجديدة لان تتكرس قاعدة ينطلق منها الدعم الاميركي لاسرائيل . ولم يخطـــر

على بال احد ان يربط مباشرة بين المشروع القبرصي والاحـداث اللبنانية الفلسطينية الاسرائيلية .

غير انه كان واضحا لكل من يريد ان يرى ، انالاستراتيجية الاميركية في العالم الثالث عموما وفي الشرق الاوسط خصوصا تعتمد على تمزيق الدول الصغيرة تحت رايات طائفيـــــة (ذلك التقليد العريق في السياسة الاستعمارية منذ القديم) ومنـــع الاستقلال الذاتي لقوميات مكتملة الاركان بحجة الرايات ذاتهـــا في نفس الوقت .. اي ان هذه الاستراتيجية في التطبيق تعارض استقلال بنغلادش عن باكستان رغم المقومات الموضوعية للامـــة البنغالية تحتراية الوحدة الاسلامية بين البنغاليينوالباكستانيين. كذلك فهي تعارض استقلال اريتريا عن اثيـــوبيا ، رغم غياب الوحدة الدينية بينهما وحضور الملامح القومية المنفصلة لكل منهما. ولكن الاستراتيجية الاميركية لا ترى مانعا في انفصال الاكراد عن وطنهم العراقي وتدعم التمرد الانفصالي بكل ما تستطيع رغـــم وحدة التراب الوطني التاريخيـــــة للشعبين . ولم تكـــن هذه الاستراتيجية ذاتها بعيدة عنانفصام عرىالوحدة المصرية السورية، ولم تكن بعيدة ــ كما كشفت ملفات الوكالة المركزية ــ عن تقسيم قبرص الذي بدأ دراماتيكيا بقيادة صحفي معتوه متطرف فـــي الوحدة مع اليونان التي تعني عمليـــــا تقسيم قبرص وانهـاء استقلالها .

لم يكن ذلك الحدث ــ نكرر ــ بعيدا عنازمة الشرقالاوسط، بل لعل الطريق كان قصيرا جـــــدا من قبرص الى لبنان ! ولكن « الدبلوماسية العربية » استغرقت في تفاصيل الحل الاميركي (او ما يدعى بالتسوية السلمية للشرق الاوسط) فلم تتبين قط الخطوط العامة للاستراتيجية الاميركية والدلالة البعيدة المـدى لاحداث قبرص الاقرب الينا من حبـــــل الوريد . لهذا السبب انخرطت الدبلوماسية العربية في التذاكي العشائري حين عقدت

قمة الرباط وتصورت انها وصلت بمقرراته الى مشروع الحـــل النهائي . تراجعت مصر والاردن عن بيان الاسكندرية واقرتا مـع بقية الدول العربيــة شرعية تمثيل منظمة التحريـر الفلسطينيـة لمجمـــوع الشعب الفلسطيني . وكان القرار الثاني هو تكليف الرئيس اللبناني بتمثيل الملوك والرؤساء العرب في شرح القضية الفلسطينية امام هيئة الامم المتحدة .. حيث كان المجتمع الدولي قد سمح ايضا لقيادة منظمة التحرير بشرح القضيـــة ذاتها في دورة شتاء ١٩٧٤ .

ولا شك ان « القضية » الفلسطينية قد ربحت من الاجماع العربي والدعم السوفياتي وتأييد العالم الثالث شرعية دوليـــة بالغة الاهمية . ولكن شرعية القضية شيء وشرعيـة « الثـورة » شيء آخر .

وشرعية الثـــورة الفلسطينية هي الشرارة التي حرصت معظم الاطراف على اخفائها عام ١٩٧٤ تحت الرماد وفي ظـلال اقواس نصر تشرين . ذلك انها في النهاية الشرارة التي يمكـن ان تحرق هيكل التسوية الاميركية لازمـــة الشرق الاوسط ، وهي ايضا الشرارة التي يمكن ان تشعل الحـدود الاسرائيلية اللبنانية ومن ثم يمكن ان تمتد الى قلب الوجود الفلسطيني في لبنان .

من هنا بدت الامور عشية عام ١٩٧٥ مهرجـــانا كرنفاليا مضادا للحقيقة التي تغلي تحت السطح . وكانت كلمـات الرئيس اللبناني امام هيئة الامم المتحـــدة وكأنها كلمات قائـــد الثورة الفلسطينية الذي خطب قبله من ذات المنبر بأيام معدودة . ولا بد ان العالم ــ وغالبية العرب ــ قد فوجئوا بعدئذ بما جرى في لبنان الفلسطيني . واذا كان العالم معذورا ، فان العرب يفتقدون المبرر لعدم رؤيتهم حقيقتين : الاولى هي الطريق المسدود الذي انتهت اليه اجتماعات وزراء الـــدفاع العرب حيث لم يطلب الوفـــد اللبناني شيئا ورفض ان يعطيه احد شيئـــا . حجبت عنهم هذه

الحقيقة الاولية نتائج مؤتمر الرباط حيث الطريق المفتوح لمنظمة التحرير الى الشرعية الدولية وامام الرئيس اللبناني لتمثيل العرب والقضية الفلسطينية. كانت هذه النتائج ديكورا يخفي معنى رفض لبنان ان يكون له جيش قوي ورفضه اية مبادرة او مساعدة عربية مسلحة . والحقيقة الثانية هي توقيت الحملات الوحشية الاسرائيلية على الجنوب اللبناني مع الانقلاب القبرصي الذي فتح الطريق واسعا لمشروع التقسيم . ذلك ان احدا من العرب ــ بما فيهم اللبنانيين ــ لم يشأ ان يتوغل « داخل » لبنان ، بل صلبت العيون على الحدود ، وكأن العدوان الخارجي لا علاقة له بالداخل، وكأن مشكلة الفلسطينيين هي ان مقاومتهم لاسرائيل تسمح لها بضرب الجنوب واحيانا مطار بيروت وشارع فردان وكورنيش المزرعة وبرج البراجنة وشارع السادات .

.. وكأن الجنوب هو المسألة اللبنانية !

★ ★ ★

نعم ، كان الجنوب ولا يزال رمزا مكثفا للمسألة اللبنانية ، ولكنه بالقطع ليس هو « كل » المسألة . انه بتخلفه عشرات السنين منذ « الاستقلال » ، وفقره المتزايد وهجرة ابنائه وراء اللقمة والامن الى العاصمة حيث شكلوا ما يعرف بحزام البؤس في ضواحيها ، انما « يلخص » فقط الوضع اللبناني الداخلي الذي ينعكس بدوره على الحدود ... ففالبية اهل الجنوب من طائفة او طوائف معينة لا تتمتع بامتيازات المناطق الاخرى التي تسكنها طائفة اخرى تمسك في ايديها بزمام الحكم ومقاليد الحياة . كذلك مفهوم « الحياد » لدى الدولة اللبنانية (الامر الذي يمكن فهمه بالنسبة لدولة كسويسرا او النمسا يستحيل فهمه على دولة تجاور اسرائيل) ، فهو الحياد الذي يتجسد عند البعض

في قولهم الغريب « ان قوة لبنان في ضعفه » . ولكن هذا الضعف لا يمارس عمليا الا في مواجهة الاسرائيليين ، ويجأر بالشكوى من العدوان ولكنه يرفض التقوية خاصة اذا كانت عربية . ثم يستأسد هذا « الضعف » احيانا ، كما حدث في ايار ١٩٧٣ . اي ان العسكرية اللبنانية هي بوضوح رديف لقوى الامن الداخلي وليست في واقع الامر جيشا عاملا على حدود الوطن . فاذا اضفنا التكوين القيادي للجيش ، وهو تكوين طائفي يغلب نفوذ طائفة معينة ، فاننا نستطيع وصف دور الجيش اللبناني ووظيفته الامنية والسياسية على نحو يكاد يختلف جذريا عن الدور التقليدي لجيوش الدول والاوطان . وهذا يؤدي بنا الى مفهوم « الدولة » و « الوطن » في لبنان ، فحيث تصبح العشائرية اساسا اجتماعيا للتمايز الطائفي ـ بموجب الدستور والقوانين والاعراف ـ تصبح الدولة دويلات تحكمها العشيرة الطائفية الاقوى طبقيا . ومن ثم تصبح « الحدود» هي حدود هذه الدويلات وليست الجنوب او الشمال او الشرق او الغرب .

في هذا الضوء كان الجنوب ولا يزال رمزا مكثفا للمسألة اللبنانية ، ولكنه بالقطع ليس هو « كل » المسألة . انه رمز الى هذه المعاني كلها التي كان النصف الثاني من عام ٧٤ ـ عشية العرس الدموي ـ تجسيدا واقعيا لها ، نلتقط فحسب بعض مظاهره التالية :

● مع بداية شهر تموز ثار حوار عنيف حول تعديل المادة ٥٠ من قانون العمل حيث تنص على اسلوب في التعاقد بين العامل ورب العمل من شأنه ان يطلق يد هذا الاخير في تحديد الاجر ومدة العقد وفسخه وقتما يشاء . ولقد ادى هذا الحوار في احدى مراحله لان يستقيل الشيخ بطرس الخوري من رئاسة جمعية الصناعيين التي تحالفت معها الغرف التجارية والمالية في رفض اي تعديل يمس ـ على حد تعبيرهم ـ « نظام الاقتصاد الحر » . ولم يكن يخطر على بال العمال ولا ممثليهم المباشرين ولا ممثليهم

السياسيين انهم يطالبون بتغيير نظام الاقتصاد الحر ، ولكنهم كانوا يطالبون بشروط ارقى للعمل توفر لهم الحد الادنى من الضمانات التي تأخذ بها انظمة الاقتصاد الحر العريقة في فرنسا وايطاليا والمانيا الغربية وبريطانيا والولايات المتحدة . كان موقف من يسمون بالفعاليات الاقتصادية (التسمية اللبنانية لرجال الاعمال) موقفا عشائريا ، بمعنى انهم حالوا دون مجلس الوزراء ومجلس النواب ـ الهيئتان الدستوريتان ـ من اتخاذ القرارات او مناقشتها والتصويت عليها ، بل دخلوا من الابواب الخلفية غير الدستورية لتجميد القضية المطروحة بينما اتجه العمال في نشاطهم اتجاها نقابيا مشروعا ابعد ما يكون عن العشائرية والطائفية ، فقد كان الوفد الذي التقى برئيس الوزراء ووزير العمل مكونا من هذه الاسماء « حليم مطر ، نقولا برباري ، الياس شعيا ، توفيق ابو خليل ، الياس الهبر ، علي حوماني ، حبيب زيدان » . وكان مسلكهم هو اللجوء الى المؤسسات الشرعية من ابوابها الامامية .

● مأساة الشرب في « لبنان الاخر » كانت موضوعا رئيسيا عام ١٩٧٤ حيث أكدت دراسات وزارة الموارد المائية والكهربائية ان في لبنان ١٤٧ قرية تفتقر الى التمديدات المائية .. ففي الهرمل مثلا ينزح سكان القرى نزوحا يبلغ حوالي نصف السنة ، الى اعالي الجرد ، تصبح القرى خلالها مهجورة تماما ، قالت امراة من قرية تدعى الخرايب لاحدى الصحف « الكل بيضحكوا علينا ... بيوعدو وما بيعملوا شي . ما فيه ولا بيت فيه مي . عندنا ابار منجر لها بالسواقي ، بس المي ما بتنشرب . وكمان من آب ورايح بتشح ومنصير نشتري بالسيترن تنسقي الطرشات ونشرب . وبدكم تعرفو شو كمان ، بالشتي منشرب من المزاريب ، لشو الحكي كله ضحك على الذقون » . ويقول مواطن اخر من الشواغير « للاقطاع السياسي دور في الموضوع ، والنواب ابناء هذا الاقطاع ظلوا يعدون طوال ٤٠ عاما من دون ان يحققوا شيئا ، والدولة كذلك

وعدت من سبع سنوات وتركتنا الى الان نتزود بالمياه مـن الوادي تحت الامطار والعواصف والثلوج » وفي قرية السفينة بعكار قال مواطن « اذا كانت البلاد بدها تكون استبداد مثل عا ايام الاتراك.. واذا كانت الحكومة ما بدها تهتم .. لبلاد رايحة على الخراب » . ولا تختلف اصوات بقية المواطنين والقرى عن هذه المعاني . وهـي اصوات المعاناة والحرمان من ابسط مسؤوليات الدولة والوطن ، ليست اصواتا طائفية ، فأسـماء البشـر والقـرى مـن مختلف الطوائف . ويعلق الصحفي الذي سجل هذا التحقيق عن المأسـاة بقوله « وهكذا لبنان الليطاني والعاصي والحاصباني والوزاني .. مياه كثيرة تذهب هدرا وقرى بالعشرات تشتهي نقطـة المـاء .. بعضها النقمة فيها بلغت حدود اليأس وبعضها يلفهـا صمت حزين يقطعه بين حين واخر ازيز طائرة تحمل الدمـار او دوي مدفع أو انفجار صاروخ » (النهار ٣ ــ ٨ ــ ٧٤) .

● تشكلت حركة المحرومين بقيادة الامام موسى الصـدر ، واثارت بين مطالب الجنوب قضية مزارعي التبغ في لبنان ، وقـد كلفت لجنة من الجيش لدراسـة القضيـة بتاريـخ ١ ــ ٨ ١٩٧٤ فانتهت بعد شهر الى وضع تقرير يقول انه لا بد من تحويل شركة الريجي الـى « مؤسسة عامـة ذات طابـع خاص » . ثـم يضيف ما نصه « انتهى استثمار الاحتكار المرتكز عـلى عامـل الاستمرار فقط من دون اي حق قانوني للشركة المستثمرة في ٣١ ــ ١٢ ــ ٧٣ واصبحت حكما منذ ذلك التاريخ كل املاك الاحتكار وحقوقه ملكا للدولة وانتقلت واجباته اليها ، وعليه فان تحويـل الريجـي الـى مؤسسة عامة لن يكلف الدولة اية اعبـاء او تكاليف بـل بالعكس سيوفر وفرا لخزينة الدولة اكثر من ٨٠٠ الف ليرة فـي السنة ، وهي حصة الشركة من استثمار الاحتكار . وقرار الدولة في هذا الخصوص سيساعد على ضبط علاقاتهـا بمزارعـي التبـغ ، لان الاعتقاد السائد عند جميع الناس ان ادارة الحصر هي شركة خاصة

من بقايا الاستعمار الفرنسي لا عمل لها الا استغلال المزارع الفقير . ولذلك فان في انهاء الاستثمار وتغيير اسم الريجي (مؤسسة التبغ اللبنانية) منطلقا لمعالجة قضايا مزارعي التبغ ، لان من هنا تبدأ المعالجة لمشاكل المزارعين ، وبالخلاص من عقدة نفسية رزح تحتها ابن الجنوب التي اصبحت في نظره رمزا لاستغلاله وعبوديته ، ولا جدوى في اي حل لمزارعي التبغ لا ينطلق من هنا » . ومن المفيد القول بان اللجنة التي وضعت هذا التقرير المؤلف من ٢١ صفحة فولسكاب تنتمي الى مختلف الطوائف .

● عندما تشكلت حكومة تقي الدين الصلح اعلن الاتحاد العمالي العام عن غضبه لابعاده عن التشكيلة الحكومية الجديدة ، فهدد بالاضراب والتظاهر . وكان هذا الاعلان السياسي عن نوعية الغضب ظاهرة جديدة في الحركة العمالية اللبنانية التي ظلت لامد طويل محصورة في نطاق المطالب الاقتصادية . وقالت يومها احدى الصحف اللبنانية غير المعروفة بتعاطفها مع العمال ان « ثمة شعورا عميقا ومتزايدا في صفوف الحركة العمالية والنقابية ، بان توزيع ثمرات الازدهار والانتاج الاقتصادي لا يعكس حقيقة مساهمة الطبقة العاملة في صنع هذا الازدهار » و « ان مداخيل اصحاب راس المال وارباحهم ارتفعت في الاعوام الاخيرة بنسبة تفوق بكثير نسبة ارتفاع مداخيل العمال والمستخدمين والاجراء » وان « ابرز ما استجد في موقف الحركة النقابية اللبنانية ، في الفترة الراهنة، انها بدات تطرح في شكل جدي ومسؤول وللمرة الاولى في تاريخها ، قضية المشاركة السياسية في الحكم » وان « سلسلة الصراعات والمعارك الجزئية والعامة ادت الى تصليب عود الحركة العمالية وزيادة وزنها الكمي والنوعي ، في ظل استمرار الانتعاش العام في الصناعة المحلية . وقد تكونت في معمعة هذه المعارك قناعات جديدة مؤداها ان تمثيل الطبقة العاملة الصناعية التي تشكل نحو ربع مجموع عدد العاملين في لبنان في الهيئات

السياسية التنفيذية اصبح امرا حيويا وملحا ، بسبب عجز اشكال التمثيل الراهنة والبنيات السياسية القائمة عن حل المعضلات المعيشية المعقدة التي تعانيها النسبة العظمى من العمال والاجراء وذوي الدخل المحدود » . وقبل أن ينتهي عام ١٩٧٤ باسبوعين فقط تحول اضراب مستخدمي المصارف الى اضراب لكل عمال لبنان ردا على الهيئات الاقتصادية الرافضة لتحقيق الحد الادنى من المطالب .

هكذا كانت الامور « داخل » لبنان عشية العرس الدموي ، فالجمود السياسي المراوح مكانه في قاعات الجامعة العربية ومؤتمرات القمة والفزع العسكري من الحملات الاسرائيلية على الحدود ، كانا يخفيان بالاردية الطائفية والانعزالية الاقليمية واقعا اجتماعيا مرا سرعان ما تصاعدت حدته الى الذروة ، وتحولت التراكمات الكمية البطيئة الى انفجار كيفي .

★ ★ ★

كيف كانت بوادر هذا الانفجار ؟ اولم تصرخ الكلاب كعادتها قبل وقوع الزلزال ؟

بلى ، فقد صرخت الكلاب في تلك الليلة الطويلة السابقة على عيد راس السنة الجديدة ـ ١٩٧٥ ـ صرخت طويلا ، ولم يستمع لصوتها احد في غمرة المهرجان الكرنفالي بهيئة الامم المتحدة .

كانت الصرخة الاولى مجموعة هائلة من حوادث الخطف والاغتيال ومحاولة الاغتيال ، اهمها خطف المعلق السياسي المعروف ميشال ابو جودة (مساء ٣ تموز ٧٤) وكذلك اغتيال الوزير اليمني محمد نعمان قبلها بأيام قليلة ، ومحاولة اغتيال سفير التشيلي في بيروت (٢٢ ـ ٧ ـ ١٩٧٤) .

... ولكن الكلاب صرخت بصوت مسموع في الدكوانة .

فقبل يوم واحد من نهاية شهر تموز (اي بعد وقت قصير من الحملات الاسرائيلية الوحشية على الجنوب) افتعل حادث فردي

بين فدائي فلسطيني من مخيم تل الزعتـر وكتائبي لبنانـي مـن الدكوانة ، ادى الى اخطر حريق شهدته البلاد منذ ايار ١٩٧٣ حتى ذلك الوقت . قلت « اخطر » حريق لان النيران حوصرت يومذاك، ولكنه في الواقع كان « البروفة المتقنة والمحكمة الصنع » لاحـداث ١٩٧٥ . يومها علق احد الصحفيين « مـا اكثر الدكوانات القابلـة للاشتعال والاحتراق في اي لحظة ولاتفه الاسباب ، خصوصا ان الطقس يساعد والوضع يساعد والسلاح كثير والمتشنجون اكثـر والمياه قليلة » (الياس الديري في النهار ٣١ – ٧ – ٧٤) . يومها ايضا صرح الشيخ بيار الجميل في مؤتمـر صحفي « ان استمرار المخيمات الفلسطينية ، هكذا مناطق مغلقة على السلطة ومسلحة ، فيما ابوابها مشرعة امام كل هارب من العدالة او كافر او فوضوي، حالة من شأنها ان تنفجر في اي حين » .

يومها اكتفى الجميل بتحليل الحدث الخطير – بروفة الهول الكبير – على انه حادث فردي عابر ، والمتعمقون قالوا بانه ، عـلى عكس ايار ١٩٧٣ الذي كان بين السلطة والمقاومة ، بين فريق مـن اللبنانيين والوجود الفلسطيني . لم يربط احد بين حادث الدكوانة والعدوان البشع لاسرائيل على الجنوب ، ولم يربطه احـد بالواقع الاجتماعي الشامل للبنان . ولم يتصور احـد عـلى الاطـلاق ان الحادث وان اتخذ شكل الصراع بين الوجود الفلسطيني وفريق من اللبنانيين ، فانه يضمر في تفاصيله صراعا اخـر بين اللبنانييـن انفسهم ، هو الاصل وغيره نتائـج ومضاعفـات وتداعيات . ولكن استفتاء خطيرا اجرته « مؤسسة الابحـاث والمعلومات » نشرتـه جريدة النهار في ١٨ – ٨ – ٧٤ عشية الاحتفال بالذكرى السنوية الرابعة لتولي الرئيس فرنجية مسؤولية الحكم ، جـاء ليقول شيئا اخر . وفي ما يلي النص الحرفي للاسئلـة والاجوبـة ، وبعدهـا نستخلص النتائج :

١ ــ اية امال تعلق على عهد الرئيس فرنجية فـي السنتين المقبلتين ؟

ــ كبيـرة	٢٨٪
ــ محـدودة	٢٢٪
ــ ضئيلـة	١٨٪
ــ لا امـل	٢٢٪
ــ لا راي	١٠٪

٢ ــ هل تعتبر ان عهد الرئيس فرنجية حقق الامال المعقودة عليه في السنوات المنصرمة ؟

ــ حققها كليـا	١٤٪
ــ حققها جزئيا	٤٦٪
ــ لم يحققها	٣٤٪
ــ لا راي	٦٪

٣ ــ في اي حقل تعتقد ان العهد نجح ــ او فشـل ــ فـي صورة خاصـة ؟

ــ ضبط الامن : نجح ١٦٪ ــ فشل ٧٩ ٪ .
ــ السياسة الدفاعية : نجح ٣٦٪ ــ فشل ٥٩ ٪ .
ــ مكافحة الغلاء : نجح ٦٪ ــ فشل ٨٩٪ .
ــ الضمانات الاجتماعية : نجح ٦١ ٪ ــ فشل ٣٤٪ .
ــ تأمين المياه والكهرباء والطرق : نجح ٢٩ ٪ ــ فشل ٦٦٪ .
ــ تأمين المدارس : نجح ٥٧ ٪ ــ فشل ٣٨٪ .
ــ العلاقات اللبنانية ، الفلسطينية : نجح ٥٦٪ ــ فشل ٣٩ ٪
ــ السياسة العربية : نجح ٧٢٪ ــ فشل ٢٣٪ .
ــ السياسة الخارجية : نجح ٧١٪ ــ فشل ٢٤٪ .
ــ لا راي ٥ ٪ .

٤ ــ على اي حقل ترى ان يركز العهد في صورة خاصة فـي السنتين المقبلتين ؟

ـ ضبط الامن	٤٤٪
ـ السياسة الدفاعية	١٠٪
ـ مكافحة الغلاء	٣١٪
ـ الضمانات الاجتماعية	٢٪
ـ تأمين المياه والكهرباء والطرق	٢٪
ـ تأمين المدارس	١٪
ـ العلاقات اللبنانية ، الفلسطينية	٤٪
ـ السياسة العربية	١٪
ـ السياسة الخارجية	١٪
ـ لا راي	٤٪

٥ ـ ما رأيك في المجلس النيابي ؟

ـ اثبت وجوده كليا	٦٪
ـ اثبت وجوده جزئيا	٣٣٪
ـ لم يثبت وجوده	٥١٪
ـ لا راي	١٠٪

٦ ـ هل تؤيد حل المجلس قبل انتهاء مدة ولايته ؟

ـ نعم	٣٧٪
ـ لا	٣٦٪
ـ لا راي	٢٧٪

٧ ـ ما رايك في الحكومة الحالية ؟

ـ ادت مهمتها كليا	٦٪
ـ ادت مهمتها جزئيا	٣٩٪
ـ لم تؤد مهمتها	٤٦٪
ـ لا راي	٩٪

ـ هل تؤيد تغيير الحكومة ؟

ـ نعم	٤٨٪
ـ لا	٢٧٪
ـ لا راي	٢٧٪

وايا كانت تحفظاتنا على مثل هذه الاستفتاءات ، فان مـا لا يحتاج الى ايضاح هو ان الرأي الغالب في قضيـة الامـن هـو ان « العهد » قد اخفق بنسبة ٧٩ بالمئـة وان المطلب الاول للبنانييـن الذين بلغت نسبتهم ٤٤ بالمئة هو تحقيق الامن . كذلك فان هنـاك ٥٩ بالمئة يرون ان العهد قد اخفق في سياسته الدفاعية . ولكـن المثير للتأمل هو ان عينة الاستفتاء قد صوتت الى جانـب العهـد بنسب عالية في سياسته العربية والفلسطينية . ومعنى ذلـك ان الديكور السياسي للدبلوماسية العربية ـ ومن بينها اللبنانيـة ـ كان يخفي باتقان بالغ الحقائق الاجتماعية الصارخة في « الداخل » اللبناني والمعبر عنها شعبيا بانفلات الامن وعسكريـا بالاعتـداءات الاسرائيلية على « الحدود » والتواجد الفلسطيني المسلح .. بالرغم من ان قضية الحدود تعكس في ايجاز مركز قضية الداخل ، وهي الاصل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لانفلات الامـن وانتهاك الوطن .. فالدويلات المتحدة فيدراليا تحت اشـراف « سـلطة » مركزية لمصلحة الطائفة الاقوى اقتصاديا ودستوريا تعني اساسـا بتسليح ميليشياتها لحماية الحدود العشائرية الطائفية ، لا لحمايـة الوطن . وفي ظل « تعدد » الدويلات ينفلت حبل الامن المركزي ، لا بسبب الوجود الفلسطيني الذي يشارك فـي حمايـة الحـدود الاصلية للوطن حماية لنفسه التي اهدرت لا في الجنوب ، بل فـي شوارع بيروت وارقى احيائهـا دون ان تستطيع « السلطـة » ان توفر هذه الحماية .

لذلك ارتفعت قبل نهاية عام ١٩٧٤ بشهرين اصوات لبنانية تطالب بالبحث عن الجذور بدلا من الدهشة امام حادث فردي في الدكوانة يؤدي الى حريق ، وامـام حـوادث الخطف والاغتيـال المتعاظمة ، وتعاظم العدوان الاسرائيلي المنظم . وكان من الطبيعي ان تكون الاضرابات والتظاهرات والاعتصامات العمالية في المـدن ودونية الحياة لسكان القرى المحرومين من ابسط مقومات العيش

الانساني وحزام البؤس حول بيروت ان تكون كلها منطلقا لاكتشاف علة العلل . واذا هي كامنة في اسس النظام العشائري الطائفي ، اسسه الاقتصادية والسياسية والامنية على السواء . ومن هنا كانت « اعادة النظر » في الدستور والميثاق غير المكتوب من ناحية ، و « النهضة المسيحية الجديدة » من ناحية اخرى .

هكذا اقبلت خطبة العيد لمفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد في منتصف تشرين الاول ١٩٧٤ البادرة الاولى والمبكرة لموجة اعادة النظر التي اجتاحت البلاد بعدئذ . قال فضيلة المفتي « ان من اولى مساوىء هذا النظام انه يصر على الجمع بين الحرية والطائفية في آن واحد ، الى درجة وقع معها هذا النظام فريسة التناقض وبالتالي فريسة التآكل . ذلك ان الحرية في طبيعتها ترفض الطائفية والطائفية في طبيعتها ترفض الحرية » . واضاف « ان المنتفعين بالطائفية هم وحدهم الذين يتعمدون في استمرار الربط بين الحرية والطائفية في اصل هذا النظام حتى يتسنى لهم الاحتجاج بحماية الحرية عندما يكون غرضهم حماية مكاسبهم الطائفية » .

وفي هذا الصدد قدم حزب البعث العربي الاشتراكي في لبنان تقريرا وافيا بتاريخ ١٧ — ١١ — ٧٤ حول التعديلات الواجب اتخاذها في صلب الدستور سواء على صعيد قوانين الجنسية والاحوال الشخصية او على صعيد الحريات العامة والملكية الفردية وصلاحيات الرئيس وقانون الانتخاب وطائفية الوظيفة . وقد اختتم التقرير استعراضه المفصل للمواد التي تحتاج الى تعديل والنصوص التي تحتاج الى حذف او اضافة بان طالب « بنصوص حديثة تنزع كل القيود عن الديمقراطية وتمنع تشويه الثقافة الوطنية وتقيم مقاييس وضوابط منطقية لعمل السلطة وتسهل تعديل الدستور ، وتنفذ النصوص التي لم تنفذ ، كما اننا نقترح اضافة باب بحقوق العمال في الانتاج يقدم لهم الضمانات الكافية للمستقبل والشيخوخة ، ذلك لان هذه الطبقة مرشحة لان تضم

الغالبية من اللبنانيين ولم يعد جائزا ان تكون هذه الغالبية تحت رحمة اقلية ضئيلة تطعمها عندما تشاء وتجوعها عندما تشاء » .

الى جانب موجة « اعادة النظر في النظام » التي عرفتها نهايات ١٩٧٤ ولدت موجة اخرى بالغة الاهمية يمكن تسميتها بالنهضة المسيحية الجديدة .. فمن اعماق البؤس الاجتماعي والعشائرية المتخلفة والطائفية المدمرة والمواطنة الناقصة انبثقت شرارة تقدمية في قلب الكنيسة اللبنانية ، تستعيد اعرق تقاليد فكر « النهضة » الذي حمل مشعله للعرب جميعا المفكرون اللبنانيون المسيحيون الرواد ، وتبعث الى الوجود المسيح الحقيقي الذي وقف الى جانب الفقراء واعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر ، فكانت المسيحية اول دين يدعو للعلمنة ويحرر العبيد .

تجلت النهضة المسيحية اللبنانية الجديدة في الشخصية الفريدة للمطران غريغوار حداد واسرة مجلة « افاق » والمطران جورج خضر والاب سلوم سركيس و « تجمع المسيحيين الملتزمين » تحت شعار « نحو كنيسة جديدة » .

واذا كان « التحرر العقائدي » في هذه الموجة التي اشتد اوارها في النصف الاخير من عام ١٩٧٤ يعد اساسا ايديولوجيا لدعوتها الاجتماعية ، فان الذي يعنينا هنا هو هذه الدعوة الملحاحة والجسورة والرائدة التي يمكن ايجازها في النقاط التالية :

● يفرق غريغوار حداد بين الكنيسة ــ المؤسسة ، والكنيسة « جماعة المؤمنين » ويرى كالانجيل ان السبت للانسان وليس الانسان للسبت . والعبارة مفادها ان النص الديني في خدمة البشر وليس العكس . وبالتالي فالانسان هو الهدف وليس شيء آخر .

● يرى جورج خضر في كتابيه « فلسطين المستعادة » و « هل الدين افيون الشعوب » ان العالم يتغير من حولنا واذا لم نتغير معه ــ باسم الدين ــ فسوف ننقرض من خريطة الوجود ،

ويرى في المسألة الفلسطينية قضية كل لبناني لانها قضية كل عربي ، وان اللقاء بين اقصى درجات الثورة (الماركسية) واقصى درجات التدين ممكن وضروري وملح من اجل الهدف الواحد المشترك وهو الشعب الكادح ، اذا تخلى الفريقان عن الجمود والتعصب .

● ويعتقد سلوم سركيس في كتابيه « المآسي المعاصرة والمصير العربي » و « العروبة بين الانعزالية والوحدة » ان عروبة لبنان ومحنة فلسطين هما قدر ومصير وحياة ، ولا سبيل للبناني ان يكون مواطنا الا بالانطلاق في بناء بلاده على هدى هذين الشرطين .

ولا تخرج دعوة مجلة « افاق » ولا دعوة تجمع المسيحيين الملتزمين عن هذه المعاني التي حوربت في شخص غريغوار حداد من جانب الكنيسة ـ المؤسسة ، حربا التزم فيها الفاتيكان حيادا ظاهريا . وبالرغم من التأييد الشعبي الكاسح ـ في الصف المسيحي ـ للمطران اللبناني ، الا ان المؤسسة استطاعت تجميده .

غير ان الذي يعنينا هنا هو هذا اللقاء الموضوعي الفذ ـ في مواجهة العشائرية والتخلف واللامواطنة ـ بين الموجة التي نادت عشية العرس الدموي باعادة النظر في الدستور والنظام ، وغالبيتها من المسلمين ، والموجة التي نادت بالتغيير وعروبة لبنان والعلمنة والديمقراطية من المسيحيين .

كان ذلك معناه الوحيد هو ان هناك ظاهرة موضوعية تجمع عليها الغالبية الساحقة من الشعب اللبناني ، تستحق المواجهة . عنوان هذه الظاهرة « حتمية التغيير » .

★★★

.. ولكن الديكور العشائري الطائفي كان اقوى . بتعبير ادق ، كان اكبر ، فاخفى عن العيون ملامح الكارثة القادمة بعد ايام

معدودة ، وصم الآذان عن سماع صوت الكلاب النابحة قبل وقـوع الزلـزال .

كان صوت الرئيس اللبناني فوق منبر الامم المتحدة ، كانـه صوت قائد الثورة الفلسطينية ، قبيل عيد ميلاد ١٩٧٤ وقبيل عيد راس السنة الدموية بساعات .

وكان المشهد السياسي في بيـروت مثيـرا . كـان رئيس الحكومة رشيد الصلح قبل ذلك بشهر واحـد (٢٤ ــ ١١ ــ ٧٤) يخطب في ذكرى تأسيس حزب الكتائب قائلا « يسعدني ان اهنىء حزب الكتائب رئيسا واعضاء بعيد تأسيسه ، هذا الحزب الـذي قدم التضحيات في سبيل لبنان وناضل مع الذين ناضلوا تأمينـا للاستقلال ودفاعا عنه . وكانت له اليد الطولى في وضـع الميثاق الوطني الذي اعاد لبنان الى اطاره العربي ، وجعل منه بلدا حـرا سيدا مستقلا » .

.. وسوف يضحك رشيد الصلح مذهولا ــ والتاريخ ايضا ــ من هذه الكلمات طويلا ، وبعد وقت قصير جـدا من بزوغ فجـر ١٩٧٥ وبداية اطول يوم في التاريخ اللبناني الحديث .

(٢)

بالرغم من تفاؤلات النهاية الوردية لعام ١٩٧٤ ـ خطبة الرئيس اللبناني في الامم المتحدة وكلمات رشيد الصلح في ذكرى تأسيس حزب الكتائب ـ فقد حملت اجراس العام الجديد ١٩٧٥ في دقاتها ايقاعا مغايرا لايقاع السنة الماضية . بدأ مسلسل الاضرابات باحدى فئات المثقفين وهم المعلمون ، وبدأ التفيير يدب في اوصال فئة اخرى من المثقفين هم الطلاب ، وبدات الدولة الشرعية تسترد الامن من دولة المطلوبين في طرابلس ، وبدات التشكيلة الوزارية الغريبة الى حد ما عن تقاليد الحكومات السابقة تواجه العواصف خاصة حين اتخذت بعض الاجراءات الطفيفة على الصعيد الاقتصادي . وبدات اسرائيل منذ ليلة راس السنة تضاعف حملاتها الوحشية على الجنوب بدءا من الطيبة الى كفرشوبا الى المرقوب .

تفجرت قضية المعلمين على نحو مباغت هدد المدارس اللبنانية بالتوقف ، رغم ان جذور القضية قديمة قديمة .. ولما كانت المدارس الخاصة هي محور اضراب المعلمين اكثر كثيرا من مدارس الدولة ، فان المشكلة قد تجاوزت المطلب النقابي لاحدى الشرائح المهنية الى اسس نظام « الاقتصاد الحر » الذي يسمح بموجب القوانين الراهنة للتعاقد باهدار حقوق المعلم سواء من حيث المرتبات المتدنية او الضمانات الغائبة . وهكذا تقاربت الحال بين

المعلمين – وهم احدى فئات الطبقة الوسطى – بحال العمال ، لا من ناحية الاجور وانما امام القانون الاقتصادي للنظام .. فصاحب او اصحاب المدرسة ، هم رفاق صاحب او اصحاب الشركة التجارية والصناعية ، كلاهما « مؤسسة » حرة التعامل – بلا حد ادنى من الضمانات – مع الموظف او العامل ، هدفها الوحيد هو تحقيق اقصى درجات الربح في اسرع وقت ممكن دون مغامرة لراس المال، ودون اي تفكير او تأمل في صناع فائض القيمة الذين لا يملكون سو ىقوة عملهم الذهني او اليدوي .

وقد ادى ذلك على الصعيد الاجتماعي الى بلورة موضوعية لجبهة اجتماعية عريضة ومعارضة لاسس النظام ، ولكن دون ان يتوفر الحد الادنى للتنسيق بين اطراف هذه الجبهة . كذلك بات مستوى التعليم يتهدده الخطر واضحت برامجه بحاجة ماسة الى اعادة النظر . كما ان غياب الطابع الطائفي لحركة المعلمين قد افسح لها المجال واسعا امام المبادرة .

غير ان الجبهة الغائبة عن الشارع تبلورت في صفوف الطلاب . ولم تكن الامور التي وصلت الى حد الصدام المسلح في الجامعة الاميركية (بكل ما رافقها من ذيول الطرد من الجامعة ومن لبنان) عام ٧٤ الا مقدمة لما آلت اليه عام ٧٥ في الجامعة اللبنانية حيث حققت الجبهة اليسارية للطلاب انتصارا ساحقا على جبهة اليمين المتطرف .

وبالرغم من ان حكومة رشيد الصلح لم تشكل خروجا استثنائيا على التأليف اللبناني للحكومات ، الا انها كانت في الوقت ذاته مؤشرا بالغ الحساسية للمتغيرات التي يمكن ان تستجد . وهكذا ، فانها على صعيد الامن غامرت بتطويق ما سمي بدولة المطلوبين في طرابلس (عصابة القدور) كما انها على الصعيد الاقتصادي غامرت بتطويق بعض الاحتكارات وكادت تصل الى نظام البطاقة التموينية تخفيفا للعبء عن ذوي الدخل المحدود ، بل

والتفكير في فرض نظام شبيه بالضرائب التصاعدية تحميلا للعبء لذوي الدخل غير المحدود .

هكذا كان لبنان يغلي في « سلام » مع بداية العام الجديد ، وكان مؤشر الترمومتر الزئبقي يتجه يسارا .. سواء بهوية المشكلات المطروحة على النظام او هوية اصحاب المطالب ، كذلك بهوية المتغيرات خارج النظام ، في الجامعة مثلا ، او المتغيرات داخل النظام ، في اجراءات الحكومة الصلحية مثلا مثلا .

★★★

ولكن « الغليان في سلام » تناقض مثير لا يقبل الحل . لذلك كان الانفجار هو الحتمية التي لا فرار منها . ولكن « شكل » الانفجار ـ من زاويتي التوقيت وهوية عود الثقاب ـ هي التي تثير حقا السؤال ، او لعلها على العكس ، تعطي الجواب تلو الجواب .

.. ففي اليوم الرابع والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٧٥ وقع حادثان خطيران . اولهما ان اسرائيل التي هدات مدافعها على الجبهتين الشمالية والجنوبية وباتت مشغولة للعنق في المفاوضات الجديدة « للسلام النهائي » شنت حربا وقائية ضارية على الجبهة اللبنانية . وهي حرب وليست اعتداء او حملة تطهير او عدوانا تقليديا كما كان يجري في الماضي . انها « حرب وقائية » كاملة البنيان سواء في الرجال او في العتاد وسواء في التخطيط او التنفيذ . يومها ظهرت المانشتات الرئيسية للصحف اللبنانية تقول « من خطوط الهدنة الجديدة في الجنوب : الناس تنزح والحدود تتقلص . من ٣٥٠٠ في راشيا الفخار لم يبقى سوى ١٢ عجوزا ومن اهالي كفر حمام لم يبقى سوى ختيارة عمرها ١١٠ سنين » و « تحولت كفر شوبا الى قنيطرة ثانية » .

في هذا اليوم بالذات ٢٤ ـ ١ ـ ١٩٧٥ قدم الشيخ بيار الجميل ـ رئيس حزب الكتائب اللبنانية ـ مذكرة الى رئيس الجمهورية هي ذاتها بيان الى الشعب اللبناني يقول ان الجنوب هو

حدود البلاد مع اسرائيل ولكنها « تفلت من سلطة الدولة لتقع تحت سلطة اخرى » هي المقاومة الفلسطينية « فاذا الجنوب ، تلك الارض السائبة التي تحاول عبثا ان تعرف المسؤول عنها وعن سلامتها ومصيرها » و « عبثا حاولنا ، الدولة ونحن ، الجيش ونحن ، ان نفهم الفريق الاخر ان الاعتراف الرسمي بالعمل الفدائي بدعة غريبة وشر مستطير » و « اما قرارات الحرب ، فليسمح لنا ان تكون وقفا علينا وحدنا » .

هذا عن قضية الجنوب والفلسطينيين واسرائيل ، اما عن المسألة الاجتماعية فقد اعترف بيان رئيس حزب الكتائب اعترافا جهيرا بان ثمة خللا مروعا في الحياة الاقتصادية للبلاد من جراء التضخم والارتفاع الجنوني في الاسعار مما يترك اسوأ الاثر على متوسطي الدخل وذوي الدخل المحدود . وقال ان رفع الاجور ليس هو البلسم الشافي ، وان تعديل نظم الاستيراد وقوانين الضرائب هو الحل الميسور ، لانقاذ الاقتصاد الوطني من الانهيار ، فالبلاد توشك على الافلاس التام .

هكذا بدا البيان « معتدلا » في لهجته الاجتماعية « متطرفا » في لغته الفلسطينية . ولكنه متطرف الى اين ؟ الى حد تبرير الحرب الوقائية الاسرائيلية على الجنوب بالتواجد الفلسطيني المسلح على ارض لبنان . وايا كانت التحفظات « القومية » على هذا التبرير ، فانه يتجاهل حقيقتين : اولاهما الشرعية اللبنانية للحق الفلسطيني في الوجود ومقاومة الاحتلال بموجب اتفاقيات القاهرة وملكارت . وكان رئيس الكتائب شخصيا ــ نائبا ووزيرا ــ من بين الذين منحوا هذه الشرعية بتوقيعه . والحقيقة الثانية هي ان وضعية الجيش اللبناني وامكانياته المتاحة لم تسمح له بردع المعتدين على حدود الوطن والدفاع عن المقيمين على ارضه من لبنانيين وفلسطينيين .

ولكن الذي يحار المرء فيه الى درجة الجزع هو ذلك التطابق

في التوقيت بين الحرب الاسرائيلية ومذكـرة الكتائب . ربمـا ، بالطبع ، كانت صدفة . ولكنها ، بالقطع ، صدفة شريرة . خاصة وان اسرائيل انقطعت بعدئذ عن الحدود اللبنانية شهرين كاملين اي حتى عدوانها على العرقوب في ٢٤ اذار ، بينما صعدت الكتائب « نضالها » السياسي الذي بلغ الذروة في ٢٤ شباط حين اصدر الشيخ بيار الجميل بيانا جديدا رد فيه على منتقديه ، كرس فيه دعوته الى اجراء استفتاء شعبي شامل حول شرعيـــة الوجود الفلسطيني المسلح . وحين علقت كثرة من الشخصيات والاحزاب على اختلاف انتماءاتها السياسية وايديولوجياتها الاجتماعية بـأن هناك استفتاءات عديدة يجب ان تجري، كان رئيس الكتائب حازما حين قال في بيانه المشار اليه بأن ذلك هو المدخل الى « مآسي » قادمة لا شك فيها .

وقد كان واضحا في ذلك الوقت غاية الوضوح ان التسوية « السلمية » التي يمهد لها وزير الخارجية الاميركي الدكتور هنري كيسنجر تتطلب في مواجهة الاجماع العربي والشرعية الدوليـــة لمنظمة التحرير الفلسطينية ان تنجز اسرائيل تسويـــة « دموية » لمسألة الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان حتى تصبح احتمالات « السلام النهائي » هي الارجح . وكان واضحا ايضا غاية الوضوح ان هناك فريقا لبنانيا ــ بغض النظر عن اية صـــدفة شريرة او حسنة ــ ينشد هذه التسوية بشقيها السلمي والدموي معا حتى يتخلص لا مـن السلاح الفلسطيني بـل من المضاعفات الاجتماعية للوجود الفلسطيني ذاته وامتداداته المترجمـــة لبنانيا في وضع الجيش وتخلف الجنوب وحزام الفقر حول العاصمة والمشكـلات الاخرى الرابضة في كيان المجتمع .. والتي اسهم الفلسطينيـون ضمن عوامل عدة في كشف الغطاء عن بخارها المكتوم .

وهكذا كان « انذار » رئيس الكتائب بمآسي قادمة ، انذارا صحيحا الى غير حد . بل لقـــد تحققت النبوءة العارفة بخفايا

الامور في زمن قياسي للغاية وفي صـــورة دراماتيكية نادرة من مختلف الزوايا .. فبعد ٤٨ ساعة فقط من بيان الجميل ــ اي يوم ١٩٧٥/٢/٢٦ ــ كانت تظاهرة سلمية للصيادين تجـوب شوارع صيدا احتجاجا عـلى تصريـح السلطة لشركة « بروتيين » بحـق الصيد الحديث في المنطقة مما يؤدي الى حرمان هؤلاء الصيادين من لقمة عيشهم .. فهم لا يستطيعون منافسة احتكار مدعـــم بأحدث وسائل الصيد التكنولوجية ، ولن تكون لايديهم ــ فضـلا عن شباكهم ــ وظيفة في هذا الجهاز العصري .

.. وكما تورط الدكتور امين الحافظ في ايار ٧٣ بالموافقة على انزال الجيش فكانت الثمرة الاولى هي الصدام الدموي مـع المقاومة الفلسطينية ، كذلك سقط رشيد الصلح في فخ استدعاء الجيش لقمع مظاهرة الصيادين السلمية ، فأصيب مـن اصيب . ولكن رصاصة واحدة هي التي اصبحت رمزا لاشعال الحريق حين اصابت نائب صيدا السابق معروف سعد ــ وكان يتقدم المظاهره بشعبيته التقليدية ــ فما لبث ان وافاه الاجـــل بعد الحادث باسبوع واحد .

كانت صيدا ، وكان الصيادون وكان معروف سعـد ، رمزا مكثفا عميق الدلالة لشيء واحد هو الجنـــوب والفقر والوعي الشعبي المتزايد . وكانت الرصاصة التي لم توجه ابدا الى عـدو الحدود تستهدف اغتيال هذا الرمز المكثف بضربة واحدة .

كانت شركة بروتيين بكل ما تعنيه من تطور وسائل النظـام في الاستغلال والافقار احد اصابع اليد التي اطلقت الزناد . وكان الايقاع بحكومة رشيد الصلح بين حجري الرحى ، اصبعا آخر . وكان التحرش بالفلسطينيين في أحـــد مواقعهم اصبعا ثالثا . وكان الرد على موجة الشعور الوطني والـــوعي الشعبي المتزايد اصبعا رابعا . وكان الجيش بترائه في ايار ٧٣ اصبعا خامسا .

تلك هي اليد التي اطلقت الرصاص عـــلى صيدا ، وعـلى الصيادين ، وعلى معروف سعد فأصابت منه مقتلا ، ولكنها ايضا

كانت الشرارة الاولى في الحريق الكبير .

★ ★ ★

بدأت بروفة « الدكوانة ٧٤ » طريقهـــا الى العرض الاول في ١٣ نيسان ١٩٧٥ مع فارق بسيط هـو ان عود الثقاب القديم كان كما قيل حادثا فرديا ، اما الستار فقـــد رفع هذه المرة عن مذبحة جماعية بشعة . واذا كان الحادث القديم ، بسبب ما يقال انه فردي ، يصعب معه اكتشاف من البادىء باطلاق النار وبالتالي تبرير ردود الفعل فان عرض « عين الرمانة » كان مجزرة بشعة من كمين مسلح على عربة تقل عددا من الفلسطينيين العائدين من حفل الى مخيمهم ، لم يتحسبـــوا مطلقـا لاحتمال هـذا الكمين المفاجىء . وهكذا لم يكن صعبا اكتشاف من الذي اطلق النار ولا اقول البادىء لان الطرف الآخر لـم يـرد بالمثل فقـد ذبـح جملـة وتفصيـــلا .

كان رد الفعل ــ واكرر رد الفعل ــ لـــــدى الشخصيات والاحزاب والمنظمـات الوطنيـة كأعضاء فـي « الجبهـة العربيـة المشاركة للثورة الفلسطينية » هو « عزل » الكتائب . كـان شعارا لا قرارا .. فالقرار يعني احتواءه ولو على نسبة ضئيلة من القدرة على التنفيذ ، يعني ايضا تقديرا سليما لحسابات موازين القوى ، يعني اخيرا تقييما موضوعيا دقيقـــا للمستقبل . ولكن العزل الوطني للكتائب كان في الارجح استجابة انفعـــالية لمذبحة عين الرمانة ، كان رد فعل اكثر منه فعلا وشعارا اكثر منه قرارا قابلا للتنفيذ . لماذا ؟ لان العزل ينبغي ان يكون الضربة القاضية للخصم بعد سلسلة من الضربات التي تعزله تدريجيا عن قواعده وجماهيره ، وحين يجيء العزل يصبح تقريرا لواقع قائم بالفعل لا امرا لهـــذا الواقع بان يتغير من تلقاء ذاتـــه . وحزب الكتائب ــ كما بينت الاحداث ــ لا يختلف في مساره السياسي والعسكري عن حزب الوطنيين الاحرار والرهبانيات والرابطـــة المارونية . والسياق

المنطقي هو عزل هؤلاء جميعا ، فهل كان ذلك ممكنــا باي معيار ؟ ان الاحزاب والمنظمات الوطنية لم تبذل ـ قبل هذا القرار ـ جهدا كافيا في العمل السياسي بين صفوف المواطنين المسيحيين ، وفي الوقت نفسه بالغت في اعتمادها على التأييــد العربي . ومن ثم لم يكن لديها اي تصور عن نوعية ومدى رد الفعل لقرار العزل لدى قطاعات لا يستهان بها من الجماهير المسيحية ، كما انها لــم تتحسب قط للمتغيرات الجــديدة التي طرات على الخريطـة السياسية العربية بعد حرب تشرين والتي غاب عنها بصــورة مؤكدة الثقل المصري في احداث ١٩٥٨ . ونتيجة عملية لهـذين الخطأين في التقدير والتقييم بــدت مجزرة عين الرمانة للعيون الوطنية وكأنها امتداد كمي للاحتكاك التقليدي بين قوى اليمــن والفلسطينيين ، وبمعزل عما يمكن ان تؤول اليه المضاعفات فـي المستقبل القريب جدا من انفجار طائفي ـ اجتماعي شامل بطـول البلاد وعرضها . ومن ثم لم يكن لدى هذه الاحزاب والمنظمــات الاستعداد المخطط للمعركة القادمــة بمختلف مستــويات هذا الاستعداد وفي طليعتها المستوى العسكري .

.. ومن هنا فان الحرب التي استؤنفت في العشرين من ايار بعد اقل من اربعين يــوما مضت على مأساة عين الرمانة ، كانت « مفاجأة » حقيقية للصف الوطني ، سواء من حيث التعجيل بها او من حيث كثافتها المسلحة ، او من حيث تجــاوزها لمرحلة الاستفزاز اليمينــي للفلسطينيين الى مرحــلة الهياج الطائفي المسعور . وقد جسدت هذه المفاجأة ـ في واقع الامر ـ مفارقـة سياسية صارخة ، فالصف المؤهل لاستيعاب الظواهر الاجتماعية الحادة وتحليل مضاعفاتها ، لم يلتقط الاشارة جيدا من الحرب الوقائية الاسرائيلية ولا من مسلسل الاضرابات والتظاهرات المهنية والعمالية الدامية . واذا كان قد التقط الاشارة فهو لم يعمــل بموجبها . ولكن اليمين الذي يدعوه البعض غبيا هو الذي لم يضيع

وقتا في تفسير الشيفرة التي صاغتها تمردات الفئـــات الوسطى كالمعلمين والمتغيرات الراديكالية بين الطلاب والصدام الدمـــوي من الصيادين وازمات التضخم المتلاحقـة والارتماء العربـي فـي الاحضان الاميركية والاجهاض الاسرائيلي المتـــلاحق لانتصارات الفلسطينيين السياسية . فك اليمين الغاز الشيفرة السريـــة ، او ملامح التطورات الراديكالية المتأججة في باطن الارض . ولـم يكن امامه ســـوى الحل التاريخي لليميـــن الاجتماعي والقومي والدولي ، وهو المبادرة بالهجوم ، واشعـــال ما اسميه بالحرب الوقائية . انها الحرب التي تستهدف اولا الحيلولة دون الانفجار الاجتماعي الكيفـــي في بنية النظام ودون تجسيـــد المتغيرات الراديكالية للوعي الشعبي في تيار يساري كاسح . كما انهـــا تستهدف من ناحية اخرى المشاركة في التسوية الاميركية لحـل ازمة الشرق الاوسط بانجاز التصفية الدموية للمقاومة الفلسطينية، وهي التصفية التي بدأتها اسرائيل كجزء من خطة « السلام الدائم والوطيد » في المنطقة !

تلك هي اهداف الحرب التي بدات بموقعة عين الرمانـــة ولم تنته بعد . ولكن الاهداف شيء ومسيرةالحرب ونتائجها شيء آخر . وقد بدات الجولة الثانية من القتال يوم ٢٠ ايار اي بعـد ان استطاع الصف الوطني في اطار الشرعية انيخلع بدوره القفاز، وذلك في بيان الاستقالة التاريخي لرشيد الصلح الذي القاه فـي البرلمان صبيحة الخامس عشر من ايار . كان لا بد لهذه الحكومة التي جاءت بتكوينها الغريب نوعا واجراءاتها شبـه الراديكالية ، لامتصاص النقمة الشعبية من ان تذهب ، لانها صبت الزيت عـلى النار . والحقيقة هي أن اليمين المتطرف امسك بفرصة سانحـة هي الغضب الوطني الشامل من سقطة الصلح باستدعائه الجيش في حادث صيدا .

.. ولكنه ايضا كان الرجل الذي تعلم من التجربة ، ورفض

انزال الجيش في فاجعة عين الرمانة . بل انه الرجل الذي جرؤ علنا ان يضع النقط فوق الحروف ، حتى اذا جاءت الكلمات نقيضا لكلمات اخرى قالها قبل ذلك بأشهر قليلة في البيت المركزي للكتائب . واخيرا فهو الرجل الذي سارع الى اعلان دستور الحرب الدفاعية من جانب الصف الوطني ومن فوق أعلى منبر شرعي في البلاد وهو مجلس النواب . ولا بد ان اليمين قد ظن قبل ان يبدأ رئيس الوزراء بيان استقالته انه اما سيكون بيانا مستخذيا لرئيس حكومة استقال معظم اعضائها فرادى ، واما بيانا مستأسدا لرئيس حكومة لا يطمح في العودة الى السرايا مرة اخرى . ولكن الصلح فاجأهم تماما ، ببيان سياسي اصبح في ما بعد برنامجا للحركة الوطنية اللبنانية في نضالها . قال البيان انه بات من الضروري ان نتجه الى معالجة اوضاع البلاد معالجة « جذرية » لن تكتسب فعاليتها « مرحليا » الا وفقا للاسس التالية :

اولا : تحقيق اصلاح سياسي ديموقراطي يؤمن توزيعا صحيحا للصلاحيات بين مختلف مراكز السلطة ويوفر امكانية قيام تمثيل سياسي يعكس الارادة الشعبية الحقيقية من خلال تعديل ديموقراطي لقانون الانتخاب .

ثانيا : الالتزام بمقتضيات المعركة العربية المشتركة في مواجهة العدو الصهيوني ، وفي صميم ذلك الالتزام بمساندة القضية الفلسطينية ونضال الشعب الفلسطيني الشقيق بكل الاشكال والامكانيات ومهما بلغت التضحيات ، واقامة اكثر العلاقات توطدا ورسوخا مع المقاومة الفلسطينية على اساس التنسيق الكامل الذي يضمن المصلحة المشتركة .

ثالثا : تعديل قانون الجيش واخضاعه للسلطة السياسية واحلال التوازن في صفوفه ومده بكل الامكانيات المادية والبشرية ليتمكن من القيام بدوره الوطني الاساسي ، وتجنب اقحامه في قضايا الامن الداخلي مع ما يتطلبه ذلك من تعزيز لقوى الامن

الداخلي عدة وعددا .

رابعا : اقرار قانون التجنس بما يضع حدا لمأساة عشرات الالوف من اللبنانيين المحرومين من الجنسية وأخص بالذكر منهم عرب وادي خالد .

خامسا : معالجة الوضع المالي والاقتصادي والاجتماعي بما يؤمن الموارد الكافية وفق سياسة ضريبية تطال المداخيل المرتفعة، للوفاء بمتطلبات الدفاع الوطني والمشاريع الانمائية ، والتقديمات الاجتماعية والصحية والتعليمية والثقافية وسواها والتي ينبغي ان يجري توسيعها وتعميمها لتشمل كل اللبنانيين في كل المناطق ، مع العمل على ضرب الاحتكار والسير نحو العدالة الاجتماعية بخطى اسرع » .

.. وكان من الطبيعي بعد اقل من مائة ساعة على هذا البيان التاريخي ان تبدأ الجولة الثانية من الحرب الطويلة .

★★★

لسوء الحظ ان اليمين اللبناني ليس غبيا ، ولسوء الحظ ايضا انه ليس يمينا عصريا كالذي تعرفه معظم دول الغرب . لذلك اسباب تتعلق بالجذور التاريخية لنشأة هذا اليمين في احضان التبعية الاستعمارية والولاء الديني ، وأسباب اخرى تتعلق بهوية الاقتصاد اللبناني منذ الاستقلال ، فهو ليس اقتصادا وطنيا غائرا في التربة اللبنانية بقدر ما هو اقتصاد تجاري ومصرفي وسياحي ، اي انه بعبارة اخرى اقتصاد طفيلي استهلاكي .

.. فاذا اضفنا الاسس العشائرية للنظام الاجتماعي والاسس الطائفية للنظام السياسي ، اكتشفنا انه كان من المستحيل ان يكون اليمين اللبناني عصريا بأي معيار للعصرية والحداثة . لذلك ، فانه اذا كان بذكائه قد استطاع التقاط الشيفرة الاجتماعية التي ترهص بتغيرات راديكالية تغلي تحت السطح ، فانه بذكائه الرجعي ايضا

ـ ان جاز التعبير ـ قد شن حربه الوقائية وفق التقاليد العريقة لامثال هذه الحرب .. وهي ايجاد قاسم مشترك لقواته المتباينة الاصول الاجتماعية ، كالعنصر او الدين او المذهب تجمع بينهم وتوحد ولاءهم وتمتص اختلافاتهم الواقعية برفع راية خطر وهمي يهدد الجميع بالابادة ، وباذكاء فكرة التفوق العنصري او الديني او الطائفي على « الآخرين » الذين هم برابرة وهمج ومتخلفون . هكذا كانت الفكرة الصهيونية ، وهكذا كانت الفكرة النازية وشقيقتها الفاشية . وهي الفكرة التي تؤدي حتما الى العدوان الوقائي المستمر حتى يحتفظ العنصر بنقائه وحتى تبقى الشعلة الحضارية مضيئة ، بل لعلها تطمح الى انارة العالم بأكمله أي سيادته والسيطرة عليه ، فهذا امتيازها التاريخي وأحيانا الطبيعي واحيانا الالهي .

وتلك بالضبط هي « فكرة » اليمين اللبناني مع الفارق بين المناخ الاوروبي للنازية مثلا ، والمناخ اللبناني المغرق في التخلف. ولن ينسى تاريخ البرلمان اللبناني الصورة الفريدة والمكثفة في دلالتها حين اختتم رشيد الصلح بيانه امام النواب وتوجه نحو الباب الخارجي في طريقه الى قصر الرئاسة ، واذا بالشيخ امين الجميل ـ النائب ونجل زعيم الكتائب وعضو المكتب السياسي للحزب ـ يخرج عن طوره ويقفز من مقعده ويمسك بكتفي رئيس الحكومة محاولا منعه من الخروج . كشفت الصورة يومها اسلوب الصراع عند الفريق « المتخلف ! » الذي استخدم فقط سلاح الكلمة الشرعية ، وهذا الاسلوب عند الفريق « المتحضر ! » الذي استخدم الايدي والعضلات !!

المهم ان الحرب قامت ، ما دام الصف الوطني قد استفاق وخلع القفاز (كان مفهوما ان بيان الصلح ليس تعبيرا شخصيا بل خلاصة الراي والموقف الوطني بقيادة النائب وزعيم الحزب التقدمي الاشتراكي كمال جنبلاط) .. فقد آن للعدوان الوقائي الشامل ان يبدأ وان تصطف القوات في وحدة نازية صارمة :

عنصرية ضد الفلسطينيين وطائفية ضد المسلمين وفئات من المسيحيين ، ولينس الجميع مؤقتا آلامهم الاقتصادية التي اشار اليها الشيخ بيار في مذكرته الشهيرة في سبيل « الجهاد المقدس » . هكذا انتشر نطاق الحرب بين ليلة وضحاها من « استفزازات » الفلسطينيين ، الى معركة شاملة ضد الاحياء ذات الكثرة السكانية من المسلمين او الارثوذكس (الذين ذكر طوني فرنجية ـ نجل الرئيس ونائب زغرتا والوزير السابق ـ مؤخرا في تصريح له انهم العدو الرئيسي !!) بمختلف انواع الاسلحة الخفيفة والثقيلة ، بالتدمير المباشر وبالقنص والخطف والتعذيب حتى الموت . وانكشفت في اتون الحرب حقيقة « الدولة » اللبنانية فاذا بها دول وجيوش وقوى أمن واستخبارات وسجون عديدة .
وما ان كانت الجولة تنتهي بعد شهر او اقل حتى تبدأ الجولة الجديدة سواء كان الميدان هو بيروت او ضواحيها او الجبل او الشمال ، فبلغت خلال العام ١٢ جولة اساسية بمعدل جولة كل شهر ترافقها اكثر من جولتين اسرائيليتين على الحدود شمالا وجنوبا كما يتضح من الجداول الثلاثة التالية :

١ ـ تاريخ الجولات القتالية

١ ـ الجولة الاولى ١٣ نيسان
٢ ـ الجولة الثانية ٢٠ ايار
٣ ـ الجولة الثالثة ١ تموز
٤ ـ الجولة الرابعة ٢٩ آب ـ زحلة
٥ ـ الجولة الخامسة ٥ ايلول ـ طرابلس
٦ ـ الجولة السادسة ١٢ ايلول ـ عكار
٧ ـ الجولة السابعة ١٨ ايلول ـ بيروت
٨ ـ الجولة الثامنة ٤ تشرين اول ـ طرابلس
٩ ـ الجولة التاسعة ١٨ تشرين اول ـ زحلة

١٠ ــ الجولة العاشرة ٢٦ تشرين اول ــ بيروت
١١ ــ الجولة الحادية عشرة ٩ كانون اول ــ بيروت
١٢ ــ الجولة الثانيةعشرة ٢٤ كانوناول ــ بيروت ــ زحلة ــ طرابلس .

٢ ــ تواريخ المذابح الجماعية

١ ــ مجزرة عين الرمانة ١٣ نيسان ١٩٧٥
٢ ــ مجزرة طرابلس ــ زغرتا « الباص » ٨ ايلول ١٩٧٥
٣ ــ مجزرة تل عباس ١٢ ايلول ١٩٧٥
٤ ــ مجزرة السبت الاسود ٧ كانون الاول ١٩٧٥
٥ ــ مجزرة حارة الغوارنة ١٥ كانون الاول ١٩٧٥
٦ ــ مجزرة سبنيه ١٧ كانون الاول ١٩٧٥
٧ ــ مجزرة فرن الشباك ١ تشرين الاول ١٩٧٥ .

٣ ــ الحملات الاسرائيلية

١ ــ حملة على الطيبة ليلة راس السنة
٢ ــ اقتحام كفرشوبا ١٤ كانون الثاني
٣ ــ قصف مدفعي للعرقوب ١٥ كانون الثاني
٤ ــ هجوم جديد على العرقوب ١٧ كانون الثاني
٥ ــ معارك العرقوب تستمر ٢٤ اذار
٧ ــ اشتباك على الحدود بين لبنان واسرائيل ١ نيسان
٧ ــ اشتباكات جديدة على الحدود ٥ نيسان
٨ ــ تجدد الاشتباكات على الحدود ٧ نيسان
٩ ــ الكوماندوس الاسرائيلي يخطف مواطنا ١٣ ايار
١٠ ــ مجزرة اسرائيلية في عيترون ١٨ ايار
١١ ــ معركةبطوليةتخوضها القواتاللبنانية معالعدو ٢٦ ايار
١٢ ــ قصف النبطية بالمدفعية ١٦ حزيران

١٣ ــ معركة بطولية في كفركلا ٢٤ تموز
١٤ ــ العدوان على عيتا الشعب ٣٠ تموز
١٥ ــ معركة ضارية على الحدود بين المقاومة والعدو ٥ آب
١٦ ــ تجدد العدوان على الحدود ٦ آب
١٧ ــ قصف زوارق معادية في مياه صور ٧ آب
١٨ ــ دخول ٣٠٠ جندي اسرائيلي قريتي حانين وطلوسة ٨ آب
١٩ ــ عملية صور ١٧ آب
٢٠ ــ طائرات العدو تقصف المدنيين في البقاع ٢١ آب
٢١ ــ غارة اسرائيلية على البرغلية ٢٣ آب
٢٢ ــ اعتداء جوي على العرقوب ٣ ايلول
٢٣ ــ عدوان جوي على البرغلية ٤ ايلول
٢٤ ــ عدوان جوي على البرغلية ١٢ ايلول
٢٥ ــ مناضلو كفركلا يردون القوات الاسرائيلية ٢٨ تشرين٢
٢٦ ــ ٦٥ شهيدا واكثر من ١٢٠ جريحا في العدوان على الشمال والجنوب ٣ كانون الاول .

***

وقع الحكم في فراغ حقيقي باستقالة رشيد الصلح ، فقد كان مجيء اي رئيس للحكومة مرهونا بتبني المطالب الخمسة التي وردت في بيان الاستقالة واعتبرها الصف الوطني برنامجه . ولم يكن من السهل العثور على رئيس للوزراء يتخلى عن هذا البرنامج ويسمح في الوقت ذاته بانزال الجيش (العلاج اليميني التقليدي لانهاء الازمة التي اصبحت حربا حقيقية ، تختلط فيها الاصول النظامية للجيوش بحرب العصابات بحرب الشوارع بكل ما استجد في سياق الممارسة القذرة للقتال) . . ولكن القريحة تفتقت عن حل سحري هو الاول من نوعه في تاريخ لبنان سواء من حيث مقدماته او نتائجه ، اذ استشار رئيس الجمهورية النواب

كعادته في اختيار رئيس جديد للحكومة ، ثم فوجيء الجميع يوم ٢٥ ــ ٥ ــ ١٩٧٥ بحكومة عسكرية يراسها عميد متقاعد منذ الازل هو السيد نور الدين الرفاعي . والحقيقة هي ان الحل بدا لاول وهلة عبقريا ، فأخيرا تم العثور على رئيس سني يقبل الحكم دون مطالب ، ومعه وزراء عسكريون دون اعلان للاحكام العرفية . ولكن الحل الذي بدا عبقريا للوهلة الاولى نسفه الشعب اللبناني بعد ٢٤ ساعة تماما واستقالت حكومة الويك اند يوم ٢٧ ــ ٥ ــ ١٩٧٥ (تصادف يوم الاحد بين يوم التكليف ويوم الاستقالة) .

وكان الحل الثاني الاكثر عبقرية من ترشيح اليمين الذكي ، وهو تكليف صائب سلام (رئيس الوزراء السابق الذي استقال غداة حادث فردان الاسرائيلي متمسكا باقالة قائد الجيش) . . لكن المعادلات العشائرية لم تصل بصائب سلام الى باب السرايا . وظل الحكم في حالة فراغ يملأه العسكر تحت ستار « تصريف الاعمال » . ولكن الحرب لم تتوقف .

هنا ينبغي القول بأن الرفض الشعبي الواسع لحكومة العسكريين ، والاعتذار المحتم لصائب سلام عن قبول التكليف بشروط القصر ، كلاهما كان انتصارا سياسيا للحركة الوطنية اللبنانية بمختلف اتجاهاتها واحزابها .

والوجه الاخر لهذا الانتصار هو انتكاسة المخطط السياسي لليمين الذي رحب بصراحة تامة ــ هو الديمقراطي! ــ بالعسكريين، وناور بصراحة ايضا لفرض صائب سلام على رأس حكومة جديدة. كان الانتصار السياسي للوطنيين مرده الى تمسكهم المبدئي بالمطالب وجمع صفوفهم واستقطاب ما يسمى مجازا بالشارع الوطني حول هذه المطالب والاستيقاظ على ابعاد الحرب الدائرة قبل فوات الاوان . وكان المحك التكتيكي لاختبار هذا الانتصار هو الترشيح الناضج سياسيا لشخصية رشيد كرامي رئيسا للحكومة .

.. فبالرغم من ان كرامي ينتمي تقليديا الى نادي رؤساء الوزارات ، وبالرغم من انه ينتمي اجتماعيا الى الفئات العليا من البرجوازية اللبنانية ، الا ان رصيده الشعبي كان دائنا لا مدينا . كان رجلا نظيفا له مواقف وطنية عديدة تحسب له ، وقد ارتبط علنا بمطالب الصف الوطني . ولم يكن من السهل الترشيح المثالي والمتطرف لاحد المناضلين مثلا . وكان الاختبار قاسيا على الفريق الاخر ، لا بسبب الخصومات القديمة بين البعض وكرامي ، وانما بسبب « صعوده » تحت ضغط شعبي واسع ، وبعد الوساطة السورية الاولى (١٨ حزيران ٧٥) ، وبتأييد مطلق (واحيانا استفزازي) من الصف الوطني المناضل عن المطالب .

ولكن « المخرج من المأزق » كان جاهزا بتكليف كرامي وتأليف الحكومة في السادس عشر من تموز ١٩٧٥ ، تأليفها بالقواعد العشائرية ذاتها ووفق معادلة سياسية ترجح تماما كفة اليمين بدرجاته المتفاوتة .. لذلك فقد « هدات » الحرب عشية اعلان الحكومة ، ولكنها لم تضع اوزارها . هدات في العاصمة وانتقلت عند نهاية شهر آب الى زحلة ، ومع بداية ايلول الى طرابلس ، وقرب منتصفه الى عكار ، وبعد المنتصف بقليل عادت من جديد الى بيروت لتستأنف دورتها شبه الروتينية جغرافيا واسلوبا ، فما ان يتوقف اطلاق النار حتى يبدأ القنص فالخطف والخطف المضاد ، ثم تشتعل النيران من جديد ، هكذا بحساب دقيق . ★

.. ولم تستطع حكومة كرامي التي سميت عند مولدها بحكومة الانقاذ ان تحول دون التدهور ، بالرغم من اقصائها

★ لا بد من القول هنا ان الحركة الوطنية لم تنتبه في وقت مبكر الى هذا التكتيك العسكري من جانب اليمين الذي لا يناسبه فتح عدة جبهات في وقت واحد .

للعماد اسكندر غانم قائد الجيش وثقة المواطنين المتزايدة في حيادية رئيس الوزراء . لذلك اسباب عديدة تكشف عنها وثائق العام الدموي في جملة البيانات والتصريحات والوساطات العربية والاجنبية التي تمت خلاله .. فقد كانت التشكيلة الحكومية القائمة تعبيرا امينا عن الواقع الذي فجر الصدام المسلح . ولعله من الطرائف المثيرة ان اثنين من كبار المسؤولين عن الحكم والامن – على سبيل المثال – كانت ولا تزال لهما جيوشهما المقاتلة في الشارع . وكل ما استطاعه رشيد كرامي هو الحيلولة – الى حد كبير وليس الى حد مطلق – دون انزال الجيش في المعارك . والسبب الثاني هو ان المناخ العربي السلبي والمتهافت على التسوية الاميركية قد وصل في قمة سالزبورغ الى ذروة السلبية واحيانا التعريض والتحرش بالصف الوطني اللبناني . وقد انتهى مؤتمر وزراء الخارجية العرب في القاهرة لانقاذ الوضع اللبناني بصب المزيد من الزيت على النار . والسبب الثالث هو أن الحرب قد جنحت – رغم الجهود المستمرة للحركة الوطنية – في بعض المراحل الى الطابع الطائفي الصرف ، خاصة في المذابح الجماعية التي صاغت الى جانب الاسلوب الهمجي بعض المفارقات المأساوية الصارخة . يتضح ذلك ايضا من التفنن البربري في تشويه الجثث وحرق المخطوفين او ذبحهم احياء . والسبب الرابع هو حالة الاستقطاب العنيف بين اتجاهين في التفكير ، وهي الحالة التي اشار اليها الرئيس فرنجية غير مرة قائلا انه ليست هناك قواسم مشتركة ، ولكنه يقصد بالتعبير الحل الوسط الطائفي ، بينما الاستقطاب الذي نقصده اجتماعي . فقد اصدرت الكتائب وحزب الوطنيين الاحرار وحراس الارزة وجميعا والرهبانيات والرابطة المارونية مجموعة من البيانات والمنشورات تدعو الى التقسيم واقامة دولة مسيحية سواء كانت هذه الدعوة صريحة او غير مباشرة . ولكنها في الحالين كانت ولا تزال « مناورة »

ابتزازية — هي التعبير السياسي عن الحرب الوقائية — تهدف الى الحفاظ على النظام الراهن كما هو بغير تعديل بالحقوق او الواجبات او بالتشريع والتنفيذ . كذلك الصف الوطني فقد اصدر العديد من الوثائق التفصيلية ★ اهمها البرنامج المرحلي الذي وضعته الاحزاب والمنظمات الوطنية لتعديل الدستور وقانون الانتخاب وقانون الجيش وقانون الجنسية وقوانين الوظيفة والضرائب وما اليها مما يشكل بالقطع تغييرا راديكاليا في بنية النظام الاساسية .

وقد اظل هذه الاسباب مجتمعة مناخ دولي بالغ التعقيد ، عبرت عنه من ناحية نتائج مؤتمر هلنسكي للامن الاوروبي حيث اصبح التدخل في شؤون الدول الاخرى من اصعب القرارات اذا لم يكن من المحرمات . وكان من الثمار السابقة والتالية لهذا المؤتمر ان حصلت فيتنام وكمبوديا ولاوس في جنوب شرق اسيا على استقلالها ، وان اكتسح الحزب الشيوعي الايطالي منافسيه في الانتخابات العامة ، وان تحررت المستعمرات البرتغالية في افريقيا ، وان ثارت الدنيا على الفاشية الاسبانية . لذلك لم يكن سهلا بل اصبح مستحيلا تكرار مشهد الاسطول السادس الاميركي على الشاطىء اللبناني عام ١٩٥٨ ، واصبحت فرنسا والكرسي البابوي في الصف المعارض لفكرة التقسيم مباشرة ودون التواء .

هكذا وصل الموقف اللبناني محليا وعربيا ودوليا الى طريق مسدود . ولكن الرئيس فرنجية لم يشأ ان يمر عام ١٩٧٥ دون ان يشيد جسرا مثيرا للانقاذ ، هو نقيض الجسر الذي شاده عام

★ يمكن الرجوع الى الجزء الثاني من هذا الكتاب حيث يتضمن اهم وثائق الريقين ، يصدر قريبا .

١٩٧٤ ، فبعد ان كان الاتحاد السوفياتي « صديقا » يلجأ اليـــه وقت الضيق من اسرائيل ، اصبح « اليسار الدولي » هو المتهـم الاول في قضية لبنان . وبعـــد ان كان صوتا لمنظمـــة التحرير الفلسطينية في هيئة الامم المتحدة ، اصبحت المقاومة الفلسطينية هي المتهم الثاني .

ولكن المتهم الحقيقي من جانب اليمين ــ والذي افرزتـــه الاحداث رغم الطائفية ــ كان اليسار اللبناني العريض ، الذي يضم المسيحيين والمسلمين ، الناصرين والاشتراكيين والشيوعييـــن والمستقلين .

كان هذا « الاتهام » الذي اجمعت عليه مختلف اطراف اليمين انتصارا حقيقيا للحركة الوطنية اللبنانية ، فقد اعاد القضيـــــة برمتها الى صيغتها الصحيحة .. والوحيدة .

- ٣ -

كان الجسر الذي أراد تشييده رئيس الجمهورية اللبنانية لتعبر من فوقه الازمة يتألف من عدة عناصر اهمها : تحذير اليمين الدولي (الولايات المتحدة) من اليسار الدولي (الاتحاد السوفياتي) وتحذير اليمين العربي (ملوك النفط) من اليسار العربي (الانظمة المتحررة) وتحذير الشارع الاسلامي من الحركة الوطنية . وقد استخدمت كلمة « تحذير » لاعني في الحقيقة ما هو اهم ، فالرئيس يعلم ان الولايات المتحدة لا تحتاج الى تحذير من السوفيات وان ملوك النفط لا يحتاجون الى تحذير من حركة التحرر العربي وان اليمين اللبناني المسلم لا يحتاج الى تحذير من الاتجاه اليساري للحركة الوطنية . ولكن الرئيس يبغي من التحذير ما هو أبعد ، يبغي شكلا من اشكال التحالف اليميني الواسع على كافة الاصعدة الدولية والعربية واللبنانية لضرب الحركة اليسارية مرة واحدة وينتهي الامر .

والحقيقة ايضا هي ان التحالف اليميني الواسع المشار اليه لم يدخر وسعا في التعاون طيلة الاحداث . كان تصريح كيسنجر في باريس خلال تموز ومقارنته بين عشية الحرب الاولى والوضع اللبناني ذات دلالة . وكانت صفقات السلاح السرية وغير الشرعية بين الجناح اليميني اللبناني وبعض المصادر في الولايات

المتحدة وبلجيكا وفرنسا ذات دلالة اكبر . كذلك كان ارتباط احدى الزعامات الاسلامية التقليدية بالسعودية ومحاولتها فتح دكان جديد لحسابها في المنطقة الغربية من بيروت، والشبهات التي حامت حول افتعال حادث الشاحنة المحملة بالمصاحف في عاريا من اهم المساعي الحميدة لليمين العربي. وايضا كانت خطبة امام مسجد البسطة وما تضمنته من هجوم مباشر على اليسار من أهم الجهود المبذولة لشق الصف الوطني ، شقه اولا من اسفل ، اي بين الجماهير والقيادات ، تمهيدا لشقه من اعلى بين التنظيمات الوطنية المختلفة .

.. وهكذا فقد كانت العناصر التي يتألف منها الجسر الذي أراده الرئيس لتعبر من فوقه الازمة جاهزا ، وهو مجموعة الامكانيات المتاحة لدى اليمين الدولي والعربي والمحلي ، لتصفية الحركة الوطنية اللبنانية بتفجيرها من الداخل وتمزيق صفوفها وفصم العرى بينها وبين جماهير الشعب .

لذلك جرؤ البيان الرئاسي – خروجا على الاعراف والدستور – ان يعلن انحيازه المطلق لفريق محدد من فرقاء القتال ، وان يجهر باتهام الاتحاد السوفياتي والمقاومة الفلسطينية، وان يضع الامور في نصابها الصحيح بقوله ان الصراع هو بين اليمين واليسار .

ولكن المشكلة هي ان هذا البيان جاء من ناحية متأخرا جدا، ومن ناحية اخرى انه بالغ في الاعتماد على العوامل الخارجية (العربية والاجنبية) ، ومن ناحية ثالثة انه اخذ في الاعتبار ظواهر المتغيرات الجديدة للعصر دون جوهرها الاعمق .

كان البيان متأخرا (١٠ – ١٢ – ٧٥) لسببين رئيسيين : اولهما ان الحركة الوطنية التي بوغتت بالحرب الوقائية قد تطورت عسكريا وسياسيا خلال الاشهر الثمانية من القتال سواء في تحديد اهدافها المرحلية وتعيين وسائل نضالها وحشد قواها

الاجتماعية او في انضاج الوعي السياسي للمقاتلين ودعـم الاطر التنظيمية . لقد تمكنت في أحيان كثيرة على الصعيد العسكري ان تنتقل من مرحلة الصمود الى مرحلة الردع ومـن مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم . كما استطاعت في أغلب الاحيان على الصعيد السياسي ان تنتقل من مرحلة الحصار الى مرحلة الانتشار .

والسبب الثاني هو ان تدهور الحرب فـي كثير من المواقع الى الحضيض الطائفي بكل مظاهره كالخطف على الهوية والتمثيل بالجثث والتهجير الجماعي بقوة السلاح قد اثمر بالضرورة والحتم رد فعل طبيعيا هو التأييد الاسلامي الكاسح والعفوي وغير المنظم وأيا كان الاختلاف فـي المنطلقات لقتـال الحركـة الوطنيـة ذات الطابع اليساري . خاصة وان تحقيق المطالب المعلنة من جانب هذه الحركة سوف يفيد ، اقتصاديا وسياسيا ، اوسع شرائح الطوائف الاسلامية التي وقع عليها لاسباب عديدة اعباء الغبن التاريخي .

لذلك كان البيان ــ رغم تشخيصه الصحيح والدقيق لطرفي الصراع ــ متأخرا جدا في كشف الاوراق ومحاولة اقامة تحالفات طائفية ضد اليسار .

كذلك بالغ البيان في الاعتماد على العوامل الخارجية سـواء كانت عربية او اجنبية . ذلك ان الانطلاق اصلا ــ بحسن نيـة او سوئها ــ من ان الازمة مؤامرة خارجيـــة (ويشترك في هـذا التوصيف بعض من الطرفين كليهما) هو تجاهل مزري لحقيقـة الوضع الداخلي اللبناني واهمال مخيف عن جهل او تعمد لمتغيرات المجتمع اللبناني الباطنة وموازين القـــوى داخله . ان العامـل الخارجي في الازمة اللبنانية هو في خاتمة المطاف عامل مساعـد وثانوي ، بالسلب او بالايجاب . واذا كان مناخ التسوية السلمية قد هيأ مناخا مواتيا لبعض الدول العربية من ان تتحرك سلبـــا ازاء الحركة الوطنية ، فان هذا لا يعني انها يمكن ان تصـــل الى ذروة هذا السلب بالتحالف المعلن مع اليمين اللبناني . اولا خوفا

من شعوبها ، وثانيا لان هناك توازنا دقيقا بينها وبين مجموعة الانظمة الوطنية العربية الرافضة للتسوية الاميركية . كذلك الامر بالنسبة للدول الاجنبية ، فالروابط التاريخية مع فرنسا والروابط الدينية مع الفاتيكان والروابط الاستراتيجية مع الولايات المتحدة ، لا تستطيع مجتمعة ان تغير من حقائق الامر الواقع وكل ما تستطيعه هو محاولة احتوائه . هكذا كان التعليق الرسمي لواشنطن والتحرك الفعلي لفرنسا والفاتيكان هو التأييد العلني لحكومة رشيد كرامي ومعارضة التقسيم بل واقتراح بعض الاصلاحات الاجتماعية والسياسية في اطار النظام القائم . هكذا بالغ البيان الرئاسي في تقدير الاستجابة اليمينية العربية والدولية لان افتراض « مؤامرة خارجية » لم يقنع اصلا احدا من هذه الاطراف ، بل ان بعضهم كان صريحا واعتبرها سذاجة سياسية منقطعة النظير سواء كانت عن قناعة حقيقية او ايهاما دعائيا . وهكذا ايضا فان درجة تورط العامل الخارجي هي التي تحدد درجة قدرته على فرض الحل . ولما كان هذا العامل ثانويا – بالسلب والايجاب اكرر – فان قدرته هي الاخرى ثانوية جدا جدا .

وكان البيان سطحيا حين اخذ في الاعتبار ظواهر متغيرات العصر دون جوهرها الاعمق .. فالاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي بأجمعه لا يعيش الان في ظل التهديدات الابتزازية للحرب الباردة . ان العالم بدا عام ١٩٧٥ يحيا في عصر انتصار الاشتراكية وحركات التحرر الوطني . والانفراج الدولي الذي جسدته وثيقة هلسنكي ليس بروتوكولا اخلاقيا ، وانما هو تعبير موضوعي عن الاوضاع الجديدة في العالم : الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية والسياسية والعلمية والتكنولوجية . وهي الاوضاع التي اثمرت تركيع الاستعمار من اسيا الى افريقيا الى اميركا اللاتينية بأزيائه القديمة البرتغالية مثلا وازيائه المفرطة

الحداثة ، الاميركية مثلا . اصبح ثلثا البشرية يعيشون في ظل الاشتراكية ، واصبح الثلث الباقي يعاني ويلات التضخم وازمات النقد والطاقة وارتفاع الاسعار . ولم تعد الاشتراكية شبحا مخيفا بل املا كنجم المشرق . ولم تعد الايديولوجيات اليسارية من المحرمات بل من المقررات في برامج التعليم بمعاهد أعتى الدول الراسمالية . واصبحت قلعة الفاشية منذ ثلاثين سنة فقط - ايطاليا - مشرعة الابواب لمشاركة الشيوعيين في الحكم ، وامست قلعة الثورة البرجوازية - فرنسا - مرشحة لمرحلة الانتقال الى الاشتراكية .

هذه هي ابعاد المتغيرات الجديدة لروح العصر الذي يضطر فيه السفير الاميركي في سايغون ان يهرب من فوق سطح منزله بالهليكوبتر وكانت بلاده حتى وقت قريب تحكم جنوب شرق اسيا . وهو ايضا العصر الذي يسمح للاتحاد السوفياتي بأن يسهم في تحقيق الانتصار لاصدقائه في حروب التحرير بدءا من فيتنام الى كوبا الى سيناء والجولان الى انغولا . . بينما لا يستطيع الاسطول السادس في البحر المتوسط ان يتحرك خطوة واحدة نحو الشاطىء اللبناني كما فعل منذ ١٧ عاما .

تلك هي المتغيرات التي غابت عن بيان الرئاسة اللبنانية .

★★★

لا يصلح الجسر الذهبي الذي اراد رئيس الجمهورية تشييده لتعبر من فوقه الازمة ويعود لبنان كما كان ، لا يصلح للعبور . . فهل يستمر المسلسل الدموي ام تظل اللافتة على الطريق المسدود معلنة اللاسلم واللاحرب ام انه يمكن الوصول الى اتفاق سلام دائم ؟

★ ★ ★

قبل الجواب لا بد من الاستقراء الموضوعي الدقيق لمعطيات الحرب طيلة عام ١٩٧٥ .

● واول هذه المعطيات ان عوامـــل التفجر سابقة عـــلى الحريق ، منها ما هو تاريخي كعقـــدة الاضطهاد الديني خاصة ذكريات ١٨٦٠ وخاصة في الظلال السوداء للحكم العثماني. ومنها ما هو دستوري وميثاقي منذ « الاستقلال » الذي اقر امتيـازات طائفة معينة على بقية الطوائف مسيحية كانت او اسلامية . ومنها ما هو اجتماعي كتخلف المناطق غير الممتازة دستوريا وفقرهــــا والقهر المسلط عليها .

● ثاني هذه المعطيات هي ان الحرب بدأت وقائية من جانب الطائفة ــ الطبقة الممتازة ، ودفاعية من جانب الغالبية التي اصبح اضطهادها واقعا حيا لا عقدة تاريخية .. ولكن مسار الحـرب انعطف بها من الوقائية والدفاع معا الى مـا يشبه الحرب الوطنية التحريرية ، ولكنها حرب تحرير وطني من نوع جديد ، فالعـدو القومي المباشر تقتصر جهوده على الحدود ورديفه الداخلي باعلانه حل التقسيم ــ حتى ولو كان مناورة ــ قد دخل بالفعل حـرب الحدود ايضا . ان التقسيم هو في خاتمة المطاف اقتطاع اجـزاء من ارض الوطن ايا كانت الشعارات التي تبرره ، ولكـــن حرب الحدود الداخلية تعكس في الوقت عينه حربـا اخـرى يستحيل اختزالها في القول بأنها حرب طبقية . ذلك ان الاساس الاجتماعي للبنان هو العشائرية ، والقوام الطبقي لهيكل المجتمع لا زال قواما رجراجا متسيبا.. فرغم وجود احزاب للطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة والفئات الوسطى الا أن هذه كلها في مرحــــلة التكوين والتبلور ولم تصل بعد الى مرحلة التكامل الكلاسيكي لمجتمـــع طبقي . العشائرية هي الاساس الاجتماعي والطائفية هي الغطـاء السياسي في لبنان . لذلك فالوطن ليس مختمرا بمقدمات ثورة اشتراكية من اي نوع ، فالقاعدة المادية لهذه الثورة (لا موازيـن القوى الحزبية والعربية والدولية) هي في حكم الغياب المطلق . ان النظام الاقتصادي القائم على الانتاج الطفيلي (التجــارة ،

الخدمات ، السياحة ، المصارف ، الاستهلاك) لا يشكل القاعدة المادية لمستقبل اشتراكي قريب . وانما كل ما يمكن تغييره هـو مواطنة النظام وتوطينه ، اي خلق اقتصاد وطني مستقل يعتمـد اساسا على الزراعة والصناعة والسوق المحلية في ظل اقتصـاد حر وليبرالية سياسية وعلمنة شاملة للدولة والمجتمع .

لذلك تحولت الحرب الوقائية في مسارها المحتدم الى نوع معقد من حروب التحرير الوطنية ، حيث النضال ضـد الاساس العشائري للمجتمع والصياغة الطائفية للدولة وفوضى الاقتصاد الطفيلي لا ينفصل لحظة واحدة ضد تقسيم « الحدود » داخليا وخارجيا . وحيث يرتدي الطرف الاخر في القتال ثوبا نازيـا يختلط فيه الوهم العرقي بالعصبية الدينية بالعسكرية الفاشية.

انها اذن ليست حربا أهلية تقليدية ، وليست حربا تحريرية تقليدية ، بل هي مزيج مركب بالغ التعقيد تعقد الصيغة اللبنانية اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا .

● ثالث هذه المعطيات هي ان الجهاز التقليدي للحكم والمعبر أصلا عن التكوين العشائري للمجتمع لا يزال في ميزان القوى بين كفة المتغيرات وكفة الثوابت الرواسخ يرجح الكفـة الاخيرة . لذلك شواهد لا تخطئها العين ، فقد وصل رشيد كرامي فيإحدى اللحظات لان يصبح « بطل جميع الطبقات والطوائف » وذلك حين استطاع ان يصل الى اتفاق علوي مع الطرف الاخر لوقف القتال، وحين استطاع أن يسمي احيانا الاشياء بأسمائها كقوله « حاميها حراميها » او كاشاراته الـى البدء باطلاق النار مـن الهوليداي ان وعين الرمانة ، وحين استطاع ان يعلن في بيان مستقل اختلافه مع بيان رئيس الجمهورية . ولكن كرامي نفسه هو الذي وافق على التشكيل الوزاري لحكومة « الانقاذ » وهو الذي وافق على انـزال جزئي للجيش في بعض المناطق وهو ايضا الذي استسلم لانفراط هيئة الحوار الوطني ولجان الاصلاح المتفرعة عنها . وهو اخيـرا الذي صرح بأن المطلوب هو تفسير الدستور لا تعديله .

كذلك الرئيسين السابقين عبد الله اليافي وصائب سلام هما اللذان اعترضا على العلمنة الشاملة في هيئة الحوار بحجج دينية مما يشكل تناقضا مع الطلب الرئيسي بالغاء الطائفية، ويمنح الخصم فرصة للمراوغة. والرئيس سلام هو الذي اعلن — في عز الحشرة — جهاده المقدس ضد الشيوعية والشيوعيين ملتقيا مع اتهام الطرف الاخر لليسار واليسار الدولي. وهو اخيرا الذي علق على البيان الاخير للشيخ بيار الجميل بأنه يوافق على صيغة « لا غالب ولا مغلوب » التي تعني في النهاية حلا وسطا طائفيا.

ان لجان التنسيق مهما قيل عنها كانت تمثل حركة الشارع، بينما الحكومة ومجلس النواب (انظر مبادرته) وهيئة الحوار الوطني والزعماء المتقاعدون كانوا يمثلون « النظام القائم » والدفاع عنه مهما احتدت الالسن والعيون في التصريحات الصحفية. ذلك انه رغم انف الروابط الدينية والطائفية، تبقى المصالح الاقتصادية والسياسية للطبقة الواحدة او المتقاربة هي جوهر اللقاء بين عشيرة الحكم.

وهذه العشيرة بكل ما تعنيه الكلمة مسيحيا واسلاميا، هي الاقوى الى الان في مواجهة قوى التغيير.

● رابع هذه المعطيات واخطرها هي ان الحرب برهنت بالدليل الدموي القاطع على ان القتال لا يحسم الموقف. انها الحرب المستحيلة ان جاز التعبير. وهي لا تنتهي بعد تسعة اشهر من المجازر والمذابح والدمار العام الى نقطة الصفر. كلا، بل الى طريق مسدود، فبسبب تعقيدها المشار اليه بالذات، لا تصل ابدا الى مرحلة الحسم عسكريا ولا سياسيا. اي ان الحرب اثمرت — بالضبط ويا للعجب — نقيضها اسلوبا للصراع، فقد برهن تعقد الظاهرة اللبنانية الشديد على ان « النضال الديموقراطي السلمي العنيف » — ان جاز التعبير — هو السبيل الوحيد لاي تغيير راديكالي. وهنا يمكن الرد على القول بأن الثورة المضادة وحربها

الوقائية تستطيع الاستمرار والابتزاز والاستنزاف ، يمكن الرد بأنها تخسر مقومات وجودها (لبنان الراهن) اذا حاولت ذلك ، وان اليقظة في درجاتها القصوى بالصد والردع هي الجواب الوحيد .

انه لمن المؤكد ان الحركة الوطنية قد حققت على الصعيد العسكري انتصارات لا شك فيها ، ولكن المشهد داخل الهوليداي ان وخارجه كان رمزا عميق الدلالة على ان « الحسم » القاطع ليس واردا . لا يعود ذلك الى اسباب عسكرية محض ، بل لاسباب بالغة التشابك والتداخل والتركيب ، كهوية الحرب ذاتها وجغرافيتها وجماهيرها وقواها واصداءهاوامتداداتها ومضاعفاتها. وقد لاحظنا بأنفسنا الظاهرة الاستثنائية التي جسدتها المسافة بين الانتصار العسكري حين كان يحدث والانعكاس السياسي .. ففي مختلف الحروب تنعكس الانتصارات والهزائم على طاولة المفاوضات ، ولكن في لبنان لم يكن ذلك « القانون » ممكن التطبيق .. حيث بقيت المعادلة السياسية في حرمة العشيرة ومن مقدساتها لا تطالها ايدي المقاتلين .

هكذا كان احد وجهي الصورة : لا حسم عسكري ولا انعكاس سياسي لاية خطوة عسكرية متقدمة .

الوجه الاخر هو الدمار الشامل الذي أدى اليه التصعيد العسكري وليس صحيحا ان المصانع والمعامل والشركات والمؤسسات مجرد « ثروة برجوازية » جديرة بالتخريب . كما انه ليس صحيحا ان البشر والبيوت ووسائل العيش ووسائل النقل مجرد « نفايات » تداس بالاقدام . وليس صحيحا ايضا ان المساجد هي مجرد دور عبادة للمسلمين وان الكنائس مجرد دور عبادة للمسيحيين . ليس ذلك كله صحيحا على الاطلاق . والصحيح هو ان المؤسسات الى جانب كونها ملكية برجوازية فانها جزء عضوي من اقتصاد البلاد وثروته الوطنية ، بعمالها وانتاجها والعملية الاجتماعية التي تثمرها . الصحيح ايضا ان البشر ليسوا هويات

والبيوت ليست منامات والمساجد والكنائس ليست صلوات ، وانما تشكل هذه كلها مجتمعة العمود الفقري للثروة الوطنية والحضارية للبلاد . والدمار الرهيب الذي وقع (أكثر الاحصائيات تواضعا تقول خمسة الاف قتيل وعشرة الاف جريح وعشرين مليار ليرة ومائة الف عامل) ★ لا يمكن وصفه بانه خسارة طائفة معينة او طبقة معينة ، بل هو خسارة وطنية شاملة ، لا لجميع الافراد او الطوائف او الطبقات فحسب ، بل لمفهوم الوطن ذاته من حيث درجة التقدم او التخلف التي يحرزها في سباق العصر الاسرع من الصوت والضوء معا . انها خسارة لا تعوض ولا حتى بالزمن كما نرى ، فالزمن ليس محطة بانتظارنا وانما هو صاروخ عابر للقارات والكواكب .

● خامس هذه المعطيات هي ان عدم الحسم لا يعني مطلقا ان شيئا ما لم يحدث ، فقد حدث الكثير .

كشفت الحرب اولا القواسم المشتركة في التخلف ، وازالت مساحيق الحضارة المزيفة عن الوجه القبيح . وكان اسلوب القتال هو المحك الذي ادى الى هذه التعرية الشاملة .. فالخطف على الهوية وقنص الابرياء عشوائيا وتشويه الجثث ، لا يمت بصلة قرابة الى الحروب الاهلية والحروب النظامية التي عرفها التاريخ الانساني . ولا تمت ايضا الى التقاليد العربية التي عرفت الحرب ولم تعرف الغدر ، عرفت القتال وعرفت العفو . وانما تمت فنون الحرب اللبنانية القذرة الى العصور البدائية والجاهلية حيث يذبح الانسان قربانا ، وحيث الجذور القديمة لفكرة الثأر ، وحيث يصبح تشويه الجثة حائلا دون بعثها سوية . وتلك كلها معتقدات وثنية وما قبل الوثنية لا زالت رابضة في الروح اللبنانية رغم

★ كتبت هذه الفصول قبل انتهاء القتال بحوالي شهر حيث تقول ادق الاحصائيات المتوفرة بصورة غير رسمية ان عدد القتلى يبلغ ١٧ الفا .

الجسد الاستهلاكي المزخرف .

اكتشفت الحرب ثانيا ، على الجانبين ، قيادات شابة جديدة خاضت الصراع على الجبهتين العسكرية والسياسية وتمرست بتجربة استثنائية في التاريخ اللبناني ، تشكل لها رصيدا للمستقبل . والفرق هنا ـ ولعله طبيعي ـ ان شباب الجبهة الوطنية قد ارتبط اكثر فأكثر بالوعي الشعبي المتزايد فاتجه يسارا بمعنى الدفاع المستميت عن قضايا الجماهير في الديموقراطية والعلمنة والتقدم الاجتماعي .بينما ارتبط شباب الجبهة الرجعية اكثر فاكثر بالاساليب الفاشية والفكر العنصري والايديولوجيات الطائفية . ولكن الامر في الحالين هو ان جيلا جديداً من القيادات قد ولد وعمد في نهر الدم ، وانه هو دون غيره الذي سيخوض صراع المستقبل القريب والبعيد . ان هذا الجيل ـ من الفريقين ـ قد أدرك يقينا ان جوهر الصراع داخلي رغم أية مداخلات خارجية ، ولا بد انه ادرك لهذه الدرجة أو تلك معنى الحرب المستحيلة ، ولا بد انه سيخلق وسائل جديدة لادارة الصراع .

من القواسم المشتركة ثالثا هو انكشاف غطاء الدولة المركزية عن الدويلات العشائرية الطائفية ، واضطرار السلطة المركزية الى الاعتراف بأن اجهزة القمع الخاصة بها لا تستطيع هي الاخرى حسم الموقف بين المتقاتلين ، حتى بدا الرئيس كرامي وكأنه يارنغ، بينما اجتمع وزير الداخلية بلجنة التنسيق ـ وابنة عضو فيها وحزبه مقاتل في الساحة ـ ليتفاوض بشأن وقف القتال . كذلك كان حال الرئيس بين صفته الدستورية كحاكم لجميع اللبنانيين ، وابنه يقود القتال في جبهة زغرتا ـ طرابلس . تتضح الصورة اكثر بالتناقض اليومي بين مقررات هيئة الحوار الوطني ومقررات لجنة التنسيق ومقررات المسلحين الفعلية في الشارع. أفصحت الحرب ببلاغة مذهلة عن ان الدولة ليست غائبة ولكنها لم تقم اصلا ..

فالحكومة كهيئة الحوار الوطني ومجلس النواب كلجنة التنسيق . والحقيقة هي ان كل عشيرة طائفية لها رئاستها وحكومتها وبرلمانها وقوانينها ومؤسساتها التشريعية والتنفيذية وسجونها واجهزة دفاعها وامنها ومخابراتها ايضا . وفي ظل هذا التعدد الواقعي والوحدة الظاهرية ، تثمر الحرب هامشا فذا لدكاكين الجرائم العادية « المشروعة ! » في الاحوال الطبيعية ، فكم بالحري في الظروف الاستثنائية ؟ لقد ضرب لبنان رقما قياسيا في الماضي القريب ، في نسبة الجريمة قياسا الى النسب الدولية ـ مؤكدا بذلك غياب الدولة وفقدان السلطة المركزية ـ ولكن الجريمة اللبنانية غير السياسية ، قد استظلت بنيران الحرب واحتمت بفوضاها وحققت ارقاما فلكية في مختلف صنوف الارهاب والقتل والاغتصاب والسرقة والنهب المنظم وفرض الخوة والفدية على الارواح والممتلكات في وضح النهار وظلمة الليل سواء بسواء .

تلك هي جملة الحقائق المشتركة التي افرزتها الحرب القذرة، ولكنها اثمرت ايضا تمايزات وتنويعات ومفارقات وملابسات وخسائر وارباح تفرق بين الجانبين المتقاتلين .

ومنذ البداية احب ان اقول ان ميزان الارباح والخسائر لا يمكن باية حال ان يكون طائفيا ، فاذا كنا نقول ان تدمير مؤسسة ليس تدميرا للبرجوازية بل تدميرا للوطن ، نقول ايضا ان حصر القتلى المسلمين في جانب والقتلى المسيحيين في جانب اخر هو حساب مغلوط ومشوه ولا معنى له سوى استمرار منهج منحرف وطنيا في تقييم ما جرى (والمفارقة المؤسية حقا هي ان عدد القتلى من حاملي السلاح هو اقل القليل من الجانبين ، بينما الكثرة الساحقة من الضحايا هم العزل الابرياء : نتيجة باهظة التكاليف غالية الثمن لدرجة لا تصدق) .

اما التقييم الموضوعي فيقول ان الفريق الوطني كسب حتى من اخطائه التي كانت جسيمة احيانا ووصلت الى مرحلة الخطايا .

كسب الفريق الوطني ثلاث مرات ، داخليا وعربيا ودوليا . داخليا باعادة تنظيم صفوفه الفكرية والتنظيمية والعسكرية على نحو غير مسبوق في تاريخه الحديث .. فبالرغم من ان كافة الدلائل تشير الى ان الفريق الاخر يستعد منذ عام ١٩٥٨ على الاقل ، فان الفريق الوطني كان في الاغلب نائما في ظلال وارفة من الاعتماد على الدعم العربي الى الانتشار الاعلامي والكرنفالات السياسية الصاخبة . ولكنه في الممارسة القتالية تمكن الى حد كبير من ان يؤكد استقلاليته الذاتية الى جانب ارتباطه العربي المنطلق من قناعاته المحلية وتحليلاته القومية اولا . في غمار الممارسة ايضا استقطب الشارع الشعبي حول برنامج عملي ومدروس، لا حول نزعاتطائفية وولاءات عشائرية . واذا كان معدل سرعة الاحداث لم يحقق قيام جبهة وطنية لبنانية حقيقية بعد، الا انه طرح للحوار الجدي ضرورة بل وحتمية قيامها . ان العمل اليومي مع الجماهير في الشارع والمدارس والمستشفيات وجبهات القتال والبيوت قد شق قنوات سالكة بين الاحزاب والمنظمات الوطنية من جهة والشعب او الانسان العادي من جهة اخرى . وهي تجربة ثمينة تضع ايدي المناضلين على الوقائع المجسدة وترفع عيونهم قليلا عن التنظيرات المجردة . كذلك فان عطاء الدم هو المعيار الذي لا يخطىء في تقييم وتوحيد المناضلين، ففي مجال الدعاية والاعلام تضطرب المعايير بينالمزايدات والمناقصات، اما بذل الحياة نفسها فلا يحتمل المزايدة والمناقصة.. وبقدر ما اعطى هذا الحزب او التنظيم من دماء وتضحيات تبرز الحدود الفاصلة بين الزائف والاصيل وبين القائد والمدعي ، كما تتصل الحدود بين الذين كانوا اسخياء في العطاء على شاطىء ، والذين ركبوا الموجة على الشاطىء الاخر . كذلك كانت التجربة اختبارا للخطوط السياسية السابقة على الحرب ومدى صوابها او خطأها في تشخيص المرض ووصف الدواء . وقد كان الاحتكاك الحار والمباشر بين القيادات فرصة العمر لازالة التناقضات المفتعلة

والاعتراف بالتناقضات الحقيقية ، ومن ثم تحديد التحالفات والخصومات المحلية والعربية والدولية على نحو اكثر دقة وموضوعية .

ولكن الامر في هذا الصدد لا يخلو من اخطاء ، احيانا جسيمة واخرى تصل كما قلت الى مرحلة الخطايا ، كمجزرة تل عباس ومذبحة طرابلس التي فقدت فيها الحركة الوطنية ولم تربح بسبب رد الفعل الطائفي لا رد الفعل الثوري .. كذلك كادت احدى محاولات شق الصف الوطني ان تنجح تحت ضغوط دينية بغير أساس سياسي وطني . كما ان ولاء هذه المنظمة او تلك لبلد عربي او اخر كاد هو الاخر ان يشق الصف لتباين النظرة الولائية — تكتيكيا او ستراتيجيا لا يهم — مع النظرة الوطنية ذات الولاء الوحيد للشعب اللبناني والامة العربية .

كسبت الحركة الوطنية ايضا على الصعيد العربي ، بأنها لم تسمح قط للحرب الوقائية الاسرائيلية ورديفها الداخلي الحرب الوقائية اللبنانية ، ان تنجز الوجه الاخر للتسوية الاميركية ، بتصفية المقاومة الفلسطينية . أي انها حالت عمليا دون اردنة لبنان او قبرصته . كسبت ايضا انها وضعت الانظمة الوطنية العربية غير المشاركة في التسوية الاميركية امام مسؤولياتها القومية . كسبت كذلك احراج انظمة التسوية وافهامها ان الحركة الوطنية اللبنانية قومية المعتقد ، ولكنها حركة مستقلة ذات سيادة . كسبت اخيرا بل اولا جماهير الامة العربية من المحيط الى الخليج .

على الصعيد الدولي يكفي وصف الاذاعات الاجنبية للقتال انه يدور « بين المسلمين اليساريين والمسيحيين اليمينيين » . ورغم عدم دقة التعبير الا ان لغة اليسار واليمين التي يجيدها العالم المتحضر سوف تشحن الضمير الانساني المعاصر بان المسلمين في هذه البقعة من العالم العربي ليسوا من البرابرة بل هم « يساريون » يناضلون للديموقراطية والعلمنة والعدل الاجتماعي .

في المقابل خسر الفريق الرجعي المتطرف سمعته الديموقراطية والليبرالية والمسيحية ذاتها . سئل بشير الجميل – نجل رئيس الكتائب وكادر عسكري – عن رايه في قول المسيح « من ضربك على خدك الايمن ادر له خدك الايسر » فاجاب « ما في ايمن ولا ايسر . والتعاليم المسيحية التي وضعت قبل نحو الفي سنة ، لم تلحظ ما سيكون عليه الوضع في القرون اللاحقة ، فلو وضع المسيح تعاليمه هذه الايام ، لما منع علينا الاقدام على ما نقدم عليه » . (الدستور اللبنانية ٢٤ – ١٠ – ١٩٧٥) وسئل طوني فرنجية السؤال ذاته فأجاب « المسيح لم يقل لنا تكتفوا ودعوا الاخرين يقتلونكم . بل قال « اذا ضربتم كفا فلا بأس » (الدستور ايضا ١٥ – ١٢ – ٧٥) . هكذا بصراحة – او هرطقة – كاملة ، فحتما المسيحية لم تسلم من التشويه والذبح كجثة اي قتيل .

كذلك خسر اليمين الى جانب السمعة التي لا يقيم لها وزنا في الغالب ، التأييد الدولي المفترض من اميركا وفرنسا والفاتيكان. ربح تعاطفا قلبيا ولكنه لم يربح التقسيم ولا الاسطول السادس . كذلك كان شأنه مع ملوك النفط ورؤساء التسوية السلمية ، ربح منهم التحريض على الجانب الاخر والبيان البائس لمؤتمر وزراء الخارجية وخسر الى الابد الشعب العربي .

ولكن هذا لا ينفي ان اليمين كسب من ميزان القوى العشائري بالابقاء على الكلمة العليا مقصورة على زعماء القبائل ، ومن ثم الابقاء الجوهري على صيغة النظام الراهن مقابل ادنى التغييرات (الطائفية ايضا) في التفاصيل الثانوية . نجح ايضا في كسب قطاعات واسعة من جماهيره التي احتواها في الرداء النازي وامتص تناقضاتها الاجتماعية ووحدتها الوطنية . وقد كان من بين اسباب هذا النجاح التورط الطائفي احيانا من الجانب الوطني والاشتراك اغلب الاحيان في اساليب القتال والتهجير ومضاعفاتها.

وكاد ينجح بغير شك في تفجير الحركة الوطنية من الداخل وفصم عرى التحالف بينها وبين المقاومة الفلسطينية .

الا ان هذه المعطيات كلها للحرب التي دارت رحاها تسعة اشهر كاملة تقودنا الى السؤال من جديد : اذا كان القتال قد وصل بنا الى انعدام الحسم ، واذا كانت موازين القوى قد وصلت الى مأزق الطريق المسدود ، فما هو الحل ؟

نختتم الجواب الوارد ضمنا في السياق بحقيقتين : الاولى هي ان اكبر ثمرات الحرب واكثرها نضجا وتتويجا لنتائجها المتفرقة والمجتمعة ، هي انها حرب داخلية وليست ديكورا لحرب خارجية عربية او دولية .

والحقيقة الثانية هي انه ليس هناك حل دائم او ابدي ، فكل حل يتحول هو ذاته مع الزمن الاجتماعي الى مشكلة .

وفي تقديري ان القتال كاسلوب للصراع سوف يتوقف ، وان التقسيم كمناورة قد بطل مفعولها ، وان اسس الاقتصاد الراسمالي ستظل جوهر النظام اللبناني لامد طويل .

.. وان النضال الممكن والمشروع هو تحديث المجتمع والدولة في اطار الديموقراطية البرلمانية والعلمنة الشاملة .

.. وان هذا النضال يحتاج اولا واخيرا وفورا دون ابطاء تشكيل الجبهة الوطنية اللبنانية على اسس ستراتيجية راسخة .
.. ولا زال المشوار طويلا طويلا . ★

★ من المفيد تكرار القول بان هذا الكتاب ينتهي في تسجيل الحوادث وتحليلها عند اخر عام ١٩٧٥ حيث بدات مع العام الجديد متغيرات جديدة على الصعيدين العسكري والسياسي تحتاج الى كتاب مستقل . وما يمكن قوله هو ان هذه المتغيرات الجديدة تضيف ولا تحذف او تعدل من تسجيلنا وتحليلنا الوارد هنا .

القسم الثاني

في مواجهــة العاصفة



ملاحظات شكلية
على المذكرة المارونية

تتسم مذكرة الرهبانيات والرابطة المارونية التي نشر نصهـا الكامل امس ، بقدر عال من المنهجية والوضوح سواء في الاسلوب شبه الاكاديمي او في الغايات السياسية .

واذا تركنا المضمون جانبا ، فان التوقف عنـد « الشكـل » الذي اولته المذكرة عناية فائقة ، يبدو ضروريا ، لان منطق كتـاب المذكرة وصياغتهم لفحواها ، تدل على مستوى لا يجوز التهوين به .

فلا شك ان هناك منطقا ما يدعم المذكرة بمجموعة من الركائز الفكرية التي ارغب هنا في مناقشتها . والركيزة الاولى التي يعتمد عليها بناء المذكرة يوجزها السطر القائل بـأن للبـنان « رسـالته الحضارية الفريدة في هذه البقعة من العالم » . والخطأ الفكـري الفادح يكمن هنا في عبـارة « الرسـالة الحضاريـة الفريـدة » ، فالمعروف في تاريخ الحضارات الانسانية ان حلقاته الكبرى لا ترتكز على بيئة جغرافية محدودة كلبنان او كوستاريكا ، بـل هي عـلى الارجح بيئة قارية اوسع كثيرا من قطر واحد مهما كبر .. فالعالم المسيحي في العصر الوسيط مثلا ، كان يضم اوروبا بأكملها واجزاء متناثرة من العالم ، لم تكن اورشليم بينها اكثر من نقطة في بحر .

والعالم الاسلامي قد امتد منذ عصر النبوة الى اكثر مراحله ازدهارا، حيث اشتمل على اجزاء واسعة من اسيا وافريقيا ورأس جسر في اوروبا . ولم تكن شبه الجزيرة العربية في هذا النطاق الجغرافي اكثر من قطرة في نهر . والعالم الحديث الذي بدا مع عصر النهضة الاوروبية ، يتجاوز اوروبا شرقا وغربا الى اميركا الشمالية والاتحاد السوفياتي والكثير من قارات العالم الاخرى ، ولم يعد احد يستطيع ان يشير الى فرنسا وحدها او ايطاليا او انجلترا او المانيا ، ليقول انها صاحبة « رسالة حضارية فريدة » لان الحضارة الحديثة تشمل العالم بأسره .

واذا كان المقصود بهذه الرسالة الحضارية ، هو التاريخ وليست الجغرافيا ، فالارجح ان مصر والعراق في العالم العربي فقط ـ ناهيك عن الصين في اسيا وغيرها في بقاع اخرى ـ هما البلدان الوحيدان اللذان يحق لهما النظر الى تاريخهما الحضاري العريق ، دون ان تكون لهذا النظر قيمة حقيقية الا اذا اتصل الماضي بالحاضر الذي لا يسمح لهما برسالة « خاصة » خارج نطاق العصر الحديث عموما ، والوطن العربي خصوصا .

.. فاذا تجاهلنا البعدين الجغرافي والتاريخي لاية رسالة حضارية « فريدة » وجب الاتجاه مباشرة الى المعاني الفكرية لهذه العبارة .. فالرسالات الحضارية الفريدة عرفها الانسان عبر تاريخه الطويل وقد تجسدت في دعوات فكرية وروحية كبرى ، كرسالة المسيحية مثلا ورسالة الاسلام ورسالة الثورة الفرنسية ورسالة الاشتراكية ، وهكذا .

.. فما هي « الرسالة الحضارية الفريدة » للبنان « في هذه البقعة من العالم » كما ورد حرفيا في المذكرة المارونية ؟

ان هذه البقعة من العالم تنتمي تاريخيا الى مجموعة الحضارات السامية في المنطقة ، وقد اعطت فينيقيا القديمة للدنيا بقدر لا ينكره احد ، ولكن دون العطاء الفرعوني ودون العطاء

السومري البابلي .. ومع ذلك فقد تلاقت وتفاعلت هـذه الجذور القديمة ابان العصور التالية مع المسيحية والاسلام ، حتى وصلتنا الحضارة العربية التي تشكلت من عناصر انتربولوجية وانتولوجية وتاريخية واقتصادية وسياسية وفكرية .. هي الحضـارة التـي ينتمي اليها سكان هذه المنطقة الواقعة بين المحيط والخليج . وهي منطقة عربية وليست اسلامية رغم ان غالبية شعوبها تدين بالاسلام، لان « الحضارة » لا ترادف « الدين » ، وان كان الدين مـن بـين عناصرها . انها من هذه الزاوية منطقة خصبة بالتعدد والتنـوع . وهي قد تكون على علاقات وثيقة بباكستان واندونيسيا وافغانستان من اقطار العالم الاسلامي ، ولكن علاقاتها الاوثق منذ بداية عصـر نهضتها ، بالحضارة الحديثة في « الغرب » الرأسمالي والاشتراكي معا ، تكنولوجيا واقتصاديا وعقائديا .

الى هذه المجموعة الحضارية ينتمي « لبـنان » بخصائصـه الذاتية المستقلة ، كأية خصائص ذاتية مستقلة لمصر او الجزائر او العراق او السودان او سوريا .. فالاقتصاد الحر مثلا ليس صفة فريدة ، بل هو سمة تميز غالبية الانظمة العربية، والموقع الجغرافي بين الشرق والغرب ليس صفة فريدة ، فالاقطار العربية التي تطل على البحر المتوسط وخاصة مصر تشاركها هذا التميز ، والصحافة الحرة ليست صفة فريدة : لقد عاش الصحفيون اللبنانيون الكبار في مصر واسسوا اكبر الابنية الصحفية في القاهرة والاسكندرية، وفي الكويت تجربة صحفية ناجحة بالمقياس الليبرالي المحض . اما « البحر والجبل » فان خريطة العالم العربي غنية بهما الى اقصـى الحـدود .

هذه كلها ليست صفات فريدة ، ولعل التفرد الحقيقي فـي لبنان له وجهان احدهما سلبي والاخر ايجابي : الوجه الاول هـو طائفية النظام السياسي ، والمفارقة المؤسية بين قشرة « التمدن » الخارجية ، قشرة « الاستهلاك » الحضـاري ، كما يتبـدى فـي

الفاترينات والبنايات والسيارات ، وبين الثمرة الطائفية في عمق الاعماق كما تتبدى في الانظمــة والقوانين والسلوك والفكــر . ان غياب « العلمانية » عن تكوين لبنان ، عــن نخــاع عظمــه ، يسلبه الانتماء الحقيقي الى الحضارة الحديثة ، بل يرفع عليه في ميــزان التمدن ، كفة الغالبية العظمى من اقطار الوطن العربي « المتخلف » تخلفــا شــديدا .

اما الوجه الايجابي فهو الفكر اللبناني المنحــدر مــن ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وفارس الشدياق وجبران خليل جبران وفرح انطون ونقولا حداد وشبلي شميل واميــن الريحــاني الــى ميخائيل نعيمة .. انه الفكر الــذي يدعــو بوضوح وحســم ألــى الديمقراطية والعلمانية حتى انه كان ولا يزال جســرا رئيسيا مــن عصور الظلمة والانحطاط الى عصر النهضة والنور والتقدم . لقــد تعلم العرب ــ من المحيط الى الخليج ــ الكثير الكثير من مبــادىء الثورة على الظلم الاجتماعي وعبودية الخرافــة وتجــارة الرقيــق ودكتاتورية المؤسسات الدينيــة والسياسية مــن تعاليــم هــؤلاء اللبنانيين العظمــاء .

وقد كان القاسم المشترك بينهم جميعا هو ان « تمايز » لبنان لا يتحقق الا بانتمائه الى الوطن العربي والفكر العربــي والحضارة العربية ، وان « سيادة » لبنان لا تتحقق الا بانصهار مصيره فــي امن المنطقة باكملها ، وان « ذاتية » لبنان لا تتحقق الا ضمن الوجود العربي ، وان « رسالة لبنان العربية » هــي الرســالة الوحيــدة الممكنة .. ولم تكن صدفة ــ تبعا لذلك ــ ان يكون الخلق والابــداع في مجالات الفكر السياسي والاجتماعي والادبي والفني ، لهــؤلاء الرواد ، خلقا عربيا وابداعا عربيا في مختلف اثارهم بمصر وسوريا وفلسطين ولبنان والمهجر .

لذلك تصبح عبارة « الرسالة الحضارية الفريــدة » وكأنهــا بلا معنى الا في حالتين :

● **الاولى** : هي ان تكون استكمالا وتطويرا خلاقا للتراث اللبناني المشار اليه ، اي ان يصبح لبنان مصدر « عطاء » فكري واجتماعي وسياسي عربي ، لا محطة « اخذ » اقتصادي عربي فحسب ، ومعنى ذلك ان يتفرع الفكر اللبناني عن جذوره في عصر النهضة حتى ليصبح امتدادا حيا لها ، وان يشق هذا الفكر مجراه المتميز في النهر العربي ويتكامل معه . وهو الامر الذي يتناقض كليا مع مضمون المذكرة المارونية التي ترادف بين العروبة والاسلام في اكثر من موضع حين تقول « العالم العربي او بالاصح الاسلامي » و « هويتهم العربية اي الاسلامية » و « المصالح المعادية للعرب وللاسلام » الى غير ذلك من عبارات يتعذر فهمها مثلا على ثمانية ملايين مسيحي من ابناء وبنات مصر ! كذلك فانه الامر الذي يتناقض كليا مع الحاح المذكرة على « حياد » لبنان . وفي ضوء هذا الحياد ترى القومية العربية عدوانا على استقلال لبنان ، وبما انها تخلط العروبة بالاسلام(ناسية رواد القومية العربية من المسيحيين في سوريا ومصر ولبنان وفلسطين) فان هذا المنطلق يقودها بالضرورة ــ دون ان تعلن ذلك ــ الى اعتبار المسلمين اللبنانيين عدوانا بشريا على استقلال لبنان ، وليس الفلسطينيين فحسب (وتنسى بمعيارها ذاته ــ الهوية الدينية اقصد ــ ان نسبة المسيحيين الفلسطينيين تجيء مباشرة بعد نسبتهم في لبنان !) .

واذا كان المقصود بالحياد اللبناني هو الحياد السويسري او النمسوي بين الشرق والغرب فأمره مفهوم ولعله مطلوب ايضا ، بالرغم من ان الذين استدعوا الاسطول الاميركي السادس عام ١٩٥٨ قد اخلوا بهذا المعنى ، اما اذا كان المقصود بالحياد هو الوقوف السلبي ازاء الاحتلال الاسرائيلي ، فانه « معنى » يتناقض كليا مع الحرص على السيادة الوطنية ومضمون الاستقلال . ذلك ان احدا من المصريين او السوريين او الاردنيين لم يطالب لبنان منذ حرب ٥٦ الى حرب ٧٣ بالاشتراك في القتال . كما ان مياه

الليطاني وارض الجنوب الخصبة ، لا تفري شهوات العرب بل تجذب خياشيم غيرهم . وليس صحيحا ان « الواقع الاكيد ان لا بلد عربيا قبل قط بالتضحية بهويته الخاصة او بوجوده الخاص في سبيل المقاومة ولا في سبيل فلسطين ولا حتى في استضافة مثل هذا العدد الهائل من الفلسطينيين » اذ يبدو ان كتاب المذكرة لا يعلمون شيئا عن حقوق الفلسطينيين القانونية في سوريا والعراق والجزائر والعديد من البلدان العربية الاخرى ، سواء في العمل او الجندية او الجامعات ، كما ان المقاومة الفلسطينية ــ التي يفخر لبنان دائما باستضافتها ــ اعلنت اكثر من مرة في مواثيق مشهودة ، حرصها البالغ على سيادة لبنان واستقلاله ووحدة اراضيه . وكان لبنان بسلطته الشرعية هو الذي وقع على اتفاقيات القاهرة وملكارت .

ان السياق الفكري للمذكرة لا يقود مطلقا الى هذا المعنى « العربي » لرسالة لبنان لحضارية الفريدة ، ليس تطويرا للفكر اللبناني الرائد ، بل ربما لا نجاوز الحقيقة اذا قلنا ان مضمون المذكرة هو « ثورة معاكسة » للتراث اللبناني الاصل ، وان ما تسميه المذكرة بالطرف الاخر هو الذي يناضل حقا من اجل الحفاظ على هذا التراث وحمايته .

● **الحالة الثانية** التي يمكن فيها ان تصبح عبارة رسالة لبنان الحضارية الفريدة ذات معنى تذكر اي مؤرخ اكاديمي منصف ــ خاصة اذا كان عاشقا للديمقراطية ــ بكلمات مثل النازية والمانيا وهتلر والعرق الآري . هذه المفردات وغيرها كثير تسلط الضوء على القاموس السياسي الذي تنهل منه المذكرة تعبيراتها .. فبالرغم من ان المانيا كانت تنتمي الى الحضارة الاوروبية ، وكانت « نهضتها » الفكرية من الينابيع الرئيسية لحضارة العالم الحديث، الا انها منذ بدايات القرن العشرين عرفت صوتا نشازا يقول برسالة الشعب الالماني المقدسة والفريدة « في تلك البقعة » من العالم .

وتطور الصوت فأصبح صراخا يجهر بأن الجنس الآري هــو سيد الشعوب . والنتيجة العملية هي أنصهار العــرق الالمانــي كتلــة واحدة ، يتلاشى في ظلها الفرق بين العامل المسحوق ورب العمل، والنتيجة العقائدية هي الغاء كافة مظاهر الديمقراطية واللجــوء الاعمى الى العنف ، والنتيجة السياسية هــي « غــزو العالم » الخارجي حفاظا على نقاء العنصر ، وارتكاب ابشع مجازر التاريخ . والنتيجة العسكرية هي الهزيمة المروعة التي منــي بهــا المحور وانتصرت الديمقراطية وولدت الاشتراكية .

هذا ما جرى للعقيدة الالمانية التــي انتهت بتقسيم الشعب الالماني الى الان ، وبسيطرة اميركا وغرب اوروبا على الجزء الغربي سيطرة عسكرية وسياسية كاملة . نهايــة كانت بدايتها « رسالة المانيا الفريدة » ! ماذا لو ان الالمان اكتفــوا بعطائهم المبــدع ضمن اوروبا كما كان شأنهم فــي عصر النهضة ؟ ربما مــا وقعت الحرب العالمية الثانية وكوارثها الرهيبة .

ولا شك ان كتاب المذكــرة المارونية لا يطمحون الــى تكرار التاريخ الذي لا يعود الا في صورة هزلية ، رغم بحــار الدم التي يمكن ان تغير وجهه تماما ، ولكن على غير النحو الذي يقــود اليه السياق الفكري للمذكرة .. فلبنان بحجمــه الجغرافي وجذوره التاريخية وعطائه الفكري ليست له « نازيــة » فريدة ، ولكنــه بالتأكيد ــ من وحي خصائصه الذاتية المستقلة وتراثه العظيم ــ له رسالة « عربية » جديدة ، تعتمد الحرية والديمقراطية والتقدم ، تتكامل بها « ذاته » الاقليمية مع مصيره القومي المناهض للاستعمار والتخلف الطائفي والعشائري والمرتبط ــ مــن موقعــه الوطني المستقل ــ بركب الحضارة الحديثة .

١٩٧٥/١١/٩

خطاب مفتوح الـى موفد البابا

سيدي نيافة الكاردينال بيرتولي ★

قبل ان تقطع الحبل السري بينـــك وبين « العالم » لتصير راهبا ، لا بد انك قرأت ما قاله الانجيل عن السيد المسيح من انـه « جاء الى خاصته ، وخاصته لم تقبله ، اما الذين قبلـوه فأعطاهم سلطانا ان يصيروا ابناء الله » . ولا بـد انك تعلمت فـي شبابك بالمدرسة الاكليركية ان هـذه الكلمات وضعت خطـا فاصلا بين اليهودية والمسيحية .. فشعب الله « المختار » لم يعد مختارا منذ جاء المسيح فاديا للبشرية كلهـا لا لليهود وحدهم ، جــاء فخلص « المؤمنين » من جذور الفكرة العنصرية . لذلك انفتحت المسيحية على العالم اجمع ، وراح التلاميذ يبشرون بالدعوة الجديدة فـي ارجاء المعمورة . ورغم المذابح المروعة التي عرفها التاريخ الكنسي للمسيحية ، لم تتحول المسيحية قط الى « جنسية » ، حتى فـي العصر الوسيط حين كان هناك ما يسمى بالعالم المسيحي ، وحين وصل الانحراف بالبعض غايته بمحاكم التفتيش وصكوك الغفران ، لم تتحول المسيحية الى « هوية عرقية » بل كان ذلك العصر المظلم هو المخاض الاليم لعصر النهضة ، عصر القوميات الاوروبية المتعددة رغم الايمان المسيحي .

لعلك ايضا يا سيدي ، وانت ترتدي ثياب الرهبنة للمـــرة

★ بمناسبة وصول مبعوث الفاتيكان للقيام بـدور الوساطة البابوية بـين اطراف النزاع .

الاولى ، تذكرت كلمات المسيح لليهود الذين ارادوا الايقاع به وتسليمه للسلطة الرومانية ، قال « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . كان ذلك اول تبشير « ديني » بفصل الدين عن الدولة. ولم تكن صدفة ان خلت المسيحية – على نقيض اليهودية – من التشريع والقانون الذي ينظم الحياة الدنيا . ولم تكن صدفة بعدئذ ان يستكمل عصر النهضة الاوروبية بناءه الشامخ – بعد تعدد القوميات رغم الوحدة الدينية – بفصل الدين عن الدولة فصلا تاما في مختلف دساتير « الغرب المسيحي » .

وهكذا اصبحت المسيحية في تطورها التاريخي ، دين العلمنة والديمقراطية ان جاز التعبير عن معاداتها للعنصرية وتشديدها على فصل الدين عن الدولة ، حتى ان اساتذة الحضارة ومؤرخيها وفلاسفتها يصفون تركيب الحضارة الاوروبية الحديثة بأنها مزيج من « العلم والتراث اليوناني والروماني والمسيحية » قاصديا هذا المعنى الذي اشير اليه، وهو المعنى الذي تجسده «روح المسيحية » او « جوهر المسيحية » وغيرهما يا سيدي من عناوين المؤلفات العظيمة التي تعرفها وتعرف اصحابها بدءا من القديس اوغسطينوس وتوما الاكويني الى برديائيف وكيركجارد .

كان لا بد من هذه المقدمة لاقول اننا لم نعد نسمع قط منذ ذلك الحين ان لبلد ما من بلدان العالم « المسيحي » رسالة حضارية فريدة تناقض روح المسيحية وجوهرها الا في حالتين تاريخيتين :

● **الاولى** هي عصر الاستعمار الاوروبي للشرق ، منذ الحروب الصليبية الى الاستعمار الانكليزي والفرنسي والايطالي والبلجيكي والبرتغالي . وكما ان الحروب الصليبية قد رفعت راية المسيح ظلما وعدوانا لتغطية المآرب الاقتصادية والسياسية للملوك والامراء ، كذلك كانت جيوش اوروبا الاستعمارية تحمل الانجيل في يد والبندقية في اليد الاخرى . . ولكن العرب يا سيدي حرروا القدس ومهد المسيح لانهم اصحاب الارض واصحاب المسيح . ولم

تفلح « الرسالات الحضارية الفريدة » التي رفـــع راياتها الغرب الاستعماري في ان تحجب عن شعوب آسيـــا وافريقيا جوهرها العنصري وروحها العرقية المناهضة للمسيحية الحقيقية ، فناضلت هذه الشعوب بأديانها المختلفة (المسيحية والاسلاميــة والوثنية) حتى ان اخر جندي برتغالي ـ بعـــد ثلاثـــة قرون ونصف مـــن الاستعمار ـ سوف يغادر انغولا اليوم ، كما ان اخر جندي اسباني سيغادر الصحراء الغربية غدا ، كمـــا غادر الفرنسيون الجزائــر والانكليز مصر والايطاليون ليبيا .. فتلك هـــي حركة التاريخ التي لا تتعارض مع جوهر المسيحية وروحها ، ولكنهـــا تتناقض مـــع دعاة « الرسالات الحضارية الفريدة » في عنصريتها ودكتاتوريتها.

● **الحالة الثانية** هي المانيا النازية وايطاليا الفاشيـــة ، وانت ادرى يا سيدي الكاردينال بما حدث للمسيحية والمسيحيين فـــي ظل النازية والفاشية التي رفعت ايضا لواء الرسالـــة الحضاريـــة الفريدة ، فمارست ابشع الوان القهر العنصري والمجازر العرقية ، وكان غوبلز ـ وزير الدعاية النازية الشهير ـ كما تعـــلم ، يجمـــع اكوام الكتب المقدسة فيحرقها ويبول !!

ولست محتاجا يا سيدي لان اقول لك ، ان خاتمة الحروب الصليبية وخاتمة الاستعمار الاوروبي ، هي ذاتها كانـــت الخاتمـــة التراجيدية للنازية والفاشية. وانتصرت المسيحية الحقة، ولا زالت تنتصر في كل شبر من الارض يتحرر من العنصرية ويفصل الدين عن الدولة ويقيم اركان العدل .

.. فالمسيحية خلت حقا من التشريعات والقوانين وتـــركت للعقل البشري حرية تنظيم الحياة الدنيا ، ولكنهـــا اوحـــت فـــي صورة رمزية خلابة بما ينبغي ان يكون عليه المجتمـــع الانساني .. فلا شك انك تذكر قصة « حنانيا وسفيره » في « اعمال الرسل » حين « كان كل شيء بينهم مشتركا » اي بين اتباع المسيح في ذلك الوقت . كانوا يبيعون كل ما يملكون ويضعونه « عند اقدام الرسل»

فيعاد توزيعه على الجميع بعد ذلك . ولكن رجلا يدعى حنانيا جاء ببعض ما لديه وكذب على الرسل قائلا ان هذا كل ما لديه ، فمات لساعته . وحين اقبلت امرأته سفيره وكذبت مثله قال لها الرسل ان الذين حملوا زوجك يحملونك ايضا . وماتت هي الاخرى ! ان المغزى الكامن في هذه القصة لا يحتاج الى ايضاح ، فموعظة الجبل كرسها المسيح للفقراء « الذين هم معكم في كل حين » كما ان « دخول جمل من ثقب ابرة ايسر من دخول غني ملكوت السماوات » . وكانت هناك عبارة واحدة على شفتي يسوع لكل من اراد ان يتبعه ويؤمن به « بع كل ما مالك واتبعني » .

هذا هو البعد الثالث بين اركان المسيحية . لم يكن المسيح اشتراكيا ولا شيوعيا ، ولكنه كان رمزا موحيا بالاسس العامة الضرورية لمجتمع « مسيحي » حقيقي ، أي لمجتمع انساني حقيقي، مجتمع يرفض العنصرية ويفصل الدين عن الدولة ويقيم ركائز العدل . وكما ان العالم المسيحي وغير المسيحي في العصر الحديث قد تخلص من العنصرية الى حد كبير ، وكذلك فصل الدين عن الدولة في بقاع كثيرة ، فان التحول الى الاشتراكية أصبح راية الانسانية المعاصرة المتجهة نحو العدل ، راية الفقراء والكادحين والضعفاء والمسحوقين : اخوة المسيح كما اشار الى ذلك غير مرة يا سيدي .

★ ★ ★

وفي الشرق الاوسط ، يا سيدي الكاردينال ، « دولة » ناهضت المسيح والمسيحية في تاريخها القديم والحديث على السواء . دولة حولت الدين الى قومية ، هي « اسرائيل » التي قالت عن نفسها في القديم انها « شعب الله المختار » فأقبل المسيح نقيضا لدعوتها العنصرية ، لا زالت تقول ان لها « رسالة حضارية فريدة » في الشرق الاوسط . انها مع روديسيا وجنوب افريقيا تشكل هذه الجزر العنصرية مجتمعة اخر قلاع النضال

ضد المجتمع « الانساني » الذي اراده المسيح ، ضـــد التاخي البشري أيا كان اللون او العنصر او العقيـــدة ، ضد الحريـة الانسانية ، والعدل . وكانت رســالة « اسرائيل » الحضارية الفريدة ولا تزال :

● تشريد شعب كامل الهوية القومية متعــدد الاديان هو الشعب العربي الفلسطيني ، مـن ارض تاريخيـة لهـا حدودهـا الدولية . هذا الشعب الذي تقوده منظمـة التحرير الفلسطينية يرفع راية الدولة العلمانية الديموقراطية ، ويقيم مؤقتا في مختلف الاقطار العربية وخاصة في لبنان .

● احتلال اجزاء واسعة من الاراضي العربية المحيطـة بفلسطين ، واخضاع البشر المقيمين في تلك الاراضي لابشع الوان القهر الطائفي والعنصري .

● معاملة العرب في فلسطين المحتلة كمواطنين من الدرجة الثالثة ، وتغيير الهويـة التاريخية لكثير من المـدن والقـرى الفلسطينية .

● العدوان المتكرر على جنـــوب لبنان بالنسف والقتل والخطف وممارسة الاساليب النازية في التعذيب .

● قولبة المجتمع في الداخل بصهره عنصريا فـي بوتقـة الايديولوجية الصهيونية التي تنفي الصراع الاجتماعي والديمقراطي خارج السياق العرقي لتكوين الدولة اليهودية حيث تصبح طهارة الدين ونقاء العنصر والعدوان التوسعي والاعتـــماد على الغرب الاستعماري هو مضمون « التطور » وشكله .

ولقد كان ميلاد « اسرائيل » هذه يا سيدي ولا زال تكريسا لانقسام الوطن العربي الى دويلات صغيرة لا مبرر لحدودهـــا السياسية الراهنة من التـــاريخ او الجغرافيا او الاقتصاد او الحضارة . ولكن الاستعمار الاجنبي الذي رحل عـن هذه المنطقة ترك « الدولة اليهودية » كراس جسر يضمن ــ بالتفتت العربي ــ

جزءا من امتيازاته القديمة . وقد استدعت الظاهرة الاسرائيلية الغريبة على جسم الوطن العربي ، مزيدا من التخلف ومزيدا من التقدم في بلادنا . كان التقدم في تعاظم « الوعي القومي » لدى العرب ، بضرورة وحدتهم العلمانية الديموقراطية ، وهبوب العديد من الانقلابات الراديكالية في العالم العربي بغية احراز بعض النقاط في حلبة السباق الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لدرء التخلف . وكان التخلف ولا زال كامنا في البنيــة الحضارية للعرب ، فالعدوان الاسرائيلي المستمر قد « اشتبك » مع مسار يقظتهم النهضوية التي بدأت في القرن الماضي ، اشتباكا بالغ التعقيد .

ولبنان ـ يا سيدي الكاردينال ـ هو النموذج المكثف لهذا التشابك والتعقيد ، لانه ببساطة جزء لا ينفصل تاريخيا ولا جغرافيا عن هذا الوطن العربي المتخلف ، فحدوده تتاخم سوريا وفلسطين (حتى انها لم تكن حدودا فيما مضى من ايام) وبالتالي فجنوبه يحاذي سلطة الاحتلال الاسرائيلي . وتكوينه الاجتماعي تتداخل في صلبه العشائرية والطائفية والاقتصاد الطفيلي المرتبط في معظمه بالاحتكارات الاجنبية واساليب الانتاج الاستهلاكي ومجموعة القيم والعلاقات المترتبة على ذلك ، بالاضافة الى موقعه الساحلي على البحر المتوسط .

وسوف تسمع يا صاحب النيافة من احد الفرقاء كلمات وعبارات مثل « الميثاق » و « الدستور » و « رسالة لبنان الحضارية الفريدة » . ولكن هذه كلها لن تنسيك ـ فيما أقدر ـ بعض المقدمات الاساسية قبل اي تفسير او تقييم للمحنة اللبنانية الاخيرة :

● **اولها** ان ثلاثين عاما مضت على الميثاق غير المكتوب والدستور المكتوب ، قد شهدت في العالم اجمع تغيرات جوهرية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، سواء من ناحية التطور المذهل

في وسائل المواصلات بحيث باتت الكرة الارضيـــــة « قريتنـــا الكبرى » كما كان يتنبأ الكاتب البريطاني ويلز ، كذلك الثـورة العلمية التكنولوجية التي فتحت الطريق واسعا امام العقل بينما ضيقته امام العضل . وربما كان هذا هو المعنى البعيد للانفـراج الدولي والتعايش السلمي بين الانظمة المختلفة .

● **المقدمة الثانية** هي ان الوطن العربي لم يعد كما كان في العصور الوسطى مجرد جزء من « العالم الاسلامي » ، بـل تبلورت تفاعلاته على مختلف الجبهات المـــادية والمعنوية بحيث اصبـح « قومية » مستقلة ، متعددة الاديان والمذاهب والنظم السياسية. ان هذا الوطن منذ حوالي مائتي عام يحيا مخاضه في مرحـــلة اليقظة القومية مرتبطا بالحضارة الحديثة غربا وشرقا ، لا توجهه في ذلك بوصلة دينية ، بل محــــاولة درء التخلف الحضاري واكتساب السيادة الوطنية والاستقلال السياسي .

● **المقدمة الثالثة** هي ان لبنان ــ كمصر وسوريا وفلسطين مثلا ــ ينتمي حضاريا الى المستوى العام الذي بلغه الوطن العربي، ويشق طريقا متميزا بانتمائه ايضا الى حوض البحر المتوسط . وهو ايضا كهذه الدول يعاني من مضاعفات الاحتلال الاسرائيلي .

ولن تصل يا سيدي الكاردينال الى تفسير موضوعي مقنع للاحداث اللبنانية الاخيرة دون الاهتداء بهذه المقدمات الثلاث التي تتشابك محصلاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية معالنتائج « الدموية » البشعة التي وقعت :

١ ــ فالانفصال التام بين الروح الهمجية التي ســـادت الاحداث ، والجسد الحضاري البراق في واجهـــات الابنية وموديلات الثياب وتكنولوجية البيوت ، لا يفسره الانقسام الطائفي بين المسيحيين والمسلمين ، بل يفسره التناقض بين التكــوين العشائري الاصيل ومتطلبات مجتمع الاستهلاك . ان العشيـــرة اللبنانية ــ وليست الطائفة الدينية ــ هي الاســاس الاجتماعي

اللبناني ، روابط العشيرة وقيمها وتقاليدها وعاداتها هي التي تسكن عقل اللبناني ووجدانه ، ولكنه لا يمارس الاقتصاد العشائري بل اقتصاد الخدمات الذي يتطلب قيما اخرى وعادات مختلفة . أن هذا التكوين العشائري — وليست المقاومة الفلسطينية — هو الذي يعتمد منطق « السيد والازلام » ويكيف العلاقات الاجتماعية وفقا للتسلسل العشائري ، ويحسم مشاكله مع الآخرين « على أسنة الرماح » .. فكثرة السلاح اذن في أيدي اللبنانيين تعود الى هذا الجذر الفائر في باطن التربة العشائرية ، والاحتكام الى السلاح لمعالجة القضايا الشخصية والعامة يتفرع عن هذا الجذر، والعصبية المريضة المغلقة على ذاتها بوهم أنها على صواب مطلق والآخرين على خطأ من ثمار هذا الجذر اللعين .

٢ — يتناقض هذا الجذر العشائري مع النوعية الاقتصادية اللبنانية فيحدث التمزق الاليم .. فالانتاج اللبناني سلعة استهلاكية اولا ، كما انه يعتمد على رؤوس الاموال الاجنبية ثانيا، وتميل غالبيته الى اقتصاد الخدمات المصرفية والسياحية والترفيهية . هكذا لم تعد هناك علاقة بين الاقتصاد الحر الكلاسيكي والاقتصاد اللبناني القائم على أعلى نسبة ربح في اقصر وقت دون مفامرة .. دون مفامرة « ليبرالية » حقيقية نابعة من زراعة وطنية وصناعة وطنية ، بهما فقط يمكن للاقتصاد « الوطني » أن يولد ، بشرط المشروع الطويل الامد ذي القاعدة العريضة من المنتجين . ان نظام الاقتصاد اللبناني هو الذي يسمح للعشائرية بالنمو في ظل احدث منجزات التكنولوجيا . اما الاقتصاد الوطني — بفلاحيه وعماله وموظفيه ومديريه — فلا يسمح للعشائرية بالنمو بل يعمل على تفكيك أوصالها .

وكان يقال دائما ان فلانا من علماء الاقتصاد زار لبنان وفتح الملفات وفغر فاه دهشة قائلا : انها معجزة لبنانية يحسن تركها كما هي ، ابقوا كما انتم . وقد سقطت هذه المعجزة في بحيرات الدم

طيلة الاشهر السبعة الماضية . ذلك ان النتيجة الحتمية للنظام الاقتصادي اللبناني كانت بالضرورة اتساع رقعة المشردين جوعا وحرمانا وضيق رقعة المستفيدين .

٣ — وكان من الطبيعي وقد تحالفت العشائرية مع هذا النظام الاقتصادي ، ان تتداخل الطائفية مع اسلوب الانتاج وقواه البشرية ، فتصبح الاكثرية الساحقة من المحرومين ابناء طائفة معينة واحيانا مذهب ما ، بينما تفوز الاقلية بنصيب الاسد : خاصة اذا اضفنا العامل التاريخي منذ عهد الانتداب !

٤ — ومن الطبيعي ايضا ان ينعكس هذا الاقتصاد غير الليبرالي على الهيكل السياسي فيكرس نظاما يبني الديمقراطية على أسس طائفية لا علاقة لها بالاسس البرجوازية المتحضرة ولا مبادىء الثورة الفرنسية « اخاء ، حرية ، مساواة » ولا بوثيقة حقوق الانسان .

٥ — ومن الطبيعي اخيرا ان تميل « القمة » الاقتصادية والسياسية في آن — بأغلبيتها الطائفية المميزة — الى نوع محدد من الارتباطات التي ترضي شهوات حركة « راس المال » . اي انه بحكم الطابع الاستهلاكي الطفيلي السياحي للاقتصاد اللبناني ، ولغياب الاقتصاد الوطني (رغم توفر مؤهلاته الموضوعية في الارض والانسان اللبنانيين) فان راس المال اللبناني يتجه اقتصاديا بحركة الاحتكارات الاجنبية وانعكاساتها السياسية ، ويرتبط محليا بالانسلاخ عن مصيره القومي وراء حياد وهمي ، ويتردد في تسليح نفسه (هو الذي يحتكم عشائريا الى السلاح) لصد العدو عن اطماعه في الجنوب ثم يشعر تدريجيا بأن عدوه هم ضيوفه المؤقتون (المقاومة الفلسطينية) ، وينتهي ايديولوجيا الى التنكر لاصله « العربي » والدعوة الى « رسالة حضارية فريدة » مضمونها عنصري ضد الكيان العلماني الديموقراطي للدولة ، فتصبح المسيحية بل احدى طوائفها « عرقا » و « شعبا مختارا »

يتقوقع داخل صدفة محكمة الاغــلاق من كراهية الجنسيــات والاديان الاخرى ومن اقتصاد الكازينو والكباريه ومن قيم العشيرة وعاداتها واخلاقياتها .

★ ★ ★

سيدي نيافة الكاردينال بيرتولي .

.. وليست هذه كلها من المسيحية في شيء ، بل هي اقرب ما تكون الى الايديولوجية الصهيونية التي شكلت عــلى صورتها ومثالها دولة « اسرائيل » عدوة المسيح قديما وحديثا . كما انها أبعد ما تكون عن ايديولوجيات عصر النهضة وعصر التنوير وعصر الراسمالية وعصر الاشتراكية في اوروبا « المسيحية » ذاتهــا .. حيث باتت العنصرية من اوساخ التاريخ وذكريات محاكم التفتيش في الجحيم .

والحل ؟

أرجو الا تكون بحيرات الدماء اللبنانية قد لوثت صورة لبنان العظيم في مخيلتكم ، انه بامــكاناته الذاتية ـ ارضا وبشرا ـ وبانتمائه القومي الاصيل الى الوطن العربي ، لا زال قادرا وقادرا على استئناف مسيرته الخلاقة لدرء التخلف ، برد بعض المسيحيين من ابنائه الى المسيحية ، الى المسيح الذي « جاء الى خاصتــه ، وخاصته لم تقبله ، إما الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا ان يصيروا ابناء الله » .

وفي لبنان كثيرون من ابنــاء الله ـ مسيحيين ومسلمين ـ يناضلون ضد التكويــن العشائري والطائفيــة والظلم الاجتماعي . هؤلاء لا يجعلون من الدين جنسية ولا يزعمون ان لهم « رسالة حضارية فريدة » بل يريدون فقط تحقيق كلمات المسيح : الفلسطينيون يكافحون بالدم ليصبح وطنهم عادلا خاليا من حنانيا وسفيره ، و «الآخرون» وحدهم هم الذين يستحقون كلمــات الانجيل « اذا كان النور الذي فيكم ظلاما ، فالظلام كم يكون » .

١١ ـ ١١ ـ ١٩٧٥

الاوهام التي سقطت

رغم العبث وفقدان المعنى الذي سيطر على كثير جدا من معارك الاشهر السبعة الماضية ★ ، فان نهر الدم الرئيسي لم يكن نزوة او نزهة ولم يكن هواية او نزقا خالصا ، بل كان له منبع كما كان له مصب . ولقد كان صراع الصيادين في هذا النهر الاحمر، في جوهره ، صراعا بين الحقيقة والوهم ، بين الشباك والسمك، بين الصيادين وسمك القرش .

ولعل الحقيقة الاولى والاخيرة التي برزت بعد الاحداث ، بل وتأكدت في جحيم النيران هي ان لبنان لم ينته ، بل لا ينتهي . انه بالمعمودية الدامية ، يولد كطائر الفينيق من الرماد المحترق « ولادة جديدة » يحلق بعدها ليجمع اطيب النباتات ليبني عشه من جديد على ذات الشجرة التي تغور جذورها في اعماق الارض وترتفع فروعها الى اعالي السماء . بالولادة الجديدة يبعث لبنان الحقيقي ، ربما للمرة الاولى ، يصبح « مجتمعا » لا مجموعة عشائر ، يصبح وطنا لا حدودا بين القبائل . وقد كان ذلك ممكنا دائما لان مصادر « وجوده » الموضوعية ، ترشحه بحكم الطبيعة والانتماء والتاريخ لان يكون مجتمعا لا امارة ماناكو في الشرق الاوسط . وقد كان ذلك ممكنا دائما لان اصول « وعيه » الذاتي ترشحه بحكم الفكر والتراث والحضارة لان يكون وطنا لا هونغكونغ

★ كتبت مع بداية هدنة قصيرة كنا نظنها ستطول .

في الشرق العربي .

أي ان شرعية « الوجود والوعي » اللبنانيين ، هي ان تكون هذه البلاد مجتمعا ووطنا لا بحرا وجبلا وكازينو وصالة ترانزيت. لذلك كانت صورة لبنان السابقة على الاحداث كلوحة مزيفة افتعلت ريشة رسام من الهواة يتقن تقليد الصور الخالدة ليبيعها في المزاد بالغش والخديعة . والفضل الوحيد للمعارك الاخيرة انها حطمت الموديل وأبرزت الانسان الحي ، كشفت القناع واظهرت الوجـــه الحقيقي . وأيا كان جمال الوهم فالحقيقة اجمل ، واما الزبـــد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

ان لبنان باق بقاء الحياة ، تلك هي الحقيقة الاولى والاخيرة والرئيسية . وما فعله النهر الدامي هو انه قطـــــع المسافة بين الحقيقة والوهم في عقل اللبناني وخياله . ولقد كانت الاوهـام التي سقطت في الاشهر السبعـــة الاخيرة كثيرة كثيرة ومريرة مريرة .

★ ★ ★

ومن دماء المعارك وحطامها نستطيـــــع ان نستخلص اكبر الاوهام ، وهي مـــا جرى ليس اكثـــر مـــن انعكاس لمخطط عربـــي او دولي اتخذ من « لبنان » ملعبا مختارا .

ولا شك ان لبنان كجزء من الوطـــــن العربي ، يتأثر سلبا وايجابا بما يجري على طول الارض العربية وعرضها . ولا شك ان لبنان كموقع ستراتيجي على الصعيد الدولي ــ اقتصاديـــا وجغرافيا وامنيا ــ يتأثر بمجريات الامور على خريطة العالم .

ولكن الاحداث العربية والدولية لا تستطيع الا ان تكـــون « عاملا مساعدا » مهما كبر حجمه او صغر لاشعال او اطفـــاء حريق وطني كبير كالحريق اللبناني . ان المداخلات السوريـــة والمصرية والعراقية والفلسطينية في الازمة اللبنانية ، هي مثـــلا تاثيرات « عربية » . واتفاقية سينـــاء الاخيرة هي « الحدث »

العسكري والسياسي الذي جرى في « المنطقة » . ولكن هـذا العامل « العربي » من أحد الوجوه رغم خطورته ليس اكثر من عامل « مساعد » في التأثير على الازمة اللبنانية ، ولا يمكن اعتباره بأية حال عاملا رئيسيا . كيف كان ذلك ؟

ان مصر بوزنها الاستثنائي الذي عرفه اللبنانيون في ازمة ٥٨ قد غابت ايجابيا عن ازمة ٧٥ واقتصر حضورها السلبي على عدم تخوين احد الفرقاء الذي ادانته الحركة الوطنية اللبنانية ، وعلى الاستفادة من الجو الصاخب في بيروت بتغطية اتفاقية سيناء او تهريبها بتعبير أدق . وهذا من شأنه ان « يضعف » فريقا و « يشجع » فريقا اخر ، ولكنه لا يشعل فتيلا ولا يطفىء عود كبريت .. خاصة وان وزن مصر الرسمية الراهنة يختلف كيفيا عن وزنها الناصري القديم ، مما يضعف ايجابيتها وسلبيتها على السواء ، في أعين الفريقين المتقاتلين ، وفي أعين الظروف الخارجية المحيطة بالقتال .

ويختلف ايضا موقف سوريا عام ١٩٧٣ عن موقفها عام ١٩٧٥ ذلك ان مشهد ايار منذ عامين كان يضم طرفي مواجهة صريحة بين « السلطة » اللبنانية و « المقاومة » الفلسطينية . وهكذا اقفلت الحدود بين الدولتين في الماضي . اما المشهد الجديد فيبدو فيه رئيس الجمهورية اللبنانية متحدثا باسم العرب امام الراي العام العالمي عن قضية فلسطين ، ويبدو فيه رئيس الحكومة اللبنانية متمتعا بثقة الفريق الوطني ، وتبدو فيه المقاومة الفلسطينية بعيدة عن جوهر الاحداث .. واذن فالحدود تفتح هذه المرة ليجيء وزير الخارجية السوري بناء على طلب «السلطة» اللبنانية « وسيطا » بين فريقين ، ليس في يديه اكثر من النصح والامنيات وفوقهما حمامة وغصن للزيتون لا يشعل اللهب ولا يطفىء الحريق .. خاصة وان قدرة سوريا على التحرك محدودة سلفا بأسوار اتفاقية سيناء الشائكة ، وبالتهديدات الخارجية

المتابعة اذا تدخلت ، من غير ان تتدخل .

والعراق ـ البعيد جغرافيا عن ارض الصراع ـ بذل جهده السياسي بقدر ما يستطيع ، ولكنه آثر في النهاية « انقاذا » هو الاول من نوعه بما ارسله ولا يزال ، للفريقين دون تمييز ، بـــرا وجوا ، يوميا ، من أدوية وأغذية ، من دماء شعبه وعرقه ، للانسان العربي في لبنان ، الجريح والجائع والمشرد . اذا لم يكن قـــد استطاع ان يوقف الحرب فقد استطاع ان ينقذ ضحاياها عـــلى نحو غير مسبوق في السرعـــة والكرم ... بينما هناك دول « عربية » لم تقدم رغيفا ولا جرعة ماء !

والمقاومة الفلسطينية ، برغم اتفاقية سيناء التي تستهدفها، وبرغم ان أحد الفرقاء اللبنانيين يدعم هذا الاستهداف سرا وعلنا، فان تحركاتها ـ بحكم وجودها على ارض لبنان ـ ظلت سلميـــة من البداية الى النهاية ، ولم تستدرج الى القتال « الاهلي » رغم الاستفزازات المقنعة والسافرة .. وكم كانت تستطيع ـ بمختلف المبررات ـ ان تحسم الموقف العسكري ، ولكنها آثرت الحســـم السياسي في حدود الاتفاقيات المعقودة بينها وبين السلطـــة اللبنانية ، وآثرت الاعلان دوما عن احترامها العملي لسيادة لبنان واستقلاله .

هكذا تصبح حصيلة « العامل العربي المساعد » مزيجا مركبا من السلب والايجاب ، ولكنه لم يكن بأية حال عاملا رئيسيا . وربما كان بيان وزراء الخارجية العرب خير برهان على حجم التأثيـــر العربي في مجرى النهر اللبناني . انه البيان الذي يدعو اللبنانيين الى السلام ، وكفى المؤمنين شر القتال .

اما المؤثرات الاجنبية فيمكن ايجازها في ثلاثة : الفاتيكـان باعتبار ان غالبية المسيحيين في لبنان تتبع الكرسي البابوي فـي روما . وفرنسا باعتبار الروابط التاريخية ، وليس اقلها انهـــا أشرفت على تكوين « لبنان الكبير » على النحو الـــذي يفسره

الدستور المكتوب والميثاق غير المكتوب ، اي باعتبار « حضورها » بين عهد الانتداب وعهد الاستقلال . ثم الولايات المتحدة الاميركية، بسبب مصالحها الاستراتيجية في الشرق الاوسط عموما والشرق العربي خصوصا ، وبيروت بصورة اكثر خصوصية .

.. فماذا كان رد الفعل « الخارجي » ؟ من جملة التصريحات والتحركات نستطيع الجزم — أيا كانت النوايا والحوافز والدوافع — ان « الغرب » بقيادة الولايات المتحدة لم يستطع مطلقا التدخل المباشر ، كما حدث عام ١٩٥٨ . وانه في حالة تشبه الاجماع على ان « التقسيم مرفوض » من اميركا التي تدرك اكثر من غيرها ان فائدة لبنان — من وجهة نظرها — أن يظل كما هو ممرا اقتصاديا وسياسيا الى العالم العربي ومنه حيث يتعذر على « وطن قومي للموارنة » ان يقوم بهذه المهمة الاستراتيجية . أما الفاتيكان فقد كان حريصا منذ البداية على اعلان رفضه للتقسيم (١) وأضاف

---

(١) نشرت جريدة « المحرر » اللبنانية بتاريخ ٢٠ — ١١ — ٧٤ ما نصه :

قالت مصادر دبلوماسية مطلعة « للمحرر » ان المبعوث الفرنسي كوف دي مورفيل وصل الى بيروت امس ليجد ان مشروع التقسيم الذي كانت تدعو اليه بعض الفئات اليمينية في لبنان قد وضع على الرف بفضل المحادثات الصريحة التي اجراها المبعوث البابوي مع هذه الفئات وتحذيره الحازم لها من الاخطار التي ستنجم عنه . ولذلك فان مهمة دي مورفيل ستكون اقل صعوبة مما قدر لها سابقا.

وكشفت هذه المصادر النقاب عن ان المبعوث البابوي ابلغ الفئات اليمينية ما يلي :

١ — على افتراض نجاحها في تحقيق التقسيم ، الذي لا يمكن ان يتم الا بعد جريان دماء كثيرة اخرى وخراب عام يشمل البلاد ، نظرا لمعارضة الاكثرية الساحقة من اللبنانيين له ، فان « الوطن القومي المسيحي » الذي سيقوم نتيجة لذلك سيؤدي الى خلق اسرائيل اخرى في المنطقة تناصبها الدول العربية العداء وتعاملها ←

الموفد البابوي عند مغادرته لبنان بعد جولته الاستطــــلاعية ان « جوهر الحل » في ايدي اللبنانيين . وهو تقريبا مضمون البيان

←

معاملتها للدولة الصهيونية . وهذا يعني طرد جميع الرعايا المنتسبين اليهـا مــن الاقطار العربية واغلاق ابوابها في وجوههم وفرض الحصار الاقتصادي عليها .

هنا اشار المبعوث البابوي الى ان معلومات الفاتيكان تشير الـــى وجـود ١٥ مليون مسيحي في العالم العربي ، وادعى انه ليس مـن المستبعـد ان يتعرض هؤلاء للتضييق عليهم في حال قيام الدولة المسيحية كما حدث بالنسبة ليهود العالم العربي بعد قيام اسرائيل . وقال ان الفاتيكان ينظر الى مصلحة المسيحيين ككل .

ومضى يقول : لا تنسوا ان هناك احتكاكات بين المسلمين والمسيحيين في معظم ارجاء القارة الافريقية ايضا ... ونحــن نخشى ان يتعرض المسيحيون الافارقـة للاضطهاد كذلك في حال قيام الدولة المسيحية في لبنان .

٢ ــ لا الدول الاوروبية ولا اميركا على استعداد لتأييد اقامة دولـة مسيحية في لبنان تضم نصف مليون ماروني ، لان ذلك سيتم عـلى حساب علاقاتها ومصالحها الاكثر اهمية مع الوطن العربي كله .

٣ ــ ان انشاء مثل هذه الدولة قد يؤدي الى اغلاق النافذة التـــي يطل منها الغرب على العالم العربي .

٤ ــ ان الدولة المقترحة لن تكون قابلة للحياة . واذا كانت اسرائيل التي هي اشبه ما تكون بجزيرة وسط اوقيانوس عربي ، قد استطاعت البقاء حتى الان بفضل الصهيونية العالمية التي تقدم لها المساعدات باستمرار وتمارس الضغوط على الدول الغربية لمساعدتها ، فان « الوطن القومي المسيحي » المقترح لا يملك في العالم منظمة مماثلة للصهيونية ، فضلا عن ان الجبل الذي يشكل الجزء الاكبر مــن الدولـــة المقترحة يفتقر الى كل مقومات الحياة ، خاصة اذا قاطعـــه المصطافون والسياح والتجار العرب ، وهذا ما سيحدث بكل تأكيد .

وعلاوة على ذلك فان المبعوث البابوي حذر زعماء الفئات اليمينية من الاعتماد على اسرائيل واكد استحالة تدخلها العسكري السافر وقال : ان اميركا اكدت لنـا

الفرنسي من قبل ان يصل مبعوث الاليزيه (٢) .

ومعنى ذلك ان العـــامل الاوروبي الاميركي بسلبياتـــه وايجابياته ليس اكثر من « عامل مساعد » لا يحسم الصراع الدائر في لبنان هذه الناحية او تلك . وهكذا يسقط الوهم الاول القائل

انها لن تسمح بمثل هذا التدخل لانه سينسف جميع الجهود التي بذلتها حتى الان لتسوية ازمة الشرق الاوسط وسيعقد الامور تعقيدا خطيرا جدا .

وقالت المصادر الدبلوماسية : ان زعماء الفئات اليمينية لم يكونـوا مرتاحين لاقوال المبعوث البابوي ، ولكنهم اضطروا ازاء هذا التوضيح الـــــى وضع مشروع التقسيم على الرف .

(٢) نشرت جريدة المحرر اللبنانية بتاريخ ١٨ - ١١ - ١٩٧٥ ما نصه :

تأكيدا للنبأ الذي نشرته « المحرر » في عددها الصادر بتاريـــخ الجمعـة ١٤ تشرين الثاني الجاري حول خريطة مشروع تقسيم لبنـــان التـــي اعدتها القـوى الانعزالية وسعت عبر موفديها شارل حلول وخليل ابو حمد الى عرضها على الدوائر الاوروبية وخاصة فرنسا والفاتيكان للحصول على موافقتها ، تأكيدا لهـــذا النبـا وردت معلومات اخرى هامة حول ردة الفعل التـي جوبهت بهـــا خريطـــة مشروع التقسيم ، وهي ردة فعل كانت مفاجئة وقاسية ومخيبة لامـــال الذيـــن وضعوها وخططوها حسب تعبير المصادر الديبلوماسية الاوروبية التـي كانت على علم تـــام بمؤامرة الاوساط اليمينية اللبنانية ..

وقد تأكد « للمحرر » عبر مصادر ديبلوماسية فرنسية واسعة الاطلاع ومقربة من « الكي دورسيه » ، مقـر وزارة الخارجيـة الفرنسية ، ان الموفديـن اللبنانيين اللذين توليا مهمة عرض المشروع ، وهما الرئيس السابق شارل حلو والوزير السابق خليل ابو حمد توزعا الادوار ، فتولى حلو عرض المشروع عـــلى الحكومة الفرنسية بينما تولى ابو حمد مهمة اقناع الفاتيكان .

وتضيف المصادر الديبلوماسية الفرنسية ان مفاجـــاة صاعقة كانت تنتظـــر الرئيس حلو في مكتب وزير الخارجية الفرنسية سوفانيارغ ، فعندمـا دار البحث

بأن الصراع محصلة عربية او غربية ، فالحقيقة هي ان الصراع اولا واخيرا صراع داخلي لبناني . وفي ضوء هذه الحقيقة وحدها يمكن تحليل ما جرى ، ويمكن استخلاص النتائج المستفادة في محاولة البحث عن حلول . لبنان هو « القضية » وان تشابكت لهذه الدرجة او تلك مع قضايا عربية او اجنبية .

★ ★ ★

والوهم الثاني هو توصيف الاحداث بأنها « ثورة » او « ثورة مضادة » ، وتبعا لذلك توصيف البعض للصراع بأنه صراع طبقي وتوصيف البعض الاخر له بأنه صراع طائفي . والحقيقة هي ان مقدمات المحنة وسياقها ونتائجها لا تؤدي بنا الى هذا التبسيط المخل والتجريد السهل والاختزال المفرط لعناصر الازمة ومكنوناتها .

ولا شك ان المشهد اللبناني في الشهور السبعة الاخيرة يومىء باكثر من شاهد على ان جانبا خطيرا من الصراع هو بلا جدال صراع اجتماعي بين الجوعى والمشردين والضائعين

←

بين الاثنين حول الازمة اللبنانية ، سحب الرئيس حلو من حقيبته مشروع التقسيم الذي اعدته القيادات اليمينية اللبنانية وقدمه للوزير الفرنسي طالبا تأييد ودعم الحكومة الفرنسية للمشروع .

وانتظر الرئيس حلو ان يطلع الوزير على الخريطة ويبدي رايه فيها ، لكن المفاجاة كانت في الانفعال الصريح الواضح الذي بدا على وجه الوزير الفرنسي اذ خاطب الرئيس حلو بقوله :

ـ ارجو ان تعيد الخريطة فورا الى حقيبتك واني ارفض بصورة قاطعة الاطلاع عليها وحتى مبدأ مناقشة الموضوع ، واذا كنت مصرا على المناقشة

ونهض الوزير الفرنسي معلنا انتهاء المقابلة ..

والمسحوقين فيناحية ، والمتخمين والممتازين والمرفهين والمخمليين في ناحية اخرى . كما لا شك في ان هذا المشهد في جانب اخر من جوانبه يوحي باكثر من قرينة على ان الصراع ايضا طائفي بين ابناء دين ما واحيانا مذهب في جهة ، وابناء دين اخر واحيانا طائفة محددة في الجهة الاخرى .

.. فأين الحقيقة وأين اليقين ؟ خاصة اذا لاحظنا ان هذين الخطين المتوازيين يتطابقان حينا ويفترقان حينا اخر ، اذا رأينا مثلا بعض القادة المسلمين يتخذون مواقف محافظة بل رجعية ، وبعض المفكرين المسيحيين يتخذون مواقف متطورة بل تقدمية ؟

ما هو جوهر الصراع اللبناني اذن ؟ ان الهوة الواسعة بين الكادحين والمترفين تؤكد انه صراع اجتماعي ، ولكن الخطف والقتل على الهوية يؤكد ايضا انه صراع طائفي . جزء من الحقيقة يصلنا عبر التاريخ ، وجزء اخر يأتينا من « اسلوب » الفريقين في القتال . اما التاريخ فيقول ان امتيازات عهد الانتداب ومن قبله التوازن والتنابذ بين السلطنة العثمانية والفرنسيين ، قد «اورث» طائفة معينة دون بقية الطوائف مشروع المدنية والتقدم بمعناه المادي الضيق . وبالتالي كتب على الاخرين جميعا المزيد من التخلف والفقر . لذلك تقاربت — ولا اقول تطابقت — الهوية الاجتماعية والهوية الطائفية . ولقد دعم النظام الاقتصادي اللبناني هذا التقارب الشبيه بالتطابق ، بقاعدته العشائرية اجتماعيا ، وقمته الاستهلاكية الكومبرادورية انتاجيا .. فلأن الارضية الوطنية للاقتصاد اللبناني ظلت غائبة عن « الهيكل الرأسمالي للانتاج » اتسعت المسافة اوتوماتيكيا بين المحرومين من دين معين والصفوة المختارة من دين اخر ورثت امتيازات « مشروع التقدم » تاريخيا من الاجنبي . وبقيت ضريبة التخلف تثقل كاهل الغالبية من الطوائف الاخرى باستثناء « الهامش » الواقع بين التقارب والتطابق في الهويتين الاجتماعية والدينية .. هذا الهامش الذي

خلق قلة من الاغنياء المسلمين وقلة من الفقراء المسيحيين لا يستطيع ان يلغي الطائفية ، ما دامت القاعدة العشائرية للمجتمع هي الاساس ، وما دامت القمة الاستهلاكية الكومبرادورية هي راية الاقتصاد .

.. واذن فالصراع في جوهره هو بين تخلف الجذر الاجتماعي (العشائرية) والفروع الاقتصادية (المعتمدة اساسا على الغير للحصول على اكبر ربح في اسرع وقت) ، وبين وطنية الانتاج (الارض والمصنع اللبنانيين) وعدالة الاستهلاك .

اي ان حقيقة الازمة ــ سواء وعاها البعض ، او لم يعها البعض الاخر ــ هي ضرورة انتقال لبنان من نظام اقتصادي واجتماعي هجين (العشائرية والخدمات) الى نظام راسمالي وطني يأخذ بالاقتصاد الحر والليبرالية السياسية. وليس صحيحا على الاطلاق ان المطلوب موضوعيا (وبغض النظر عن الاهداف الاستراتيجية) لبنان اشتراكي او ناصري او شيوعي او بعثي.. بل لبنان وطني ، على كافة الاصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وهذا النظام وحده هو الكفيل بتفتيت العشائرية وتذويب الطائفية والحد نسبيا من نهم الاستغلال الطبقي .

ولان الفريق الوطني اللبناني يؤمن بذلك في وثائقه المكتوبة ويعمل لاجله في ممارساته السياسية الديمقراطية السلمية ، قامت « هذه الحرب » لم يشعل حريقها هو ، وأكاد أقول لم يكن مستعدا لها ، بل فرضت عليه . والتسمية الدقيقة في اعتقادي انها « حرب وقائية » من جانب شيوخ العشيرة وارباب راس المال العميل للاجنبي . انها « حرب وقائية » تستهدف « اجهاض » التحول من النظام الهجين المتخلف والممزق الى النظام الراسمالي المستنير الوطني والمتقدم .

تلك هي البداية البالغة الاهمية ، فلم تكن هناك « ثورة » لبنانية شعبية او ثقافية او ما شئت لها من اسماء ــ فالقوام

الطبقي للبنان تحت وطأة النظام الراهن ـ كثير الميوعة وفقيـــر التماسك . ولم تكن بالمقابل « ثورة مضادة » اذ ليس هناك مجتمع ثوري تنقض عليه قوى الردة . ان تداخل الطبقات لحد مثير في لبنان وارتفاع نهم الاستهلاك لا يلغي الهوية الطبقية للمجتمع حقا ، ولكنها طبقية سائبة ان جاز التعبير ، تحتاج الى نضـــــال مرير لسنوات طويلة من اجل الضبط والربط او الوعي والتنظيم ، حتى يصبح هناك مجال ـ مجرد مجال ـ لانضاج الثورة .

تلك هي البداية . امـا السياق فقد ابرز القواسم المشتركة بين المتحاربين ، واما النتيجة فقد افرزت ـ كما قلت ـ الحقائق من الاوهام .

والقاسم المشترك الاعظم هو « اسلوب الحرب » الخالي من اية تقاليد قديمة او حديثة على الســــــواء ، فالخطف والقنص والتعذيب لم ينفرد به فريق دون اخر ايا كانت نسبتـــه هنا او هناك . ولا يدلنا تاريخ الحروب بانواعها، النظامية والاهلية وحروب العصابات ، ان الخطف على الهوية او قنص الابرياء او تشويـــه الجثث وحرقها كان تقليدا من تقاليدها او قانونا من قوانينهـا . وانما يدلنا تاريخ العشائرية في حيـاة الشعوب ، وكذلك تاريـخ الطائفية، على ان هذا النوع من المذابح غير الاخلاقية جائز وممكن. ان اقتلاع الضمير الانساني على هذا النحو من جذوره ، لا علاقة له مطلقا بالعقيدة الدينية او الانتماء الطبقي .. وانما هو وثيـــق الارتباط بقواعد الثأر والانتقام العشائرية والمجازر العرقيـة ، فقد استطاع التداخل التاريخي المعقد بين التكوين العشائـــري للمجتمع اللبناني وتخلف الكثرة الفقيرة الضائعــــــة في دولاب الاقتصاد الاستهلاكي ، ان تحول الظاهرة الطائفية من مجرد كونها غطاء للصراع الاجتماعي الى ما يشبه الظاهرة المستقلة ، فسياقها التاريخي الطويل المدى قد اكسبها مع الزمن استقلالا نسبيــــا وخصائص مميزة وكينونة ذاتية . من هنا كان « الحقد الاعمى »

في اسلوب القتال . وبسبب العشائرية لم يسلم من هذا الحقد فريق دون اخر ايا كانت نسبته في هذه الشرايين او تلك .

لذلك يستحيل العلاج الجزئي او المرحلي او العلوي . يستحيل معالجة الطائفية مثلا بمحو المذهب الديني من الهوية (انها مظاهرة رائعة للمثقفين وحدهم لها دلالتها الجديرة فعلا بالاحترام) ، كما يستحيل معالجة العشائرية بتعديل قانون الانتخاب او بعض مواد الدستور .

ان ما يسمى بالبرامج الوطنية والمطالب ، يجب ان يبدا بالجذور ، فلا وطنية لنظام بغير اقتصاد وطني ، ولا ليبرالية سياسية دون اقتصاد ليبرالي ، ولا تفتيت للعشائرية وتذويب للطائفية الا بعلمنة شاملة وديمقراطية صحيحة تفرز العامل عن رب العمل وتفصل بين العمل اليدوي والعمل الذهني ، فتقيم الهيكل الطبقي للمجتمع على أسس صلبة واضحة الفروق شديدة التماسك .

والحرب الوقائية التي جرت لم تحقق اهداف الذين اشعلوها ، ولكنها افصحت عن سلبيات مرة ، فضلها الحقيقي انها حددت واوضحت واثمرت الخط الفاصل بين الحقيقة الوحيدة — ان لبنان باق ولا ينتهي ولعله يولد من جديد — والاباطيل العديدة التي سقطت في النهر الدامي . ترجمة هذه الحقيقة ان الصراع لبناني في مقدماته ونتائجه وان تأثر عربيا ودوليا ، وان « الحرب » لم تكن ثورة ولا ثورة مضادة ، بل حربا وقائية حاولت ان «تجهض» المستقبل اللبناني المضيء بنور الحضارة والديمقراطية .. دون جدوى .

١٧ — ١١ — ١٩٧٥

« الخــوف »
من العقدة التاريخية الــى العقد الاجتماعي

قبل ان يصل مسيو كوف دي مورفيل مطار بيروت★ ، كانت باريس قد حددت امام الرأي العام العالمي والفرنسي واللبناني على وجه الخصوص انها تعارض التقسيم ومن ثم الاقتتال فــي سبيله معارضة تامة وطلقة ، واصرت اعــلى المستويات الفرنسية عــلى ايضاح مهمة مبعوث الاليزيه الى « أرض المعركة » بأنهــا « مهمــة صداقة واستطلاع » .

وايا كانت النوايا ، فان احدا لا يستطيع ان يتجاهل « العلاقة الخاصة » بين فرنسا ولبنان ، بــل بين فرنسا والوطن العربي : فالاستعمار الفرنسي الطويل لجزء هام من المغرب وجزء آخر لا يقل اهمية في المشرق قد ترك بصماته المادية والمعنوية على جبين هــذا الوطن . ولا سبيل الى انكار دور الحملة النابوليونية عــلى فجر اليقظة القومية في بلادنا ، اذ رغم طابعها الاستعماري الذي لا غش فيه ، كانت سببا ــ بين عديد من اسباب ــ فــي اشتعال فتيل « النهضة » التي لا زلنا نعاني مخاضها حتــى اليوم . وبالنسبة للبنان فقد كان لفرنسا منذ الحروب الصليبية الــى عهد الانتداب الى فجر الاستقلال دورهــا الخاص ، اقتصاديا وسياسيا عــلى

★ كتبت بمناسبة وصول مبعوث الاليزيه للقيام بدور الوساطة الفرنسية .

السواء . ومنذ انتهاء حرب الجزائر بـدا العصر الديجولي صفحة جديدة مع العالم العربي ، تميزت بالاستقلال النسبي عـــن الغرب الاستعماري : السطر الاول في هذه الصفحة هو اعادة النظر فـي قضية الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، والتأكيد على الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني . والسطر الثاني هو التعامل مع النفط العربي من مواقع الفائدة المشتركة ، ولعـل الاتفاقيات العراقية الفرنسية في هذا الصدد « نموذج » رائد .. ولكنه ليس نموذجا استثنائيا ، لان فرنسا اضحت تنظر الى مصالحها القومية في العالم العربي ، بمعزل نسبي عن المصالح الاستراتيجية للاستعمار العالمي . ومـن هنا تقريبا كان « تفردها » بين دول الغرب في موقفها مـن الصراع اللبناني . وهو التفرد الذي كان له اعمق الاثر علـــى حليفاتها من الدول الغربية والولايات المتحدة ، بالاضافة الى ان مصالحهم ، هم ايضا ، لا توافق التقسيم وان لم تمانع في القتال .

.. تلك هي « العلاقة الخاصة » التـي تربط فرنسا بالوطن العربي عموما ، ولبنان خصوصا . ولانها ليست علاقـة جامدة او ساكنة او وحيدة الجانب ، بـــل علاقة متطورة متحركة وشاملة ، فانها بلا شك قد صاغت الموقف السياسي الفرنسي عـــلى النحو المعروف ، ولا شك ايضا انها كانت حافزا ـ ايا كانت النوايا ـ على ايفاد مسيو كوف دي مورفيل في مهمة « الصداقة والاستطلاع ».

ومبعوث الاليزيه ليس قادما من « التاريخ » وحده ، ولا من « المصالح الراهنة » وحدها ، وانما هو قادم من دولة محددة لهـا تراثها العريق الذي طورته الى مـا وصلت اليـه الآن مـن تقـدم وحضارة . انه قادم من احدى العواصم الرئيسية لعصر النهضــة الاوروبية التي حاورت المسيـح والمسيحيـة والكنيسـة حـوارا تاريخيا ، اعاد المسيح الى « انسانيته » واستعاد المسيحية مـــن « وثنيتها » ورد الكنيسة الى « المعبد » بعد ان كانت اقطاعا وملكية ومحاكم للتفتيش وصكوك للغفران . انه قادم ايضا من العاصمــة

الرئيسية لعصر التنوير ، حيث اصبح « الانجيل » مادة للدرس والنقد والتحليل من جانب المؤرخين والفلاسفة والعلماء ، حتى ان « الانسان » بماضيه وحاضره ومستقبله اصبح هو محور الكون فوق هذه الارض ، وليست الغيبيات والبحث عن جنس الملائكة . انه قادم اخيرا من عاصمة الثورة البرجوازية الديمقراطية الكبرى التي اطاحت بالتفرقة الدينية والعرقية ففصلت نهائيا الكنيسة عن الدولة ورفعت شعارها التاريخي « حرية ــ اخاء ــ مساواة ». ومن ثم كانت فرنسا مهد العلمانية والديموقراطية في العصر الحديث ، بفضل طبقاتها الاجتماعية الجديدة الخالية عروقها من الدم الازرق، وبفضل كشوفاتها العلمية التي ابطلت سطوة الخرافة، وبفضل صناعاتها الوافدة مع التقدم العلمي ، وبفضل فولتير الذي حطم بمعول « حرية الفكر » اباطيل الكنيسة ، وديدرو الذي حطم « بموسوعته البشرية » تاريخ الوهم الطائفي والعنصري ، ومونتسكيو الذي حطم « بروح القوانين » جسد الدكتاتورية ، وجان جاك روسو الذي حطم « بالعقد الاجتماعي » قداسة النصوص الموروثة وشرعية التفرقة المنحدرة من عصور العبودية والاقطاع ، عصور الامبراطوريات والممالك والنبالات والكنائس .

ان المبعوث الفرنسي قادم من هذه الحضارة . ولذلك كان من المهم النظر اليه والحوار معه وهو يحمل في احدى يديه « التاريخ » و « العلاقة الخاصة » ، وفي اليد الاخرى هذه الحضارة .

وليست صدفة ــ من جانب الرئاسة الفرنسية ــ ان تبعث الى لبنان « شخص » كوف دي مورفيل كواحد من ابر الابناء للعصر الديجولي الذي يوجز تكوينه ملامح الماضي والحاضر سواء على صعيد المبادىء او الممارسة السياسية ، فكلاهما يشهد له بقوة البصيرة التي اسهمت بنصيب ما في تغيير الموقف الامبراطوري الفرنسي من حرب الجزائر الى حرب السويس الى حروب الشرق

الاوسط العربية الاسرائيلية .

★ ★ ★

في هذه الحدود يمكن ان يقال لمن يعرف التاريخ ويحرص على العلاقة الخاصة ويستنير بهذه الحضارة ويملك الاستعداد الشخصي ان جوهر الصراع اللبناني في عبارة واحدة هو « حضور » العقدة التاريخية لدى الاقليات الدينية و « غياب » العقد الاجتماعي الذي يصهر « الخوف » في بوتقة العلمنة والديموقراطية . وفي عبارة اخرى هو الصراع بين الخوف التاريخي والخوف الاجتماعي. والخوف التاريخي ليس اكثر من عقدة نفسية ، بينما الخوف الاجتماعي واقع مادي موضوعي . لذلك كانت المسافة هائلة بين « ظلم » الخوف الاول و « عدالة » الخوف الاخر .

.. ولنفتح كتب التاريخ ، لانه حتى العقد النفسية ليست مرضا ميتافيريقيا معلقا في الفضاء ، بل له اسسه الموضوعية وركائزه المادية في باطن التحولات التي تجري للمجتمع والتي نسميها تاريخا . ماذا يقول التاريخ اذن عن « عقدته » التي اصابت البعض الى يومنا ؟

يقول ان هذا المشرق العربي ظل « دولة واحدة » مئات السنين ، وانه مع مصر والمغرب العربي قامت لهذه الدولة واحدة من ارفع الحضارات التي عرفها التاريخ الانساني ، خاصة في العصر الوسيط . كانت هذه الحضارة الفتية هي « الحضارة العربية » التي رفدها الاسلام بنبع لا ينضب من الالهامات الفكرية والتشريعية حتى انها احدثت في موطنها الاصلي وفتوحاتها خارج الحدود « ثورة كاملة » ربما كان المفكر الفرنسي المعاصر مكسيم رودنسون في كتابيه عن الاسلام ومحمد ابرز كتاب الغرب - وهو يهودي ! - احاطة بملامح هذه الثورة وتفاصيلها .. فقد كانت هذه الحضارة من ناحية استيعابا فكريا شاملا للحضارات السابقة عليها كاليهودية والمسيحية ، ولم تكن من ناحية اخرى « عدوانا »

على الحضارات القديمة التي اضمحلت كحضارة بين الرافدين او الحضارة الفينيقية او حضارة وادي النيل . كان ما يسمى الآن بالوطن العربي هياكل عظمية من « آثار » مندثرة ومجموعات منحلة — في غالبيتها — من القبائل المتناحرة والعشائر المفككة والعقائد الوثنية ! بعد ان دخلت اليهودية مرحلة الشتات العالمي واستقرت منعزلة في « الجيتو » هنا وهناك من بقاع العالم ، وبعد ان رحلت المسيحية تقريبا الى أوروبا ، ولم يبق من ابنائها العرب سوى اقليات متناثرة في مصر والشرق العربي عموما .

وهكذا ، فان « الحضارة العربية الاسلامية » التي وحدت هذه المنطقة التي ندعوها الآن بالوطن العربي ، لم تقم « عدوانا » على حضارات اخرى بل على انقاض وخراب شامل . ولم تدع « اكتفاء ذاتيا » ولا اغلقت على نفسها الجهات الاربع ، بل على النقيض من ذلك تماما ، حافظت « تراث هذه الارض » فاستوعبت اليهودية والمسيحية ، وانفتحت على « تراث الانسانية » في ذروة تألقها الحضاري ايام الاغريق . وبهذين الجناحين — الاستيعاب والانفتاح — حلقت الحضارة العربية الاسلامية في عصر ازدهارها العظيم ، العصر الوسيط . واعطت للبشرية نور العلم والديموقراطية في وقت كانت فيه اوروبا تعاني اهوال التخلف والانحطاط والحروب الطائفية بين ابناء الدين الواحد والحروب العنصرية بين ابناء الوطن الواحد وغيرها من ظلمات الجحيم .

ولكن هذه الحضارة العظيمة ليست معصومة من الخطأ والخطيئة .. بفضل الثورات المضادة التي برزت من داخلها وحاصرتها من خارجها ، وكان من شأنها ان تفتت كيان الدولة الكبرى الى دويلات صغيرة ، وان تعود بهذه الدويلات الى انظمة قبلية وعشائرية تمت بصلة نسب الى العصر الجاهلي لا الى الاسلام ، وما يترتب على هذا التفتت السياسي والاجتماعي والاقتصادي من عصبيات عرقية وتناحرات طائفية وانقسامات

عشائرية طاحنـة .

.. واقبلت الحروب الصليبية في غمرة هـذا التمزيق الاليم ترفع راية الصليب والقـدس ، وهـي تستهـدف الخريطـة الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية للعالم العربي . لـم يكـن الصليب بحاجة الى حماية ولا كانت القدس .. بل كانت النهضـة البورجوازية في الغرب قد بلغت مرحلة من التطـور دفعتها الـى محاولة « فتح العالم » تحت رايات مختلفة ، منها راية « الحضارة» في آسيا وافريقيا ، ومنها راية « المسيح » في هذه المنطقـة مـن العالم . وكانت الاقليات ـ مسيحية ويهودية بـل وبعض الطوائف الاسلامية ـ قد عانت الاهوال بعد تفتت الدولة العربية الواحدة في ظل الردة الجاهلية ان جاز التعبير عما جـرى من نشوء دويـلات قبلية وعشائرية وطائفية تغلف انحطاطهـا الاقتصـادي وتحللهـا السياسي بالتعصب الديني والمذهبي والعنصري .

من الواضح ان « الاسلام » في ذاته لم يكن السبب . بل كان الارتداد عن جوهره الحضاري الموحد والمستوعب للاديان الاخرى والمنفتح على حضارات الاخرين والذي صـاغ فـي نشأته ثـورة اجتماعية ديموقراطية هو السبب . ولكن لم يكن سهلا على الاقليات الدينية والمذهبية والقومية ، ان تفرق وجدانيا عـلى الاقـل بـين الاسلام الحضاري ونظم الحكم « الاسلامي » المتدهورة ، خصوصا نظم السلطنة العثمانية التي اعتمدت القهـر والتنكيل بالاقليـات وتكريس التفتت ، اسلوبا للحكم .

هكذا ولد التعاطف بين الغـزاة الصليبيين وبعض الاقليـات المسيحية التي رأت فيهم منقذا مـن الاضطهاد . وكان بعض هؤلاء المسيحيين قد لاذوا بالجبال الممتدة من جنوب تركيا الى فلسطين هربا من القهر الدموي .. فنشأت « الحاجة المشتركة » بينهم وبين القادمين تحت راية الصليب .

وقد اندحرت الغزوة الصليبية، ولكن الفتح العثماني استأنف

مسيرته لابتلاع العالم العربي بما فيه لبنان ، وبتعبير ادق جبل لبنان الذي ضم مجموعات متباينة من الاقليات . ولم تختلف السلطنة العثمانية عن الهجمة الصليبية في اسلوب التعامل مع العرب (مسيحيين ومسلمين وغير ذلك) فقد اذكت لهيب الفرقة وعمقت جراح التمزق واصبح « الاسلام العثماني » امتدادا منحطا لاساليب الحكم « الاسلامية » التي ارتدت على الدولة العربية الواحدة وانتكست بقيم الحضارة العظيمة الوليدة . وهكذا ترسخ في وجدان الاقليات المسيحية اللائذة بالجبال ان « الاسلام » هو مصدر الخطر على حياتها .. بينما كان الحكم العثماني وما سبق الحروب الصليبية من انظمة الدويلات العشائرية اكثر خطرا على « العرب » وعلى « الاسلام » وعلى « المسلمين » بنظام حكمه القائم على الاستبداد والطغيان شبه الكهنوتي .

ولكن البرجوازيات الاوروبية لم تترك الساحة خالية امام الفتح العثماني ، وهكذا توافقت من جديد حاجات البرجوازية الاوروبية في اقتحام الشرق مجددا ، وخوف الاقليات المسيحية من الاسلام العثماني لتعلن نوعا من « الحماية » لهذه الاقليات .. وذلك باقامة نوع من توازن القوى بين العثمانيين والاوروبيين في المنطقة .

غير ان اللبنانيين انتفضوا على هذا التدخل المزدوج في عدة انتفاضات مشهورة : قاد فخر الدين معركة عنجر وسجل بطولات رائعة ضد الجيوش العثمانية ، ولكنهم تمكنوا منه بعدئذ ونفوه الى الآستانة . والامير بشير الشهابي اراد ان يحسم الوحدة الوطنية على اسنة الرماح فقام بدور بارز في توطيد الحكم العربي لمحمد علي وابراهيم باشا ، واستطاع ان يصل بجيوشه الى حدود استانبول . وطانيوس شاهين الذي قاد انتفاضة شعبية بالمعنى الطبقي ، ولكن تحالف الاجنبي والاقطاع العشائري حال دون انتصاره . وربما كانت الانتفاضة التاريخية الاولى التي تجاوزت

الشكل الطائفي الى المضمون الاجتماعي . لذلك التقت موضوعيا — بدءا من ذلك الوقت — القوى الاجتماعية المحلية المستفيدة من النفوذ الاجنبي سواء كان عثمانيا او اوروبيا لتعيق هذا النمو التحرري المتوجه اجتماعيا نحو الشعب ووطنيا نحو الحدود « العربية » .وكان سلاح التعويق جاهزا ، بتأصيل التكوين العشائري والهاب الشعور الطائفي. وهكذا افتعلت مذابح عام ١٨٦٠ التي افضت الى ترسيخ الكيانات العشائرية الطائفية .

ولكن حركة التحرر العربي تجددت مع بداية الحرب العالمية الاولى مما دفع جمال باشا ان يحصد الوطنيين اللبنانيين حصدا دون تفرقة بين المسيحي والمسلم . ووفقا لمعاهدة سايكس بيكو بدا عهد الانتداب الفرنسي حيث ماتت آخر الآمال في قيام اقتصاد وطني حقيقي يلم الشمل بغير الهوية الطائفية ، فتم تدمير الزراعة والصناعة ، وبدات الهجرة الكثيفة والصناعات الاستهلاكية الخفيفة . وبينما كان الاقتصاد اللبناني مرتبطا بالداخل العربي (بسوريا وفلسطين) اقبل مشروع « لبنان الكبير » لا كحل وسط بين الانتماء العضوي العربي وانتماء « الجبل » الى الحماية الاوروبية ، بل كان الانتداب الفرنسي وهو يحتضن هذا المشروع يرى المستقبل — من وجهة نظره — يرى البعيد .

● فلبنان الكبير هو تكريس فعلي للتجزئة يحتفظ بحياده العربي ولكنه لا يفرط في انتمائه الغربي اقتصاديا وسياسيا .

● ولبنان الكبير قد أورث امتيازاته الاقتصادية والثقافية للطائفة التي اعتمدت في تقدمها على أوثق الارتباطات التجارية والمالية والسياسية مع الاجنبي من العهد الصليبي الى عهد الانتداب .

● ولبنان الكبير الذي يبدو سطحه ملونا بديموقراطية طائفية ، انما يرسخ في تشريعاته التمثيلية والتنفيذية تفوقا لطائفة دون بقية الطوائف ، هي ذاتها طبقة دون بقية الطبقات .

● ولبنان الكبير « مقسم » داخليا وان احتفظت هيبته الخارجية بحدود الوطن الموحد .. بحيث بات « الجنوب » مثلا وكأنه خارج الحدود ، بتخلفه وفقره وهجرة ابنائه الى المدينة هربا من العدوان الاسرائيلي الذي لا يشكل « ضغطا » عمليا على بنيان الدولة الطائفية ، وان شكل « نقصا » في بنيانها الوطني .

لذلك لم يكن الكاتب الفرنسي رونـدو فـي كتابـه عـن « المؤسسات السياسية اللبنانية » طوباويا ، حين قال (عام ١٩٤٧) ان « اصلاحات جذرية » في هذا النظام « غدت قريبة جدا » .. فالحقيقة هي ان وثائق الاستقلال الوطني عام ١٩٤٢ والمتمثلة فـي الدستور المكتوب والميثاق غير المكتوب تؤكد ان « التوليفة اللبنانية» في أساسها كانت مناورة غربية وليست بناء لوطن . وبقاء لبنان اكثر من ثلاثين عاما في ظل هذه التوليفة لا يكـذب رونـدو ، لان مجازر الاشهر السبعة الماضية ـ وذيولها الراهنة ـ هـي الثمـرة المرة لان احدا لم يصدقه : فالخوف « التاريخي » لم يزل بالاتحـاد الفيدرالي للطوائف خاصة اذا كانت الطائفة المتفوقة عدديـا عنـد الاستقلال باتت اقلية عددية، وخاصة ان حركة التحرر العربي طيلة العشرين عاما الماضية عرفت العديد من الانقلابات الراديكالية التي تتجه قوميا نحو الوحدة ووطنيا نحـو التحول الاجتماعي لمصلحـة الغالبية المسحوقة من الشعب . وفي كتاب « العـرب » للمفكـر الفرنسي جاك بيرك تفسير واضح لهذه الظاهرة المعقدة .. فلبنان رغم كل خصائصه المميزة ـ كأي قطر عربي آخر ـ لا يتكامل نموه الاقتصادي والاجتماعي الا مع الاقتصاد العربي والمجتمع العربي . ولبنان رغم عدد المسيحيين من ابنائه فانه لا يشكل ظاهرة مستقلة عن التواجد المسيحي المكثف في مصر (ثمانية ملايين) وفي بقيـة ارجاء الوطن العربي .

ورغم « دين الدولة الرسمي » في معظم ارجاء الوطن العربي، فان الاسلام لا يشكل ذلك الحاجز التاريخي بيـن افـراد الشعب

والذي افرزته عصور الانحطاط ، لذلك ليس هناك « جيتو » مسيحي في مصر أو السودان أو سوريا أو فلسطين أو العراق . هناك « مجتمعات » قوامها الطبقي هو الاساس ، أما الدين فلا يشكل امتيازا للمواطن .

ومن هنا كان « الخوف التاريخي » عند بعض المسيحيين اللبنانيين له مايبرره من تراث العصور المظلمة ، ولكن « المبرر » الاكبر هو النظام الذي يصرون عليه : نظام قاعدته الاجتماعية هي العشائرية ، وايديولوجيته الديموقراطية هي الانقسام الطائفي ، وقمته الاقتصادية والسياسية في ايدي الطبقة «الخائفة تاريخيا» . وقد تولد عـ هـذا النظام نفسه « خوف اجتماعي » مروع عند « الطبقات ــ الطوائف » التي حاربت الاجنبي فأورثها الفقر والتخلف ، اورثها ايضا مواثيق تضاعف الفقر وتفاقم التخلف .

لذلك لا حل للمعضلة اللبنانية في « حضور » العقدة التاريخية و « غياب » العقد الاجتماعي .. ولا زوال لهذه العقدة ولا مجال لكتابة هذا العقد الا بالحوار الفكري والسياسي الناضج حول هذه الاسس :

● ان المعادلة اللبنانية في جوهرها زائفة لان التوازنات الطائفية تقبل الخلل بمرور الزمن ولان الدين سواء كان اسلاما او مسيحية لم يعد هوية البشر في الربع الاخير من القرن العشرين ، ولان الحال عند المتدينين انفسهم هو ان جوهر الاديان جميعها واحد .

● ان التناقض الفادح الثمن في هذه المعادلة انها تمحو بقية الفوارق بين المواطنين وفي مقدمتها الفوارق الاجتماعية ، فلا يمكن الجمع بين العامل ورب العمل جمعا مصيريا الا في ظل مجتمع نازي عنصري حتى النخاع .

● لا سبيل الى تغيير بنية سياسية على ذات القاعدة الاقتصادية فلا بد من « ثورة ثقافية شاملة » تهدم اساسات

المجتمع العشائري وتحطم اقتصاد الخدمات لتلد مجتمعا رأسماليا واقتصادا وطنيا وسياسة ليبرالية لا مكان فيها للطوائف بل للطبقات الاجتماعية وحقوق الانسان .

بالحوار الصبور الناضج حول هذه الاسس ، تحل العقدة التاريخية ويكتب العقد الاجتماعي ويزول الخوف من وجدان الفريقين لانه لا يعود هناك فريقان .

.. اما العنف فلا يبقى على البحر ولا على الجبل .

٧٥/١١/٢٠

الصيادون المتوحشون .. والحيوانات النـادرة !

أراني منذ البداية اوافق كتاب مذكـرة الرابطـة المارونيـة المقدمة الى السيد كوف دي مورفيل ، على ان « علة العلل » فـي بناء لبنان الحديث هي الصيغة المزورة التي شكلت اساسات هـذا البناء عـام ١٩٤٣ . أراني أيضا أتفق مع كتاب المذكرة حول بعض الوقائع الجزئية التـي تنم عـن جهـل وتخلف بالغين كاستبعـاد شخصية « الراهب » من رواية « البؤساء » حين مثلت على شاشة التلفزيون ، وكاستبعاد الشاعر الكبير الياس أبو شبكة من مقررات احد البرامج الدراسية . أراني أخيرا أشـعر بالامتنـان لكتـاب المذكرة على صراحتهم البالغة في عـرض قضيتهم بهـذه الدرجـة العالية من الوضوح والتحديد .. حتى انني اعتقد بأن المذكرة هـي « البيان » الاوفى ــ المانفستو ــ الذي يجسد تيارا فكريا حقيقيا ، ربما كان اخلص تعبيرا عن واقع بعض الفئات المسيحية اللبنانية ، من البيانات والتصريحات السياسية لقيادات الحزبية المعتمـدة . لذلك كان الحوار المستمر مع جملة الافكار التي تضمنها هذا البيان الاستثنائي في اهميته ، من أولى الواجبات الملقـاة عـلى عاتـق الجميع . انه ليس برنامجا للعمل ولكنه خطة ستراتيجية جديـرة بالانتباه في حـده الاقصى .

ولعل الخطأ الفادح الذي تورطت فيه المذكرة هي انها فـي

بعض المواضيع صيغت باسلوب شارعي مبتذل ، ولكنه خطأ يهون امام المحتوي الذي جسدته الالفاظ المنفعلة غير الموفقة علـــى اي مستوى اخلاقي او حضاري . لذلك لا بد من التوجه مباشرة الـى هذا المحتوى دون التوقف عند اعتاباللغة الهزلية. وسوف نكتشف بالحوار التفصيلي ان هذه اللغة قصدها اصحابها قصدا كساتـر ترابي يغطي المسلحين ويذر الرماد في العيون حتى لا ترى الضحالة والجهل المروعين سواء في قراءة التاريخ او قراءة الحاضر على حد سواء . والمفارقة المبكية المضحكة هي ان « فريق العمل » الـــذي صاغ هذه المذكرة على نحو غير مسبوق في الضحالـة والجهـــل ـ الامر الذي يصل احيانا في بعض المقاطع الى درجة الفضيحة ـ هو نفسه الذي يترنم طول الوقت بالدفاع عـن الثقافـة والتعليم والتربية والحضارة ، ويأخذ على « الاخرين » جهلهم وتخلفهم .

(١)

وليس دفاعا عن لبنان (او عن الشرق كله كما جـاء فـــي البيان) ان نقول بأن المصطلحات السياسية المعروفة فـي المغرب ، كالديموقراطية والعلمانية والبرلمانية والحقوق القانونية وغيرها من التعريفات الدستورية قد عرفت طريقها الى هذه المنطقة من العالم مرات عديدة سواء في ظل الحضارات القديمة كحضارة وادي النيل وحضارة ما بين النهرين او في ظل الحضارة العربية الاسلامية او في ظل عصر النهضة القومية الحديثة . واظنني لست بحاجـة لان اشير على السادة كتاب المذكرة بقراءة العديد مـن المراجع العربية والاجنبية التي تطلعهم مثلا على قانون حمورابي او التشريعات الاسلامية . اما اذا كانوا يقصدون المصطلحات الدستوريـة فـــي ارديتها الحديثة ، فاني اقول لهم ان مصر وحدها عرفت التجربـة النيابية منذ الخديو اسماعيل ـ فضلا عن التبشير المبكر بها منـذ ايام محمد علي على يد رفاعه رافع الطهطاوي ـ معرفـة حميمـة

مناضلة عن حقوق الانسان . وبالرغم من القهر الثيوقراطي للملوك والحكام والاحتلال ، فقد ازدهرت الديموقراطيــة البرجوازيــة (الليبرالية) المصرية حتى منتصف هذا القرن ، حيث انعطفت بها الثورة الناصرية اتجاها جديدا. ولا زال تراث عبد الرازق السنهوري في القانون الدستوري ومكرم عبيد في القانون الجنائي وغيرهما من عمالقة القانون المصريين ، يجسد تجربة ديموقراطية عربية غنيــة بملحمة الصراع بين الحق والباطل وبين الحرية والعبوديــة وبيــن المساواة في الحقوق والواجبات .

ولم يكن لبنان بعيدا عن جوهر التجربة الديموقراطية كمــا يعرفها الغرب . واذا كان قد عرف بعض « التجمعات المسلحة التي ترتكز الى مصالح اقطاعية وقبلية وطائفية » ــ وهذا صحيح ــ فان ذلك ايضا ليس بعيدا عما عرفه الغرب من تجمعات النازية فــي المانيا الى تجمعات الفاشية في ايطاليا . واذا كان الشرق قد عرف الثيوقراطية ــ اي الحكم الكهنوتي المطلق ــ في هذا العصر او ذاك، فقد عرفته أوروبا كلها في العصر الوسيط بكل ما صاحب ذلك العصر المظلم من « محاكم التفتيش » الهمجيــة و « صكوك الغفران » . كما عرفته اوروبا ذاتها في العصر الحديث الى وقت قريب فــي برتغال سالازار واسبانيا فرانكو .

غير ان لبنان لم يكن في يوم من الايام مجرد « تجمعــات مسلحة اقطاعية وقبلية وطائفية » ، فهذه التجمعات التي يشيــر اليها البيان ــ وهنا المفارقة ــ هي التعبير الحزبي عن التيــار الجاري في المذكرة من بدايتها الى نهايتها .. ولكن هناك احــزابا لبنانية او مشاريع احزاب جسدت في مسيرتها نضالا ديموقراطيا علمانيا ، ولعلها اضطرت الى رفع السلاح دفاعا عن هذه المعــاني التي يرفع لواءها الغرب الليبرالي والشرق الاشتراكي جميعــا . ان الحزب التقدمي الاشتراكي في برنامجه المعلن واطره التنظيمية لا يختلف فكرا ومبنى عن الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية فــي

الغرب الا من حيث انخراطه في الواقع اللبناني وتمثله لقضاياه . وهو لذلك حزب ديموقراطي برلماني علماني لا يختلف ستراتيجيا مع « الاقتصاد الحر » و « الليبرالية السياسية » ولكن لهـذا القدر او ذاك من العدل الاجتماعي . والحزب القومي الاجتماعـي في تطوراته الراديكالية الاخيرة مـن اكثر التنظيمات السياسية العربية الحاحا على العلمانية والغاء الطائفية . والحزب الشيوعي اللبناني لا يختلف عن الاحزاب الشيوعية في العالم من حيث النظرة الشاملة لتطور المجتمع دون اغفال للخصائص المميزة لمجتمعـه المحلي وبيئته القومية . والبعثيون والناصريون عـلى اختلافهم يبذلون الدم من أجل الديموقراطية والعلمنة والمساواة .

وهكذا ، فان « التعميم » الذي عمدت اليه المذكرة فـي مقدمتها عن « المصطلحات السياسية » انما يستهدف ــ زيفا ــ تفضيـل الغرب على الشرق (المقصود العرب) ثم المسـاواة ــ للتضليل ــ بين التجمعات المسلحة الطائفية والاحزاب السياسية المنظمة ذات الرؤية الاستراتيجية وأساليب النضال الديموقراطي.

★ ★ ★

.. ثم تخصص المذكرة احدى فقراتها الرئيسية عن الاسلام كمرادف أحيانا للعروبة ، أو ان العروبة مرحلة الى وحدة « الامة » الاسلامية ، لتنتهي بعدئذ الى القول بأن « المسيحيين في الشرق » أقلية مضطهدة تحتاج الى الحماية الاجنبية ، واذا كان الاقبـاط في مصر والاشوريون في العراق والجنوبيون في السودان وغيرهم من الاقليات المسيحية ، قد خضعوا للحـكم الاسلامي كذميين (التعبير لدى كتاب المذكرة يعني مواطنين من الدرجة الثانيـة) ، فان موارنة لبنان يرفضون العيش الا أسيادا في بلادهم .

والدعوى على هذا النحو يقيمها اصحاب المذكرة ضد ثلاثـة متهمين رئيسيين هم الاسلام والعروبـة والمسلمين اللبنانيين . والمتهمون الثلاثة هم في منطق المذكرة متهم واحد هو « الديـن »

الاسلامي سواء كان عقيدة او تشريعا او بشرا يؤمنون به . وتوجز الرابطة المارونية دعواها في خاتمة المذكرة في صـــــورة منحطة وحشية الابتذال (ليس هذا سبابا بل وصفا كما سنرى) . وتقول الخاتمة « الامم المتمدنة والدول الميسورة والشعوب التــي تمتلكها المشاعر الانسانية ، لا توفر جهدا او دعاية لكي تشمل رعايتهـــا العالم الحيواني اضافة لعالم الانسان . لذلك تجـــــدها تنشىء الحظائر وحدائق الحيوانات كملاجىء حيث يمكن لبعض نمـــاذج الحيوانات النادرة والغريبة والمهددة بالانقراض ان تعيش فيسلام بمنأى عن هجمات الصيادين المتوحشين .. فهل نتجاوز الحد اذا طالبنا اقوياء هذا العالم وجميع الذين يؤمنون بقيمة الانسان ، ان يرفعوا من مستوى مثلهم العليا باسم الامم المتحدة ، على ضمان لبنان كملجأ دولي حيث يمكن لبعض النماذج النادرة والغريبة من بقايا الكنائس الشرقية التي هربت من الادغال الاسيوية ان تعيش بسلام وحرية وكرامة بمنأى عن الصيادين الاشد همجية ؟! » .

ونستأذن في تأجيل الجواب على هذا السؤال الى نهــــاية المقال . اما الآن فيهمنا ان نفند الدعوى الضالة المضللة علىالمتهمين الثلاثة ، او بالاحرى المتهم الواحد .

.. والاسلام لم يكن في يوم من الايام ديانة سرية ولا نظامـــا للحكم تحت الارض ، ولكنه كان ذات يوم طويل ارفع الحضـــارات الانسانية شأنا في العالم اجمع ، حين كانت أوروبا المسيحية تذبح العلماء وتنحر العباقرة وتحرق الفلاسفة احياء وتبحث في جنس الملائكة وتفتح صدور الناس بالخناجر لتعرف ماذا يخفون بيـــن حنايا الضمير وتبيع الجنة بالمتر لمن يملك الذهب . كان الاســـلام في ذلك العصر الذهبي للحضارة العربية والممتد من بداية النبوة الى ذروة ازدهار الدولة العباسية ، ثورة تشريعية كاملة ضـــــد مجتمع الرق والوثنيات المتخلفة ، ضد العشائرية والطائفية ومدخلا عقائديا الــى فكرة الوحدة . ولــم يكن فضل العــــرب المسلمين

(هؤلاء الصيادين المتوحشين القادمين من الادغال الاسيوية !!) على اوروبا هو انهم حفظوا لها التراث الاغريقي بل كان فضلهـــم بمؤلفات ابن رشد وابن سينا والخوارزمي والكندي وعشرات غيرهم من الفلاسفة والعلماء انهم شاركوا بنصيب موفور في نقل اوروبا من عصور الظلام الى فجر النهضة الحديثة .

لا نقول ذلك تمجيدا عنصريا للسلف الصالح ، ولا تفضـــلا اعمى على الغرب ، فنحن الآن متخلفون ولا يفيدنا مطلقا الاستغراق في أحلام الماضي العريق . ولكننا نقوله لسببين : الاول هـــو ان الحضارة العربية الاسلامية لم تغير وجه العالم في احدى مراحل التاريخ صدفة ، بل لان العبقرية الانسانية ليست مقصورة عـــلى شعب دون آخر ولا على قارة دون اخرى ولا على اتباع دين دون بقية الاديان .. فاليهود قدموا للحضارة عباقرة عديدين ، كـذلك المسيحية والاسلام ، بل وما يسمى بالـــديانات غير السماوية ، فالهنود والصينيون وغيرهم من شعوب الارض قدمت في هـــذه المرحلة او تلك العبقريات تلو العبقريات . هكـــذا يجيء السبب الثاني وهو ان الحضارة الانسانية مراحـــــل والتاريخ البشري دورات ، فاذا كانت الحضارة العربية الاسلامية قد اصابها التدهور لمئات السنين ، فان ذلك لم يكن قط بسبب مرض عضوي وراثي فطر عليه العرب المسلمون ، وانما بسبب الامراض الاجتماعيـــة والاوبئة السياسية التي لا يخلو منها تاريخ أحـــد الشعوب . ان اوروبا حين سقطت في ظلمة العصور الوسطى لم يكن ذلك حكمـــا ابديا عليها بالموت ، فسرعان ما استيقظت ونمت وتطورت .

هكذا نحن ايضا لسنا استثناء بين الشعوب والحضارات ، على اننا قبل الانتهاء من هذه النقطة لا بد من ان نشير الى ثلاثـة اعتبارات اساسية هي : ان الاسلام كثـــورة وحضارة ، كعقيدة ونظام للحكم ، كـــان تعبيرا فكريـــا وسياسيا عـــن الواقع العربـــي الجديد في اتجاه التغيير الاجتمـــــاعي والوحدة القومية عبـــر

المؤسسات الديمقراطية المستحدثة حينذاك والثقافة التي لازمتها. والاعتبار الثاني هو ان الاسلام اقبل على فراغ هائل وتمزق سخيف، فهو لم يكن غـــازيا لليهودية او المسيحية بل كان غازيا للفقـر والتخلف ، ورغم ذلك فقد كان وريثا مؤهلا لاستيعاب اليهوديـة والمسيحية في صلب ايمانه ومعتقداته وتشريعاته . وربما كان من أعظم تقاليد الفكر العربي الاسلامي هو انفتاحه على الحضـــارات الاخرى وفي المقدمة منها الحضارة اليونانية . والاعتبار الثـالث هو ان الاسلام في ذاته لم يكن حائلا دون قيام الثورات والتمردات العقائدية الاجتماعية كثـــورة الزنج والقرامطة بل والخـــوارج والمعتزلـة .

هل كان المسلمون « أمة » ؟ هل يمكـــن ان يكونوا كذلك ؟ القرآن يكرر القول « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثـــى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . ويخاطب غير المسلمين « قل : يا اهـل الكتاب تعالـوا الـى كلمـة سواء بيننا وبينكم » . كذلك « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قـوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء مـــن نساء ، عسى ان يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالالقـاب . بئس الاسم : الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هـــم الظالمون » ، و « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتـا غيـــر بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » و « لقد كرمنا بني آدم » . . ولم يقل بني الاسلام او امة المسلمين .

رغم ذلك فقد كانت كلمة « أمة » في ذلك الزمن البعيد تعني شيئا آخر غير « الامة » بمعناها الحديث : أين الان ما كان يسمى بالعالم ــ لا الامة ! ــ المسيحي ؟ أين ذهبت الامبراطورية الرومانية؟ أين ذهبت فتوحات نابليون ؟ ألم يكن عصر النهضة الاوروبية هـو نفسه عصر القوميات الاوروبية البازغة ؟ وحـــين رات انكلترا ان ارتباطها العقائدي بالكرسي البابوي يحول دون قوميتها ، هـــل

حالت المسيحية دون الانشقاق البريطاني وتاسيس الكنيسة الانجليكانية ؟ القومية في العصر الحديث هي التكوين الحضاري الارقى من الانتماء الديني في العصر الوسيط .

لذلك تبلورت القومية العربية ـ بالضبط ـ في مواجهة الجامعة الاسلامية . ليت كتاب الذكرة المارونية يعيدون قراءة التاريخ ليضعوا ايديهم على هذه المفارقة البالغة الاهمية ، وهي ان العروبة ـ على عكس ما يتصورون تماما ـ كانت ثمرة النضال ضد الخلافة الاسلامية والسلطنة الاسلامية ، ولم تكن على الاطلاق ـ من قريب او بعيد ـ في مواجهة المسيحية او المسيحيين . بل ان روادا عظاما للفكرة العربية كانوا من بين المسيحيين العرب . من مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ايضا . ولا شك ان للاسلام كثافة وحضارة فضله التاريخي على فكرة التوحيد القومي العربي ، ولكن هذا الفضل يظل بمنأى عن الرسالة الدينية للعقيدة الاسلامية ، والعرب المعاصرون ـ المسلمون منهم على وجه التحديد ـ لا يشعرون في أعماقهم بأية قرابة قومية تصلهم بالاتراك او الفرس او الباكستانيين او الشعب الاندونيسي ، ولكن المغربي اذا زار العراق لا يشعر انه غريب ولا اللبناني حين يذهب الى مصر ولا السوداني حين يتوجه الى سوريا او الكويت . ولكن شعوره يختلف بالقطع اذا زار بنغلادش او البانيا . والشعور بطبيعة الحال ليس مقياسا وحيدا لتكوين الامم ، غير انه الظاهرة النفسية الفريدة التي تبلور خلاصة التاريخ والارض والحضارة الواحدة .

ولا بد في هذا الصدد من الاقرار بأن المسيحية العربية لم تفلت من وباء التخلف الذي اصاب الشرق الاسلامي ، فلم تتطور بما فيه الكفاية ولم تسهم بالتالي في اغناء الفكرة العربية. لقد دافع عن هذه الفكرة افراد وموجات استثنائية ، على صعيد اللغة والادب والفكر السياسي ، ولكن المساهمة الحضارية الشاملة التي كان يمكن للمسيحية العربية ان تقدمها ـ كنظير للعطاء الاسلامي ـ لم تصل حتى هذه اللحظة الى المستوى المطلوب . وفي

المقابل لم يبذل القوميون العرب جهدا خلاقا ونضاليا ومبدعا في المحيط المسيحي العربي ، للارتفاع بمستوى التفاعل من مرحلة اللغة والادب والسياسة الى مرحلة الانصهار القومي والحضاري الشامل .

كذلك ، فان التخلف العربي المروع والتقاليد غير الديموقراطية في اسلوب الحكم قد انعكس ذلك كله على بعض النصوص الدستورية غير العلمانية ، كالقول مثلا بدين للدولة او ان رئيس الدولة ينبغي ان يكون من دين معين او ان كتابا دينيا يعد هو المصدر الرئيسي للتشريع .

ولكن هذا التوصيف العام لاوضاع الوطن العربي ظالمة في المقدمات والنتائج على السواء .. فالحكم الاوتوقراطي في هذا البلد او ذاك هو احد اسباب الدكتاتورية وليس الاسلام ، وهذا الحكم العسكري في هذا البلد او ذاك هو احد اسباب القهر وليس الاسلام .

ورغم ذلك ، فباستثناء قطر عربي واحد او قطرين على الاكثر ، ليست هناك حكومة دينية في اي بلد عربي ، ليست هناك حكومة اسلامية رغم النص على دين الدولة الرسمي او دين رئيس الدولة . ان القوانين الوضعية ـ وبالذات الفرنسية واحيانا الانكليزية ـ هي الشريعة السائدة على مختلف الدساتير العربية، باستثناء قوانين الاحوال الشخصية . وفي هذه القوانين ذاتها الخيار متروك لغير المسلمين بين الاخذ بشريعتهم او بالشريعة الاسلامية ، كما يريدون هم .

ليست هناك سوى دولة اسلامية واحدة في العالم العربي . هذه هي الحقيقة التي تعمى بعض العيون عن رؤيتها . ومجمل القوانين والدساتير العربية قد تميز بين الطبقات ، ولكنها لا تميز مطلقا بين الطوائف والاديان . بل ان اول دستور للثورة العرابية في مصر قد خلا من دين للدولة ، كذلك كان دستور دولة الوحدة المصرية السورية خلوا من اي نص بهذا المعنى . بالاضافة الى ان

ورود هذا النص في الدساتير العربية الحالية لا يمنح المسلم أي امتياز عملي في الحياة الاجتماعية او السياسية أو الثقافية كذلك. فان التعليم الديني في المدارس العربية هو احيانا مادة اختيارية واحيانا اخرى مادة اجبارية ولكنه في الحالتين ليس مادة للرسوب والنجاح ، وفي الحالين ايضا يتعلم المسلمون دينهم والمسيحيون دينهم بغير قسر ولا اكراه .

وتشير المذكرة الى وضع الاقليات المسيحية في الوطن العربي ، وبالذات الى جنوب السودان وأقباط مصر والاشوريين في العراق . ولا يدري المرء من اين جاء كتاب المذكرة بمعلوماتهم عن « الخضوع والعبودية » فان هذه « الاقليات » رغم أنظمة الحكم القديمة والجديدة الثيوقراطية والعسكرية والمدنية ، ليست اقليات بالمعنى المفهوم لهذه اللفظة ، وانما هي شرائح اجتماعية تنتمي كل منها الى طبقات المجتمع دون تفرقة أو تمييز ، يسري عليها ما يسري على هذه الطبقات من تطور او تخلف . هكذا نجد في التاريخ المصري مثلا رئيسا خائنا كبطرس باشا غالي الى جانب العديد من الرؤساء الخونة كاسماعيل باشا صدقي وابراهيم باشا عبد الهادي. كذلك نجد في التاريخ المصري مناضلين وطنيين بارزين كمكرم عبيد وويصا واصف وسينوت حنا جنبا الى جنب مع المناضلين سعد زغلول ومصطفى النحاس وجمال عبد الناصر.. فالمجتمع المصري مجتمع طبقي لا يعرف الطائفية ، لا يعرف العمال من فيهم المسيحي ومن المسلم بل يعرفون ويسلكون بصفتهم عمالا فحسب ، كذلك البرجوازيون والاقطاعيون ، وحتى عملاء الاستعمار . وفي العراق حيث هناك اقليات قومية لا اقليات دينية فحسب ، يتساوى المواطنون امام القانون والدستور ، بل وتسمح الحكومة المركزية في صلب قرارات مجلس الثورة الحاكم ، بتعليم اللغات السريانية والكلدانية والكردية جنبا الى جنب مع العربية في المناطق ذات الكثرة السكانية المنتمية الى

هذه اللغات ، وتنشر لهم المجلات والكتب وتفسح لهم المجال في الاذاعة والتلفزيون . وينخرط هؤلاء المواطنون في الحياة السياسية للبلاد على قدم وساق مع بقية المواطنين من ابناء الدين السائد والقومية السائدة .. فهم بعثيون وشيوعيون وديموقراطيون ، وليسوا اقليات تعيش في الجيتو .

هذه هي الحقيقة وغيرها افتراء .. فالوطن العربي لا تحكمه الدولة الدينية ، والازهر لا يمثل سلطة مدنية على الاطلاق ، وحتى في السعودية ليس الملك خليفة المسلمين . والطابع الثيوقراطي أو العسكري في بعض الدول العربية لا يعود الى وحدة الدولة والدين بقدر ما يعود الى عاملين رئيسيين هما : سيطرة الطبقات — لا الطوائف ! — الرجعية على مقاليد الحكم ، وهيمنة التخلف الحضاري على مقاليد الحياة . ولا ادل على صحة هذا التشخيص من انه في أحشاء هذه الدول والنظم والمجتمعات تظهر الحركات الثورية بين حين وحين ، تعبر عن طموح طبقات اخرى — لا طوائف! — في تسويد العلمنة والديموقراطية والتقدم الاجتماعي .

.. فالعرب امة واحدة (ليست هي «الامة الاسلامية») متعددة الطبقات والمصالح الاجتماعية ، والمسيحيون من ابنائها موزعون كغيرهم من ابناء الاديان الاخرى بين هذه الطبقات والمصالح ..

فأين يقع لبنان من هذه الامة ؟

(٢)

لبنان أحد خيوط النسيج العربي ، يختلف ويتفق مع بقية الخيوط ، ولكنه في النهاية احدها سواء بالخلفية التاريخية او البيئة الجغرافية او التكوين الحضاري او الشمائل النفسية . ليست اللغة المشتركة وحدها او حسن الجوار هو الخيط الذي يربط لبنان بأمته العربية ، وانما الجذور التاريخية البعيدة التي

توغل في الزمن الى بداية التاريخ المكتوب هي التي ربطت ــ علــى سبيل المثال ــ بين مصر الفرعونية والساحـل الفينيقـي وحضارة وادي النهرين . واذا كانت اليهودية لم تستطع تأصيل جذورها في باطن التربة الحضارية العميقة والواسعة لهذه المنطقــة فلان جوهر دستورها « شعب الله المختار » قد حال دونها وهــذا التأصيل . غير ان المسيحية التيبزغت في ارض فلسطين منــد الفي عام كانت اسهاما غنيــا بنــور التوحيد ، حتــى ان الكنيسة الشرقية ظلت لامد طويل تعني بالدقة هذه البقعة الممتدة من شمال افريقيا الى جنوب الحبشة ومن وادي النيل الـى وادي الرافدين مرورا من ساحل البحر المتوسط حيث لبنان وسوريـا وفلسطين الى قلب الصحراء الاسيوية حيث اليمن . كانت المسيحية الشرقية لذلك حدودا حضارية وجغرافيــة تفصل بين كنيستنــا القوميــة ــ ان جاز التعبير خاصة عن النشأة الوطنيةللكنيسة الارثوذكسيةــ والمسيحية الغربية التي ولدت في البداية كقرار سياسي من الملك قسطنطين وانتهى بهــا الحال لان تصبح « امبراطورية » تعيــد تصدير كنيستها الـى الشرق فتصيب عصفورين بحجـر واحد : يستولي الامبراطور المزدوج الرأس (الملك والبابا) عــلى خيرات البلاد المادية ويشق صفوف المسيحية الشرقيــة . هكـذا نبتت الكاثوليكية في ارضنا ابان العصر الامبراطوري المسيحي الغربـي ، وهكذا لحقت بها البروتستانتية فـي عصر الامبريالية والاستعمار (المانيا اللوثرية فالولايات المتحدة وبريطانيا) وهكــذا ايضا تـم الانشقاق التاريخي فـي ولاء الكنيسـة الشرقيـة وجمـود العطاء الحضاري للمسيحية العربية .. فبعــد ان كانت مرشحة لاسهام اعمق في التوحيد القومي ، تمزقت بهـا الانتماءات بين بابا رومـا وملوك فرنسا والسنودس الانجيلي الاميركي والكنيسة الانجليكانية في بريطانيا . وتقوقعت الارثوذكسية العربية الاصيلة فـي اردية التخلف باستثناء مسيرتها السياسية فـي النضال الوطني الذي

تجسده اساسا الكنيسة المرقسية في مصر .

لذلك كان « الفراغ » الذي ملأه الاسلام ، على الصعيد القومي والحضاري معا .. فرغم فتوحاته التي قرعت ابواب اوروبا ، فانه كان اول مبادرة جذرية في لم شمل هذه المنطقة التي بعثرت قواها الغزوات اليونانية والرومانية الوثنية والمسيحية الغربية جميعا . وحتى حين اصبحت « تركيا » هي معقل الاسلام وسدة الخلافة ، لم يتجسد العطاء الاسلامي الا في بيئة حضارية محددة جغرافيا من شمال المغرب الى جنوب العراق : ذات الحيز الذي امتلكت ناصيته المسيحية الشرقية زمنا .

لم يكن ذلك التراكم صدفة او عبثا ، فالتفاعل الحضاري بين شعوب المنطقة الممتدة من المحيط الى الخليج فعل فعله عشرات القرون ، وكان لا بد من ان يثمر خصائص مميزة ينفرد بها السكان عن غيرهم من المجموعات الحضارية الاخرى . وكان لا بد لهذه الخصائص المميزة من ان تتبلور مع الازمنة المتعاقبة في بناء « امة » متنوعة السمات متقاربة الملامح ، انتقلت بالاسلام من مرحلة التفاعل الحضاري الى مرحلة وحدة المصير .

ولكن المثير في مجرى التاريخ ان ما وقع العرب من المسيحية الغربية وقع لهم ايضا من الاسلام التركي ، فكما ان الغرب استورد المسيحية من الشرق لاسباب سياسية ثم اعاد تصديرها الينا بعد ان اصبحت روما – وليست القدس او الاسكندرية او انطاكية – هي قلب المسيحية النابض (!!) ، كذلك فعل الاتراك بعد ان اخذوا الاسلام العربي واصبحت الاستانة – وليست مكة او بغداد او دمشق او القاهرة – هي قلب الاسلام النابض . والبابا هناك هو الخليفة هنا . والاستعمار الذي ارتدى ثوب المسيح مرة ها هوذا يرتدي ثياب الاسلام مرة اخرى . وكما شقت الكنيسة الغربية المسيحية الشرقية ، كذلك فعل الاسلام العثماني واكثر فقد تدهورت في عهده الدولة الواحدة وتأسست الدويلات الطائفية

والعشائرية المتحدة .

★ ★ ★

لم يكن الجبل اللبناني طيلة ذلك الوقت قطعة من السماء الاوروبية او الهندية او الاميركية او الصينية او الاسترالية ، وانما كان جزءا لا ينفصل من قطعة الارض العربية بجبالها وسهولها وتلالها ووديانها . لا ينفصل بالجغرافيا ولا بالتاريخ ولا بالاقتصاد ولا بالسياسة ولا باللغة ولا – حتى ! – بالدين . لقد عرف الجبل اللبناني كغيره من جبال العراق والجزائر ، وعرف الساحل اللبناني كغيره من سواحل مصر وسوريا وفلسطين ، مختلف الصراعات والتراكمات التي شكلت ملامح هذه الامة بالوحدة والتنوع في آن . ربما كان « التاريخ » هو الشاهد الذي لا سبيل لدحض شهادته ، ولكن « التراث الشعبي » – من امثال وأغان ورقصات وحواديت – هو الضمير الذي يدعم هذه الشهادة باقوى البراهين والادلة . لبنان الفينيقي لم يكن معزولا قط عن مصر الفرعونية (واسألوا ببلوس عن ايزيس) ولا عن سومر وبابل وآشور وكنعان (واسألوا جلجامش وهنيبعل وتموز والعنقاء) . لبنان المسيحي لم يكن معزولا عن كرسي انطاكية ومجمع خلقدونية ولا عن كرسي الاسكندرية وبيزنطة والمجمع المسكوني . لبنان المسلم لم يكن معزولا عن الامبراطورية العثمانية . لبنان العربي الحديث لم يكن بعيدا عن الحروب الصليبية وصلاح الدين ولا عن فتوحات محمد علي وابراهيم باشا ولا عن مواكب الاستعمار الغربي المتلاحقة الى يومنا من البريطانيين الى الفرنسيين الى الاميركيين .

نعم ، كان لبنان في ذلك كله يصغر ويكبر وينضم وينعزل حسب الاهواء السياسية لهذه الامبراطورية او تلك ، ولكنه ظل دوما بجبله وبحره جزءا لا ينفصل (لا جغرافيا فحسب بل تاريخا واقتصادا وسياسة وحضارة) عن مصير هذه المنطقة (الامة) من العالم .

لذلك كان من الطبيعي ان تنعكس المراحل الرئيسية الثلاث لحضارتنا على لبنان ، واعني بها المرحلة المسيحية والمرحلة الاسلامية والمرحلة العربية الحديثة . اما المسيحية فقد انعكست بانشقاقها التاريخي بين الشرق والغرب ، فاستطاعت المذاهب الاجنبية عن الكنيسة الوطنية ان تقيم لها رأس جسر الى الشرق الاوسط بواسطة بعض المسيحيين العرب في لبنان ، كما حدث تماما في مصر وسوريا وفلسطين والعراق والسودان . وكان من الطبيعي ان تتداخل المصالح الاقتصادية والسياسية بين هذه القلة من المسيحيين العرب والدول المصدرة للمسيحية الغربية . وقد كان ذلك ميلادا لامتيازات الحماية السرية والعلنية، المادية والمعنوية. كان ميلادا لتقدم هذه الفئات المرتبطة بالخارج عقائديا في مختلف شؤون الحياة الاقتصادية والثقافية . اما الكنيسة الوطنية في سوريا ولبنان ــ واقصد بها الارثوذكس ــ فكان نصيبها التخلف واحيانا الانطواء على الذات وفي جميع الاحيان مشاركة غير المسيحيين قدرهم . وانعكست المرحلة الاسلامية على لبنان انعكاسا يختلف عما جرى في مصر مثلا . كان الفتح الاسلامي لمصر تحريرا لها من الاخطبوط الروماني على صعيد الاستقلال الوطني وتحريرا لها من الظلم الاجتماعي فاعتنقت الغالبية العظمى من فقراء مصر الدين الجديد . واصبحت الكنيسة القبطية والمسجد الاسلامي معقلا واحدا للنضال الوطني والاجتماعي . ولكن المسيحية اللبنانية رات في الاسلام منذ البداية « غـزوا » لا محورا للتوحيد القومي . وقد اسهم في ترسيخ هذا المعنى تدهور الدولة الاسلامية وانحطاطها الى ما آلت اليه من تمزق وتفتت وتفسخ فبعثت من جديد دعائم القبلية والعشائرية والطائفية التي ظهر الاسلام في البدء للقضاء عليها . وكان من الطبيعي للحكم المطلق والمتخلف معا ان يستخدم صنوف الاضطهاد والقهر على اختلاف انواعها ، وفي المقدمة منها الاضطهاد الديني والقهر العنصري . لم يكن المسيحيون

بالطبع هم وحدهم المضطهدون ، فقد نالت طوائف اسلامية عديدة نصيبها من القهر . ولكن اضطهاد المسيحيين كـان واضحا وبارزا وفي المقدمة . لم يكن الاسلام هو السبب ولا كانت العروبة ، وانما كان تدهور الدولة الاسلامية منذ نهاية العباسيين ، هو الـذي اقام نظما منحطة للحكم « الاسلامي » . وبلغت المأساة ذروتها في الحكم العثماني الذي ابتذل الاسلام وضرب العروبة ، فكان من الطبيعي ان تنال المسيحية والمسيحيين نصيبها المقدور مـن العذاب والتنكيل . وبالرغم من ان بعضا من المسيحيين السوريين واللبنانيين قد رأوا في العروبة حينذاك خلاصا مـــن الاسلام العثماني ، الا ان غيرهم — خاصة سكان الجبل اللبناني — قد ترسخ في ضمائرهم التوحيد بين الاسلام والعروبة ، بين حكم الدولة الاسلامية التـي تدهورت وحكم الامبراطورية العثمانية التي طغت وتجبرت ، فاصبح العربي يرادف المسلم وكلاهمـــا ينشد الفتك بالمسيحيين والقضاء عـلى المسيحية . في مثل هذا المناخ المعقد كان لا بد للانتماء الديني الى الغرب والولاء الروحي لاوروبا ان يقـــوى ويزدهر بفضل « راس الجسر » الذي شيدته الكنيسة الغربية وشقت به الصف المسيحي العربي . هكذا اقبل الصليبيون في حملات متتابعة ، وكان ابنـاء الكنيسة الغربية في المشرق ، احد اهم الجسور التي عبروا فوقها الى القدس . اما ابناء الكنائس الوطنية فقد وقفوا جنبا الـى جنب مع العرب المسلمين ، في الذود عن الديار . ولكن رد الفعل الاكثر شعبية لم تكن لديه القدرة عـــلى الفـرز والتصنيف والتبويب ، فظهرت جولات جديدة من الصدام بين المسيحيين والمسلمين وكان ايقاعها الرئيسي في لبنان يتردد صداها بيـــن الساحل والجبل . وبالرغم من اندحار الصليبيين نهائيا او بسبب ذلك ، فقد انغلقت المسيحية اللبنانية ذات الولاء الديني الخارجي عـلى نفسها اكثـر فاكثر ، وانفتحت فحسب على شهوات اوروبا المسيحية (التي لم تعد كذلك منذ فجر النهضة !!) في غزو الشرق . ولم يكن الهوس

الديني وحده هو سبب ذلك الانغلاق عـن المحيط العربي والانفتاح على ما وراء البحار ، وانما كان النشاط الاقتصادي المشروع وغير المشروع هو المضمون الحقيقي للارتباط بالخارج مما كان لـه ابعد الاثر في تقدمهم خطوة ابعد في مختلف مجالات التجارة والثقافة . وعلى العكس من ذلك تماما كان حال المسلمين والمسيحيين مـن ابناء الكنيسة الوطنية فقـد اختلفوا مـع « الخارج » الاسلامـي ــ اعني السلطنة العثمانية ــ وناضلوها بالسلاح ولـم يستفيدوا قط من الارتباط الديني بها لا من حيث التقدم المادي ولا من حيث التقدم الحضاري والثقافي ، بل كانت الخلافـة العثمانية اسوأ حلقات التاريخ الاسلامي على الاطلاق .

وقد انعكست المرحلة العربية الحديثة على لبنان منذ اكثر من قرن ونصف ، اي ابان تطور البرجوازيات الاوروبية الـى اعـلى مراحل الراسمالية : الاستعمار . وايضا ابان المداخلات الفرنسية الانجليزية مع الباب العالي ، هذه المرحلة التـي عرفت « النهضة » العربية الحديثة ــ والاسهام اللبناني كان فيها طليعيا وبارزا ــ هي نفسها المرحلة التي عرفت اعقد الاشكال التاريخية لنمو القوميات . . ذلك انه منذ مطلع « النهضة » حتى عصرنا الحاضر مرورا بالحربين العالميتين والمتغيرات الدولية التي طرات عـلى الخريطة البشرية خاصة منذ نهاية الحرب الثانية ، تبـلورت بصورة شاذة وبالغـة الاستثناء القضية العربية على هـذا النحـو المتناقض : فكافة المقومات الموضوعية للامة متوفرة دون التحقق الذاتـي لوحدتها القومية . كان التاريـخ والارض والحضارة والتكويـن النفسي واللغة ، كلها عناصر متوافرة ، الا الاقتصاد المشتـرك وبالتالـي السياسة . هكذا كان الصراع بين الاستعمار الغربـي و « الوطن » العربي منذ القرن التاسع عشر الى يومنا . وكان لبنان ــ من بين الاقطار العربية كلها ــ تربـة خصبـة للصراع بسبب التراكمات السلبية على طول التاريخ المسيحي والاسلامي للمنطقة . وقـد

اكتشف الاستعمار الغربي الحديث ـ خاصة الفرنسي ـ فوق الارض اللبنانية جسرا جاهزا معدا للعبور الى الشرق ، هو تلك الفئات المسيحية التي عانت الويلات وربحت الامتيازات وارتبطت بالولاء للكنيسة الغربية . وبينما كان تصحيح التاريخ يقتضي ـ بالاستقلال عن دولة الانتداب ـ عودة لبنان الى بيئته الطبيعية جغرافيا وحضاريا واقتصاديا وسياسيا في اتجاه التوحيد القومي العربي وزوال الدويلات العشائرية والطائفية التي كرسها التخلف الاسلامي والاستعمار المسيحي. فان ما وقع عام ١٩٤٣ كان ترسيخا لهذه التجزئة تحت راية « الحل الوسط » المزور ، وهو حرمان اللبنانيين من انتمائهم القومي الاصيل ، والسماح لارضهم بأن تكون « ممرا » للاستعمار الجديد الى آبار النفط والمواقع العربية الاستراتيجية ، في مقابل « وهم » بالمشاركة الطائفية في قيادة الدويلات الفيدرالية الجديدة والمسماة زيفا بلبنان الكبير ، وهو ليس اكثر من لبنان الصغير اقتصاديا وسياسيا وان بدا غير ذلك جغرافيا وسكانيا . هل كان يمكن لهذه الصيغة المفتعلة ان تدوم في خط مضاد لحركة التاريخ وتطور المجتمع ومتغيرات العالم الحديث ؟ اجابت الاشهر الثمانية الماضية بالنفي القاطع .

كذلك اجابت المذكرة المارونية الى الوفد الفرنسي ، لذلك يتفق المرء معها تماما في تشخيص الميثاق والدستور وغيرهما من اتفاقيات « الاستقلال » عام ١٩٤٣ . ولكن اصحاب المذكرة يرون ان البديل هو العودة الى الجبل اللبناني ، الى لبنان الصغير تحت الحماية الاجنبية . وهو كما نلاحظ على المجرى التاريخي ليس « بديلا » وانما هو امتداد للبنان الراهن بصورة اخرى ، تلتقي في استقامتها المنطقية مع المشروع الاستعماري العريق « اسرائيل » حيث المزيد من تمزقات الجسم العربي (ارضا ومصيرا ومصالح وبشرا) والمزيد من رؤوس الجسور وممرات العبور الاستعماري الى ثروات الامة الطبيعية والبشرية . ان دفاعنا عن الحدود

الراهنة للبنان في مواجهة « التقسيم » المزعوم ، ليس دفاعا عن « داخل » هذه الحدود التي ادت في خاتمة المطاف الى انتهاك حرمة الوطن اللبناني شمالا وجنوبا . ان دفاعنا عن الحدود الراهنة للبنان في مواجهة التقسيم — المناورة ، ليس دفاعا عن المضمون الاقتصادي والسياسي للبنان الحالي (الذي هو بالدقة مضمون لبنان الصغير) فنحن نعلم يقينا ان الحرب الوقائية طيلة الاشهر الثمانية الماضية وما صاحبها من طروحات متنوعة لمشروع التقسيم ، تستهدف اولا واخيرا الابقاء على لبنان الراهن كما هو ، وليست ورقة التقسيم الا مناورة سياسية بارعة للابتزاز . ان دفاعنا عن الحدود الراهنة للبنان في مواجهة هذا الابتزاز ، ليس تراجعا تكتيكيا عن الانتماء القومي والحضاري العربي للبنان ، فجوهر المعركة الراهنة هو هذا الانتماء الذي تسيء المذكرة المارونية التعبير عنه حين تقول في غير مواربة « وجوهر القضية هو الاختلاف الاصلي — ونكاد نسميه وراثيا عضويا — حول مفهوم لبنان بين الاطراف المشاركة » . ولسنا ندري حقا ماذا يقصد كتاب المذكرة بالاختلاف الوراثي العضوي ، الا اذا كانوا لا سمح الله ينحدرون من اصلاب غير عربية ، من القوات الصليبية والفرنسية مثلا . وليس هذا صحيحا، فالموارنة انفسهم — وليسوا المسيحيين فحسب — هم عرب مثل غيرهم سواء بالدم كما يؤكد بطرس البستاني او بالتفاعل الحضاري بين شعوب المنطقة كما نرى نحن .

اننا اذ ندافع عن الحدود الراهنة للبنان في مواجهة « البتر » الذي تنادي به المذكرة لدرجة الاستشهاد في سبيله ، ليصبح لبنان وطنا لا بالمعنى الجغرافي ولا بالمعنى الفيدرالي الطائفي ، وانما بالمعنى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للمواطنة . ان فيدرالية الطوائف العشائرية — النظام اللبناني الراهن — هي التي تسمح بانتهاك الحدود الوطنية للبنان . هذه الفيدرالية ايضا هي

التي تعمي بعض العيون اللبنانية عن الخطر الحقيقي وهو اسرائيل، وتفتح هذه العيون على اخرها ارؤية الخطر الوهمي في الفلسطينيين . ان هذه الفيدرالية هي التي ورطت كتاب المذكرة المارونية في اخطاء مدمرة على الصعيد السياسي والتاريخي والاخلاقي والوطني ، نذكر بعضها في ما يلي :

● من الجنوح الانفعالي المتطرف مثلا القول بأن الموارنة وحدهم يحبون لبنان ويذودون عنه اكثر من اية طائفة اخرى ، فالتاريخ النضالي للبنانيين ضد الغزوات الصليبية والعثمانية والفرنسية لا يقدم دليلا قويا على ذلك الحب الملتهب والتفاني المستشهد . ربما قال التاريخ شيئا نقيض هذه « الاغنية » اللهم الا اذا كان الحب الوطني يعني الانطواء في الجبل والحماية الاجنبية ودعوة الاساطيل الغربية الى الشاطىء اللبناني ، والدعوة التي توجهها المذكرة ذاتها الى « اقوياء العالم » للتدخل . مع ذلك نقول ان اللبنانيين جميعا بمختلف طوائفهم بذلوا الدم غاليا في مواجهة الاستعمار سواء كان صليبيا او عثمانيا او اسرائيليا .

● تعترف المذكرة بالامتيازات المارونية مبررة ذلك بأنها مكافأة مشروعة للاضطهاد التاريخي . وفوق أن نغمة الاضطهاد هذه تحتاج الى مراجعة فلم ينج منه المسيحي والمسلم ولا الكاثوليكي او الارثوذكسي او الشيعي او الدرزي ، بل كان الموارنة بالانشقاق المسيحي والارتباطات الخارجية هم الذين استفادوا الى حد ما من الاضطهاد والمكافآت الاقتصادية والثقافية .. فوق ذلك كله نقول اننا لم نسمع قط عن مكافأة دستورية تعطى لاحدى الفئات من البشر مقابل الذكريات ، سوى المكافأة التي نالها اليهود بتأسيس دولة اسرائيل !!

● تقول المذكرة ان « الاستقلال » كان انتصارا لبريطانيا المؤيدة للعرب على فرنسا المؤيدة للموارنة . وليس هذا التصور الا قلبا للحقائق راسا على عقب .. فبالرغم من ان بريطانيا لم تكن

بعيدة عن تأسيس الجامعة العربية ، الا ان ذلــك كان امتصاصا للشعور القومي العربي المتعاظم . والجامعة بذلك ومــن احـدى الزوايا هي احد السدود التي اقيمت فــي وجه الوحدة العربية . اما فرنسا فهي ام « الاستقلال » عام ١٩٤٣ بغير زيادة ولا نقصان هي صاحبة المشروع الماروني في توسيع المر اللبناني الى الشرق ، وهو ايضا احد السدود التي اقيمت في وجه الوحدة القومية .

● لا مفتي المسلمين ولا بطريرك المسيحيين ينبغي ان يدرجا في عداد الزعماء السياسيين الا في دولة ثيوقراطية لا تفصل الدين عن الدولة . وبينما الاسلام يخلو مــن الزعامـة الدينية وسلمها الكهنوتي ، فان الكنيسة التاريخية ـ لا كنيسة المسيح ـ هي التي جمعت بين الدين والدنيا . واذا كانت اوروبا المسيحية قد فصلت الدين عن الدولة فان لبنان الحضاري الفريـد لا زال يدمج الدين بالدولة . من الثيوقراطي اذن ؟ العرب وحدهم ام اللبنانيون مـن بينهم ايضا ؟

● يتباهى كتاب المذكرة بالاسماء اللبنانية الكبيرة فـي الفكر العربي الحديث كاليازجي والبستاني ، واضيف مـن عندي شميل وجبران وانطون وحداد ونعيمة . ولكن السؤال : هـل ينتسب اصحاب المذكرة الى فكر هؤلاء الرواد العظام ، هؤلاء الذين ناضلوا عن العروبة والعلمنة والديمقراطية هم العطــاء اللبنانـي الاصيل والفريد والعظيم . اما الذين يقولون « هذا الشكل المعاصر للقتـال بين الاخوة يميز العرق العربي منــذ ان وجـد العرب » فانهم ينتسبون الى السلالة النقية المنحدرة من قابيل الى هولاكو الــى هتلـر .

● تزعم المذكرة ان لبنان يسمح للايديولوجيات الممنوعة فـي البلدان العربية وان لبنان وحده يعرف تعدد الاحزاب . ومن المثير حقا ان اكثر البلدان رجعية واتوقراطية وثيوقراطية يعرف تعـدد الاحزاب مــن اقصى المغرب الــى اقصى المشـرق ، وان اكثر

الايديولوجيات تطرفا تطرح كتبها ومنشوراتها علـى ارصفة معظم الدول العربية .

● ترى المذكرة ان القتال يدور « لاسلمة » لبنان ونزع طابعه المسيحي . وقد بحثت عبثا في برامج الاحزاب والمنظمات المقاتلـة وفي تاريخها وفكرهـا وسلوكها فلـم اجـد سوى العلمنـة والديموقراطية والعدل الاجتماعي هي « الاهداف » التي يناضلون من اجلها . كما اكتشفت بغير عناء ان هـذه الاحزاب والمنظمات وحدها تضم ابناء جميع الاديان والطوائف ، ومـن بين قادتهـا مسيحيون مقاتلون بارزون .. بينما لا يحدث العكس فـي الصف الاخر الذي تدافع عنه المذكرة ، فلماذا ؟ سؤال .

★ ★ ★

وبعد .. فقد شبهت المذكرة العرب والمسلمين بانهم صيادون متوحشون ، وان بعضا من المسيحيين الذيـن تتكلم باسمهم هـم حيوانات نادرة تحتاج الى الحماية والرعاية .

ليكن ، فالصيادون المتوحشون بشر هناك امل فـي ارتقائهم وترويضهم . اما الحيوانات فمهما كانت نادرة لا ترتقي مطلقا الـى مرتبة الانسان !!

٢٤ و٧٥/١٢/٢٥

تيــار جديــد
في الفكر المسيحي العربــي

حين اصدر سينودس الروم الكاثوليك في لبنان بيانه الخاص بقضية الاب جريجوار حداد مطــران بيروت ١٩٧٤/٥/٢ نشــرت الصحف النبأ في مانشتات صفحاتها الاولى . وكنت قــد عالجت الموضوع في مقالين متتاليين بمجلة « الدستور » ، فسألني بعض المثقفين المصريين الذين تصادف وجودهم في بيروت : اننا لم نفهم شيئا ، ما اهمية هذه الحكاية ؟

والحق ان هذا السؤال بحد ذاته يوجز مشكلة ــ حتــى لا اقول قضية ــ بالغة الحساسية والتشابك والتعقيد ، وهي تجاهل الثقافة العربية لافكار وقيم واتجاهات بضعة ملايين من المسيحيين العرب تشكل انفعالاتهم الاجتماعيــة ــ ايجابــا وسلبــا ملمحــا لا يمكن انكاره على وجه امتنا الحضاري .

ولا شك ان المثقفين العــــرب التقدميــين مــن المسيحيين مسئولون الى حد كبير عن هذا الوضع الغريب ، فهــم يتصورون « التقدمية » في الاغلب انها ابتعاد عن القضايا الطائفية والمسائــل الدينية ، رغم انها جزء من الواقع الاجتماعي الذي يعيشونه ، ويجدر بهم مواجهته . والمثير للدهشة حقا ان الكاتب المسيحي فــي مصر مثلا يحيا طفولته وصباه ــ وربما بقية عمره ــ في اسرة مسيحية وبيئة قبطية ، ولكنه حين يكتب قصة او مسرحية لا يشير مــــن

قريب او بعيد الى هذه البيئة الاولى وكأنه يخجل من انتمائه اليها بحكم شهادة الميلاد او هو يهرب منها دفعا لاي سوء فهم من جانب الاكثرية . واحيانا يتم ذلك الهرب والتجاهل لا شعوريا .

.. فباستثناء قصتين او ثلاث ليوسف الشاروني وادوار الخراط لانكاد نجد اثرا لشخصيات مسيحية الا في ادب نجيب محفوظ ويوسف ادريس واحسان عبد القدوس وثروت اباظة على اختلاف رؤاهم وتجاربهم وغاياتهم . وباستثناء المقال الجيد الذي كتبه الدكتور وليم سليمان عن الكنيسة القبطية ونضالها ، لا نكاد نجد تصويرا لشخصية القمص سرجيوس وكفاحه الوطني الا في مقال للطفي الخولي وآخر لمحمد عودة وعدة دراسات هامة لطارق البشري .

بالطبع ، تدل هذه الظاهرة ايجابيا ، على ان المشكلة ليست واردة لدى المثقف الوطني المسلم ، فهو يعالج الظاهرة الاجتماعية المصرية في تكاملها . ولكن « العقدة » تظل كامنة لدى المفكر والفنان المسيحي ، بلا حل الى الان .

والنتيجة ؟

● على صعيد الفكر ليس هناك استقصاء دقيق للخصائص العقلية والشعورية التي تتميز بها الاقليات المسيحية في الوطن العربي ، بهدف غربلتها ودعم الايجابي منها ومواجهة السلبي ، وحتى تتكون لدينا صورة حقيقية وواضحة وشاملة للابنية الفوقية التي تفرزها مجتمعاتنا . ان تجاهل الشيء لا ينفيه عن الوجود ، فالواقع حقيقة موضوعية مستقلة عن رغباتنا .

● على صعيد العمل السياسي والاجتماعي ، يظل صحيحا ان الصراع الطبقي هو الصراع الرئيسي في اي مجتمع .. ولكن يظل صحيحا ايضا ان للصراعات القومية والطائفية دورها في مجرى التاريخ الاجتماعي للشعوب . وقد اكدت التجربة الانسانية في كل مكان تقريبا ان نظم الاستغلال الطبقي وحدها هي التي تذكي الصراعات القومية والطائفية في مجتمعاتها لتغطية

التناقضات الطبقية داخلها . اما الاشتراكية فهي وحدها التـــي تملك الحلول العلمية لتصفية سلبيات التعدد القومي والطائفـــي واكتشاف الايجابيات الممكنة فتفتني الثقافة ويتحرر الانسان معا .

من هنا كان طمس الفوارق الدقيقة بين الاقليات والاكثرية، كتضخيمها سواء بسواء ، فالتجاهل كالافتعال يؤدي كلاهما الـى انعدام الرؤية الصحيحة للواقع . ولا يحـول ذلك ـ غالبا ـ دون الانفجارات الثانوية في صفوف الشعب بين حين وآخر .. الامر الذي من شأنه ان يهدد الوحدة الوطنية والصراع الاجتماعي أحيانا كثيرة . ولعله بات يقينا ان الاستعمار بشعاره التاريخي « فرق تسد » ، والطبقات الرجعيـــــة بتنظيماتها الارهابية ، كانا اكثر استغلالا لبعض الحقائق الواقعية .. حين جبن البعض عن مواجهتها بالتحليل الموضوعي والدراسة الديموقراطية .

★ ★ ★

وأعود الـــى الاب غريغوار حداد المطران الكـــاثوليكي في بيروت ، لاقول ان « محاكمته » اللاهوتية التي اهتمت بها الصحف اللبنانية اهتماما مثيرا ، هي مجرد أحد فصول النضال الـذي يخوضه هذا الرجل لتجديد البنية الاساسية في التفكير المسيحي العربـــي .

ولعله من المفيد القول بأن جوهر الافكار التي ينادي بها الاب حداد ليست جديدة ، قياسا على الفكر الغربي ، وبخـــاصة فكر دي شاردان اليسوعي . ولكن الجديد هو المغامرة بطرح هذه الافكار على الارض العربية ، وبالذات في لبنان . ومن المفيد القول ايضا ان مجمل الآراء التي يدعو اليها كانت ثمرة المعاناة الاجتماعية المباشرة قبل أن تصقلها الثقافة النظرية والمعرفة المجردة .

وقد ولد غريغوار ـ وهذا اسمه الكنسي ـ عام ١٩٢٤ مـن أب بروتستانتي في عبيه قضاء عاليه بلبنان .. وكان والده شاعرا من خريجي الجامعة الاميركية في بيروت وينتمي بشكل عام الـى ما يمكن تسميته بالطبقة المتوسطة . وفي سن الثالثة عشرة دخل

المدرسة الكاثوليكية ، واستكمل دراسته بالاكليريكية (اليسوعية) .. وهكذا عبر المرحلة الثانوية بشهادتي البكالوريا والفلسفة، ثم حصل على الشهادة النهائية في اللاهوت .

في هذه الفترة كان يقرأ بشغف ، لا كتب الدين وحدها ، وانما – كما قال لي – قرأ الوجودية باستفاضة وكذلك ما أتيح له من كتابات ماركس ولينين . وجـذبته من بين شخصيات الانجيل العديدة شخصية القديس بولس ، وذلك لتركيزه على « شخص المسيح ومحوريته » بالاضافة الى « فكرة مجموعة المؤمنين الذين يكونون جسدا سريا هو المسيح » ★ .

وفي الرابعة والعشرين صار كاهنا ، ابان مرحلة الاستقلال وانتهاء الحرب العالمية الثانية . وظل في رتبته الكنسية المتواضعة عاما كاملا كان اهتمامه أثناءها بالشباب هو الاهتمام الرئيسي ، وذلك بمشاركته في « منظمة العمل الكاثوليكي » التي كانت غالبية اعضائها من الطلاب والعمال . ولكنه سرعان ما اكتشف ان هذا العمل – على حد تعبيره – « مستورد » من فرنسا وبلجيكا ، ومن ثم كانت الشبيبة بمعزل عن العمل . غير انه استفاد من « واقع » الشباب معرفة اعمق بالحياة وخبراتها العملية .

وكان قد رقي الى « نائب مطران » وهو بعد في الثامنة والعشرين من العمر . وراح عام ١٩٥٧ يؤسس نشاطا جديدا ، اقرب الى طبيعة الواقع اللبناني من منظمة العمل الكاثوليكي . اسس « السهرات الانجيلية » لتعميق الفكر المسيحي لدى المسيحيين ، وكانت عبارة عن حلقات من الشباب المنسجمين فيما بينهم بالاحياء ، يقرأون فيها العهد الجديد للدرس والفهم ،

★ الفقرات التي تجيء بين الاقواس مقتبسة من حديث شخصي مع الاب غريغوار حداد ، وكذلك المعلومات الواردة عن سيرة حياته .

ويأخذون عينات من المشكلات الاجتماعية المطروحة ويحللون ابعادها ويحاولون اكتشاف علاجها ومدى الالتزام المسيحي بها .

كذلك اسس « الحركة الاجتماعية » التي تشمل في وسائلها وغاياتها جميع المواطنين بغض النظر عن العقيدة . انها لا طائفية ولا حزبية ، هدفها الاسهام في التنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد « بالتعاون مع الدولة او بالضغط عليها » . وقد انشأت الحركة ٣٠ مستوصفا وعدة فروع لمحو الامية ، وتصدت عمليا لتربية الاولاد وقضايا الاجور والبلديات والمدارس الخاصة وحماية الاطفال . وظل تمويلها مقصورا على اشتراكات الاعضاء وتبرعاتهم واعانات الدولة . واستهدف عملها « الشرائح المتوسطة والفقيرة من المجتمع » . وقامت الحركة بالدراسات الاحصائية العلمية والدراسات الميدانية كمسح بعض اجزاء لبنان « حول الضمان الاجتماعي مثلا » .

ويقول لي الاب غريغوار حداد مبتسما : الطريف اننا تلقينا الاتهامات من اليمين واليسار معا ، ولكن اليسار غير موقفه منا بالتدريج . قال اليمين اننا شيوعيون متسترون ، وقال اليسار اننا اصلاحيون ليبراليون . وظل اليمين متشبثا برأيه فينا ، اما اليسار فكان اكثر تفهما ، ونحن ايضا تطورنا . اننا بالقطع لسنا ناديا اجتماعيا ولا جمعية خيرية ، ولكننا بالمقابل — وبنفس المقدار — لسنا حزبا . الحركة الاجتماعية لا تستهدف الوصول الى السلطة ، وهو الهدف النهائي لاي حزب . قل انها « خميرة » لشيء ما في المستقبل قد لا نعيه نحن انفسنا .

ويقاطع المطران نفسه قائلا : اقول ذلك بسبب التطور العفوي — الخطير — الذي حدث ، واقصد به ظهور مجلة « آفاق » . انها اكثر جذرية من الحركة الاجتماعية كما لا بد انك لاحظت . من يدري ماذا يحدث غدا .

★ ★ ★

ظهر العدد الاول من « آفاق » في منتصف يناير ــ كانون الثاني ١٩٧٤ ــ وقد تصدرت العدد افتتاحية مثيرة تقول « آفاق تود أن تكون اداة فاعلة ، تربطنا بالعالم الذي نعيش فيه ، لنعي اكثر فأكثر مكوناته ، ونتعرف الى مشاكله ، وآماله وتطلعاته ، ونتفاعل مع الانسان ، كل انسان ، ومع المجتمع الذي نحن فيه ، علنا نصبح من صانعي الحضارات . آفاقنا تأبى ان تكون ما يقف عنده النظر ولا يتعداه ، بل هي اشارة الى متابعة السير نحو ما هو ابعد وأعمق أكثر فأكثر . لذلك جاءت هنا كلمة آفاق دعوة مستمرة الى اكتشاف عوامل الديناميكية والثورة في المجتمعات ، والى السير نحو مستقبل جديد ، وليس اكتفاء كسولا بما وقف عنده النظر وحطت عنده المعرفة السطحية في جمود قاتل » .

وظهر اسم غريغوار حداد كأحد الناشرين في الصفحة الاولى ، غير ان مقاله « هل البحث الديني الجذري كفر وشك ؟ » هو الذي انفجر كالقنبلة في المجتمع اللبناني ، لحساسية الوضع الطائفي في هذا المجتمع من ناحية ، ولضخامة المركز الديني الذي يحتله صاحب المقال من ناحية اخرى ، ولطبيعة التساؤلات الجريئة التي اثارها من ناحية ثالثة .

ماذا قال غريغوار حداد حتى أثار هذه الزوبعة العاتية ؟ سوف اعمد الى النصوص مباشرة حتى لا يكون هناك أي لبس في النقل المبتسر . قال المطران اللبناني في البداية « ان ذوبان المجتمع المسيحي في المجتمع المدني ليس ضد المسيح والمسيحية » ثم تساءل « هل يمكن ان نعتبر المسيحية ايديولوجيا ؟ » . وقبل أن يجيب حذر بوضوح مما اسماه « بالمقاييس غير الصالحة » لرؤية المسيحية « كالتقليد المقدس وتعليم السلطة الكنسية » و « الانجيل والكتب المقدسة » و « عقل كل مؤمن » .. هذه كلها لا تصلح معايير مطلقة . وانما « المسيح والانسان » هما المقياسان الوحيدان اللذان يتمتعان بصفة الاطلاق . ذلك ان الانجيل كتب

« بلغة مر عليها الزمن » تحتاج الى تحديث جذري حتى نفهم المقصود الحقيقي من الالفاظ والمعاني ، فقراءة النص في زمانه تختلف عن قراءته في زماننا . كذلك فان ما وصلنا عن المسيح عبر الانجيل « لا يمكن الا أن يكون ناقصا كميا ونوعيا » .. فكتاب الاناجيل لم ينقلوا الينا « كل » ما قاله وفعله المسيح . وما نقلوه يعبر فقط عما « فهموه » و « عاشوه » .

هكذا لا يصبح الانجيل مرجعا نهائيا ومطلقا ، فهو لا يعطي الصورة الحقيقية والكاملة لشخصية المسيح في الفكر والعمل . وانما هو مجرد اجتهاد قديم . لم يضف الاب حداد « يخطىء ويصيب » بل اكتفى بالاستشهاد على صحة استنتاجاته بفقرات لا حصر لها من الانجيل ذاته . ينتهي انجيل يوحنا مثلا بهذه « المبالغة البيانية » — على حد تعبير المطران — ولكنها لا تخلو من دلالة . يقول « واشياء اخرى صنعها يسوع ، لو كتبت واحدة فواحدة ، لما ظننت ان العالم نفسه يسع الصحف المكتوبة » . ومعنى ذلك ان يوحنا يعترف انه لم ينقل الينا الا ما « استطاع » نقله ومن وجهة نظره وحسب قدرته على الفهم والملاحظة . اما لوقا فيعترف في مقدمة انجيله انه ينقل صفحاته « كما سلمها الينا الذين كانوا معاينين منذ البدء وخادمين للكلمة » . وهكذا فهو ليس مسؤولا عن الصواب والخطأ او الصدق والكذب او الحلم والواقع في ما نقله الينا .

تلك هي مقدمة غريغوار حداد الاولى حول « المسيح » كمعيار مطلق : لم تقدم الاناجيل والكتب المقدسة صورته الشاملة ، ولا تفيد التعاليم والتقاليد والتفاسير الكنسية في تحديد هذه الصورة ، ولا يصلح « عقل المؤمن » ان يكون مستودعا لها لانها حينذاك سوف تختلف من مؤمن الى آخر .

والمقدمة الثانية هي الانسان « كل انسان وكل الانسان » :

- « كل انسان ، ومن ثم اي تفسير لنص او حل لقضية

يقصي بعض الناس او يستثني البعض ، او يقيم بينهم تمييزا وتفاوتا ومفاضلة هو ضد الانسان » .

● « وكل الانسان ، روحا وجسدا . وفي كل منهما جميع الحاجات والطاقات والامكانات التي هي في خط النمو والتطور اللامحدود والبلوغ والكمال . لذلك لا يمكن لكل فرد ان يكتشف وحده الحل والتفسير الفصل . ولا بد ان يكون هناك عمل جماعي : بحث وسعي واختيار حياتي شخصي وجماعي معا . ولا بد من أضواء علوم الانسان العصرية : علم النفس وعلم المجتمع وعلم التاريخ .. التي تجعلنا نعرف ما في الانسان وما هو في خط النمو والكمال ، وما هو ضده . كما لا بد من أضواء التاريخ الديني ، المسيحي وغير المسيحي ، لا سيما الاختبارات الحياتية ، لتتناغم مع الاضواء العصرية » .

ويختتم المطران حداد مقاله الاول والخطير بأن « المنهجية الجذرية » تجد مرجعها المطلق في المسيح والانسان معا ، مقياسين متفاعلين في دينامية دائمة : (١) دينامية البحث الفكري ، التي يؤكدها قول الانجيل « امتحنوا كل شيء وتمسكوا بما هو حسن » (٢) ودينامية الاختيار الحياتي التي يؤكدها قول المسيح « أتيت لتكون لهم الحياة ، وتكون لهم أوفر » .

وكان غريغوار حداد يهجس بما يمكن ان تحدثه كلماته من فزع في صفوف « الكنيسة » و « رجال الدين » ، فهو ينفعل قائلا « عهد الرشق بالحرم قد ولى دون رجعة ، حتى في المؤسسة التي كان فيها كثير الاستعمال . وأن يكون النقد والتحليل واعادة النظر بحسب العلمية والموضوعية والمحبة » . وينتقل فجأة الى « آفاق » ، المنبر الذي يتحمل بجسارة عبء هذه الآراء ، فيقول ان القاسم المشترك بين كتابها «هو رفض كل ظلم واستغلال للانسان أيا كان مصدره » وموقفها الايجابي هو « السعي لاجل عدالة اشمل واعمق . قد تسمى هذه المواقف تيارا يساريا أو تقدميا او اية

تسمية اخرى . ولكن الاكيد ان ليس هناك عقائدية او خلفية واضحة مشتركة للمجلة » .

★ ★ ★

وهذا صحيح ..

ولكن كتابات غريغوار حداد التالية بلورت تيارا فكريا داخل « آفاق » وخارجها ، استقطبت ضدها في اللحظة عينها تيارا معاديا عبرت عنه اساسا جريدة « النهار » اللبنانية .

كان مقاله التالي في العدد الثاني تحت عنوان « حول الجذرية في البحث الديني » محاولة للاجابة على التساؤلات التي انهمرت على المجلة ، فأوضح انه ليست هناك « أية قضية محرمة على البحث والتحليل لان الانسان بحاجة لان يعرف ولان المسيح لم يأت للتعتيم على القضايا التي تهم الانسان وابقائه محاطا بأسرار وغيبيات » . وكرر انه ليست هناك مقاييس مطلقة سوى الانسان والمسيح متفاعلين ديالكتيكيا في « دينامية دائمة التطور عبر تطور معرفة الانسان ومعرفة المسيح » . وانه لا يجوز في عصرنا ترداد التعليم التقليدي وتفسيره او الرجوع الى سلطة معصومة . ثم اشار الى ان الجذرية في المنهج تنعكس على مستويات أربع هي :
(١) اختيار مواضيع البحث « أي التطرق دائما الى أسس كل قضية او بنية او مؤسسة وطرح تبرير كيانها واستمرارها » .
(٢) توقيت البحث « أي البدء ببحث القضايا الشاملة بدلا من القضايا الجزئية ، فالقضايا المصيرية بدلا من الاصلاحية » .
(٣) تطبيق نتائج الابحاث عمليا « أي تجاوز البحث الى ارادة التغيير الفعلي » . (٤) تنظيم العمل لتطبيق النتائج « أي عدم الاكتفاء بالبحث والمطالبة، بل الوصول الى العمل الفعلي ، وبدلا من ان يكون مرحليا يكون ثوريا » . وضرب مثلا محددا لتطبيق هذه « الجذرية في المنهج » بالمدارس المسيحية في لبنان . وهو يعلم سلفا مدى حساسية هذا الموضوع ، ولكنه قال في غير مواربة انه

لا ينبغي ان نتساءل عن كيفية تطوير وتحسين المدارس المسيحية « بل نتساءل عما يبرر وجودها واستمرارها » . ولكن الجذرية في التوقيت تقول ان المدارس مجرد تفصيلة وجزئية متفرعة عن الكنيسة ، فالاشمل ان تطرح اولا « قضية الكنيسة كمؤسسة » حتى يتبين لنا ما اذا كان لهذه المؤسسة « ان تبقى أو تزول » . والجذرية في تنظيم العمل تقتضي القيام « بتنظيم قوة ضاغطة لالغاء هذه المدارس » . واخيرا يطرح هذه التساؤلات : هل على الكنيسة ، كما ارادها المسيح ، أن تملك مؤسسات ومنها المدارس ، هل وجود مدارس مسيحية ومن ثم طائفية ، هو شهادة ايجابية ام عكسية للمسيح ؟ ويجيب بأنه حان الوقت للتصدي الشجاع لهذه المسائل « دون اعتبار موضوع ما محرما ، حتى لو تعرض للمسيح والانسان » .

ثم ينتقل الاب حداد الى ان لب اللباب في الدعوة المسيحية الاولى كانت « الانسان » حتى ان المسيح دعا نفسه ابن الانسان ، وجعل محبة القريب كالنفس جوهر الوصايا . والقريب هنا هو كل انسان ، والنفس هنا هي كل الانسان « .. فان كان الانسان — كل انسان وكل الانسان — هو المقياس الفعلي الواقعي ، لا نعود نضيع في الماورائيات والغيبيات » ولكن نصبح مطالبين باكتشاف الانسان كقيمة في حد ذاته ، واكتشاف حاجاته الحقيقية « والبحث عن الطرق الفعالة لتلبية هذه الحاجات ، لا الاكتفاء فقط بالنوايا والمقاصد والادعية والصلوات لاجله » .. فاذا تبين — كما يقول المطران بالحرف — ان اعطاء الكساء والغذاء لا يفي بالمرام بل ينفع لبعض الايام ويضر من جهة اخر بالانسان (المستعطي) من حيث قيمته وحريته ونموه ونضجه « فالمقياس المعتمد يضطرنا الى اكتشاف طرق اخرى . فان تبين مثلا أن البنيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الظالمة هي سبب العري والجوع وغير ذلك ، فالمطلوب من المسيحي لا ان ينتظر الملكوت السماوي لاستقامة

العدالة وتلبية الحاجـــة ، بل ان يسعى لاجـــل تغيير البنيات الظالمـة » .

ويحذر مجددا من ان كلمات المسيح « ليست اشياء جامدة تنقل كما هي من جيل الى جيل ويحافظ عليها بعض المسؤولين ، كما يحافظ مدير المتحف على الآثار التي فيه ، لان الحرف يقتـل والروح يحيي كما يقول القديس بولس » . وحتى تبقى الكلمة حية لا بد من تجديد اللغة في كل جيـــل « بحسب لغة ابناء الجيل وتطلعاتهم ومقتضيات الحياة لديهم » .

★ ★ ★

وشيئا فشيئا يدخل المطران حداد الى قلب القلب ، وتفصيل التفاصيل ، ومن ثم يزداد البحث ــ والموقف ــ حراجة وخطورة .

وها هوذا فـي العـدد الثالث مـن « آفاق » يقتحم قـدس الاقداس .. فتحت عنوان « تحرير المسيح » يدعو مباشرة ودون لف او التواء الى تحرير المسيح من الكنيسـة ثم تحرير المسيح من المسيحية ذاتها ، ثم تحرير المسيح مـن المسيحيين انفسهم ، ثم تحرير المسيح ــ وهنا المفاجأة الحقيقية ــ من المسيح شخصيا ، ثم تحرير القيم الانسانية من القيم المسيحية .. هكذا بضربة واحدة مدويـة .

كيف ذلك ؟

يقول غريغوار حداد « ان ذلك يساعد على تجاوز صنميات كثيرة ، منها صنميـة الحرف والكتاب ، وصنميـة السلطة ، وصنمية التاريخ والتقليد ، وهكذا ، على تحرير الانســان مـن عبوديات والينات (يقصد اغترابات) كثيرة » . من هنا كان محتما اعادة النظر في « العبادة والرعائية واللاهوت » فالمسيح قد «ضاع» عبر التاريخ المسيحي « ولا يزال ضائعا في كثير مـن النظريات اللاهوتية والروحانيات » . لقد تحـول لان يكون « عقيدة بين العقائد وعبادة بين العبادات » بل ان بعض من يسمـوا بالشفعاء

من القديسين يفقنه اهمية عند المؤمنين . وهنا نصل الى اخطر افكار المطران حداد، لذلك انقلها حرفيا ، اذ يقول « الاله المسيحي ليس (اله الفلاسفة) الوثنيين وغير الوثنيين، ليس (المحرك الاول) على حد قول ارسطو ، ولا العقل والفكر اللامتناهي ، ولا الخالق المتسامي على خلائقه ، الكامل الذي لا يحده زمان ولا مكان ، ولا يتأثر ولا يتغير لانه الكمال . بل هو (الكلمة الذي كان في البدء لدى الله ، وكان هو الله ، والذي صار جسدا وحل فينا) كما يقول يوحنا في سطوره الاولى من انجيله » ، « ومن ثم يمكن القول ان الله اللامتناهي ، الكامل ، الذي لا يحده زمان ولا مكان ، دخل الزمان والمكان في المسيح يسوع وحياته في الانسان وحياة الانسان فيه . ولذلك لا يمكن للايمان بالله أن يبقى كما كان قبل (ان يصير الكلمة جسدا) اي ايمانا وثنيا او يهوديا . وهو كذلك عند الكثيرين من المسيحيين بالرغم من الفي سنة من (الايمان المسيحي) . . » .

ماذا يقول الاب حداد بهذه العبارات الموغلة في التركيز لدرجة الابهام احيانا ؟ يقول ببساطة شديدة ان الله الذي نعرفه هو المسيح ، وان المسيح الذي نعرفه هو الانسان . . هو الصورة المثلى للانسان . هكذا يصبح المسيح هو « القيمة المطلقة » المرادفة للانسان . وتصبح الكنيسة التي عرفها الانجيل بأنها جماعة المؤمنين هي « الانسانية : كل انسان وكل الانسان » .

من هنا يجازف جريغوار حداد بحياته نفسها لا بسلك الكهنوت حين يدعو الى تحرير المسيح ــ بهذا المعنى الجديد تماما ــ من المسيحيين والمسيحية والكنيسة والمسيح ذاته « ان اخطر ما حدث للمسيح في التاريخ ، لا سيما بعدما اصبحت المسيحية دين الدولة في عهد الامبراطور قسطنطين في القرن الرابع ، هو ان المسيح اصبح تابعا للدين المسيحي وللكنيسة ــ المؤسسة ، بل متلاصقا وملتحما بهما التحاما وثيقا حتى انه اصبح من المستحيل تمييزه عنهما ، لا فقط من قبل المؤمنين الذين يعيشون في الداخل

بل ايضا وخاصة من قبل باقي الناس الذين ينظرون من الخارج ، فيحكمون على المسيح هكذا من خلال حكمهم على الكنيسة . اي ان هذا التلاصق بين المسيح ، القيمة المطلقة ، والدين المسيحي والكنيسة ــ المؤسسة ، اي والتعبير النسبي لتجسيد المسيح ولامتداده عبر التاريخ ، يجعل الناظرين اليه غير قادرين على اكتشاف حقيقته . فان كان القيمة المطلقة لجميع الناس ، اي ان كان جميع الناس بحاجة اليه اكثر من حاجتهم الى اي امر آخر ، وان كان هذا التلاصق التاريخي يمنع ذلك ، وجب ازالته ، مهما كان ذلك صعبا وذا نتائج خطيرة » . ان الكنيسة ــ المؤسسة ، بمختلف اشكالها والوانها الشرقية والغربية ، كانت ولا تزال ــ في راي غريغوار حداد ــ تعتبر نفسها المؤسسة الوحيدة التي « تملك » المسيح ، اي :

- ــ التي لها حق فيه ، بل حقوق عليه .
- ــ التي تمثله بصفة رسمية .
- ــ التي تتكلم باسمه .
- ــ التي تفسر تعاليمه التفسير المعصوم من الغلط .
- ــ التي توزع نعمه وكنوزه واسراره على الناس .
- ــ التي باسمه تؤمن الخلاص الابدي للناس ، اي تعطيهم « تأمينا على الحياة .. الابدية ! » فهي تعمل كأي شركة مساهمة تجارية .

وهكذا « فالكنيسة ــ المؤسسة قد احتكرت المسيح كما تحتكر اية شركة راسمالية صنفا من الاصناف » و « صار المسيح أسير الكنائس ، رهينها ، محجوزا عليه من قبلها ، لا يصل اليه احد الا بواسطتها » . ولا بأس من متابعة كلمات الاب حداد حرفا بحرف « اصبح من الضروري بل من الاولويات الملحة تحرير المسيح من الكنائس ومن كل (الكنيسة المؤسسة) . واصبح من واجب الذين لا يزال لديهم ايمان داخل الكنائس الاسهام في (معركة تحرير

المسيح) هذه .. بل لقد بدأت معركة التحرير في ايامنا من آفاق متعددة ، ابتداء من الهيبيين الذين اطلقــوا (ثورة يسوع) في الولايات المتحدة ، واخذت تمتد الى بلدان عديدة ، حتى الماركسيين الذين يفتشون عن (اشتراكية ذات وجه انساني) كالفيلســوف الفرنسي جارودي وغيره . عندما تكون مادة من المواد كالخبز مثلا ضرورية لحياة الانسان ، فاحتكارها جريمة ، ومن اهم الموجبــات كسر طوق الاحتكار ، ولو ادى ذلك الى تغيير بنيات كثيرة فــي المجتمــع » .

ولا يكفــي في نظر غريغوار حــداد تحرير المسيح مــن المسيحيين الافراد والكنيسة ـ المؤسسة ، بل لا بد لتحريره الكامل وتأميمه الشامل من فك ارتباطه بالمسيحية ذاتها « والمسيحية هي ، علاوة على الافراد والمجتمعات ، مجموعة التعابير التي جسدت عبر التاريخ حضور المسيح والشهادة له من اللاهوت حتى الطقوس » . انها الحضارة أو الحضارات المسيحية الشرقية والغربية وسواهما، وهي الثقافة المسيحية وكل الفكر الذي تأثر بالمسيح والانجيل ، هي الفن المسيحي من البناء الى النحت والتصوير والموسيقى والشعر الذي رافق المسيحيين عبر العصور ، هي ايضا اللغة ذاتها ، طريقة التفكير والتعبيــر ، وليست الالفاظ اللاتينيــة أو اليونانيــة او السريانية بل بنية التعبير ومن ثم التفكير « حضارة وثقافة ولغــة كان لها اثرها العميق في حياة المؤمنين بالمسيح عبر العصــور . كانت تعبيرا نسبيا عن القيمة المطلقة . والتعبير النسبي بالضرورة مرحلي ، ورغم طابعه الانساني فهو ثمرة المجتمع والتاريخ . ومن هنا ، في عالم اليوم ، نشأت مقتضيات جديدة في ما يتعلق بهــذا التعبير النسبي الذي اصبح من جهة كأنه مطلق ، كأنه لا بد منــه هو بالذات ، من هذه الحضارة وهذه الفلسفة وهذه الثقافة وهذا الفن وهذه البنية الفكرية ، لايصال القيم التي جــاء بها المسيح ، ولايصال المسيح القيمة المطلقة . وهكذا بدت باقي الحضــارات

والثقافات والفلسفات والفنون واللغات كأنها غريبة عنه وعن قيمه ★ وبدت المسيحية ظاهرة اقليمية وهرمة . واصبح المسيح اسير المسيحية التاريخية النسبية » .

وقبل ان ينتهي الاب حداد الى الحكم يضع الحيثيات هكذا :

ــ لما كان من المفترض في كل الحضارات والثقافات الاقليمية والعالمية ان تكون في خدمة الانسان . .

ــ ولما كانت المسيحية التاريخية بسبب تعابيرها النسبية مشبوهة من قبل تلك الحضارات والثقافات ، او في الاقل مرفوضة مسبقا .

ــ ولما كان المسيح ضروريا لكل انسان اذ هو المحور او القيمة المطلقة . .

« صار من الاوليات تحرير المسيح من المسيحية ذاتها ، من كل تجسداتها وتعابيرها التاريخية . صار من الضروري كف وضع اليد الذي مارسته المسيحية على المسيح ، ليصبح المسيح في متناول يد كل انسان اي على مستوى كل حضارة ولغة وشعوب ودين والحاد وشك ، وليصبح من ثم المحور الصالح لكل انسان دون وسيط ودون مرور بأي اغتراب حضاري ثقافي . عندئذ تكون قد زالت بعض العقبات الكبرى التي تحول دون تواجه المسيح والانسان ، دون تجلي المسيح الحقيقي للانسان ، كل انسان » .

وهناك مرحلة اخيرة في ما يقول غريغوار حداد ، هي تحرير وجه المسيح من ذاته ، من كل الصور والتصورات والاقنعة التي البسها عبر التاريخ . . سواء على صعيد الفن في ملايين الايقونات التي ابدعتها مخيلة الفنانين حتى رسخت في مخيلة الناس وصاروا

★ يضيف هنا الاب حداد هذا الهامش « مثلا : الحضارة العلمية والتقنية العصرية ، الثقافة العربية وقد قيل : ابت العربية ان تتنصر ، الفن الصيني او الافريقي . . الخ » .

يؤدون لها العبادات لا شعوريا دون الاحساس الحقيقي بحضور المسيح ، او على صعيد الفكر : فالمسيح الحي اليوم والانسان العائش اليوم هما المقياس . وان كانت هذه التصورات لا تفي بالغرض اي ايصال المسيح الحي للانسان الحي « فلا بد من تحرير المسيح ذاته ، المسيح الحقيقي ، مسيح الحاضر ، من المسيح التاريخي ، مسيح الماضي ، الذي وان كان قد عاش الا انه اليوم لم يعد يحيا » .

ومن جديد يطرح الاب حداد حيثياته :

— لان المسيح اليوم يجب ان يواكب انسان اليوم في كل أبعاده وتطلعاته .

— فانسان اليوم قد اكتشف اكثر من ذي قبل أبعاد الشمول والنسبية ووحدة الكون ووحدة العالم الانساني واكتشف البعد الحركي ، الدينامي ، التطوري في كل كيان ووجود . واخذ يتطلع الى آفاق كونية متطورة ، فان لم يكن المسيح الحقيقي « على مستوى » هذه الابعاد والآفاق فالانسان لا يعود بحاجة اليه .

ويصل الى الحكم قائلا : « لذلك يجب تحريره من الصور والتصورات الجزئية والتاريخية ، مهما كانت بالماضي قد أدت دورها » ثم « اكتشاف التصورات التي تستوعب أبعاد انسان اليوم وآفاقه وتتجاوزها » .. فالايمان المسيحي « الجذري » كما يقول المطران حداد لا يحتاج الى علم اللاهوت ولا علم الكتاب المقدس وتفسيراته وغيرها من العلوم الدينية .

واذا كانت القيم المسيحية تلتقي جوهريا مع العديد من القيم الانسانية الاخرى، فان ذلك لا يعطيها الحق — يقول غريغوار حداد — في الوصاية على هذه القيم البشرية . ان « أمومة الكنيسة أو ابوة المسيح تشبه الى حد كبير الظاهرة الراسمالية والاستعمار الامبريالي » و « الاستعمار المسيحي للقيم الانسانية ، والامبريالية الفكرية المسيحية (التي تلازمت طويلا مع امبريالية الحضارة

الغربية بكاملها) ، هما ضد الانسان وضد المسيح » .. فالمسيح الذي لم يكن له موضع يسند اليه راسه لا يطالب بملكية اي شيء لا ملكية الانسان ولا ملكية القيم الانسانية « والـذين يهمهم أمر المطالبة هم الذين يعيشون من هذه الملكية ، أي الذين يعيشون فعلا من استثمارها » ، « فعندما تصبح هناك مساواة بين الناس تجاه المسيح والقيم المسيحية والقيم الانسانية وكذلك تجاه قيم باقي الاديان ، وعندما يصبح بحث وتفتيش مشترك بين جميع ابناء الانسان ايا كان منطلقهم التاريخي ، لا شك ان البشرية حينئذ ستتقدم خطوات جبارة في طريق الحق والحياة » .

ويحذرنا الاب حداد مجددا ، بأن البحث الجذري ليس ملهاة نظرية يتسلى بها المثقفون العاطلون عن العمل ، بل هو طريق نضالي « يصل الى كل القضايا الحيوية التي يعيش منها الانسان.. او يموت » .

★ ★ ★

بعد تحرير المسيح ، لا يبقى سوى تحرير الانسان . وهو الموضوع الذي ناقشه غريغوار حداد في العددين الرابع والخامس من « آفاق » . ويحاول الاب حداد في دراسته الطويلة حول تحرير الانسان ان يحرر لفظة المسيح من معانيها التاريخية .. فالمسيح كمحرر من « الخطيئة » هو رسول الثورة على العبودية ، ايا كانت اشكال العبودية : طبقية ، قومية ، طائفية ، اخلاقية . وليس صحيحا ان الخطيئة الاصلية هي العلاقة الجنسية ، انها مجرد رمز الى كل الخطايا التي ارتكبها الانسان في حق أخيه الانسان بالاستغلال والاستعباد . كذلك فالمسيح كمحرر من « الناموس » هو رسول الثورة على كافة القيم المقدسة او المحرمات، انه مع التغيير والتجديد . وليس صحيحا ان الناموس هو الناموس اليهودي فحسب وانما هو كل قاعدة مسبقة تغل حرية الانسان في المبادرة . المسيح بذلك هو الحل الجذري لقضية

الاغتراب الانساني على مر التاريخ ، سواء كان سبب الاغتراب ماديا او روحيا ، سواء كان تقسيم العمل والآلة او هيمنة القيم القديمة على الحياة الجديدة « لذلك فالتحرر الصحيح هو تحرر من كل عبودية واسر » حتى « الخوف من الله » يحررنا منه المسيح على حد تعبير الاب حداد « الانسان الفرد ، والانسان المجتمع ، يفرز الاله الذي يناسبه . وبما ان كل ما سوى الله الحقيقي ، الواحد ، هو غير حقيقي ، فكل التصورات البشرية عن الله يجب اعتبارها محاولات وتقريبات ، فان اعتبرها انسان انها الاله الحقيقي جعل منها اصناما » .

هكذا تصبح كل عبودية ضد المسيح والانسان معا ، وعلى المسيحي « أن يلتزم فكريا وعمليا لاجل الاسهام في عملية التحرير منها » . ومن العبث القول بأن الحرية التي دعا اليها المسيح حتى الموت — وبذلك تحرر من الموت — هي الحرية الداخلية فقط او الروحية .. فملكوت الله السماوي هو بمثابة المدينة الفاضلة عند الفلاسفة ، اي انه يمكن بناؤها على الارض بالنضال . وحين قال المسيح ان مملكته ليست من هذا العالم ، لم يقصد العالم الكرة الارضية ، وانما كان « ينحاز » الى جانب من العالم دون جانب آخر . ودعوته الى الحرية هي دعوة مادية وروحية معا وفي وقت واحد ، دعوة لتحرير « كل انسان وكل الانسان » .. فتحرير المستعمرات والاراضي المحتلة والاقتصاد من سيطرة الاجنبي والاحتكارات والطبقات الكادحة من الطبقات المستثمرة والزنوج من البيض والمراة من الرجل والاجيال الجديدة من الاجيال القديمة والثقافة الوطنية من الثقافة الاستعمارية والحاضر من الماضي والمستقبل من الحاضر .. « قد يبدو للذي ينظر الى المسيحية من الخارج ، بل قد يظن الكثيرون من المسيحيين انفسهم ، ان المسيح لا دخل له في قضايا التحرير المذكورة » ولكن الحقيقة هي نقيض ذلك تماما ، فحين دعا للمأسورين بالتحرر والعميان بالبصر

والمسحوقين للخلاص لم يكن يقصد الضعف البشري العام ، وانما كان يحمل دعوة الحرية فيما يشبه الرموز القريبة من الذهن المعاصر له . وحين قال « جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني ، وكنت غريبا فآويتموني وعريانا فكسوتموني ومريضا فعدتموني ومحبوسا فأتيتم الي » أصيب الحاضرون بالدهشة وسألوه متى حدث ذلك، فأجاب « الحق أقول لكم ، انكم كلما فعلتم ذلك بأحد اخوتي هؤلاء الصغار ، فبي قد فعلتم » . والاخوة الصغار هم البشرية الكادحة المسحوقة المضطهدة لا اكثر ولا اقل . اما هؤلاء الذين يوجه اليهم المسيح الخطاب فهم الطليعة الثورية القادرة على النضال والالتزام . بلغة عصرنا يصبح الاستعمار هدفا للنضال والاستغلال الطبقي هدفا آخر ، لانهما السبب — كما يقول حداد — في الجوع والقهر السائد على أجزاء عريضة من العالم . وهو يعدد مستويات الالتزام الى : (١) الالتزام بالمعرفة اي بالاطلاع على قضايا الانسان المعذب المنسحق . (٢) والالتزام بالموقف ، باعلان الموقف من كل قضية . (٣) والالتزام بالدعوة ، ببث المعرفة واتخاذ المواقف . (٤) والالتزام بالعمل الفردي ، على أنواعه التي لا تحصى من الشهادة حتى الاستشهاد . (٥) والالتزام الجماعي ، في حزب او حركة او اية منظمة اخرى . والالتزام لا بد ان يكون مرحليا وستراتيجيا في الوقت نفسه ، اصلاحيا وجذريا في وقت واحد ، فهناك بعض الامور التي يمكن أصلاحها بتطبيق القوانين الراهنة ولكن منها مالا يمكن انجازه « الا بازالة تلك المؤسسات او القوانين او الانظمة ، بل النظام الاقتصادي والسياسي كله ، والاستعاضة عنها بنظام وقوانين وبنيات جديدة . فان وصل التحليل العلمي الى هذه النتيجة وظل المؤمن بالمسيح والانسان يكتفي بالحلول الاصلاحية والجزئية دون ان يلتزم بالحلول الجذرية يكون مجرما تجاه الانسان الذي ينوء تحت عبودية ذلك النظام وتلك القوانين ، ومن خلاله مجرما تجاه المسيح . واذا تبين ان هناك فئة من

الناس ، منظمة طبقيا ، أو غير منظمة ، تستفيد من ذلك النظام وتلك القوانين والبنيات والمؤسسات وترفض أن يتغير شيء منها لكي تبقي على امتيازاتها ، وجب العمل على ازاحة المستعبدين والمستغلين على مراكز القوى التي يفرضون سلطانهم منها » .

اي ، الثورة !

والمؤسف — يقول المطران حداد — ان الدين المسيحي كان ولا يزال في أماكن كثيرة من العالم « افيونا للشعب » كما قال ماركس تماما « بسبب هذا الدين ومن خلاله تظهر المسيحية التاريخية موالية للفئات المستغلة (بكسر الغين) ضد المستغلة (بفتحها) وللبلدان الاستعمارية ضد شعوب المستعمرات ، ومخدرة للمستغلين (بفتح الغين) والمستعمرين (بفتح الميم) ، استنادا الى اقوال وقيم علمها المسيح ، مفسرة تفسيرا يناسب مصلحة القلة القوية ضد الاكثرية المسحوقة » . لذلك ، فالمسيحيون الذين يدعون المسيحية وتمثيلها والكلام باسمها والمدافعة عنها ، وهم يقبلون بأوضاع وبنيات وقوانين تكرس عبودية بل عبوديات الاكثرية من الناس وظلمهم وتخلفهم واستحالة الحياة الكريمة لهم ، ويستفيدون او يوالون الاشخاص الذين يستفيدون من تلك الاوضاع والبنيات والقوانين « لا يحق لهم أن يدعوا مسيحيين ويستغلوا اسم المسيح ، علاوة على انواع الاستغلال الاخرى التي يمارسونها » .

ولا يحق لاحد ان يلوذ بالملكوت السماوي هربا من مشكلات الارض ، لان مملكة المسيح ليست « من » هذا العالم حقا ولكنها « في » هذا العالم بالتأكيد . ولم يخل الانجيل من التشريعات والقوانين عبثا ، وانما تاركا للحرية والالتزام بالنضال من أجلها ان تأخذ تجسداتها التاريخية عبر العصور « فالقوانين والشرائع والبنيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لا يمكن ان نجدها في بشارة المسيح ويجب ان لا نفتش عنها هناك ولا في حياة

الجماعة المسيحية الاولى ، فان كان المسيـــح لم يشترع لزمانه فكيف يمكنه ان يشترع لزمان آخر ؟ » . ان المسيح فـي خاتمـة المطاف هو « الثورة الشاملة والدائمة » عـــلى الاغتراب الانساني بكافة اشكاله ومستوياته ، هو الحرية ــ مرة اخرى ــ بتجسيداتها المختلفة . وكما ان البعض قد اتخذ من المسيحية دعامة للابنيـــة الطبقية الظالمة ، كذلك فالبعض يتخذونها دعامـــة للاشتراكية . والموقفـــان في راي الاب حداد كـــلاهما خطأ فكري فادح .. فالمسيحية ليست تبريـرا للاستغلال ، كمـا انهـا ليست تبريرا للاشتراكية ، رغم كثرة الآيات الانجيلية التي يمكن ان يعتمد عليها أصحاب الرأيين . ان ما يظنه البعض « اشتراكية » في أقـــوال المسيح أو في أعمال الرسل ، لم يضع للاشتراكية قوانين او أنظمة ولا كان من الممكن في ظل المجتمعات القديمة المتخلفة اقامة نظـام اشتراكي ، فالمسيح ليس هو الاشتراكي الاول ، والمسيحية ليست هي الشيوعية الاولى .

من هو المسيح اذن ، كما يراه المطران غريغوار حداد ؟ هو القيمة المطلقة للثورة على الاغتراب الانساني . هو النضال الملتزم والفاعل من اجل الحرية . واذا كان قد تجسد يومـــا في صورة بدائية ، فانه على مر التاريخ يزداد مع مختلف العصور والاجيـال تركيبـا وكثافـة . المسيح ليس هو الاشتراكي الاول حقا ، ولكنه « الاشتراكية في عصرنا » وقد يصبح الشيوعية غدا ، كما كان روح الثورات السابقة منذ بدء الانسانية وجسدها . انه أشمل من كافة الثورات ولكنه يتحقق من خلالها . والكنيسة الحقيقية هي جماعة المؤمنين بالمسيح بهذا المعنى ، أي الانسانيـة جمعاء . والمسيحي الحقيقي هو كل انسان يناضل لتحقيق هذا المعنى .

★ ★ ★

قلت للاب حداد في نهاية حديث طويل : اسمح لي ان أسألك

لماذا ترتدي ثياب الكهنوت وتؤم الناس احيانا للصلاة في الكنيسة ــ المؤسسة ؟ اسمح لي ايضا ان اسألك ، لماذا تكثر من الاستشهاد بآيات الانجيل رغم أن حيثياتك كلها نقد له ؟

قال لي : وأسألك انت ايضا ، بماذا تفسر انخراط الآباء الرهبان في اميركا اللاتينية في صفوف الثوار من الشيوعيين وغيرهم . لكل امر زمانه ومكانه .

الزمان والمكان ! والتناقضات التي تصوغ حياة المجتمع اللبناني خصوصا والمجتمع العربي عموما .. هذه التناقضات التي جعلت من الممكن لمطران كاثوليكي أن ينشر هذه الآراء ، وأن يستقطب من حوله تيارا وضده تيارا آخر ، دون ان يؤدي ذلك الى فصله من « الكنيسة ــ المؤسسة » التي ينادي بالغائها .

قضايا عربية / ايلول ١٩٧٤

قضية فلسطين في الفكر العربي المسيحي

كانت « اسرائيل » اول من انتبه الى الرمز الخطير في انتخات القس ايليا خوري عضوا باللجنة التنفيذية العليا لمنظمة التحرير الفلسطينية اثناء انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني الاخير في ايار ـ مايو ١٩٧٤ . يومها علقت الصحف الاسرائيلية بما معناه ان دلالة هذا الانتخاب لا تكمن في مشاركة المسيحيين العرب مشاركة ايجابية فاعلة في حركة المقاومة ـ ذلك ان لهذه المشاركة تاريخ عريق ورموزها واضحة في قيادة النضال الفلسطيني ومن قبل ومن بعد قيادة النضال العربي ـ وانما تكمن الدلالة الخطيرة وفق مزاعم الصحافة الاسرائيلية في ان « رجال الدين المسيحي العرب » بالذات قد وصلوا برمزهم المفاجىء ـ القس ايليا خوري ـ الى واجهة التحريض الثوري . انهم بذلك يقولون لرعايا الكنيسة من المواطنين ان تحرير فلسطين بالقوة المسلحة عمل مقدس لا يتناقض مع السلام المسيحي ، بل ان هذا السلام يحتمه او كما قال المسيح « ما جئت لالقي سلاما بل سيفا » او كما رفع بيده السوط واخذ يضرب صيارفة الهيكل .

ثم قارنت الصحف الاسرائيلية بين ما يمكن ان تؤدي اليه حركة رجال الدين المسيحي العرب وما ادت اليه حركة القساوسة والرهبان في أمريكا اللاتينية . وقالت انه على « الدولة » الا

تستهين بالمسيحية العربيـة كمـا اسـتهانت الولايـات المتحـدة بالكاثوليكية في أمريكا الجنوبية . وكانت النتيجـة ان الحركـات الثورية هناك أصبحت تضم الرايات الحمراء والصلبان جنبـا الى جنب مع الثياب السوداء واللباس الكاكـي ، الانجيـل والمنشـور السري والكلاشنكوف .

ولعلها الصحف الاسرائيلية ذاتها التي شنت حملتها الهوجاء على المطران ايلاريون كبوجي حين اعتقلته سلطات الاحتلال بدعوى انتمائه الى منظمة فتح وتهريبه الاسلحة الى داخل اسرائيل وكانت الحملة ولا تزال ضارية لان هـذه الصحف تـرى ان (الكنيسـة العربية) ـ لا المسيحية فحسب ـ قد بدأت تحركا ينذر بالخطر . وتوقف الاعلام الاسرائيلي والاوروبي والامريكي طويلا عند نقطة هامة لا يتوقف امامها الكثيرون . وهي أن القس ايليا خوري بروتستانتي وان المطران كبوجي كاثوليكـي ، وان القيـادة الروحيـة العليـا لكنيستيهما ليست داخل الحدود . ان الكنيسة الارثوذكسية فـي الوطن العربي لها تقاليدها الراسخة في حركة النضال الوطني ، ولا تنتمي الى اية قيادات اجنبية . وهكذا كان من الطبيعي ان تثمـر العديد من القيادات الطليعية في مختلف الازمان والاجيال والاحزاب او المنظمات الوطنية . ولكن الجديد حقا هـو بروز رجال الديـن البروتستانت والكاثوليك في ساحة المقاومة .

وقد استخلصت الصحف الاسرائيلية والغربيـة مـن هـذه الظاهرة الجديدة « الخطرة » ان الارتباطات اللاهوتية بين الكنائس العربية والقيادات الخارجية لم تعد « محور التوجيـه العملـي » للمسيحيين العرب . واستخلصت ايضا ان هذه الكنائس تحـرز استقلالها الفعلي بمنأى عن الاشكالات اللاهوتية وفي احضان الواقع الوطني لمجتمعاتها . واشارت نيويورك تايمز ـ على نحو خـاص ـ الى ان وثيقة تبرئة اليهود التي اصدرها الفاتيكان منذ سنوات لـم تلزم احدا من الكاثوليك العرب بمدلولها السياسي . وقال المعلـق

ساخرا « ان تبرئة اليهود المعاصرين من دم المسيح لا تحتـاج الـى وثيقة . انها لعبة شكلية ذات مضمون سياسي فهمه العرب تـوا . لذلك فهم قد يحتاجون الى نوال بركة البابا ، ولكن تحرير القـدس لا يحتاج الى صلح تاريخي بين اتباع المسيح واحفاد الذين صلبوه من عشرات القرون » .

هكذا اولت « اسرائيل » والغرب ظاهرة « المسيحية العربية الجديدة » اهتماما يفوق بكثير اهتمامنا نحن العرب . لقد استقبل البعض منا الموضوع كمظاهرة لا كظاهرة . وهي ظاهرة انبثاق تيار جديد في الفكر المسيحي العربي ، فليس القس ايليـا خـوري ولا المطران ايلاريون كبوجي الا تجسيدا عمليا ـ يكاد يكون جزئيـا ـ لتيار اشمل منهما بكثير .

واذا كانت الكنيسة ـ المؤسسة قد شغلت جريجوار حـداد للدرجة التي وصل فيها اجتهاده الفكري الى ضرورة تحرير المسيح من الكنيسة والمسيحية ومن صورته التاريخية ، فان هذه القضيـة ليست الا عنصرا واحدا من عناصر التيار الذي تقوده في الوقـت الحاضر مجموعة من رجال « الدين » المسيحي في المشرق العربي ، وخاصة في لبنان وسوريا وفلسطين . اننـا لن نستطيع ان نفهـم المغزى العميق لانتخاب ايليـا خـوري لعضويـة قيـادة النضـال الفلسطيني ، ولن نفهم انتماء المطران كبوجـي النضالـي لحركـة المقاومة الا ضمن السياق العام لهذا التيار الفكري الجديد . اننـا بغير هذا السياق تبدو بعض المشاهد وكأنها « دعايـة » وليسـت حقائق ، وبغير هذا السياق تبدو بعض الافكـار وكأنهـا شطحات فردية ، وبغير هذا السياق يبدو الامر كله وكأنه بدعـة مؤقتـة لا تلبث ان تنتهي .

ولكننا سنحاول هنا استكمال خطوط اللوحة التي بدأنـاها مع جريجوار حداد وفي ضوء الاحداث العملية التي وقعت بانتخاب ايليا خوري واعتقال كبوجي ، لنرد اولا على الدعـاوى الصهيونية

من ناحية ، ولنتعرف على الاخاديد العميقة الغائرة في واقعنا من ناحية اخرى .. فالدعوة الى تحرير المسيح من الكنيسة ـ المؤسسة هي الحلقة الاولى من سلسلة مكتملة الحلقات يمكن تسميتها بالتيار الجديد في الفكر المسيحي العربي . اما الحلقة الرئيسية فهي قضية فلسطين .

وسوف اعمد هنا الى نموذج واضح محدد ، لا يلغي بقية النماذج ولكنه يؤكدها ، لموقف الفكر المسيحي العربي الجديد من قضية فلسطين . واقصد به الاب سلوم سركيس في كتابه البالغ الاهمية « المآسي المعاصرة والمصير العربي » والذي صدر عام ١٩٧٣ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت .

وقد ولد سلوم سركيس في دمشق عام ١٩٢٢ وامضى المرحلة الثانوية وحصل على شهادة الفلسفة من القدس . وتلقى دراسة اللاهوت في حريصا ـ لبنان « المرسليون البولسيون » . ثم عمل بتعليم الفلسفة والادب الفرنسي في المدارس الثانوية الخاصة والحكومية في بيروت وزحلة وجونية وصور وصيدا والبترون . والده يعمل تاجرا . وظل نشاطه الاجتماعي كمعلم من ١٩٤٤ الى ١٩٦٧ . اما نشاطه الديني فقد بدأ بارشاد منظمات الشبيبة المسيحية لفترة من الزمن ، ثم وقع خلاف بينه وبين المسؤولين الدينيين الرسميين حول مفهوم الرسالة المسيحية وممارستها « في قلب العالم العربي وعلى كافة المستويات مما ساهم في تأسيس مجرى جديد تظهر اثاره بصورة واضحة » ★. ومن الطبيعي ان تكون الثقافة الاجنبية الرئيسية لسلوم سركيس هي الثقافة الفرنسية ، ولكن الى جانبها يطالع الالمانية والانجليزية .وقد نال الدكتوراه على اطروحة ذات شقين او موضوعين : اولهما « اللاعنف ومعاناة الحرية » والآخر « ابعاد

★ الكلمات بين الاقواس للاب سركيس في حديث شخصي ، وكذلك المعلومات الواردة في السياق عن سيرة حياته .

الحرية عند سبينوزا » وقد كتبهما بالفرنسية . واذا كان كتابه « المآسي المعاصرة والمصير العربي » هو نصه الوحيد المنشور بالعربية ، فقد أعد للنشر كتابا جديدا بعنوان « العروبة بين الانعزالية والوحدة » .

لنيتشه وباسكال وسبينوزا، فانه قرأ ماركس ولا يزال يحلم بتأليف كتاب حول «الماركسية والعروبة» .. وهو يرى ان « ماركس ليس حول « الماركسية والعروبة » .. وهو يرى ان « ماركس ليس مذهبيا » بمعنى انه أقرب الى النبي وان لم يقل ذلك و « لو امكن تطبيق الماركسية لحلت كل المشاكل » وهو يفرق بين الفيلسوف ورجل الدولة ، لذلك فهو يفرق بين الماركسية والنظم التي اخذت بها .

هذا الخليط الغريب من نيتشه الى ماركس مرورا بباسكال وسبينوزا ، اي من الفلسفتين الالمانية والفرنسية والمادية والمثالية والفاشية والاشتراكية قد انعكس بلا ريب على تكوين سلوم سركيس وادواته في التعبير . انه مفكر نظري قبل أي شيء آخر ، ودراسته الاولى للاهوت عانقت تخصصه الفلسفي وانعكست على رؤياه التجريدية الممزوجة بالمثالية . وقد جسد ذلك كله في اسلوب يقع على الحافة بين الغموض الصوفي والتأملات العقلية المحض والدقة الشكلية لدى الاكاديميين الصرف .

غير ان ذلك كله يذوب في حرارة القضية التي الهبت كيان سلوم سركيس ، يذوب ليشكل مع انتمائه الاجتماعي والوطني والقومي ، رافدا جديدا يصب في مجرى الفكر المسيحي العربي الطالع .. فنيتشه لا ينعكس على المرآة العقلية لسلاب سركيس مفكرا للفاشية بل محطما للخرافات ، وسبينوزا يترك في وجدانه احساسا بشريا بوحدة الطبيعة ، اما ماركس فهو الحالم العظيم بالعدل الانساني . وهذه كلها تتفاعل مع جوهريات المسيح وواقع العرب وقضية فلسطين ، لتثمر في النهاية « مقولة » جديدة تتشابك فيها الجذور بالارض بالفروع .

وقد اتاح لي الاب سركيس ان اطلع على مخطوطة كتابه الذي لم ينشر بعد « العروبة بين الانعزالية والوحدة » ★ .. فرغم ان قضية فلسطين تحتل حيزا كبيرا في كتابه المنشور « المآسي المعاصرة والمصير العربي » الا انني رأيت ضرورة ماسة للتعرف العميق على تصور الكاتب للقضية العربية ، بصفتها المدخل الطبيعي الى قضية فلسطين .

ومنذ البداية اقول بلا تردد ان التفسير الطبقي للظواهر الاجتماعية يداعب مخيلة سلوم سركيس واحيانا يضغط عليها حتى ليصبح عنصرا منهجيا بارزا . انه ، مثلا ، يفتتح كتابه المخطوط بقوله « ان الثروة العربية لا مناص من تبذيرها ما دامت الانعزالية قائمة ، لان الانعزالية تعني ان الثروة في ايدي فئة قليلة وليس للشعب كلمة في السياسة فلا تخطيط ولا رقابة » . ولا ريب ان الباحث قد ضرب عصفورين بحجر واحد في اللحظة عينها : انه يرى تمزق الامة العربية كامنا في التوزيع غير العادل لثروات هذه الامة ، اي ان طبقية المجتمع العربي تحول دون وحدته القومية ، فالتجزئة والانعزالية والاقليمية هي من احدى الزوايا ثمرة اجتماعية للتفاوت الطبقي الحاد . ومن زاوية اخرى يضع الكاتب يده على الديمقراطية كمسألة محورية في تفتيت الوحدة سلبا او في بنائها ايجابا . اي ان غياب الديمقراطية من شأنه ان يكرس التجزئة السياسية وينعش الاقليمية .

وبالرغم من هذا التحليل الصحيح لجوهر المسألة القومية ، فان الاب سركيس لم يصل الى « التركيب » او انه لم يستخلص النتائج المركبة جدليا من هذه المقدمات الصحيحة .. فالارتباط الوثيق بين الدكتاتورية والاقليمية كان من الممكن ان يقوده الى رحاب « الوحدة الاشتراكية » كبناء اقتصادي ونظام سياسي للمجتمع العربي الممزق . ان المضمون الطبقي للاقليمية هو نفسه

★ صدر بعد كتابة هذا الفصل عن المؤسسة العربية للدراسات ـ بيروت ١٩٧٥

الذي يعطي التفسير الصحيح لغياب الديمقراطية .. فالجماهير الشعبية هي صاحبة المصلحة في الوحدة وهي ايضا صاحبة المصلحة في الديمقراطية ، لذلك فمن يقف ضدها هنا يقف ضدها هناك بصورة عفوية تماما .

وتغيم المثالية على رؤيا سلوم سركيس حين يقول « لا ريب عندي في ان تعثر الجهود الرامية الى الوحدة من اتعس مظاهر او نتائج عدم الوعي ، علما بان الوعي المجدي وعي الشعوب لا الحكام » .. فهذا التفسير الثقافي ان جاز التعبير يتناقض كليا مع التفسير الموضوعي الذي قال به منذ قليل ، وهو ان التفاوت الطبقي والانظمة غير الديمقراطية هي الاسباب الحقيقية للتجزئة . ان الوعي سلاح هام في معركة المصير الوحدوي لهذه الامة ، ولكن ضعفه ليس سببا رئيسيا على الاطلاق للتمزق . ذلك ان الشعور القومي لا يحتاج الى ثقافة المثقفين ، فملايين العمال والفلاحين العرب من الاميين يشعرون بوحدتهم القومية على نحو اكثر عمقا من قلق الكثيرين من المثقفين . كما ان معركة الوعي ذاتها هي احدى المعارك الاجتماعية في ظل الانظمة الطبقية وفي غياب الديمقراطية .

ثم يضع سلوم سركيس كلتا يديه على مسألتين تبدوان للوهلة الاولى ثانويتين ولكنهما ليستا كذلك . وهما « الامية وازدواجية المثقفين » و « فصل الدين عن الدولة » . اما المسألة الاولى ، فانها تقترب مما ساقه الباحث حول اهمية « الوعي » في بناء الوحدة العربية ، فالطبقية العربية ليست طبقية اجتماعية فحسب ، بل انها طبقية ثقافية ايضا . وغلبة الامية على الجزء الاوسع من الشعب العربي هو تدعيم للنظم الدكتاتورية المقنعة والمكشوفة على السواء . وبالتالي فالامية من الد اعداء القومية . والمسألة الثانية يقول فيها الكاتب « فصل الدين عن السياسة في المرحلة التي بلغناها ليس امرا مستحسنا ينبغي الحض عليه وتشجيعه حتى لا نبقى بدائيين فحسب ، وانما هو ضرورة لا مناص

منها وحتمية لا تسأل رضى احد ولا يقف احد في طريقها » . ويجب ان نلتفت الى قيمة هذه الكلمات واهميتها المضاعفة حين تصدر عن « رجل دين » .

وبالرغم من ان الاب سلوم سركيس يخصص كتابه « العروبة بين الانعزالية والوحدة » لمناقشة القضية العربية برمتها ، الا انه كان من الطبيعي ان يتطرق الى فلسطين فيقول « ان ما لحق بالفلسطينيين حتى اليوم لم يكن من فعل الصهاينة وارباب فحسب ، بل شارك فيه الكثيرون من المسؤولين العرب كما هو معلوم » . كيف ذلك ؟ لا يرجع بنا الكاتب الى وثائق التاريخ ، وانما يكتفي بهذه المقدمة « كثير من الحكومات العربية ما انفكت تساير الاجانب حرصا على مصالحها الانعزالية » . وينتهي الى هذه النتيجة « ان المؤازرة الاجنبية لاسرائيل كانت دائما هي الاقوى في كل حرب خاضتها الحكومات العربية » . ويحدد الاب سركيس في وضوح اقرب الى اليقين ان القضية الفلسطينية هي باعثة الوحدة العربية وان النضال الفلسطيني من اهم عوامل « الوعي » . ولقد « حمل الفلسطيني السلاح في منفاه ليسترجع ارضه فعرى ما يسمى النظم العربية » .

ويؤكد اخيرا مؤلف « العروبة بين الانعزالية والوحدة » ، على ان « العروبة منطلق وقبلة ، فهي منطلق من حيث انها تراث ، وهي قبلة على صعيد العمل السياسي » . ثم يلتفت الى الوجه الحضاري للمشكلة بقوله « هنالك تراث بشري تكدس طوال قرون في غياب العقل العربي وعلى العقل العربي ان يستوعبه ويهضمه اذا ما كان للعقل العربي ان يشترك في انتاج الحضارة المقبلة .. وليس الاستيعاب والهضم من باب الايمان

بالذات او الشعور بالتفوق ، انما الاستيعاب والهضم من باب وعي الـذات » .

قلت انني كنت حريصا على تقديم الفكرة العربية كما يراهـا سلوم سركيس قبل تقديم فكره الفلسطيني ، لان هذا الفكر الاخير ليس اكثر من فرع ينتمي الى شجرة اكبر هي القومية العربيـة . ومن المفيد ان نحدد جذور هذه الشجرة فـي الافكـار الاساسـية التاليـة :

● ان الاب سركيس يرى قوميتنا حقيقة موضوعية مستقلة عن ذواتنا ، ولكن الوعي بها يكسبها قوة ، وغياب الوعي يؤدي الى تفتيتهـا .

● انه يرى كذلك ان العروبة ليست جنسا ولا دينا وانما هي مرحلة حضارية في التطور الاجتماعي لشعوب هذه المنطقة مـن العالم . ولعله يحذرنا ضمنا من الفهم العرقي لقوميتنا حتى لا نقع في احابيل العنصرية ، كما يحذرنا من الفهم الديني حتى لا نسقط في وهاد التعصب .

● القومية شيء والوحدة العربية شيء آخر .. ان التجزئة المريرة لوطننا لا تمحو شعورنا القومي ، ولكن الوحدة تبعثه عـلى نحـو جديـد .

● قوميتنا الكبرى لا تتنصل من الملامح التفصيلية والقسمات الخاصة ، ولكن الوعي بهذه الملامح ومعالجتها موضوعيا من شأنه ان يغني القومية ويخصبها . اما التجاهل فلا يثمر سـوى المزيـد من التخلف والضعف والهزائم . ان الاعتراف بالاقليات الدينية وشبه القومية في الوطن العربـي لا يكـرس ـ بحـد ذاتـه ـ التجزئـة السياسية ، وانما استغلال هذه الاقليات بالمزايدة او المناقصة هو الذي يضر بالمسألة القومية كلها .

● التأصيل التاريخي للعروبة لا يفرق الا اذا كـان المنطلـق النظري اقليميا وانعزاليا . التأصيل التاريخي يبحث عـن المنابـع

الاولى ويتتبع تطورها، فحضارات المنطقة هي غذاء روحي لا ينضب لتكاملنا القومي . اما « الوحدانية » التي يتوهم الكثيرون ان القول بها يبطل الدعاوي الانفصالية ، فهي خطر مضاد للعالم والامة . القول مثلا بوحدة الدين او وحدة الجنس ابعد ما يكون عن الامانة التاريخية والعلمية ولا يؤدي الى الوحدة القومية الحقيقية .

● النزعة الاقليمية في الاساس هي نزعة طبقية معادية للديمقراطية ، فالطبقات الشعبية هي صاحبة المصلحة الاكيدة في الوحدة وصاحبة المصلحة الاكيدة في الديمقراطية . لذلك كانت « انظمة » الحكم العربية في مجملها ضد الوحدة وضد الديمقراطية لانها ابعد ما تكون عن التمثيل الشعبي الصحيح .

● « اسرائيل » ليست سرطانا اجنبيا فحسب وانما هي طاعون عربي كذلك ، افرزته وحدة المصالح بين الاقليات العربية الحاكمة والاستعمار الغربي والمطامع الصهيونية .

● اصالتنا القومية لا تتعارض مع الانفتاح على ثمار العقل الانساني بل ان صهر هذه الاصالة وبعثها يستوجب التعويض عما فاتنا في عصور الانحطاط .

● لا بديل لمحو الامية والعلمنة حتى يتم القضاء على ازدواجية الثقافة ويتنامى الوعي ، وحتى يتم القضاء على ازدواجية الانتماء الى الدين والوطن .

ولعلنا نلاحظ ان الاب سركيس لم يستشهد في ذلك كله بالانجيل او المسيح ، وانما بالتاريخ والمنطق ، وقبل ذلك وبعده ، بشعوره القومي .

وبهذه الرؤيا العربية ندلف الى « المآسي المعاصرة والمصير العربي » الذي افرد للقضية الفلسطينية الحيز الاكبر .

يفتتح الاب سركيس بقوله ان « ليس لوجودنا مبرر ما لم نتحرر ونساهم في تحرير الانسان والامة » واغلب الظن انه يسوق هذه الكلمات دفاعا عن تعاظم التيار الجديد الذي يشق مجراه في

صفوف رجال الكنيسة العربية . يسوقها في وجه الذين اكتفوا من المسيح بثياب الكهنوت السوداء او البيضاء . يلي ذلك مباشرة قوله « ليس بين المسيحية العربية والاسلام العربي من حاجة الى حوار يفتتح لان الحوار قائم منذ ان قام الاسلام . انما على كل واحد ان يعيد النظر في نفسه . ولا نقصد هنا المبادرة ، انما نكتفي بمحاولة للتقرب من الروح العربية » . ثم يضع الاطار المنهجي للبحث في هذه الحدود التي يشير اليها « ان رؤية الواقع المرير والثورة عليه لا يعنيان اننا نتحسر على الماضي . فالماضي عامر بالهفوات حتى لا نحن اليه . ولو لم يكن عامرا بالهفوات فكيف صرنا الى ما صرنا اليه؟ ان التاريخ لا يرتجل ولا يقفز قفزا » .

اما اللوحة الاساسية التي يضعنا في هذا الاطار . فهي فلسطين . ولا يعبأ سلوم سركيس بمشاعرك الدينية — سواء كنت مسيحيا او مسلما — حين يفاجئك بانه عندما يتكلم عن فلسطين لا يفكر « الا بالفلسطينيين وهم اغلى بكثير من القدس والاماكن المقدسة » . ولا يعبأ ثانية بموقف الفاتيكان — وهو رجل الدين الكاثوليكي ! — فيفجأ الكرسي البابوي بقوله «هل شهدت اقذر من هذا التعفف الذي ينادي بتدويل القدس ويتناسى شعب فلسطين؟» ولا يرحم احدا فيلقي بقنبلته المدوية « ان الراغبين في الاطلاع والقادرين على الفهم لا ادلهم على شيء مثل ما ادلهم على تاريخ الجحيم الفلسطيني ، لان الغزاة في هذا القرن شر بما لا يقاس ممن سبقهم من الغزاة الصليبيين » .

ولان الاب سركيس كان صارما وحاسما في قوله بمخطوطه « العروبة بين الانعزالية والوحدة » اننا « ما دمنا منقسمين مشتتين فسنبقى من الماضي ولن يسجل لنا التاريخ شيئا بعد ، فلم ندخل التاريخ اول مرة من بابه العريض الا على اساس الوحدة » فانه لا يقل ايمانا — صرامة وحسما — حين يصرخ بالوجيعة وما يشبه البكاء والنبوءة « ستأتي ساعة ، كما حدث فيما

سلف ، لا يفيد فيها الاثم ويعود الفلسطيني الى ارضه » .

وهو يدير الفصل الثاني من (المآسي المعاصرة والمصير العربي) حول ما دعاه « الملح الذي فسد او ازمة الاديان الرسمية » فيرى ان العقيدة اذا فقدت المعاناة انقرضت . ويرى ايضا ـ موافقا جارودي حول محاضرته عن الاسلام والاشتراكية ـ ان المفهوم الديني يحتاج اولا ودوما الى اعادة نظر تتفق مع منجزات العصر وحاجات الشعب ، وانه ينبغي التصدي للذين يستغلون اللبس والغموض لمصالحهم الطبقية او الاستعمارية .

والفصل بأكمله يرفض التوفيقية او التعسفية ان شئت الدقة ، فهو لا يطوع النصوص الدينية لخدمة هدفه السياسي ولا يفعل العكس . وانما هو يتناول الجوهر الذي تلتقي عنده القيم الاخلاقية كافة ـ بما فيها القيم الدينية ـ ويعيد النظر فيه على ضوء المعاناة الانسانية .

ويتمهل الاب سركيس عند الموقف الرسمي من رجال الدين . ويذكر حادثة وقعت في فنزويلا حين توجه بعض « الوجهاء » الى كاهن الضيعة وبادروه قائلين « لك منا كل ما تحتاج اليه ، ولكن اياك من التوجه الى القرويين بكلام عن العدالة الاجتماعية وما اشبه والا لرحلت سريعا » . ثم يستند على قول شهير للبابا بولس الحادي عشر جاء فيه « ان مصيبة الكنيسة في القرن التاسع عشر قامت باهمالها الجماهير العاملة » .

ونقطة الانطلاق في موقف سلوم سركيس هو ما ندعوه بالمعاناة الانسانية . اي ان رجل الدين المسيحي ـ فضلا عن المواطنين ـ لا يمكنه الحياة المستقلة عن « الانسان » من حوله ، والا تحول الى تابوت ذهبي يحسن وضعه في المتحف . ان المعاناة الانسانية لا ترادف المعاناة الروحية المعزولة عن حياة البشر ، فمجاهدة النفس او الذوبان في ضرورة الخلاص الفردي وهم من الاوهام . والخلاص الحقيقي ليس مونولوجا داخليا بين احشاء الذات وسماوات الله ،

فالمسيح نفسه لم يكن هكذا ، وانما هو قد حمل الصليب : اي انه من خلال الحياة البشرية ظفر بخلاصه الروحي « وفيما يتعلق بالمعاناة الدينية لا بد من التنبيه الى ان التفلسف لا فائدة منه كما ان العاطفية مضرة . فأما التفلسف فكالطاحون الذي يدور على فراغ ، وهو يضل الدين في مهاترات كلامية ويغذي التعصب . واما العاطفية فتعمي الشخص عن ذاته وتورط الدين في الحماقة او السفالة ، لذا كان دور العمل قبل كل شيء امتحان القيم » .

ويضيف الاب سركيس الى المعاناة قضية العلم ، اي الوعي والمعرفة . ولكن بارتكازه على المعاناة يقترب في الكثير من الفلسفات الوجودية القائلة بالاختيار الانساني وان حياة الانسان هي مشروع دائم . اي ان المعاناة التي يقترحها هي في خاتمة المطاف مجهود فردي وليست اكتشافا اجتماعيا . وقد ادرك الباحث ذلك فأضاف العلم . ولكنه الوعي او المعرفة المؤسسة على التجربة الشخصية. هكذا تفلت مرة اخرى موضوعية العالم اذا لم تحقق المعاناة الانسانية الهدف .

ان المثالية الالمانية بالذات ترفرف هنا بجناحيها على تفكير سلوم سركيس ، وكذلك مسيحية باسكال . وهنا تأتي اهمية سبينوزا في انتشال هذا التفكير من وهدة المعاناة الميتافيزيقية الخالصة الى آفاق وحدة الوجود الانساني « ومعنى ذلك ان ليس من الحاد على الصعيد العملي . وقد اسلفنا من يعالج موضوع الالحاد النظري انما يكشف فقط عن خلاف بين الناس حول تصور الالوهة . ومن الطبيعي ان يختلف الناس على صعيد المخيلة . اما على صعيد العقل فكل انسان يعرف بالخبرة (اي بصورة جلية) حقيقتين اساسيتين : اولاهما ان الكون واحد وان تعددت وجوهه، والله هو مبدا وحدة الوجود » .

ويجوز التساؤل مع ذلك – يقول سلوم سركيس – كيف فسد الملح « ويبدو ان الدين نفسه يفسد على اربع صور ، بأن

تغلو اركانه النظرية وان تتعدد المستويات فيه ، وان يعلو الحـرف على الروح ، وهي الحرفية او الشكلية ، وان تتضخم الشعائر » . ويسخر الكاتب سخرية مرة من اولئك اللاهوتيين الذين يتصورون النور في الكلمات لا في العقل . ويصيح الرجل بأعلى صوت « أي مسيحية هذه التي تتيح لاحد الرادلة ان يبارك الجنود الامريكيين في طريقهم الى فيتنام ؟ واي لاهوت هذا الذي فاه به احد الكرادلة اذ قال ان ما يهمه لا ان يسوع أتى بمسلك اخلاقي بل ان يسوع هو مخلصه » .

ولكن سلوم سركيس يستعيد هدوءه الى درجة البرودة وهو يغرس الابرة الملتهبة في رأس الدمل ، حين يقـول بالحرف (ص ١٣٠) « ويقال ان اليسار كافـر ملحـد عنيف ينـاهض الديـن فيحذرون ويجزعون منه لانه يهدد النظام والامـن . ولكـن حيث يكون الظلم فكلمتا نظام وامن لا تعنيان شيئا او تعنيان تقديس الاثم . وحيث يكون الظلم وجب ان تكون في اليسار وتحـارب » . ليس ذلك فحسب بل « اذا لزمت الحياء وانسحبت من المعركـة آزرت الظلم ، واذا حاولت تبرير انسحابك بدوافع دينية افسدت الدين وجعلته كريها » . اليسار عند الاب سركيس ليس كافرا ولا ملحدا « وانما اهل الدين بداوا فأفسدوا الدين . واليسار فـي حقيقـة الامر اقرب الى الايمان من اليمين ». ثم يختتم هذا المحور الرئيسي بهذا الشعار اللامع « موت الدين هو البرجوازية وحياة الدين هـي الانسانية » (ص ١٣٣) .

ويبدو الفصل ـ على هذا النحو ـ بأكمله ، دفاعا عن الموقف الجديد لطليعة الفكر المسيحي العربي ، والتقدمي ، يحوطه الغموض والتجريد احيانا كثيرة نتيجة المنهج التأملي في التفكير ، وتتخللـه المثالية الفردية احيانا اخرى نتيجة التكويـن الفلسفـي الخـاص وادوات التعبير . . ولكنه في خاتمة المطاف دفاع عن الحق المسيحي في الثورة التي لم يكن انتخاب ايليا خوري واعتقال المطران كبوجي

ووقف المطران حداد الا تجسيدا عمليا لهذا الحق الذي اغتصبه اللاهوت طويلا وقايضت عليه الكنيسة طويلا طويلا ، وكان لا بد من هؤلاء الرواد ــ الشهداء ، ليعيدوا الى المسيحية شرفها الحقيقي ، ليعيدوها الى الانسان .

ويبقى للحوار اخطر فصول كتاب سلوم سركيس حول « ابن البغضاء : اسرائيل » .. انه برنامج العمل الذي يقدمه للنضال المسيحي العربي في مواجهة الصهيونية لاستعادة الحق الفلسطيني .

★★★

« الحقيقة الفلسطينية باقية ما دامت هنالك امة عربية » .. بهذه الكلمات البسيطة الحاسمة يبلور سلوم سركيس رؤياه للجرح الفلسطيني في جسد الوطن العربي وروحه « فالصراع الحقيقي قائم من ناحية بين الامة العربية وجميع الذين يحاولون من الخارج او من الداخل اعاقة نموها ، ومن ناحية اخرى وعلى الاخص بين الشعب الفلسطيني وجميع الذين هم في الخارج والداخل يتخيلون ابقاءه بعيدا عن أرضه » .

ولكن سلوم سركيس ــ وهو الكاهن العربي المسيحي ــ يبدأ القصة من اولها . القصة التي روت التوراة بدايتها عن شعب غريب اضطهد في مصر حوالي القرن الخامس عشر قبل المسيح فهرب الى فلسطين (وكانت حينئذ أرض كنعان) وقضى على اهلها واستقر مكانهم . وبعد خمسة عشر قرنا من تاريخ مشحون بالاحداث لم تنقطع فيه الخصومات الداخلية أصبحت البلاد مستعمرة رومانية « آنذاك ظهر المسيح حاملا رسالة اخلاقية شاملة .. تناهض شكلية الديانة القائمة وتعصبها وجمودها » فاضطهده قومه وحكموا عليه بالموت . واتصلت القلائل من بعده وقامت محاولات ضد الرومانيين ولكن السكان تبددوا في ما سمي بالشتات ، حيث عاش اليهود الذين لم يتنصروا على هامش

الامبراطورية والدين الجديد . ثم صدر مرسوم ميلانــو وسقطت روما وتنصر البرابرة واتحدت الكنيسة والدولة فزاد ذلــك فــي انزواء اليهودية « وساد الاسلام في الشرق فعامل اليهــود معاملة النصارى . واما في الغرب فولد الجيتو » . غير أن الاسواق التي فتحها اكتشاف اميركا وما أحدثه من الاصلاح والحروب الدينيــة من تفسخ في المجتمع الغربي ، كل ذلك ســاعد في ظهــور نخبــة يهودية ومساهمتها في الثقافة بصورة فرديــة . واستفادت تلــك النخبة من التسامح الذي تــلا الثــورة الفرنسية . ولكــن يقظــة القوميات الاوروبية طردت اليهود الى هامشها « فجرى الحــديث آنذاك عن اضطهاد السامية ثم نشأت فكرة جمع اليهود في وطــن قومي . وفكروا بفلسطين من البدء ، أعني انهم مــن البدء استغلوا الشعور الديني لاغراض سياسية فكانت الصهيونية » .

أيا كانت تحفظاتنا عــلى تصــور الاب ســركيس لنشــأة الصهيونية ، فان موقعه الديني ينبغي الا يغيب عن بالنا لحظــة ، وهو موقع بالغ الاستنارة والتحرر ، فالمتهم الاول فــي « المأســاة اليهودية » عند المؤلف هو المسيحية ذاتها وبالتحــديد « الغــرب المسيحي » . يقول « آثر المسيحيون استغلال المسيح على الاقتداء به » . وينتهي الى انه « لو كان أتيح لليهودي في الغرب كما اتيــح له في الاسلام أن يحتفظ بمذهبه ويشترك مع ذلــك فــي الحيــاة الثقافية لكان اليهود مارسوا شعائرهم علانية ولما وجدوا الجيتــو ولما توكل التلمود بتعميق دين البغضاء » . ولحساسية هذه النقطة واهميتها معا ، يجدر بنا ان ننقل حرفيــا مراحــل تحليــل الاب سركيس لظاهرة الصراع بين المسيحية الغربيــة واليهــود والتــي تجرع العرب كأسها المرة . يقول ما نصه :

● « ان الدلالة الكبرى على فساد المسيحية انها لــم تغفــر كالمسيح واخذت على عاتقها الثــأر ليسوع فاضطهــدت نفسهــا . واللاهوتيون لا المسيحيون تخيلوا ان في ولادة المسيحية وازدهارها

دلالة على (حقيقتها) وادعوا ان ولادتها نهاية اليهودية وحكموا على اليهودية . وأن تكون لاهوتيا بهذا المعنى ببرهن ان المسيحية لا تختلف عن اليهودية روحا ، وأن المسيحيين يهود منشقون ليس الا، يناهضون الفئة الاخرى وان الاقوى هو المحق » .

● « وقد نشأت المأساة اليهودية من ان المسيحيين رفضوا الاعتراف بشرعية اليهودية فلم يتسامح القوي تجاه الضعيف . واستتب المرض أولا عند المضطهدين (بفتح الهاء) . ولم يستتب المرض عند المضطهدين (بكسر الهاء) الا في اثر البربرية النازية وانتعاش الاسلام العربي فتحولت البغضاء القديمة الى ظاهر العطف والشفقة . وقد انحلت المسيحية الرسمية تحت ضربات المال اليهودي واليأس اليهودي ففرحت العرقية الاوروبية بأن يهجر اليهود أوروبا وتظاهر البغض الاوروبي بغسل اليهود ومناهضة الاسلام حتى اجترأوا على وصف المعضلة الاسرائيلية بأن لها أبعادا دينية » .

● « وتداخل اليهودية هذا في المسيحية يفسر عداء البارحة وظاهر مصالحة اليوم . فالديانات المتكمشة يناهض بعضها بعضا . فاذا دهم الخطر تجمعوا ضد ما يتوهمون انه عدو مشترك . ومن هذه الناحية ، فان تحالف المسيحية الغربية واليهودية الصهيونية ضد الاسلام العربي له دلالة خطيرة جدا . فهم لا يغفرون للاسلام العربي أن يكون شيد امبراطورية من أعجب واخصب ما عرف التاريخ . ولا يغفرون له أن يكون بعث من رماده وفرض ذاته فيما طمست قيم المسيحية الروحية بجشع أرباب الاموال منهم . واحفاد الصليبيين واخوانهم في الدم والدين يعرفون ان صلاح الدين رجل عرفه التاريخ ولا يرضون أن تعيش سلالته . فتراهم يمدون يد المساعدة الى المتطوعين لمساندة راس المال ضد الروح » .

● « وليس من جدوى في التساؤل عما كان اليه وضع الجاليات اليهودية بعد تسعة عشر قرنا في غرب أقل خوفا من

الغريب او اقل عرقية . ولما كانت ظاهـرة الاقليات امـرا شـائعا تسهل مراقبته ، فالارجح ان وضع اليهود لكان أشبه بوضع غالب الاقليات الطائفية او القومية ، أعني تعايشا له درجاته ولكنـه مفيد جملة من جميع نواحية . واذا كانت الامـور في الغـرب اتخـذت مجرى مختلفا فمن المهم الاشارة بجلاء الى ان محاولة صبغ الظاهرة الصهيونية بألوان القومية لا اقناع فيها » .

تلك هي المقدمة النظرية التاريخية التي ينتهـي فيهـا الاب سركيس الى أن الصهاينة الاول حين شرعوا يفكرون في وطن قومي لليهود وخطرت على بالهم فلسطين تمسكوا بها لان التجمـع فـي غيرها مخاطرة ، ولان تراثهم الديني يسعف خيالهم العنصري بأرض المعاد « ولانهم كانوا على يقين من أن الاسلام لن يضطهدهم » بينما الغرب المسيحي كان قد اكتشف في هذا الحل حلا لمشكلاته هـو : مشكلته اليهودية أولا ثم مشكلاته الاقتصاديـة والسياسـية مـع العرب . وكان وعد بلفور عـام ١٩١٧ تجسيدا عميقـا لطموحـات الغرب المسيحي بأكمله ـ لا بريطانيا وحدها ـ في الشرق الاوسط عموما ، والشرق العربي خصوصا .

كيف ؟

يجيب سلوم سركيس باضعاف العرب وتقسيمهم الى دويلات عاجزة عن تهديد الدولة الدخيلـة . ولا يحجـم الغربيون لانجـاز الهدف عن السعي الحثيث لدى الدول العربيـة للاعتراف بالامـر الواقع «والرضى بوجود اسرائيل وهضم الفلسطينيين أو ابادهم» . ويضرب المؤلف ثلاثة امثلة على أشكال الاستعمار المختلفـة التـي كرست تجزئة الوطن العربي ، وهـي تلقيـن الثقافـة الاجنبيـة واستغلال الفروق الطائفية وافساد البراجوازيـة تفاديـا ليقظـة الجماهير « ومنذ ذلك التاريخ تبدو دولة اسـرائيل وكأنها نعمـة يستفيد منها جميع المستعمرين قدامى وحداث لاضعاف الـدول العربية الجديدة وابادة الشعب الفلسطينـي » . ثـم يضـع الاب

سلوم سركيس اصبعه في الجرح ، حين يشير بالاتهام الى الفئات التي علمها الاستعمار ورباها « فيدعون أنهم وان نطقوا بالعربية بفعل الظروف فليسوا عربا وانما هم فينيقيون آراميون كنعانيون وما أشبه من المتحجرات . ولكل امة طفيليوها يرتعون ساكتين ما دامت في سلام واذا امتحنت تحركوا فهاجروا أو حايدوا او ساهموا مع الذين كانوا أصل البلاء » . وبالرغم من أن الكاتب لا يسمي الاشياء بأسمائها الا أنه يتكلم في لبنان ! وهذا يكفي .

وينتقل الباحث الى الجانب السياسي منطلقا من أن تعبير «مشكلة الشرق الاوسط» ليس اكثر من «كناية عن جملة مطامع لئيمة يدفع ثمنها الفلسطينيون » . ويرى أن الجدال يطول الى ما لا نهاية اذا ما طرح السؤال عن حرب حزيران ١٩٦٧ اهي حصيلة مؤامرة طويلة عريضة محكمة أم هي حصيلة التهور السياسي العربي « على ما يعتقد جميع المغفلين » .

ويتوجه سلوم سركيس الى الجيل الجديد من الشباب « فالكهول ورثوا ستة قرون من العبودية والانقسام وليس من السهل أن يستعيدوا ثقتهم بأنفسهم ويكتشفوا دعوتهم ويسارعوا الى التطوع في بناء عالم جديد » . ذلك أن فلسطين هي علامة العصر الجديد ، والنضال الفلسطيني من هذه الزاوية « بوتقة لا شبيه لها » فالفلسطينيون اذا نطقوا بالثورة كان لقولهم معنى ، ولا تستهويهم العبارات المبتذلة « لانهم يمارسون كل يوم تجارب بليغة » .

ان الواقع الفلسطيني ليس محكا لقيم العالم المعاصر فحسب ــ يقول المؤلف ــ وانما هو مصدر حياة جديدة للقيم الانسانية « وهو بالنسبة الى العالم العربي انتقال النهضة من طور الاماني الى طور العمل » . واذا كان الفلسطيني وحيدا جريحا « فقد تجمعت فيه قيم ثلاث كبرى هي الوعي والايمان وقوة الروح » . لذلك يعتقد الاب سركيس أن الشعب الفلسطيني بوعيه

وايمانه وقوة روحه « هو اليوم شاهد الانسان الجديد وموقعه وفاعله ، لانه وان لم يكن لديه سوى التمسك بحقه فقد تولى وحده تصنيف القيم والناس والمجتمعات ، كما تولى ان يجعل في الالفاظ محتوى حقيقيا ويستنبط صيغا ملائمة يعمل على ادراجها في التاريخ » .

★★★

لقد آثرت ان انقل نصوصا حرفية من كتاب « المآسي المعاصرة والمصير العربي » للدكتور الاب سلوم سركيس ، واكثرت من هذه النصوص عامدا اولا واخيرا الى عرض هذه الرؤيا التحليلية الشاملة التي تفرف من نبع المسيحية العربية هيكلا نظريا متماسكا يلتحم بالدم الجاري في شرايين الامة العربية ويصب في قضية عصرنا : فلسطين . كان يعنيني ان اعرض لمصادر هذه الرؤيا واركانها ، اكثر مما يعنيني تحليلها وتقييمها . ان البشارة الحقيقية في هذا الكتاب ومؤلفه اننا بازاء نهضة مسيحية جديدة واننا في سبيل بنائنا لكنيسة عربية جديدة تستلهم انبل ما في تراثنا الحضاري المتصل لصياغة اروع ما في المستقبل من نبوءات ، ضمن مواجهة الحاضر والعصر مواجهة النضال الوطني والقومي والانساني المقدس ، فلا قيامة من بين الاموات الا عبر الجلجلة درب الصليب. والفلسطيني المعاصر هو مسيح هذا الزمان وعلامة قيامته « لن ينفك قائما يوم بعد يوم يخط ملحمته بدمه وحيدا جليلا قاهرا » .

.. ومن له اذنان للسمع فليسمع !

« قضايا عربية » ـ تشرين الاول ١٩٧٤

السؤال ... والجواب

لعل الامة العربية لم تشهد التحاما في تاريخها الحديث ★ ، كالذي شهدته خلال حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ولعلها ايضا لم تشهد الفرقة والتمزق كما شهدتهما بعد هذه الحرب .

هل هو قانون ؟

فهذا ما حدث مثلا بين عامي ٥٦ و ١٩٥٨ حيث كان تأميم قناة السويس في مصر بداية التلاحم العربي التاريخي بين مختلف قوى التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي من المحيط الى الخليج . وكانت هذه الفترة هي مرحلة المخاض العظيم بميلاد الثورات الوطنية العربية في المشرق والمغرب على السواء . توجتها ورمزت اليها الوحدة المصرية السورية .

ولكن ما جرى بعدئذ ، هو المأساة بعينها : تناحر الوطنيون وتصارع التقدميون ، فاقبل الانفصال والجزر الديمقراطي العنيف .

انه السؤال المطروح اليوم وقبل غد على الساحة اللبنانية ، وبالتحديد على جبهة العمل الوطني اللبناني .

وقبل ان نجتهد في تقديم الجواب المحلي ، علينا ان نستنير بالجواب القومي .

.. فالحق انه ليس قانونا ان تتناحر القوى الوطنية

★ كتبت اثناء الهدنة السابقة مباشرة على اكبر واخطر جولات القتال .

والتقدمية ، وان كان القانون هو ان تختلف ، فهذا مـا حـدث في كل زمان ومكان وفي كل التجارب الثوريـة ، بحكـم التباين فـي ظروف النشأة السياسية والتكوين الطبقي والرؤية الايديولوجية.

ولكن ، لماذا حدث ما حدث ــ من بحيرات الدم ومستنقعات الكلام ــ بين العرب وبعضهم البعض في الخمسينات والسبعينات، حتى يبدو لنا الامر وكأنه قانون ، ان تتمزق قوانا الثورية وتتفتت اكثر كثيرا من حدة الصراع بينها وبين العدو ؟

لذلك اسباب عدة اهمها :

● اليقين الغيبي المطلق بوحدانية الزعامـة والعصمـة مـن الخطأ وان هذا التنظيم ــ واحيانا الفرد ــ دون ذاك هو الاكثر وعيا وقدرة وبالتالي الاكثر وطنية وتقدما . اي عدم الايمـان الجـدي بالديمقراطية حيث الممارسة العملية وحدها فـي صفوف الشعب ــ وليست الاوهام النظرية ــ هي التي تضع كل تنظيم وكل فرد في مكانه الطبيعي . وحيث يحتاج العمل الوطني الـى طاقات مختلف القوى والاتجاهات التي تشارك في دفعه الى الامام لا فضل لاحدها على الاخرى الا بمقدار ما تقدمه من عطاء . وحيث الايمان العميق بأن الحوار الموضوعي الخلاق ، والاحتكاك المباشر بين مواهب العقول وخبرة الممارسة ، هو الذي يرشح دائما القيادات الاكثـر تجسيدا للامل ، ويبلور الافكار الاكثر تعبيرا عن التقدم ، ويجسم الاشـكال الاكثر تنظيما للنضال .

● الرواسب الرجعية المتخلفة سواء في بنية التنظيم او في تكوين الفرد ، وقد تكون اوهاما ايديولوجية او اصولا اجتماعية .. حتى ان بعض الاعداء المحليين او القوميين او الدوليين ، يجـدون لهم « صوتا » في هذا التنظيم او ذاك وفي هذه الزعامـة او تلـك نتيجة هذه الثغرة في البناء الحزبي او التكوين الزعامـي .اي ان الرجعية والاستعمار كثيرا ما يكتشفون ان لهم « حضورا » غيـر مباشر في صميم الحركة الوطنيـة والتقدمية دون ان يكـون لهـم

« عملاء » بالاجر او العقيدة . وذلك بسبب غشاوة « النقاء » التي تخفي عن العيون « الطاهرة » مكامن الفساد .

● الانفصال المدمر بين القيادة الطليعية ــ الحزب او التنظيم ــ والقاعدة الجماهيرية الواسعة في الحرب والسلم ، في الشارع والمصنع والمزرعة والنادي والمكتب ، في الجبهة والمستشفى وبين النساء والاطفال ، فوق الارض وتحت الارض . ولم يخلق بعد الزعيم او التنظيم الذي « يفكر بالنيابة » عن الجماهير ، الا اذا كان دكتاتورا مجنونا بالنبوة . وحين قال عبد الناصر ان الشعب هو المعلم لم يكن هازلا ولم يكن يمزح، فالحقيقة هي ان الاتصال الدافىء المستمر بالجماهير هو الذي يولد الافكار ويستثمرها لمصلحة الثورة . ان الكلمات البسيطة من افواه الشعب والافعال البسيطة للجماهير ، بل اشكال السلوك هي مصدر اكثر « النظريات » عبقرية ، هي التي تلهم المناضلين وتربي الكوادر وتصحح الاخطاء وتبدع الوسائل والغايات . وبغير القنوات السالكة والآمنة بين الطلائع والشعب ، لا سبيل لتقمص روحه او التناسخ معه . وبالتالي تصبح افكارنا ككرات الزئبق فوق لوح من زجاج سرعان ما تنزلق دون ان تترك اثرا .

.. ولا شك بعدئذ ان اعداء الحركة الوطنية من الرجعيين وعملاء الاستعمار والاستعماريين انفسهم يستغلون هذه الثغرة او تلك لمصلحتهم . وبالطبع فهم ليسوا بلهاء حتى يقفوا على الحياد ، بل هم ينجحون احيانا كثيرة في توسيع الثغرات والنفاذ منها والوصول الى ما تحت الجلد ، بين الدم والعظم !!

★★★

لذلك كله كانت الحركة الوطنية اللبنانية اليوم وقبل غد ، امام امتحان عسير ، ولكنه عظيم الدلالة . انها في الحرب قد تلتحم عفويا ببعضها البعض ، وقد تتصل بالشارع الشعبي قسرا واضطرارا ، بحكم القتال وهوية الحرب واسلوبها . ولكن الهدنة

القصيرة او الطويلة وحتى السلام الدائم ، ينبغي ان يتحول لا الى اعادة تنظيم الصفوف العسكرية فحسب ، بل الى اعادة تنظيم الصفوف الفكرية والجماهيرية ايضا .

لا بد من :

● اعادة النظر في الاخطاء والخطايا . وفي هذا الصدد لا بد من الاقرار — والتكرار — بأن هذه الحرب بدات « وقائية » من جانب الطرف الآخر ، اي انها فرضت فرضا على الحركة الوطنية التي لم تكن في الاغلب مستعدة لها (سواء عن حسن نية او عن خطأ في تحليل الاوضاع او عن ايمان بالصراع السلمي ، فالنتيجة واحدة) . ومن ثم ، فان هذا الشكل الجديد للصراع قد فاجأ الغالبية العظمى من صفوف الحركة الوطنية . وبالتالي ، فمن البديهي أن تقع الاخطاء وتحدث الخطايا . ليس ذلك تبريرا لما وقع بل تفسيرا له .

وحتى لا نفزع من انفسنا ، فانه خلال القتال امكن تصحيح بعض الاخطاء تلقائيا ، بتصاعد الوعي والممارسة .. كرفض الاشتراك في اساليب الخصم (الخطف والقتل على الهوية والتمثيل بالجثث) . وقد كان ذلك في احدى الفترات خطأ جسيما بل خطيئة مميتة ، تسببت حتى في بعض المفارقات المأساوية الصارخة !

كذلك نجحت الحركة الوطنية في غمرة التجارب ان تزيح عن كاهلها عبء الايقاع بها وشق صفوفها ، واذا كان هذا الامر يبدو خطرا اثناء القتال ، فان الخشية منه تصبح افدح اثناء السلام المؤقت او الدائم . وقد كان هذا الخطر في بعض الاوقات خطأ جسيما بل خطيئة .. لانه اذا كنا نحارب عدوا لا يعترف للاخرين بحرية الاعتقاد وتنوع الفكر ، فانه من العار ان نحاكيه ونرفع « الفيتو » في وجه احد صفوفنا !

● لا بد من اعادة التفكير وامعان النظر في « شكل » الحركة

الوطنية . ان الاجتماعات الدورية وغير الدورية والعاجلة والطارئة وغير العاجلة وغير الطارئة لبعض الاحزاب والمنظمات والفرق لا تشكل تنظيميا كيان « الجبهة » .. فالنضال العسكري المشترك وما يستتبعه من « لقاءات » ليس هو الجبهة ، خاصة اذا كان « السلام » سيجيء اليوم او غدا او بعد غد . وحتى اذا تجدد القتال ، فان « الجبهة الوطنية » هي الشكل التنظيمي الاقدر على الفعل والمواجهة ، لا هذه الندوات المؤقتة والمنتديات شبه الصحفية شبه السياسية .

لقد آن الاوان — منذ زمن بعيد ! — لتأسيس الجبهة الوطنية الديمقراطية اللبنانية ، كتنظيم سياسي شامل للمعارضة الحقيقية، بواسطتها يمكن البدء في تذويب الكيانات العشائرية والصيغ الطائفية . بواسطتها ايضا يمكن « الثبات على المبدأ » فلا يصبح المرء مواليا او معارضا بين يوم وليلة ، بتغيير محسوب لهذه الحكومة او تلك . بواسطتها اخيرا يمكن صياغة « برنامج العمل الوطني » لمرحلة طويلة طويلة .

والجبهة الوطنية اللبنانية لا ينبغي ولا يمكن ان تكون نسخة من الجبهات المعروفة في التاريخ او في بعض اقطار الوطن العربي، وانما هي ستأخذ في الاعتبار اولا الواقع اللبناني بمختلف خصائصه ومميزاته وتناقضاته الظاهرة والباطنة . غير ان هذا لا ينفي عنها جملة الشروط العامة والجوهرية لقيام اية جبهة من هذا النوع .

واول هذه الشروط واهمها على الاطلاق هي كونها عمل ستراتيجي وليس تكتيكا مرحليا ، لا تنتهي بسلام بعد القتال ولا باصلاحات جزئية يتم الاتفاق عليها بين اهل النظام . وانما هي ذات مضمون سياسي ستراتيجي مؤاده ان لبنان — لوقت يطول في المستقبل المنظور — سيظل قطرا عربيا راسماليا يلزمه التحديث في مواجهة الطائفية العشائرية ، والتطوير بتحويله الى اقتصاد حر وطني غير تابع لا ممرا لغزو الاستعمار الجديد بمختلف اقنعته الحديدية والحريرية .

ان هذا المضمون الاستراتيجي يستتبعه بالضرورة شكلا ستراتيجيا هو **الشرط الثاني** لقيام الجبهة . وذلك هو التنظيم السياسي الشامل لمختلف الاحزاب والمنظمات والهيئات والشخصيات الوطنية التي تجتمع حول الخطوط العريضة او ما يسمى بالحد الادنى لبرنامج العمل الاستراتيجي . وهو الشكل الذي يقوم على مبدأ « الوحدة في اطار التنوع » ، فالاتفاق حول مجموعة من المبادىء والاسس العامة بل والاشتراك في اعمال تكتيكية لا يلغي مطلقا الاستقلال الايديولوجي والتنظيمي لكل حزب ومنظمة وفرقة وشخصية . على ان التفاعل الحي الخلاق بين الافكار والمبادىء في حدود الصراع الديمقراطي الحر هو الدستور الدائم لمزيد من التجانس وربما التوحيد الاختياري بين صف وآخر .

والشرط الثالث لقيام هذه الجبهة هو الا تتم بين جدران الغرف المقفلة ، بل عبر قنوات على الجماهير والقواعد الشعبية ، لا على القواعد التنظيمية وحدها . وذلك حتى لا يتحول الامر الى مجرد « طقوس بين الكهنة » تثمر قيادات مؤمنة وشارع ممزق الاوصال والمعتقدات . وانما ينبغي ان يكون « الايمان » ديمقراطيا وشاملا فيثمر نتيجتين رائعتين هما وحدة الشعب وصلابة الالتزام .

.. بغير هذه الجبهة الاستراتيجية ، تظل الصفوف الوطنية « سائبة » معرضة لمزيد من الثغرات وهجمات العدو من هذه الثغرات ، كما تظل خاضعة للظروف العابرة لا مغيّرة لهذه الظروف ومسيطرة عليها .

● لا بد اخيرا من اعادة نظر شاملة في المحيط القومي ، فلا يصبح الارتباط بهذه الدولة العربية او تلك هو مصدر القوة او الضعف .. وانما الارتباط الاساسي وربما الوحيد ، هو بحركة التحرر العربية سواء كانت في السلطة او لم تكن . ان هذا النوع

من الارتباط القومي لا يعرض الجبهــة الوطنيــة اللبنانيــة لهزات السلب والايجاب او المد والجزر في هذه « الدولة » او تلك . كما ان هذا الارتباط ــ عبر احزاب ومنظمات حركة التحرر العربي ــ يخلق حول الجبهة اللبنانية رأيا عاما عربيا واسعا وضاغطا حتــى على الحكومات المناوئة في السر او العلن .

★★★

هذه كلها « بعض » الاشارات والتنبيهات ــ كما كان يقــول العرب القدامى ــ رأيتها في ظلمة الاحداث بقدر ما اتيح لــي مــن الضوء .

والشيء الوحيد المؤكد ، انني لم اكن احلم .

٧٥/١٢/١٦

ثمن الــدم
أو «مــن سيحكم لبنان ؟»

(١)

ربما كان كتــــاب « من يحكم لبنان » للدكتور ايليا حريق – وقد صدر عام ١٩٧٢ – هو اقوى واوفى دفاع ظهر حتى الآن عن النظام اللبناني الراهن . وهو من المؤلفــات التي درج الدارسون العرب في جامعات الغرب وخاصة في جامعات الولايات المتحدة ، أن ينهجوا في صياغتها اسلوبا موضوعيا اكاديميا من حيث الاعتماد على لغة الارقام والجداول والاحصائيات ، ومن حيث عرض القضية وحيثياتها دون النطق بالحكم . ولكن القارىء الذكي يكتشف آراء وعواطف المؤلف الذكـي فـي تضاعيف العـرض الموضوعي المغلف بالنزاهة الفكرية والحياد واقصاء الانفعال . يبدأ الدكتور ايليــا حريق كتابه مثلا باحصاء دقيق لاصول النواب اللبنانيين الاجتماعية خلال الستينات ، ثم يستخلص القــول « ومن الطبيعي ان يختلف تقييم مكانة عائلات النواب الاجتماعية من باحث الى آخر ، غير ان الدلالة العامة من هذا التقسيم واضحة : يمثل اللبنانيون في المجلس النيابي الطبقة الوسطى ، اما الذين ينتمون الى الطبقات العليا فلا يشكلون اكثر من خمس عدد النواب » (ص ٢٥) . بل هو يزيــد الامر تأكيدا (ص ٢٧) فيقول : ان الخـــلاصة هي « ان النظام التمثيلي في لبنان قد جاء بنخبة اقتصادية وسياسية الى مراكز الصدارة في الدولة تنتمي بمعظمها الى الطبقة الوسطى » . هــذه

الخلاصة تدعو المؤلف ـ وهو أستاذ لبناني باحدى جامعات اميركا ـ للفخر « ففي فترة تقل عن ثلاثين سنة تحول المجلس النيابي من ندوة يجتمع فيها ملاك الاراضي الى ندوة يسيطر فيها المهنيون واصحاب الاعمال » (ص ٣٠) . وهكذا « يمكن اعتبار اصحاب المهن الحرة في المجلس النيابي اللبناني كالفئة المسيطرة بشكل صريح ، فيكون المجلس في لبنان على شاكلة الكونغرس الاميركي » (ص ٣٢) .

ولان المؤلف « موضوعي » فهو لا ينسى الطائفية ، ولكنه يحذرنا من اعتبارها مرضا اجتماعيا بل هي « ظاهرة شعبية لا تخلو من الشرعية » (ص ٦٢) . وهو يفرق بين الدول العربية التي فرضت الانسجام بين طوائف شعوبها بالعنف ، ولبنان الذي يعترف للظاهرة الطائفية بالشرعية « فان الاعتراف بشرعية الطوائف وحق كل منها في التمثيل بمراكز السلطة ومقدرات الدولة اضفى على الاهالي من ابناء الطوائف المختلفة عاملا من الطمأنينة وابعد شبح الصراع الطائفي المرير » (ص ٦٦) . ومن الخطأ في رأي الدكتور ايليا حريق « اعتبار نظام الانتخاب اللبناني القائم على التقسيم الطائفي سببا للسلوك الطائفي او تكريسا للميول الطائفية .. انما العكس هو الاصح ، فالغاية منه احتواء الصراع الطائفي » (ص ٦٧) بل و « ان التقسيم الطائفي للمقاعد النيابية والسياسية يساعد على احتواء المغالاة في السلوك الطائفي .. ان الغاء هذا النظام في الوقت الحاضر سيؤدي الى عكس الغاية المنشودة » (ص ٦٨) .

ان مأساة أمثال هذا الكتاب « من يحكم لبنان » ان الواقع سرعان ما يكذب فحواه تكذيبا مدويا ، فالصراع الدموي طيلة الاشهر التسعة الماضية هو افظع نفي يمكن لكاتب ان يتلقاه في حياته لمجمل الافكار التي نادى بها . واذا كان أمثال هذا الكتاب يؤلف عادة بقصد الاعلام الخارجي ، فان المذبحة اللبنانية ـ بعد ثلاث سنوات فقط من صدور « من يحكم لبنان » ـ قد غطت

بسوادها الاحمر على عيون العالم والعصر بأكمله بحيث لم تعد ترى فيبراعة أمثال الدكتور حريق الا بهلوانية ممكيجة بمختلفالمساحيق ولكن صاحبها لا يلبث ان يسقط من فوق السلك المشدود مضرجا في دماء العار .

لماذا ؟ وقد كانت احصائيات وارقام وجداول الاستاذ اللبناني في احدى جامعات اميركا صحيحة مئة بالمئة ؟!

الجواب : لان القول مثلا بأن الاصل الاجتماعي للنائب يحدد تمثيله الطبقي في المجلس هو الذي ادى بالمؤلف الىالقول بالضرورة ان كمالجنبلاط يمثل مع أربعة آخرين بقايا الارستقراطية الاقطاعية بينما كميل شمعون وبيار الجميل يمثلانالطبقة الوسطى !! الجواب ايضا : لان القول مثلا بأن الطائفية ظاهرة شعبية لها حق الشرعية أدت بالمؤلف الى القول بالضرورة ان اعتماد الكفاءة وحدها في تعيينات الوظائف سوف يخلق ديكتاتورية المثقفين ويحرم الفئات المتخلفة من الطوائف غير المثقفة من حقوقها الشرعية !

واذا كانت نتائج مثل هذا الكتاب تضحكنا في زمن السلم ، فانها تكوي قلوبنا في زمن الحرب . واذا كان الاجانب قد فزعوا مما تدعوه صحفهم بالانحطاط اللبناني ، فان ما كان ينبغي ان يثير الفزع منذ امد بعيد ، هو النظام اللبناني .

وهو النظام الذي خاض عام ١٩٧٥ غمار اختبار تاريخي ، من المؤسف ان تصبح نتيجته الراهنة هذه المعادلة التي يدور من حولها الجدل « السيادة أو التقسيم » والمترجمة شعبيا الى الاختيار بين « الامن او المطالب » والمنعكسة واقعيا في حالة « اللاسلم واللاحرب » .

لنسأل اولا : لماذا هذه الحالة ، وهل يمكن ان تستمر ، والى متى ؟ وبعدها نتساءل عما اذا كانت المعادلة الصعبة بين السيادة والتقسيم او بين الامن والمطالب هي معادلة صحيحة ام مناورة

وهمية ، وهل تصوغ الحقيقة اللبنانية بعد ١٣ نيسان ١٩٧٥ ؟

★ ★ ★

قبل ان نحاول الاجابة لا بد من الاقرار بأن ثمة مسافتين تفصلان لبنان عن لبنان ، احداهما سابقة على احداث ٧٥ والاخرى تالية لها . اما المسافة الاولى ، فهي بين ما يسمى بالفعاليات الاقتصادية والصيغة السياسية . والمسافةالثانية تقعبينالمتغيرات الواقعية التي فجرتها الاحداث وبلورتها ، والصياغات القائمة لواقع الراهن . وبين المسافتين اكثر من جسر وجسر .

.. فالاقتصاد اللبناني لا يعكس قوى الانتاج الاجتماعي ولا ينعكس حرفيا في البناء السياسي ، بل هو يجسد « دور » لبنان التاريخي منذ القرن الماضي على الاقل ، ومنذ اصبح «لبنانالكبير» عام ١٩٢٠ بصورة اكثر وضوحا ، ومنذ عهد « الاستقلال » عام ١٩٤٣ بصورة دستورية كاملة . وهو دور « الوسيط » بين الغرب الاستعماري والوطن العربي عبر مكانه الجغرافي على خريطة الشرق الاوسط والبحر الابيض المتوسط ، وايضا عبر التاريخ الاقتصادي والسياسي والهيكل الاجتماعي .

يذكر أحد الخبراء الاقتصاديين اللبنانيين في تقرير عنوانه « الدور الاقتصادي اللبناني في العالم العربي » بجريدة «النهار» وبتاريخ ٧ ــ ٥ ــ ١٩٧٥ الحقائق التالية :

١ ــ تبلغ التحويلات المالية من المواطنين اللبنانيين العاملين في الاقطار العربية المنتجة للنفط ٥٠٠ مليون ليرة سنويا من قبل ١٤٠ الف شخص .

٢ ــ تبلغ التحويلات المالية العربية مقابل الخدمات مليار ليرة سنويا لتسديد أجور النقل والترانزيت والتسويق .. الخ .

٣ ــ تبلغ التحويلات المالية العربية للاستثمار في لبنان بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مليون دولار سنويا ، كما تبلغ نسبة الودائع ٩٠ بالمئة من مجموع الودائع في المصارف اللبنانية وهي ثلاثة مليار ليرة .

وليست هذه هي الحقيقة كلها ، فلبنان ــ الوجه الآخر ــ هو جسر البضائع الاجنبية المصنعة الى الوطن العربي ، وهو ممر « الطاقة » في مادتها الخام ــ النفط ــ من الوطن العربي الى الغرب . لذلك نشأت على التو من دور « الوساطة » اللبنانية نتيجتان متلازمتان : **الاولى** هي الانتقال الزئبقي المفاجيء من الشكل شبه الاقطاعي السائد قديما الى الشكل الطفيلي للاقتصاد التجاري حيث يتم التراكم الراسمالي في عزلة كاملة عن الانتاج المحلي وتنعدم من ثم التنمية الوطنية ، وفي ارتباط مطلق بالاقتصاد الامبريالي والتبعية الخالصة لقوانين السوق الاستعمارية .

والثانية هي بقاء الرواسب القبلية والتكوين العشائري والقيم الاجتماعية المتخلفة رغم « تطور » البنية الاقتصادية .

وهنا بالضبط تبلورت الازدواجية اللبنانية في الموقف السياسي من العروبة والتي اخذت تعبيرات حضارية مشوهة عند « الاستقلال » بررته بما يسمى التوازن الطائفي بين الوجه المسيحي والحضارة الغربية والوجه الاسلامي والحضارة العربية . بينما الامر في جوهره صياغة شكلية لدور الوسيط بين العرب والغرب . وهو الدور الذي تولدت عنه الثمرة المرة عندما احتد التناقض بين حركة القومية العربية والاستعمار العالمي . ان هذا التناقض الذي اشتعل لهيبه بعد الاستقلال اللبناني بحوالي عشر سنوات ، كان من شأنه ولا زال ضرب « الدور » الذي أخرجته القوى الاجنبية ومثلته الفئات الطفيلية في حياة لبنان المعاصر . ذلك ان قوى الانتاج العربية التي تمارس التأميم وتحاول الانفلات من قبضة الاستعمار الجديد لا يفيدها مطلقا أن يبقى دور لبنان فوق جسر او داخل ممر للنهب الامبريالي المنظم لثروات الوطن العربي المادية والبشرية ، وانما هي ترى دورا لبنانيا آخر يتكامل مع التنمية العربية ككل ويقضي من ثم على ازدواجية الولاء اللبناني : اقتصاديا تداخل مع العرب وسياسيا انفصال عنهم يتخذ شكل الحياد في قضايا مصيرية حاسمة .

ولكن الرؤية القومية لدور لبنان الوطني تصطدم بجملة معطيات في مقدمتها ان غالبية الفئة الاجتماعية القائمة بالوساطة الطفيلية تنتمي الى طائفة دينية لها تقاليدها التاريخية في التجارة وتقاليدها السياسية في الارتباط بالاجنبي ، ومن ثم كان الصراع بينها وبين عروبة لبنان محتوما ومقدورا . ان هذه العروبة لا تعني تكاملا قوميا معبقية اجزاء الوطن العربي فحسب، بل تعني بالضرورة تغييرا عميقا في الهيكل الاجتماعي ، ومبادرة جذرية الى التنمية والتحديث . وكلها تؤدي الى لبنان آخر غير الذي تعرفه .

ولا شك ان هذا صحيح ، فالمعركة الراهنة يمكن ايجازها بأنها معركة توحيد الوطن ، وتوحيد الدولة ، وتوحيد المجتمع ، والوسائل المتاحة لهذا التوحيد المثلث الجبهات هي تعريب لبنان وتغييره راديكاليا على الصعيد الاجتماعي ، وتحديثه بالتنمية قبل التكنولوجيا .

بغير هذه الضوابط الثلاثة لا قامة لبنان ــ لا كبير ولا صغير ــ ولكنه حقيقي ، سوف تظل هناك قابعة في الظل او ساطعة تحت الضوء ، بعض الظواهر السلبية الخطيرة التالية :

● **نمط الانسان الاستهلاكي العشائري :** وهنا لا بد من القول بأن المواطن اللبناني يتمتع بمواهب وطاقات لا حدود لها ، تتضح في تراثه الشعبي الاصيل من مواويل وأزجال ورقصات وأغان وحكايات ، كما تتضح في انخفاض نسبة الامية قياسا على نسبتها في العالم المتخلف ، وتتضح كذلك في نجاحاته التي ينجزها خارج الديار . ولكن هذا لا ينفي انه يعاني أكثر من أي مواطن عربي آخر نوعا مريرا من الاستلاب الروحي العميق الذي يترك بصمات غائرة في وجدانه وعقله وسلوكه . ان ازدواجية البناء الاستهلاكي ــ العشائري في تكوينه الثقافي ــ السوسيولوجي تؤدي به الى ازدواجية ثنائية لا حدود لها كالتناقض بين مظهره الخارجي ودخله المحدود ، وكالتناقض بين مظهره المتحضر والقيم المتخلفة ،

وكالتناقض بين الايمان بشيء والسلوك عكسه ، وكالتناقض بين عشق الحياة وسهولة الموت ، وكالتناقض بين ما يقوله وما يفكر به ، وبين ما يفكر فيه وما يفعله . تلك الازدواجيات كلها هي ثمرة الهوة في الانتقال ــ وليس التطور بأية حال ــ من نمط الحياة العشائرية الى طراز الانتاج الاستهلاكي . ولانه ليس تطورا فهو ليس حركة اجتماعية بل انتقال ساكن من شكل انتاجي الى آخر ، لا تنتقل معه القيم والعادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية ، لذلك تعايشت البنى المتخلفة مع الواقع الاقتصادي التجاري على نحو فريد واستثنائي « .. فالحرية الاقتصادية التي كان يتمتع بها جماعة من الوسطاء في ظل الحماية الاجنبية لم تكن تهدف الى تحرير قوى الانتاج من البنى الاقطاعية التقليدية ودفعها الى بنى حديثة راسمالية بل كانت تهدف الى التهرب من سلطة الدولة دون المساس بعلاقات الانتاج السائدة » (الرأسمالية اللبنانية وفدرالية الطوائف ــ الحزب التقدمي الاشتراكي ــ ص ٢٩) . ومن ثم كان طبيعيا الا يكون الاقتصاد حرا بالمعنى الليبرالي الاوروبي ، فالحرية الاقتصادية اللبنانية هي حرية الطائفة الطفيلية على الانتاج والنافذة في السوق العربية والسوق الغربية على السواء ، ولم تكن البنى الاجتماعية المتخلفة لتضايق هذه الطائفة ــ الفئة ، بل ظل يزعجها تقدم قوى الانتاج العربية في ضرب المصالح الاستعمارية . وبالرغم من ان الطائفية شكلت عائقا في وجه رأس المال التجاري اللبناني للتحول نحو الصناعة فان أرباب العمل في الصناعة ذاتها كانوا يستغلون البنى المتخلفة وتناقضاتها الطائفية والقبلية والعائلية والجغرافية ايضا .

ان أول ما يجابهنا في هذا الصدد هو تقسيم العمل اللبناني تقسيما ابعد ما يكون عن التقسيم البرجوازي الغربي حيث تشكل وسائل الانتاج والمهارات (وليس الارث العائلي او المذهب الديني أو منطقة السكن) جوهر التقسيم الطبقي للمجتمع . لبنان

لا يعرف هذه اللغة البرجوازية القائمة على أنماط الاستغلال الرأسمالي الحديث . ان الاقطاع اللبناني كان اقطاعا عشائريا لا يرادف الاقطاع بمعناه الغربي ، ولا حتى بمعناه العربي . والرأسمالية اللبنانية كذلك راسمالية عشائرية لا يجوز تسميتها بحال البرجوازية ذات المضمون الحضاري المختلف كيفيا . بل ان البروليتاريا اللبنانية للاسف لا زالت بروليتاريا عشائرية .

كيف اصبح تقسيم العمل (العشائري) طائفيا في لبنان ؟
كان المسيحيون هم الاكثر عددا قرب نهايات القرن الماضي ، والاكثر ولاء للغرب دينيا وثقافيا ، فكان من اليسير ان يصبحوا هم « الوسطاء » التجاريون ، بينما مالت غالبية المسلمين الى الزراعة. غير ان هذا لا ينفي ان المسلمين من سكان المدن قد عرفوا التجارة في ظل الانتداب وبتشجيع من السلطات الفرنسية حتى يكونوا وسطاء جيدين مع ابناء دينهم ومع العرب . ولكن هذا الاطار الطائفي لتقسيم العمل اللبناني ليس كافيا ، بل ينبغي ان نضيف عاملين سيكون لهما أبعد الاثر في تكوين لبنان الراهن . وهما العامل الجغرافي والعامل التقليدي .. ففي المناطق الجبلية كان تقسيم العمل يتم وفقا للتقاليد والقيم والعادات الموروثة ، كذلك فان البنية الاقتصادية للمدينة العثمانية كانت مزيجا مركبا من العنصر الاجتماعي والعنصر الديني ، بل ان كل حي كان يسكنه اعضاء جماعة واحدة . هكذا تخصص الاتراك في شؤون الادارة والجيش ، واليونانيون في التجارة والمصارف ، واليهود في المال ، والارمن في امتهان الحرف . وهكذا كانت النتيجة التي استخلصها ز.ي. هرشلاج في كتابه « مقدمة في التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط » حيث يقول ان التجارة منذ ذلك الحين استقرت في « أيدي الاقليات غير الاسلامية » ، ولما وقعت انتفاضات الفلاحين اللبنانيين طيلة النصف الاول من القرن الماضي ، اتجه هؤلاء تلقائيا الى التجارة تحت حماية القناصل الاجانب وهربا من

جشع الولاة والاقطاعيين . ومرة اخرى ترسخ تقسيم العمل اللبناني هكذا : عمل الدروز في الجيش واهملوا الزراعة . عمل المسيحيون وخاصة الموارنة في الاتجار بالمواد الزراعية حينذاك وبالذات الحرير . تقاسم المسيحيون والمسلمون في المدن التجارة الخارجية .

وكان من الطبيعي ان يؤدي هذا التقسيم التاريخي للعمل الى الانقسام الاجتماعي والثقافي والحضاري عامة . أصبح اختيار السكن وهندسته وأثاثه ، كذلك اختيار الحرفة وأدواتها وقوى انتاجها ، بوحي من الروابط الدينية والتقارب الثقافي والعصبية العائلية . وفي ظل ظليل من القيم والتقاليد والعادات الموروثة .
وكان لهذا التقسيم غير الراسمالي للعمل اللبناني نتائجه المباشرة : أصبح الاقتصاد اللبناني مسخا هجينا من الارضية العشائرية والبناء التجاري الطفيلي ، ومن ثم كانت الفجوة المروعة بين القاعدة الاجتماعية والهيكل الاقتصادي ، مجسدة في انعدام التنمية لقوى الانتاج المحلي وعناصره المادية ، وبالتالي قيمه وعلاقاته الاجتماعية . ومن ثم وقع الخلل بين تطور المناطق التي يعمل اصحابها في قطاع الخدمات والاقتصاد الاستهلاكي ، وتخلف المناطق التي يعمل اصحابها في القطاع الحرفي والاقتصاد الزراعي.

وتصادف ــ فقط ؟ ــ ان المناطق الاولى غالبيتها من المسيحيين وبخاصة الموارنة وان المناطق الاخرى غالبيتها من المسلمين وبخاصة الشيعة . تصادف ايضا ــ حقا ؟ ــ ان هذه المناطق الاخيرة تقع في الارجح عند حدود الوطن الجنوبية حيث الارض الفلسطينية المحتلة منذ ١٩٤٨ . ولكن هذه المصادفات التي هي ليست مصادفات بل تراكمات واقع تاريخي واجتماعي متصل الحلقات ، اثمرت في خاتمة المطاف : ان الطائفية في ظل الاقتصاد التجاري الغالب اتخذت لنفسها كينونة ذاتية شبه مستقلة عن الصراع الاجتماعي ، بعكس مصيرها المحتوم في المجتمعات

الرأسمالية . والثمرة الثانية هي مشكلة لبنـــان الفلسطيني . والثمرة الثالثة هي الاستلاب الثقافي والغربة الروحية والازدواجية بين ولاءين وانتماءين وحضارتين ، وأحيانا اكثر من ذلك !

غياب التنمية اذن ـ واتساع رقعة التخلف بالتالي ـ هـو التجسيد الاقتصادي لسيطرة قطاع الخدمات علىالاقتصاد اللبناني وضآلة وتخلف قطاعي الزراعة والصناعة . ومـن ثـم فهـو ايضا التجسيد الاجتماعي للفراغ الهائل بين تخلف قوى الانتاجالاجتماعي المحلية وهوية الاقتصاد الطفيلي . كيف ذلك ؟

تقول احصائيات بعثة ايرفد ان حصة الصناعـة التـي كانت ١٣،٥ بالمئة عام ١٩٥٠ أصبحت ١٣،٢ بالمئة عام ١٩٦٦ و « منـذ عشرين عاما لم تتبدل حصة الصناعة فـي الدخـل الوطني تبـدلا مهما » (الطبقة العاملة والنقابات اللبنانية ـ الحزب التقـدمي ـ ص ١٢) . وهكذا يعمل حوالي ٥٠ بالمئة من مجموع العامليـــن اللبنانيين في قطاع الخدمات . كذلك يبلغ انتاج الصناعة الحرفية ثلث الانتاج الصناعي تقريبا . والمنشآت الكبيرة في لبنان بالغـة التخلف في وسائل الانتاج ، ومعظم صادرات الصناعة اللبنانيـة اقرب لان تكون « اعادة تصدير » . بالاضافة الى محدودية السوق المحلية وبعثرة العلاقات الصناعية المتبادلـة وتفكك النشاطات غير الصناعية وعلاقاتها بالنشاطات الصناعية المتنوعة ، يمكن القـول بأن الصناعة اللبنانية فقيرة ومتخلفة وتنافسها بعنف السلع الغربية المستوردة . كذلك فان هـذه الصناعـة استهلاكية فـي جوهرها لا تعرف مطلقا صناعات التنمية وتعتمد كليا على ستراتيجيـــات الفئات التجاريـة . ولعـل تخصيص مليونـي ليرة مـن الميزانية للابحاث الزراعية وربع مليون فقط للابحاث الصناعية (عن دراسة للدكتور نديم عطية حول التقدم التكنولوجي والانمـاء الصناعـي) تضع أيدينا على المكانة الحقيقية التي تتمتع بها الصناعة الوطنيـة في لبنان ، وهي مكانة بالغة التواضع والفقر والتخلف . وفـي

هذا الصدد يشير الدكتور غسان قانصوه في كتابه « الصناعات البتروكيماوية وامكانية انشائها في لبنان » انه بالرغم من لصق دمغة « صنع في لبنان » على العديد من المنتجات البتروكيماوية الا ان الحقيقة هي ان الصناعة اللبنانية قاصرة على « آخر عملية » من عمليات التصنيع ، فهي تستورد مراحل السلعة المصنعة فيما عدا المرحلة الاخيرة .

والزراعة حالها لا يختلف . انها لا تتوجه الى الصناعيين الا عندما تعجز عن بيع منتوجاتها للاسواق (المرجع السابق ص ١٦) وبالتالي فهي الاخرى زراعة تجارية تخضع لمؤشرات المراكز الطفيلية على الانتاج « ان القطاع الزراعي متخلف جـداً وهو يرزح تحت سيطرة القطاع المهيمن الا وهو قطاع الخدمات الـذي يمتص قسما كبيرا من فائض الانتاج عن طريق التحكم بأسعار الاسمدة والادوية وادوات الزراعة وعن طريق فرض اسعار التصريف وتلاعب التجار بها » ، « ان الاكثرية الساحقة من العاملين بالزراعة توجد في المناطق التي ضمت الى لبنان سنة ١٩٢٠ في الشمال والجنوب والبقاع . وهذه المناطق هي بغالبيتها من المسلمين ، اما القطاع التجاري الذي يستغل الزراعة فهو بأكثريته من سكان الجبل المسيحيين او من المسلمين السنة سكان المدن » (المصدر المذكور ص ٣٣) . ولا بد ان نضيف ان تصنيع الزراعة او تحديثها من المحرمات على الريف اللبناني ، فاستخدام وسائل حديثة للانتاج الزراعي ، وقيام تنظيمات تعاونية توفر الآلات والاسمدة والبذور ، هما في حكم الغياب شبه المطلق عن الارض اللبنانية .. سواء لسيطرة الروح العشائرية الفردية في النهاية او الخوف التقليدي من عودة الاقطاع القديم ، او الفقر الذي يستنزف الفلاح بالديون الباهظة حتى انه يضطر لبيع الارض بعد رهنها والهجرة الى المدينة والانضمام الى احزمة البؤس من حولها .

اذا قلنا ــ مرارا وتكرارا ــ ان الصناعة اللبنانية في التحليل

الاخير هي صناعة عشائرية وان الزراعـــة اللبنانية هـي زراعة عشائرية (بمعنى البدائية والتخلف في وسائل الانتاج وقــواه وعلاقاته الاجتماعية) فانما نكرر ذلك بهدف التركيز على عــدة نتائج : **الاولى** تبعية الضعيف اقتصاديا للاقوى ، تبعيــة التخلف الصناعي والزراعي للقطاع التجاري الطفيلي الاستهلاكي . والنتيجة **الثانية** هي تخلف النسبة الاكبر بل الغالبية الساحقة مـن السكان عن مستوى التقدم الذي احرزته فئة قليلة من الوسطاء والسماسرة والمرابين . والنتيجة **الثالثة** هي ان التجارة ذاتها ــ وهـي القطاع المسيطر ــ ليست تجارة وطنية على الاطلاق لانها لا تعتمد اساسا على الصناعة والزراعة والسوق المحلية بل على التوكيلات الاجنبية ومن ثم فراسمالها يتحول في واقع الامر من الصفة التجارية الى الصفة الربوية ، اي تراكم راس المال المالي دون استثماره في تنمية لقوى الانتاج المحلية في الزراعة والصناعة . والنتيجـة **الرابعــة** هي ان الجوهر الشامل للبناء الاجتماعي هو التخلف في القيــم والعلاقات الاجتماعية رغـم الزخرفـة التكنولوجية والديكـورات الحديثة والكمبيوتر . ان القطاع التجاري باعتماده على نموه الذاتي المتحرر من كل قيد سوى الارتباط بالاجنبي يقضي قضاء مبرمـا على النمو الموضوعي للمجتمع ككل .

غير ان نتيجة النتائج هي استقرار نمط الانسان العشائري الاستهلاكي بازدواجياته الفكرية والنفسية والاخلاقية التي لا تنتهي واستقرار الانقسام الروحي والاجتماعي في بنية الوطن ، والابقاء على الارض اللبنانية جسرا للاقتصـــاد الاستعماري الى الشرق الاوسط وممرا لاستراتيجية الامبريالية الى الوطن العربي .

لذلك كانت المعركة الراهنة هي معركة توحيد الوطن المنقسم فعلا بتعريبه ، بتحويله من ترانزيت الى جزء لا ينفصل من التكامل القومي . لذلك ايضا كانت المعركة الراهنة هي معركـــة توحيد الدولة المنقسمة فعلا ، بتحـــديثها لا تكنولوجيا انما بالتخطيط

الوطني الشامل لمختلف نشاطات الانتاج وفقا لمصلحة لبنان العليا لا لمصلحة الفئة الضيقة من المرتزقة . لذلك اخيرا كانت المعركة الراهنة هي معركة توحيد المجتمع المنقسم فعلا ، بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية لكافة المناطق التي تقع بين شطري الحدود ، حتى تصبح المواطنة استحقاقا لا امتيازا فئويا .

تلك هي المعادلة الصحيحة ، في ضوء النمط العشائري الاستهلاكي السائد على الانسان اللبناني . وهي المعادلة التي تصور لبنان على غير اللون الوردي الذي صاغة الدكتور حريق في كتابه « من يحكم لبنان » . وهي ايضا المعادلة التي تفسر معنى مذبحة اطول يوم في التاريخ اللبناني الحديث . وهي اخيرا المعادلة التي تقوض من الاساس اركان المعادلة المطروحة الان بخبث : السيادة والتقسيم ، الامن او المطالب ، فلا سيادة هناك ولا تقسيم ولا امن ولا مطالب . وانما هناك حالة اللاسلم واللاحرب التي تجسد نهايه دور لبنان التقليدي ، دور الوسيط ، ليبدأ لبنان الحقيقي ، دوره الجديد كوطن .

(٢)

اذا كان نمط الانسان العشائري الاستهلاكي قد اعلن عن نفسه في وقت السلم بمجموعة الازدواجيات التي تسكن قلبه وعقله ومجموعة التناقضات التي تشكل فكره وسلوكه ، فقد افصح عن نفسه نهائيا في حرب ٧٥ باسلوب القتال الهمجي كالخطف على الهوية والقنص المجاني وتشويه الجثث . ان هذا النمط الوجودي في الحياة والموت لم ينته بانتهاء الحرب ولكنه سيصاحب حالة اللاسلم واللاحرب الطويلة الامد ، حريصا على بقاء دور لبنان الراهن كوسيط تجاري بين العرب والغرب . اي حريصا على انقسام الوطن وغياب الدولة وتشرذم المجتمع .

ومن اخطر الظواهر السلبية المرافقة لهذا النمط من انماط

الوجود العشائري الاستهلاكي قبل الاحداث الاخيرة وبعدها على حد سواء ، ظاهرتان هما : البطالة والجريمة .

والاطار الاقتصادي لهاتين الظاهرتين يمكن تحديده ـ بعد ان شرحنا تفاصيل الاطار الاجتماعي ـ وفقا لحالة القطاع التجاري الطفيلي الذي تشير اليه الاحصاءات الرسمية لخريطة المصارف العاملة في لبنان عام ٦٩ اذ يبلغ حجم الودائع في المصارف اللبنانية ٧٥٢ مليون ليرة وحجمها في المصارف الاجنبية ١٣٥٥ مليون ليرة وحجمها في المصارف العربية ٤٦٩ مليون ليرة وحجمها في المصارف المختلطة ٧٩٠ مليون ليرة . ويعلق بشارة مرهج في كتابه « معركة العروبة والديمقراطية في لبنان » على هذا الاحصاء بقوله « أي كانت حصة المصارف المختلطة والمصارف غير اللبنانية تساوي ٧٨ بالمئة من الودائع الموجودة في المصارف العاملة في لبنان » (ص ٤٨) وبديهي ان امتلاك المصارف الاجنبية للقسم الاكبر من الودائع « يعني ببساطة قدرة اكبر على التسليف وبالتالي سيطرة اوسع على الاقتصاد اللبناني » . ويشير مؤلف هذا الكتاب الى جملة الحقائق الصادرة عن مديرية الاحصاء المركزي في نشرتها حول تجارة لبنان الخارجية لعام ١٩٦٩ فاذا بالعجز في الميزان التجاري اللبناني يصل مع الولايات المتحدة وحدها ٥ر١٥٦ مليون ليرة « أي اننا نستورد من اميركا اكثر مما نصدر اليها بقيمة ٥ر١٥٦ مليون . وبلغ العجز من دول السوق الاوروبية المشتركة ٩ر٥٣٠ مليون ، ومع منطقة التجارة الحرة ـ بريطانيا ، السويد ، الدانمرك وغيرها ـ ٤٤٥ مليون ، ومع الدول الاوروبية الغربية الاخرى ١ر٦٦ مليون، اي ان عجز لبنان التجاري مع دول المعسكر الغربي بلغ ٥ر١١٣٠ مليون ليرة لبنانية . وفي المقابل ارتفعت صادرات لبنان الى البلدان العربية الى ما قيمته ٢ر٣٤٩ مليون محققة فائضا في الميزان التجاري مع هذه البلدان بما يوازي ٦ر٩٠ مليون ليرة » . هذه هي حقيقة الدور اللبناني الراهن : سيادة النمط الطفيلي للانتاج التجاري (السمسرة) حتى

وان ادى ذلك الى خسارة الوطن لحساب الاحتكارات الاجنبية ، فالربح محقق من اموال العرب !! والتفاعل بين هذه الحقيقة الاقتصادية وجملة الحقائق الاجتماعية التي تشكل الهيكل اللبناني العام هو الذي اثمر ظاهرة البطالة وظاهرة الجريمة .

● اما البطالة فيمكن تلمس مصادرها الاولى في تقرير الخبير الفرنسي كلود مازور حيث يقول حرفيا « ان القطاع الزراعي اللبناني لن يتمكن من ان يستخدم استخداما كاملا سنة ١٩٨٠ اكثر من ١٧٩ الى ١٨٠ الف نسمة ، كما انه سيتوجب على ٤٠ الى ٥٠ الف شغيل ان يبحثوا عن عمل في قطاعي الصناعة والخدمات » ، اما قطاع الخدمات ـ وعلى افتراض استمرار الاتجاهات الراهنة ـ فقد يمثل حوالي ٥٠ بالمئة من السكان العاملين اي حوالي ٢٦٠ الف الى ٢٧٠ الف . وهذا يعني ضرورة خلق ١١٧ الف الى ١٢٧ الف عمل جديد . ولكن في هذه الظروف سيبلغ عدد السكان الناشطين الذين يمارسون عملا ما بين ٥٨٠ و ٦٠٠ الف نسمة سنة ١٩٨٠ في حين يبلغ مجموع السكان القادرين على العمل ما بين ٨٧٠ و ٩١٥ الف نسمة ـ ومع افتراض تصفية جزئية لليد العاملة غير اللبنانية ، فان ٣٠٠ الف لبناني اي ثلث السكان القادرين على العمل سيكونون بدون عمل » .

تقتصر احصائيات الخبير الفرنسي على اسباب البطالة من جراء التخلف الزراعي وفقر الزراعة من ناحية ، وانعدام التنمية من ناحية اخرى لانانية راس المال التجاري وابتعاده عن المشروعات الصناعية او على الاقل التصنيع الزراعي . والخبير لم يضع في خياله قط احتمالا لاحداث ١٩٧٥ حيث كان يستطيع ان يضيف من ١٠٠ الى ٢٠٠ الف عامل عطلتهم الحرب قسرا عن العمل ، فيصبح المجموع الاجمالي هو حوالي نصف مليون من العاطلين . وكان يستطيع ايضا ان يضيف خسائر راس المال الحرفي والصناعي والتجاري التي يبلغ حجمها التقريبي من ١٠ الى ٢٠ مليار ليرة من

عمليات النسف والتدمير والنهب ، بحيث يؤدي ذلك تلقائيا الى انتكاسة شبه جذرية لدورة راس المال الوطني والحد الادنى لمقومات الاستثمار والتنمية . ومن الطبيعي ان تنتعش الطائفية في ظل هذا المناخ وتدخل من اوسع الابواب ، حيث يؤدي عدم نمو الصناعة بشكل يستوعب الفائض في قوة العمل وبقاء قسم كبير من الصناعة حرفية يغلب فيها طابع المؤسسة الصغيرة والنمو الكبير في عدد السكان خاصة بين المسلمين ، الى تزايد نسبة العاطلين عن العمل في صفوفهم . ويقتطف كتاب « الطبقة العاملة والنقابات اللبنانية » المشار اليه ، نصا لهوشي منه عن الطبقة العاملة التركية يقول انه ليست هناك « تعاونيات او جمعيات صداقة تجمع العمال ذوي المهنة الواحدة والقاطنين في البلد ذاته. ولا توجد علاقات ما بين العمال ذوي المهن المختلفة الساكنين في البلد الواحد . كما لا توجد علاقة بين عمال المهنة الواحدة الذين لا يسكنون في نفس البلد . ان هذا الوضع يحول دون أي عمل جماعي يكون له تأثيره » . ان هذا الوضع الذي انعكس كليا على اوضاع الطبقة العاملة اللبنانية ، لا زال ـ كما يقول الكتاب المذكور ـ منعكسا جزئيا حتى الان « نظرا الى الحركة الراسمالية المحلية والعالمية التي تمارس كل ما لديها من اساليب لتأخير الوعي الطبقي وبالتالي لتأخير نمو الطبقة العاملة الموحدة واقعا وتنظيما ونظرية وممارسة » (ص ٤٤) . ولا شك ان هذا الواقع الشامل للعمال اللبنانيين ينعكس بالضرورة على قضية البطالة حيث تصبح مشكلة بلا حل طبقي او ديمقراطي يمارسه العمال انفسهم ، بل هي تخضع لاتجاهات الراسمالية الربوية المسيطرة . بل ان تخلف لبنان الجنوبي بعماله وفلاحيه عن حركة النقابات رغم المحاولات التي بذلت فيه منذ عام ١٩٤٨ كان انعكاسا لهذا الواقع السلبي للحركة العمالية اللبنانية حيث تناوب الاقطاع فالاستعمار فالفئات الراسمالية المحلية عملية « العزل » الاجتماعي للجنوب ، فكان رده

الطبيعي ـ قبـــل المقاومة الفلسطينيـــة والاعتداءات الاسرائيلية بكثير ـ هو التخلف المدمر والنزوح الى مرافيء المـــدن والانضمام الى جيوش العاطلين واحزمـــة البؤس المروع . ولقـــد نجحت الرأسمالية الطفيلية اللبنانية بغير شك في ان تجعل مـــن قوانين العمل في التعاقد والضمان وما اليها « قالبا مهنيا بحتـا » يصرف العمال عن العمل السياسي . ولكنها بعد الاشهر التسعة الداميـة ادركت ولا بد ـ بعد فوات الاوان ـ ان البطالة هي الجيش السري للدمار الوطني الشامل بعد ان تصمت مدافع « القتال الشرعـي » ! بين المحاربين المعتمدين .

● **اما الجريمة** ، فهي جـزء لا ينفصل عـن البطالـة ، ولكنها ظاهرة مستقلة ومتميزة الخصائص النوعية . ولعله من المفيد القول بداية في هذه النقطة ان الفلسطينيين وحدهم هـــم الذين كانـوا مجردين من السلاح قبل الوجود المسلح لمقاومتهم بزمن طويل . اما الاسباب الحقيقية لانتشار السلاح ومـــن ثم الجريمة فهي ثلاثة : الاول هو البقاء الراسخ للقيم والتقاليد العشائرية وفـي مقدمتها عادة الثار ، وهي لا تختلف من الجنوب اللبناني الى جنوب مصر . ولكنها في لبنان تأخذ شكلا خاصا وواسعا بينما هي في مصر اقرب الى الذكريات والاحداث الفردية والرواسب العابرة . انهـــا فـي لبنان قيمة وعلاقات اجتماعية ثابتة ثبات الكيـــان العشائري ، او بتعبير ادق الكيانات العشائرية التـي استدعت بالضرورة ، تحت ستار الدولة المركزية الواحدة ، التعدد الواقعي لمراكـــز الدويلات الطائفية ، بكل اجهزة الدويلة وفي طليعتها جهاز القهر المسلح ، وما يدعى غالبا بالميليشيا .

السبب الثاني هو النظام الاقتصادي المتحالف جوهريا مـــع نقيضه الاجتماعي : النظام العشائري .. فالاقتصاد الطفيلي القائم اساسا على « الخدمات » بأنواعها و « الاستهلاك » بتنويعاته ، يعتمد

بصورة رئيسية على مخالفة القانون ، بالتهريب والسمسرة والرقيق الابيض والصفقات المريبة كالاتجار في المخدرات ، والمقامرة . وهذه كلها تتطلب فرض « الخوة » و « الحماية » بأيدي عصابات مسلحة من القبضايات اشتهر منهم في لبنان شهرة نجوم السينما كل من القدور والدنكورة .

والسبب الثالث الخفي هو احداث ١٩٥٨ . انه التاريخ الذي انتهت في محطته اخر الاحلام في التقسيم ــ المناورة ، لمن لا يعلم . وصل الاسطول السادس الشواطىء اللبنانية ، ولكن عبد الناصر كان حاضرا ، فانتهت التسوية الى الطريق المفتوح لسبعة عشر عاما الى مجزرة ٧٥ . تغيرت المعادلة الان لغيرة مصلحة التقسيم ــ المناورة : غاب عبد الناصر حقا ، ولكن الاسطول السادس لم يتمكن من الحضور . وانتهت التسوية او تكاد الى الطريق المفتوح لامد مجهول امام حالة اللاسلم واللاحرب . غير ان عبرة ٥٨ فيما يختص بنقطة « الجريمة » هي انها كرست الوجود المسلح للميليشيات الطائفية ، فقد تنبهت احزاب اليمين المتطرف الى ان خللا عميقا في التوازن المفترض والمفروض عسفا قد برز الى السطح ، وان الابقاء على لبنان الراهن المقسم والمنقسم فعلا ، لن يتم الا على اسنة الرماح . بينما كانت التيارات الوطنية تستحم في ضوء شمس الصراع السلمي وتتمطى مسترخية فوق رمال الحوار الديموقراطي . كان اليمين الفاشي العنصري قد بدا فعلا التدريب على الصراع المسلح والحرب الوقائية رغم انف المظلة الشهابية او تحتها . ولم يعد منذ ذلك الحين عضو الحزب يلتزم وطنيا بالدولة المركزية بل تدرب على ان كل الولاء للحزب ــ الدويلة وقوانينها الداخلية حتى اذا تعارضت مع القوانين الدستورية للنظام ، والسلاح خير حام لهذا الولاء النازي . لذلك كان « الجهاز القضائي الذي عهد اليه بتطبيق القوانين المدنية والجزائية لم ينج من التأثير الطائفي ، فالقضاة كانوا يعينون ويرقون وينقلون

لاعتبارات طائفية مما ابقى سلطة الطائفية فـوق سلطـة القانون والعدالة ، فالقاضي الذي ينتمي الى طائفة معينة ويعين في منطقة تختلف طوائف سكانها عن طائفته يظـل يخشى ان يتهم بالتحيـز الطائفي ويخشى الشكاوى الطائفيـة عليـه فيخضع لوساطات المتنفذين ورجال الدين . وحتى حين يضرب صفحا بكـل هـذه الاعتبارات تبقى احكامه خاضعة لتأثيرات طائفية لا واعية » (ص ١٥ من كتاب الرأسمالية اللبنانية وفيدرالية الطوائف ـ مطبوعات الحزب التقدمي الاشتراكي) .

ويقول تقرير رسمي للدولة نشرته مجلة « الاسواق العربية » بعددها الثالث (١٢ ايار ١٩٧٥) ما يلي نصه « ان الذين قامـوا بنسف معظم المؤسسات التجارية والاقتصادية لا ينتمون الى ايـة منظمة فدائية او فلسطينية . وان اكثريتهم الساحقة من اللبنانيين الذين يتمتعون بالجنسية اللبنانية ويحملون بطاقات هوية ذات رقم تسلسلي تدل على تعدد انتماءاتهم الطائفية . وقليل مـن الذيـن اشتركوا في عمليات النسف غير لبنانيين . وكلهم مـن الفقراء ذوي الدخل المحدود . وعدد غير قليل منهم ينتمي الـى منظمات لبنانية تؤمن بالعنف الثوري وتستهويها الاساليب المطبقـة فـي حروب التحرير الطبقـي وتعتقـد اعتقـادا جازمـا بفساد النظام الاقتصادي الذي لا يوفر لها العيش الذي تريده والذي ترى فيـه اصلا لكل عللها وشكاويها » . . وتنقل المجلـة المذكورة راي بعض الاقتصاديين المستنيرين « في اعتقاد هؤلاء انه لـو لم يكن هناك مشكلة فلسطينية ووجود فلسطيني عـلى ارض لبنـان ، وكانت العوامل والظروف المتراكمة منذ عهـد الاستقلال قائمـة ، لكان الصدام حصل . ليس بالضرورة بين الكتائب وفريق اخر ، بـل بين فريقين لبنانيين . وما كان الفريقان بحاجة الى التفتيش عـن غطاء لصدامهما ففي لبنان اكثر من غطاء » .

لهذه الاسباب الثلاثة مجتمعة اصبحت « الجريمة اللبنانية »

ظاهرة اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية متكاملة البنيان كفيرها من الظواهر المستقلة غير المعزولة عنها ، مثل الطائفية . انها الظاهرة التي رفعت بيروت الى مقدمة القوائم الدولية عن الجريمة كشيكاغو وهونغ كونغ ، وهي العنصر الجوهري الثالث في البناء اللبناني الراهن المكون من نمط الانسان العشائري الاستهلاكي ، والجيش السري للعاطلين ... والجريمة !!

★ ★ ★

طبعا ، كانت هناك حلول نظرية وعملية عبر السنوات الثلاثين الماضية ، لم يكن من بينها تقسيم الوطن المنقسم . ولكن هذه الحلول لتغيير الصورة اللبنانية كانت خليطا من التحليلات والتوصيفات والاحلام اكثر منها برامج ، باستثناء التجربة الشهابية .

فيما يلي بعض الامثلة منذ فجر « الاستقلال » :

● يقول الرئيس بشارة الخوري « لم يعد العلم وقفا على طائفة دون اخرى وسيكون العلم بعد اليوم غير خاضع للطائفية » « ثم نحن فخورون ان تقدم لنا الطوائف المظلومة ابناءها اصحاب الكفايات لنفتح لهم احضاننا ونشركهم في الحكم الذي لم يعد في لبنان وقفا على طائفة دون الاخرى » . (مجموعة الخطب ص ٢٩).

● ويقول جوزيف مغيزل ان الحكم رفع « الرواسب الطائفية والرجعية الى مرتبة الصفات العامة والتقاليد الثابتة » (كتابه « لبنان والقضية العربية » ص ٦٩) .

● ويقول ميشال غريب « مما لا شك فيه ان استمرار نظام الحكم الطائفي لم يعد ممكنا عمليا ، فضلا عن أن استمراره اصبح معيبا بحق اللبنانيين » (كتابه « الطائفية والاقطاعية في لبنان » ص ٨٥) .

● ويقول ناصيف نصار « انه لمن الواضح ان المجتمع لا يبلغ اعلى درجات العلمية والعلمانية ، ولا يحقق انواع الديموقراطية الا

عندما يقيم نظاما تربويا علميا ، يكفــل لجميــع اعضاء المجتمع الشروط الملائمة لبروز مواهبهم وتفتح طاقاتهم ونمــو شخصياتهم نموا طبيعيا متكاملا . النظام التربوي العلمي هـــو المحور الثقافي والاقتصادي والاجتماعي الذي تدور حوله نظامات المجتمع العلمي واجهزته ومؤسساته » (كتابه « نحو مجتمع جديــد . مقدمات اساسية في نقد المجتمع الطائفي » ص ٢٠٠) .

ويعلق وضاح شرارة قرب ختام السياق التاريخــي لاصول لبنان الطائفي ــ وهو عنوان كتابه ــ بأن « تكللت هذه (النجاحات) باستقطاب المؤسسات النظامية للصراع الاجتماعي والسياسي ، في المعارك الانتخابية وفي المعارك المهنية والاقتصادية ، وفــي المعارك الحقوقية وفي المواجهات الطائفية المحدودة ، تبرز المؤسسات التي تكرس الشكل السياسي اللبناني بشروطه ، اطارا صالحا وفعــالا لحل المشاكل المطروحة » (ص ١٢٣) .

والحقيقة هي ان الامنيات الابوية لبشارة الخوري لم تصلح حلا ، والتظاهر الديموقراطي ضد الطائفية لم يصلح حلا ، والدعوة الى نظام تربوي جديد لم تصلح حلا ، طيلــة ثلاثين سنــة لجوهر الازمة اللبنانية التي ولدت مع صيغة الاستقلال وان كان جنينهــا قد تشكل منذ القرن الماضي على الاقل . وقــد افصحت الاشهر التسعة الماضية بالبرهان الدموي علــى ان الحل ليس كامنا فــي التمسك بأهداب هذه الصيغة لانها نسيج المشكلة بالذات . وقــد كانت محاولة اللواء فؤاد شهاب عام ٥٨ وما بعدها بمثابــة المؤشر الذكي الى ضراوة البركان الذي يغلي تحت السطح ، ولكن المحاولة لم تمنع بعدئذ من الانفجار . لمــاذا ؟

لعدة اسباب منها :

١ ــ عمد الرئيس شهــاب الــى تحديث الادارة واقامــة مؤسسات كمجلس الخدمة المدنية وهيئة التفتيش المركزي وهيئة الابحاث والتوجيه ، قاصدا بذلك ابعاد الزعامات التقليدية عــن

سلطة القرار وسلطة التنفيذ على السواء ، بخلق الاجهزة العصرية القادرة على التنمية الرأسمالية الحديثة وامتصاص نقمة النخبة المثقفة بابعادها عن جاذبية العمل السياسي اليساري والاستفادة منها — ككفاءات مهنية — في تطوير البنية الرأسمالية وربط مصالحها المباشرة بمصير هذه البنية مع تركيز شمولي لسلطة الدولة بعسكرة الامن او ما يسمى بالمكتب الثاني . رغم ذلك رفضت الفئات الكمبرادورية من المؤسسة الاقتصادية التجارية هذا التحديث وهذا التركيز معا لانه يفرض نوعا من التخطيط والتنمية التي تحد نشاطها . الا ان جرثومة الفساد في المشروع الشهابي كانت خضوعه المطلق للتقسيم الطائفي واعتباراته ، ومن ثم كانت تجربته رغم اهميتها شكلية في حقيقتها لانها لم تتجاوز الاسوار العالية دون التحديث والتخطيط . وقد وصل الامر الى درجة « ان امتحانات كانت تلغى او تؤجل بسبب عدم وجود توازن في طوائف الناجحين » (عن « الرأسمالية اللبنانية وفيدرالية الطوائف » ص ١٥) .

٢ — لا ريب في ان الشهابية كانت « الحل الوسط » الذي اثمرته التوازنات الجديدة لاحداث ١٩٥٨ ، ولكنها لم تكن قط حلا راديكاليا فلم تستطع على صعيد الديمقراطية ان تتجاوز اعتاب الصيغة التقليدية ، وهي الصيغة التي تحول دون الليبرالية السياسية المعروفة في الرأسماليات الغربية حيث تشكل المعارضة الحزبية الاساس الموضوعي للديموقراطية . ان غياب المعارضة الحزبية عن البرلمان اللبناني جعل مجلس النواب اقرب لان يكون لجنة تنسيق ، وجعل سرايا الحكومة اقرب لان تكون ضابط اتصال ، والقصر الجمهوري يملك ويحكم . لم تستطع المبادرة الشهابية ان تتخطى هذا التقليد المعادي للديمقراطية ، بل اضاف اليه دكتاتورية المكتب الثاني القائمة هي الاخرى — كما كشفت المحاكمات — على فضائح التقليديين وفسادهم (الرشوات

والخدمات والصفقات وما اليها) . وهكذا سقط الاصلاح الشهابي كما يقول محمد كشلي في الفساد السياسي الذي جـاء لينقـذ البلاد منه وبدا الاصلاح يتحول بسرعة الـى مجرد حكم عسكري يعتمد على القوة « ان درس التجربـة الشهابية الاول هـو ان العسكرية اللبنانية لا تملك برنامجا للحكـم يتجاوز امراض لبنان التاريخية .. وانها لا بد ان تتحول الى حكم لا يختلف فـي طبيعته عن حكم الديموقراطية التقليدية ، ولكنه اسوأ منـه على صعيد الحريات الديموقراطية والحريات العامـة » (الازمـة اللبنانية والوجود الفلسطيني ص ١٠١) .

٣ ــ لم ينجح اللواء شهاب قط في ان يصبح قطبا مارونيا ذا تأثير فعال في محيطـه المباشر المعوق للاصلاح ، لم يستطـع ان يخلص « الطائفة » من عقدتها التاريخيـة ، ولا استطاع ان يهيىء اجواءها الاقتصادية لقبول القناعات السياسية الجديدة التـي فرضها التطور . ومن ثم كان عسيرا ان يثمر « حركـة تاريخية جديدة على انقاض التعصب » بـل ظـل الولاء الاجتماعي للطائفة لزعمائها المتطرفين .

هكذا بدات التجربة الشهابية ، وهكذا انتهت بلبنان الـى نقطة البداية .

فهل غير السياق الدموي لعام ٧٥ مـن قناعات الزعمـاء المتطرفين ؟ هل اصبح من الممكن تغيير دور لبنان من السمسرة الى المواطنة والتكامل القومي مع المحيط العربي بدلا من ان يكون جسرا اقتصاديا للاستعمار وممرا لنفوذ الامبرياليـة الاستراتيجي ، اي هل اصبح من الممكن توحيد الوطن الممزق بتعريبه ، وتوحيد الدولة المنقسمة بتحديثها ، وتوحيد المجتمع بالتنمية ؟

هل اصبح ذلك ممكنا ؟ ان ثمن الدم اللبناني هـو المبادرة التاريخية لاحداث هذا التغيير ، والا اصبح هـذا الثمن مضادا ، اي تلك الغابة العشائرية بجيشها السري من العاطلين ، الغابـة

المحترقة في اتون « الجريمة » التي تتحول رويدا لان تصبح هـي القانون . والا اصبح ايضا هذا الثمن هـو حالة اللاسلم وحالـة اللاحرب الطويلة الامد ، حتـى تتغير موازين القـوى او تتحول الغابة الى رماد .

★★★

في هذا المناخ بالضبط يطرح البعض دون اي بصيص من نور التاريخ والمستقبل ، هذه المعادلة الوهمية : السيادة او التقسيم ، الامن او المطالب. انها معادلة وهمية اولا لان التقسيم ليس مشروعا بل هو الواقع العملي الذي لا يحتاج لغير اعتراف العرب بشرعيته ومباركة المجتمع الدولي في وثائق دستورية . ولن يعترف العرب ـ حتى ملوك النفط ـ باسرائيل ثانية في الشرق الاوسط ، ايـا كان لونها الديني وايا كانت هويتهـا العرقية . كذلـك العالم بخريطته الجديدة الموقعة في هلسنكي لن يمنح بركاته لنصف الممر ونصف الجسر ، مهما كانت احلام اسرائيل وامانيها ، فهي وحدها كفيلة بان تكون كلب الحراسة والعصا الغليظة ، والحاجة تدعو لان تمسك اليد الاخرى قطعة الشوكولا وراية منسوجة بريش الحمام وغصن الزيتون .

وهي معادلة وهمية مرة اخرى لان التقسيم كورقـة للابتزاز والمناورة محروقة سلفا . واصحاب المعادلة هم اول من يعرفون ان المطلوب ليس هو الحيلولة دون تقسيم قادم ، بـل المطلوب هـو توحيد الانقسام الواقع . ومن ثم كانت السيادة هي جوهر مطالب الحركة الوطنية ، وليست على الاطلاق مطلبا مارونيـا ، فالسيادة تفترض وحدة الوطن من الشمال الى الجنوب ومـن الارض الى السماء (هكذا تنقلب الاية او تنعدل بتعبير ادق وتصبح اسرائيـل لا الفلسطينيين هي عدوة السيادة اللبنانية ، بـل ويصبح التطرف الماروني بتشريع التجزئة هو عدو السيادة اللبنانيـة) . والسيادة تفترض الى جانب وحدة الوطن مركزية الدولة وحضورها ، بينمـا ينتقص من هذه السيادة انتقاصا خطيرا غيـاب الدولـة وتعدد

الدويلات الطائفية معبرا عنها اساسا بميليشيات اليمين المتطرف . والسيادة تفترض الى جانب وحدة التراب الوطني ومركزية الدولة وحدة المجتمع بعلمنته وديموقراطيته الشاملة بالتخطيط والتنمية وعدالة توزيع الثروة ، لا بمجرد الدعوة الـــى الزواج المدني ، او بمجرد مظاهرة لشطب الدين من الهوية .

ان الحركة الوطنية اللبنانية وما يدعى بالمطالب ، هـي التـي تدافع عن السيادة على كافة الاراضي اللبنانية ، السيادة بجملـة المعاني التي اشرت اليها . هذه السيادة « الوطنية » هـــي الوجه الاخر لعملة توحيد الوطن وتوحيد الدولة وتوحيد المجتمع ، هـي المنقذ الوحيد من حالة اللاسلم واللاحرب ، للوصول الـــى حالة السلام الوطني الدائم الوطيد البنيان .

لذلك كانت معادلة اليمين المتطرف عن «السيادة او التقسيم» و « الامن او المطالب » معادلة وهمية من اساسها ، قصدوا منهـا الى تثبيت الوضع الراهن للبنان كدور وجسر وممر . امـــا الحل الاجتماعي الناجز للمسألة اللبنانية فقد عبر عنـــه جوزيف شادر ـ عضو المكتب السياسي للكتائب ـ في تقرير له امام ندوة الحزب في فندق سان جورج قبيل الاحداث بفترة قصيرة ، قال « ندائي البريء المحب الى الاغنياء ، ليس كي ينفقوا اقل مما ينفقون الان ، ولكن لتحويل قسم من تبذيراتهم الى الجمعيات الخيرية وقـــد اصبحت بحاجة الى المساعدة السخية اكثر بكثيـر مـن اي وقت اخر .. وندائي الى غير الميسورين ان يقتصدوا مـا امكن ويشدوا الحزام لكي تتضافر الجهود الفردية والرسمية على اجتياز هـذه المرحلة الصعبة من تاريخنا الحياتي وهي مرحلة لم تشهد البشرية اصعب وادق منها منذ قرون عدة » . ولا يختلف الامر عند الشيخ بيير الجميل حين قال في التلفزيون اثناء الحوادث ما معناه انـــه يتعين على الغني ان يزداد غنى حتى يستطيع مساعدة الفقير !!

الى هذا الحد وصل التفكير الاجتماعي عند اليمين اللبناني

المتطرف حيث يصبح العطف والتقشف والمزيد من الاستغلال اضلاع مثلث الحل لمأساة غابة تحترق ، ويتصور بعض الوحوش انه يمكن للنار ان تنطفىء اذا هم تخلصوا من بعض سكان الغابة « الضعاف » ! واذا هم سيطروا على الغابة وسادوا عليها !!

★ ★ ★

ولكن الحريق يمكن ان ينطفىء ، والغابة نفسها يمكن ان تتحول الى جنة ، لان حالة اللاسلم واللاحرب لا يمكن ان تستمر فهي « حركة » في الزمان والمكان وليست « سكونا » على الاطلاق.

يمكن اطفاء الحريق بثلاثة شروط رئيسية هي :

● قيام الجبهة الوطنية الديموقراطية اللبنانية ، قيامها لا اعلانها . القيام يعني تكوئنها من تحت ، والاعلان يعني تشكيلها من فوق ، وشتان ما بين المعنيين . ان التكون التحتي هو بلورة اتجاهات اجتماعية غربلتها الاحداث وسط الجماهير وبين القيادات السياسية على السواء . والتكون التحتي هو قيام اقتصاد وطني في البلاد لا يحتاج الى « استلام الحكم » حتى يتحقق . اي ان التكون التحتي هو ميلاد المجتمع الطبقي مكان المجتمع العشائري وميلاد الدولة الواحدة مكان تعدد الدويلات الطائفية .

وهو « عمل » طويل المدى وصعب ومرير ، ولكنه وحده هو الذي يشكل العمود الفقري لجبهة حقيقية .. فالجبهة الوطنية حركة متطورة وليست هيكلا جاهزا وفق مواصفات قديمة او جديدة . انها ممارسة ثورية مضنية على الجبهات الثلاث : الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فبلورة الاتجاهات الاجتماعية الجديدة تحتاج الى معايير خلاقة وخبرة حية وابداع شجاع يرصد منابع الوعي الشعبي ومصادر التلاحم الوطني اثناء القتال ، ويمسك بجذوره دون افتراضات او قوالب مسبقة ليعرف العدو من الحليف دون اسقاطات تاريخية او تصنيفات ايديولوجية

متعسفة . وقيام اقتصاد وطني في الزراعة والصناعة يحتاج الى مبادرات جريئة تستلزم جهدا دؤوبا في العمل السياسي من شأنه خلق قناعات جديدة عند فئات من الشعب تملك القدرة وتخشى المغامرة . وميلاد المجتمع الطبقي يحتاج الى تكثيف الحملة السياسية والفكرية جنبا الى جنب مع التغييرات الاقتصادية والاجتماعية ، فالجبهة ليست باية حال تشكيلا علويا ولا مجموعة للضغط ولا البديل الناضج موضوعيا لاستلام السلطة . وانما يكفي كثيرا تكوين « المعارضة » الغائبة عن الديموقراطية اللبنانية منذ مولدها !

● الطابع المسيحي للبنان هو نقيض الطابع الطائفي ، لذلك فهو ضرورة قومية وليس مطلبا مارونيا أو لا ينبغي ان يكون كذلك. والطابع المسيحي للبنان ليس هو مجموعة الامتيازات المارونية في التشريع والتنفيذ ـ حيث تحرم في المقابل طوائف مسيحية اخرى من هذه الامتيازات ـ وليس الطابع المسيحي هو طائفية الوظيفة وطائفية التربية والتعليم . وليس هو اخيرا مجموعة الاثار المسيحية ولا الكنائس .

وانما الطابع المسيحي اللبناني الذي ينبغي ان يكون ضرورة قومية هو دمج معطيات المسيحية الشرقية ضمن مقومات الحضارة العربية المعاصرة . اي تعريب الكنيسة اللبنانية المرتبطة ولائيا بالغرب كغطاء ديني من السجاد المقدس لدور لبنان الراهن ، لجسر الاقتصاد الاستعماري الى الشرق الاوسط وممر النفوذ الامبريالي الى الوطن العربي . ان « كنيسة عربية » جديدة هي العطاء اللبناني الممكن حتى يصبح الطابع المسيحي للبنان احدى قسمات التكامل القومي العربي . وهي لن تستطيع ذلك الا بفك ارتباطها المزيف مع الكنيسة الغربية ، والتحامها المقدس مع جماهير الشعب العربي في لبنان ، مع « ابناء الله » الذين دعاهم المسيح اخوته وفضلهم على الفريسيين والعشارين وحتى الذين يرددون اسمه

زورا وبهتانا فاذا بهم في المحنة يتخلون عنه او يبيعونه بثلاثين من الفضة . كنيسة الفقراء كنيسة الوطن والمجتمع الموحد ، هي الكنيسة العربية الجديدة التي يمكن للبنان ان يفخر باضافتها الى تراثه العظيم . ان الكنيسة التي ناضلت – ولو بأضعف الايمان – عن المطران كبوجي وحاربت في الوقت نفسه بامضى الاسلحة المطران حداد ليست هي الكنيسة العربية التي نتوق لان تضيف الى القومية العربية الطابع المسيحي اللبناني .

ولكن هذا العطاء ، ممكن وضروري بل ومحتوم ، لانه دليل الثراء الحضاري للامة العربية في مسيرتها التاريخية . لو قام لبنان بهذا الدور لاسترد مسيحيتنا من الغرب واعادها الى ارضها الحقيقية والاصيلة .. ولسد الطريق نهائيا امام الذين يريدون تحويل صليب المسيح الى « حائط برلين » بين ابناء الشعب الواحد ، وتحويله في الوقت نفسه الى جسر عبور للذين يصلبون شعبه ليل نهار .

● هل هناك مشكلة فلسطينية لبنانية ؟ نعم ولا . **نعم** من حيث الضيافة اللبنانية للوجود الفلسطيني المسلح ، وما تستتبعه هذه الضيافة المؤقتة من التزامات واحتكاكات واتفاقات وتجاوزات. ولكن الامر المؤكد هو ان امراض المجتمع اللبناني الرئيسية التي انفجرت كالوباء في الاحداث الاخيرة (العشائرية – البطالة – الجريمة) لا علاقة لها بالوجود الفلسطيني على الارض اللبنانية ، فهي سابقة عليه وتالية له . انها جراثيم اصيلة في الجسد الوطني والروح الاجتماعية اللبنانية . وليس ذنب المقاومة الفلسطينية انها فجرت احساسا غافيا ووعيا كان نائما في قطاع عريض من اللبنانيين وجدوا انفسهم « لاجئين » في بلادهم كالفلسطينيين المشردين ثم في وسائل المقاومة والتمرد . ولم يفرق اللبنانيون الفقراء بين العدو الاسرائيلي الذي طرد الفلسطينيين واغتصب حقوقهم والعدو اللبناني الذي يفعل الشيء ذاته . بل حين توغل

العدو الاسرائيلي في الحدود اللبنانية لم تعـــد هنـــاك فروق على الاطلاق بين المخيمات الفلسطينية واحزمة البؤس اللبنانية . مـــن هنا كان التلاحم العضوي والنفسي – اذا غضضنا النظر عن العامل القومي – بين فريق عريض من اللبنانيين والمقاومة الفلسطينية .

و لا من حيث ان المشكلة الفلسطينية قضية عربية قومية ضد الاستعمار والصهيونية . واذا كانت مسؤولية حلها تقع اولا عـــلى عاتق الشعب العربي الفلسطيني وقيادته الشرعية ، فان المسؤولية تقع ثانيا على مجمل الشعب العربـــي بانظمته وجماهيره وقياداته السياسية . هنا يصبح لبنان جزءا من كل . واذا كان هـــذا الجزء قد تصادف وكان « الارض » فان بقية الاجزاء – وفـــي مقدمتها الشعب الفلسطيني – يستكمل مسيرة انهـــاء الضيافة اللبنانية بالدم الغزير والعمل السياسي الدؤوب معا وبغير انفصال ، فضلا عن المال والسلاح والتدريب والتعليم وغيرها مـــن جوانب العطاء العربي – وفي طليعته العطاء الفلسطيني – لقضية فلسطين .

.. فليس بلبنان وحده يحيا الانسان الفلسطيني !

بل ان العطاء الفلسطيني للبنان ينبغي ان تفصل لـــه القوائم الطويلة فهو ليس مقصورا عـــلى العناصر الماديـــة كالاقتصاد او العناصر المعنوية كالوعي ، بل انـــه يتجاوز ذلك الـــى الدفاع عـــن حدود الوطن اللبناني .

واكثـــر

ان العطاء الفلسطيني للبنـــان – وليس العكس كما يتراءى لبعض العيون المتورمة – هو اللاطائفية ، فالديمقراطية الفلسطينية في المخيمات ومعسكرات التدريب هي اثمن الهدايا للفرور اللبناني وصيغته الفريدة !

وبعـــد ،

فبغير توفر هذه الشروط الموضوعية ، ستبقى حالة اللاسلم واللاحرب بقاء دور لبنان – السمسار ، وليس امامهم لحراسة بوابة

المر سوى الحل الشهابي القديم ، ولكن في غيبة شهاب وعبد الناصر معا ، حيث لا يبقى من الشهابية الجديدة ـ ان ظهرت ـ سوى المكتب الثاني .

اي دكتاتورية الحكم العسكري !

ولن يؤدي هذا الحل المرتقب الى السلم ، بل سيفتح الطريق واسعا امام الحرب الاخيرة .

★ ★ ★

.. واخيرا

فان لبنان لم ينته ، ولن ينتهي .

انه ، على العكس ، ربما كان يولد للمرة الاولى .

وهو لا ينتظر شهادة ميلاده من احد ! فقد اكتسب شرعيته بالدم .

وسوف يسجل التاريخ في انصع صفحاته ان فريقا رائعا من اللبنانيين خاض حربا فرضت عليه عام ١٩٧٥ لتكريس انقسام الوطن ، فاذا به يبعث من تحت الانقاض والرماد وجثث الاف الشهداء وحدة هذا الوطن .

٥ و ١٩٧٦/١/٧



القسم الثالث

مـن يوميات « بيروت ٧٥ »



تمثيلية الاهتمام الغربي

ليس سرا ان الرئيس الاميركي فورد بعث برسالة الى الرئيس السوري حافظ الاسد بشأن الاحداث اللبنانية ، قال فيها ان الولايات المتحدة حريصة على استقلال لبنان ووحدة اراضيه ، وانه ما لم يحدث تدخل خارجي ــ من اي نوع كان ــ فان اميركا لن تغير هذا الموقف . واضاف فورد ، وهذا هو المهم ، ان بلاده لن تعارض اية « اصلاحات داخلية » مصدرها اتفاق اللبنانيين انفسهم .

وليس مهما ان الرئيس الاميركي بعث برسالة مشابهة الى « اسرائيل » .

ولكن الاهم ان وزير خارجية فرنسا ادلى بتصريح مماثل جاء فيه ان فرنسا حريصة على « وحدة الاراضي اللبنانية » وانه « يستبعد اي تدخل جماعي او منفرد » من جانب الغرب لحل الازمة اللبنانية . وكأنه يعلق سلفا على اجتماع وزراء السوق الاوروبية المشتركة في روما ، حيث تحتل « الازمة اللبنانية » بندا في جدول اعماله .

كذلك اجاب وزير الخارجية البريطاني على سؤال في مجلس العموم بقوله ان الوضع في لبنان يشعل البارود في ازمة الشرق

الاوسط ، وانه على اتصال مستمر بزملائه في اوروبا الغربية واميركا ، للتشاور في ما يمكن عمله للحيلولة دون انفجار الموقف بأكمله في المنطقة . واضاف انه لا يتصور « تدخلا من اي نوع » يمكنه اطفاء النار ، بل لعل مثل هذا التدخل « يزيد الفتيل اشتعالا » .

والقراءة الصبورة لهذه التصريحات تؤكد شيئا واحدا ، هو ان « الغرب » في الظروف العالمية الراهنة ، لا يستطيع ان يمد يد العون الفعلية الى الطرف الداخلي الذي يعتمد على هذه اليد ! انه قد يشارك بالتفكير والتدبير والتخطيط بل وتسهيل التسليح ، ولكنه ابدا لن يغامر بتكرار مأساة ١٩٥٨ .

انه لن يكف عن ابداء « الاهتمام البالغ » بما يجري ، ولكنه الاهتمام الذي يتوقف عند ابواب « الامنيات الحارة » دون التورط المباشر في دهاليز القنطاري والسوديكو والنبعة وسن الفيل والشياح وعين الرمانة .

بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٧٥ تغير الزمن وانقلبت الموازين واصبح سفراء اميركا يهربون من فوق اسطح منازلهم بالهليكوبتر في فيتنام وكمبوديا .. وحتى المائتي فني اميركي بممرات سيناء لن يستقر لهم المقام في حالة الحرب !!

وهكذا ، فانه من اخطر ثمار الانفراج الدولي ، انه بات على القوى المحلية ان تحسم الصدام الدائر في اوطانها ، رغم اية مؤثرات اجنبية مساعدة . والخسارة المؤكدة دائما في هذه الحال، من نصيب قوى اليمين والرجعية والانعزال ، لانها هي التي احتمت تاريخيا بالاجنبي .

ولكنها هذه المرة تحتمي بالوهم ، فالشعب امامها والبحر وراءها ولا منقذ سوى التسليم بالواقع الجديد .

٧٥/١١/٢

صح النوم !..

في الوقت الذي اعلنت فيه فرنسا سماحها باقامة « مكتب دائم » لمنظمة التحرير الفلسطينية في باريس ، كان راديو « صوت اميركا » وحده هو الذي فسر تصريحات وزير الخارجية الفرنسي حول ما اسماه « مبادرة سياسية » لانقاذ الوضع اللبناني ، بأنه نوع من « الحماية » للاقليات المسيحية اللبنانية !

وكان المرء يتصور ان معزوفة « الحماية الاجنبية للاقليات الدينية » في العالم العربي قد انتهت منذ اكثر من ستين عاما .. فاثناء الثورة المصرية عام ١٩١٩ ارتفع صوت الانجليز مطالبا بحماية الاقباط ، فوقف الاب مرقص سرجيوس على منبر الجامع الازهر يصرخ بأعلى صوت « اذا كان تحرير مصر من الاستعمار البريطاني يحتاج الى التضحية بمليون قبطي ، فاننا على استعداد لفداء حرية بلادنا بهذا الميون ، ولا يبقى موطىء قدم للاحتلال باسم حمايتنا ».

ومنذ تلك الايام وضع الانجليز « الكنيسة المصرية » في القائمة السوداء ، واستنوا قانونهم الشهير « فرق تسد » ، فهم الذين حرموا بعض الوظائف العليا على المسيحيين ، وهم الذين مانعوا في وصولهم الى المراكز الحساسة في الجيش والبوليس

والادارة . ولكن التربة المصرية التي تغذت بالعلمنــة والديمقراطية منذ القرن التاسع عشر سرعان ما اكتشفت اللعبة واقتلعت الزرع الخبيث من جذوره .

وليست مصر في ذلك بدعة بين اقطــار الوطــن العربــي ، فالمسيحيون في السودان وسوريا والعــراق والاردن وفلسطين لا يعيشون حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كطائفة دينية، بل كمواطنين موزعين في مختلف الطبقات يرتبط مصيرهم كغيرهم من ابناء الاديان الاخرى بالتطور الوطني والاجتماعــي للبــلاد ، لا يعرفون « الجيتو » الداخلي ولا يعتمدون على « حماية » خارجية.

ولم يفكر قطر عربي واحد في ان يسمي ذلك « صيغة فريدة » كما هو الحال في القاموس السياسي اللبنانــي .. فليس الامــر شاذا ولا استثنائيا في الثلث الاخير مــن القــرن العشرين (!!) أن تصبح الهوية الاجتماعية والسياسية هي معيــار « المواطنــة » وليست الهوية الدينية . انه الامر الطبيعي وليس صيغــة فريــدة يتفاخر بها الناس !

والتقسيم القبرصي – على سبيل المثــال – ليس تقسيمــا طائفيا ، بل هو عمل سياســي تتنازعــه دولتــان لا علاقــة لهمــا بالطائفية : فتركيا المسلمة الغت الطائفية منذ ستين عاما، واصبحت دولة علمانية كاملة منذ ثورة اتاتورك ، واليونــان المسيحية فصلت الدين عن الدولة منذ امد بعيد . والغالبية العظمــى مــن الشعب القبرصي تريد جزيرتها الصغيرة موحدة وديمقراطية وابعد مــا تكون عن الدين (انها مقر الزواج المدني ، اليس كذلــك ؟) رغــم قلنسوة الاسقف مكاريوس ، رجل الدين الــذي اثبت انــه اكثــر علمانية من دعاة التقسيم « المدنيين » .

وتؤكد الاحداث يوما بعد يوم ان « الدولة الدينية » لا مكــان

لها في عالمنا المعاصر .. فباكستان التي استقلت عن الهند لاسباب دينية ، هي نفسها التي عرفت حربا مروعة انتهت بانفصال بنغلاديش عنها رغم الوحدة الدينية بينهما .

ولم يستطع الفاتيكان ان يحمي معقل المسيحية الاولى ــ القدس ــ من براثن الدولة اليهودية ، بل اصدر وثيقة تبرئة ، هي الاولى من نوعها ، لليهود من دم المسيح . والغرب المسيحي عموما، واميركا على وجه الخصوص ، هو الذي يحمي « اسرائيل » اليهودية والكثير من الدول « المسلمة » التي تدور في فلكه الاقتصادي والاستراتيجي !

لم يعد الدين منذ وقت طويل حماية لاحد ولا هوية ، ولم يعد التعايش الديني صيغة فريدة واكتشافا عبقريا ، بل اصبح الصراع الوطني والاجتماعي هو الجوهر والاساس ... وصح النوم !!

٧٥/١١/٣

حائـط المبكى في الامم المتحـدة

ذرف المندوب الاسرائيلي في الامم المتحـدة امس ، دموعـا حارة على المسيحيين في لبنان . وقال انه من العار لهـذه الهيئـة الدولية ان تبحث في قضية فلسطين وتترك مصير مليون مسيحي لبناني نهبا للضياع .

ولا شك ان مندوبي الدول « المسيحية » في المنظمة العالميـة قد اذهلهم دمـوع المنـدوب الاسرائيلـي ، لان شعـوب بلادهـم « المسيحية » تعلم ان قوات جيش الدفاع الاسرائيلي ــ دون غيرها ــ هي التي احرقت حتى الآن وخربت ودمرت ٢٦ كنيسة اثرية في قرية بيت لحم وحدها ، مهد المسيح ! وان هذه القوات اليهوديـة هي التي نهبت كنوز ١٣١ كنيسة في مختلف ارجاء فلسطين المحتلة منذ حرب ٦٧ فقط ! ومن هذه الكنوز صلبان ذهبية ولوحات نادرة وتماثيل تاريخية ، لم يسرقوها من المعابد الى المتاحف ، بل اذابوا معادنها وحولوها الى سبائك ذهبية وفضية مودعة باسم الدولـة الصهيونية في مصرفها المركزي !!

.. وان المجندات الاسرائيليات هن اللواتي رقصن ومـارسن الحب في هياكـل الاديـرة والكنائس المحيطـة بالقـدس ، وان عشاقهن المخمورين هم الذين ضربوا الخوارنة والشمامسة باعقاب البنادق حين تصدوا لهم !!

اقول لا شك ان مندوبي الدول المسيحية ــ ومن بينهم مندوب الولايات المتحدة ــ يعرفون هذه الحقائق التي انقلها حرفيا عن تقرير هيئة اليونسكو في باريس ، والذي بمقتضاه حرمت « اسرائيل » من معونات الهيئة الثقافية الدولية المحايدة !

والعالم الكاثوليكي بأسره يسمع عن مطران عربي كاثوليكي يدعى كابوجي قدموه للمحاكمة لانه نفذ وصايا المسيح عمليا « فأحب قريبه كنفسه » . وكان هذا القريب هو الانسان الفلسطيني . ولم تهتم العدالة الاسرائيلية قليلا بالثوب الكهنوتي فاودعت المطران العربي المريض بالقلب في احدى زنزاناتها محكوما بائنتي عشر عاما، ولم تستمع كثيرا لنداءات الفاتيكان ولا لاضرابات كابوجي المتواصلة عن الطعام !!

.. وفي ملفات « قضية فلسطين » بادراج الامم المتحدة شهادات واقعية دامغة عن اساليب السلطة الاسرائيلية في معاملة الطوائف المسيحية القاطنة من قبل في حدود ١٩٤٨ والقادمة من بعد في حدود ١٩٦٧ .. فالمواطن العربي المسيحي هو مواطن من الدرجة الثالثة بعد اليهود الشرقيين مباشرة ، سواء في علاقته بالدولة او في علاقته بالمواطنين اليهود !

ورغم ذلك كله يجرؤ المندوب الاسرائيلي على تحويل منبر الامم المتحدة الى حائط مبكى جديد يذرف منه الدموع على مصير المسيحيين في لبنان !!

ولكن المسيحيين في لبنان يعرفون ان الذين احتلوا مطار بيروت ذات يوم هم الجنود الاسرائيليون ، وان الذين هبطوا في شارع فردان وقتلوا كمال ناصر ورفاقه هم الاسرائيليون ، وان الذين فجروا مكتب انيس صايغ في مركز الابحاث هم الاسرائيليون، وان الذين روعوا بيروت ذات صباح بمسلسل الصواريخ المعدة للانطلاق الكترونيا هم الاسرائيليون ...

وقبل ذلك كله وبعده ، فالمسيحيون اللبنانيون يعرفون من ضرب جنود بلادهم ودمر قراهم الحدودية ، بالنسف والخطف والقتل ، دون اية تفرقة بين دم المسيحي والمسلم .

والمسيحيون اللبنانيون اولا واخيرا لم يطلبوا من عدوهم الدفاع عنهم .. لانهم يعرفون كيف يحلون مشاكلهم الداخلية ، ولانهم احرص على انفسهم ووطنهم من اسد يهوذا الرابض على حدودهم الجنوبية .. وهم يدركون اكثر من غيرهم ان مشاكلهم الثانوية مع ابناء وطنهم من الاديان الاخرى ، لا تحجب عنهم في اية لحظة عدوهم الرئيسي .. أكثر من ذلك فهم يعون ان مخالب هذا العدو ليست بعيدة عما جرى لجسم وطنهم من تمزقات !!

لذلك بدت دموع المندوب الاسرائيلي بالامس في الامم المتحدة مثارا للسخرية لانه انتحل صفة المحامي المزيف في قضية بلا توكيل من اصحابها الشرعيين ، بل في قضية هو احد الجناة الرئيسيين بين المتهمين ..

غير ان حائط المبكى الذي اقامه كان ستارا من ورق مزقه مندوب فلسطين ، فاذا بالمحامي المزيف يصبح متهما أصيلا في القضية الحقيقية .. قضية فلسطين .

٧٥/١١/٥

بكـاء بطرس .. ولا مشنقة يهـوذا

قال السيد المسيح قبـل القبض عليـه ، لاحـد تلامذتـه : ستنكرني ثلاث مرات قبل صـياح الديـك ! وحـدث ان اشـتبه جواسيس قيافا في « التلميذ » ، فانكر سيده مرة واثنتين وثلاثا، وصاح الديك !! وخلا بطرس بنفسه ، كما يقول الانجيل « وبكـى بكـاء مـرا » .

ولكن هذا التلميذ هو الذي قال له المسيح في مـرة اخـرى « انت بطرس ، وعلى هـذه الصخرة ابنـي كنيستي » . وكلمـة بطرس ذاتها معناها « الصخرة » ، لذلك رفض بطرس في روما ــ وهو يكرز بشارة يسوع ــ ان يصلب كسيده عندما امسكه الرومان، بل طلب أن يصلب ورأسه الى أسفل وقدماه الى أعلى !

وذهب اباطرة الرومان الى الجحيم واصبح القـديس بطرس مؤسسا لاكبر كنائس العالم « الكنيسـة الجامعـة الرسـولية » واصبحت روما التي صلبته ذات يوم عاصمة الكاثوليكية .

وبين الحين والاخر يتحول الفاتكان في شخص احد باباواته العظام الى هذا الرمز المكثف لقصة بطرس الرسول : يخلو بنفسه كلما انكر المسيحيون سيدهم في مكان ما ويبكي بكاء مرا ، ويرفض ان يصلب كالمسيح بل مقلوبا كبطرس ، على يقين مـن ان الوثنيـة

الكامنة في قلوب بعض المسيحيين سوف تندحر ليحل مكانها ضوء المسيح رسول المحبة والسلام القائل « من ضربك على خدك الايمن ادر له الايسر » . كان البابا يوحنا الثالث والعشرين احد هؤلاء البابوات العظام وكذلك البابا بولس السادس . امثال هؤلاء هم الذين محوا من ذاكرة البشرية محاكم التفتيش الدموية في العصور الوسطى ، وفتحوا ابواب الفاتيكان حتى لخصومهم ، فتحوه ايضا لرياح العصر والتحرر والتنوير

من هنا كانت رسالة قداسة البابا الى الشعب اللبناني في شخص رئيس الجمهورية ذات مغزى تاريخي اكبر من السطور ، انها صوت الرسول بطرس في بكائه المرير بعد صياح الديك ، صوته ايضا وهو يصلب عكس سيده . تطلب الرسالة في ندائها العاجل « القاء السلاح نهائيا والكف عن تقاتل الاخوة وحل جميع الاختلافات بتفهم متبادل وحوار اخوي » . وتشجع الحوار مع ابناء الطوائف الاسلامية « من اجل التقدم الاقتصادي والاخلاقي والاجتماعي والسياسي في لبنان » . بل ان الرسالة البابوية تذهب الى ما هو ابعد فتقرر ما يشبه البيان المقدس حين تقول « ان الكرسي الرسولي من جهته ، اذ يؤيد الجهود التي يقوم بها قادة الفرقاء المعنيين من اجل اعادة الحق الى الشعب الفلسطيني يوجه الدعاء لصيانة لبنان واحترام سيادته واستقلاله من اي تدخل خارجي . ولكن كل دعم معنوي صديق يذهب عبثا اذا لم يتخلى اللبنانيون انفسهم باندفاع وتبصر ، عن القتال والهدم ولا يلتزمون بحل خلافاتهم بتفاهم مخلص وعاجل » .

هذا هو البيان الرسولي الذي حوله بطاركة لبنان امس الى « بيان » كاثوليكي لبناني .. فبالرغم من ان لغبطة البطريرك خريش مواقف وطنية مشهودة من المحنة اللبنانية ، وكلمات باقية على مر الزمان سواء بالنسبة للقضية الفلسطينية او لقضية لبنان الاجتماعية والسياسية ، فان بيان الامس هو الاول من نوعه الذي

يرتفع الى مستوى الميثاق الرسولي المقدس ، انه الالتزام الشرعي بمقررات الكرسي البابوي الرافضة لتقسيم الارض والشعب والمؤيدة للتغيير والتطوير . يقول بيان البطاركة الكاثوليك في لبنان حرفيا « ان من واجب الدولة بجميع اجهزتها ان تمارس سلطتها على جميع الفرقاء في جميع انحاء البلاد وتمنع تدفق السلاح من اية جهة اتى والى اية فئة ذهب وتفرغ كل جهدها لتطويق ذيول الكارثة التي حلت بلبنان على كل صعيد ، ولا سيما الصعيد الاقتصادي الذي اشرف على الانهيار وللتخفيف من آلام المشردين والمنكوبين والعمل على ايوائهم وتأمين حاجاتهم الاولية ».

انه صوت بطرس الرسول وبكاؤه المر وصليبه المقلوب ، وليس صوت يهوذا ، التلميذ الاخر الذي باع سيده بثلاثين من الفضة وحين رأى المسيح يساق الى الصلب ذهب وشنق نفسه .. بعد فوات الاوان !

وبقي بطرس ــ رغم صياح الديك ــ رمزا للشهادة العليا ، وتلاشى يهوذا في نيران الجحيم . وبيان البطاركة الكاثوليك هو رمز للشهادة اللبنانية .

١٩٧٥/١١/١٠

عندما يتكلم الرعد باصوات الضحايا

هتك الرعد بالامس اسرارا كانت خبيئة في طوايا الصدور ، صرخ بما لـم يستطيع ان يهمس بـــه السياسيـــون والقناصـــون والخاطفون . .

كان مشهد السمـــاء مثيـــرا ، تداخلـــت السحـــب بالشمس بالضباب بزخات المطر وكان عرس الطبيعة قد اختلط بنواحهـــا ، فاضطربت خيوط الظلمة وانسجة النور ، واجتاحت الكون بغتـــة مظاهرات النشيج المكتوم وزغاريد الفاجعة الاسطورية .

كان الرعد بالامس يتكلم

كان يقول بعيني طفل غطت رموشه وجه السماء : لم اكـــن اصدق ان اللعبة التي ظللت العب بها زمنا ، تلـــك التـــي يسمونها «الفرد» ، سوف تتحول في أيدي الذين يكبرونني الى شبح الشيطان يقودونني الى دهاليز جهنم فأرى النجوم في « عز الضهر » باسياخ محمية ذات اشكال والوان تخترق ظهري وصدري وعيني بعقـــب سيجارة او بسلك مكهرب ، ثم تحول ذلك الشيء الذي كنت العب به زمنا طويلا ، وكان ابي يمازحني قائلا انـــي حين اكبـــر ســـوف العب بالفرد الحقيقي واقتل العدو الرابض علـــى حدود وطنـــي ،

تحولت اللعبة في ايدي هؤلاء الذين خطفوني من الطريق الى جرعة مركزة من النيران التي التهمت رأسي واعضائي .. ولم اعد اتذكر سوى ان الحبل السري الذي كان يربطني بالارض قد انقطع ، وها انذا ارتفع كعصفور بلا اجنحة فوق شجرة عالية عالية ، لا ادري اين تصل بي فروعها المذهلة في الطول . تركت ابـي وامي واختي واصحابي محمد وجورج وابراهيم والياس ، تركت كتبي واساتذتي واوراقي ، ولم اعد احلم بان اصير ضابطا كما كان يشتهي ابـي او طبيبا كما كانت تتمنى امـي او مهندسا كمـا كنت ارغب انـا . لماذا ؟ لماذا حدث ذلك الشيء الغريب ، ان يأخذنـي البعض بـلا سبب ، وان يستولوا بلعبتي القديمة على جسدي فيمزقـوه بـلا سبب ، لماذا لماذا لماذا ..

وظل الرعد بالامس يتكلم

كان يقول بشعر فتاة يغطي وجـه الشمس . ظننته للوهلـة الاولى عريسي وفارس احلامي جاء يخطفني فوق حصانـه الابيض كما كنت اقرأ في تلك الروايات القديمة العذبة . ولكن الوقت لـم يكن موعد حبيبي . كنت في طريقي لاشتري له بعض المفاجآت التي يهواها ، كان قد سرق قلبي واردت ان اسرق الدهشة من عيونه . انه ولا شك قد اعد لزفافنا كل شيء ، الا شيئا واحدا لا يخطر له على بال ، سوف اشتريه الان وامضي الـى عش حياتنا المقبلة ، عشنا الصغير الذي لا يتسع لاحلامنا ، ولكنه سيكبر مع حبنا يوما بعد يوم . ولكن الذي « خطفني » بلا جواد ابيض ، ولا تلمـع عيناه بنور حبيبي ، وانما في يديه شيء ما اسود وتلمع في مقلتيه صور الكابوس . انه الكابوس ، هذا الذي يجري لـي فـي القبو المظلم ، كابوس مروع ينزف دمي ، وتسيل مـع الدم قواي وتخور اعماقي من الداخل . هل هو الكابوس ذلك الاعصار الذي يستلب جسدي

المزق ، بينما يتحول قلبي الى طائر سريع الطيران الى اعلى .. اعلى .. اعلى .. هل هو كابوس .. انني اصرخ في وجوهكم من مكان لا ترونه ولا اراه : هل هو كابوس ؟ هل هو ؟ هل ؟

وبقي الرعد بالامس يتكلم .

كان يقول بيدي رجل تبرز اصابعهما من بين السحب فتهطل قطرات حمراء قانية : يبدو انني ضللت الطريق ، لقد تصورت نفسي في لبنان حيث ورثت عن ابي وجدي وجد جدي حكمة الشجاعة والشهامة والكرم ، فأهرع الى مناصرة الضعيف ولا ارفع يدي في وجه اعزل فأعفو عند المقدرة . حتى القبيلة القديمة التي يقال اننا ننتمي اليها ، كانت تستقبل خصومها العزل من السلاح اذا ضلوا الطريق فوصلوا تخومها خطأ فتنسى الثأر والانتقام وتسخو صدور رجالها بالعطاء والضيافة . ولكن يبدو ان شيئا ما مثيرا قد وقع ، بحيث لا اراني في لبنان . اين انا ؟ كل ما اتذكره انني كنت في طريقي الى عملي المتواضع الذي يطعم اطفالي وزوجتي خبز الكفاف . وتصورت ان احدا من « الكبار » يمر ، والا فلماذا اقاموا هذا الحاجز ؟ ولكنهم يطلبون مني هويتي ، الا تقول لهم لهجتي انني لبناني ابن لبناني ابن لبناني ؟! ولماذا هم ملثمون هكذا ، أيخشى احدهم ان يكون زميل دراسة او صديق رحلة او اننا جلسنا معا ذات يوم حول كأس عرق ؟ لا ادري ، ولكن المفاجأة انهم لم يكونوا بانتظار احد الكبار ، وانما لدهشتي كانوا ينتظرونني! ربما كانت مزحة كرنفالية ظريفة ، فقد اخذوني معهم الى مكان غريب لم تطأه قدماي من قبل . وبدأ مزاحهم سخيفا ، ثم ثقيلا ، ثم .. ما هذه الدبابيس المحماة والكهرباء التي يقشعر لها البدن . لقد تغيرت اصول الضيافة والمزاح ولا شك في بلادي ! انهم يفعلون بأعضائي اشياء لم تعد ذاكرتي تتحملها او تحملها . انهم بالقطع ليسوا لبنانيين ، ليسوا ابناء وطني ، لا بد ان العدو قد احتل

بلادي سرا ، والا فما هذا الذي يجري .. احدهم يمد نصلا لامعـا بالشر الى عنقي .. كلا لا بد انني اهذي .. ماذا فعلت لهم ؟ انـني لا اعرفهم ولم اصب احدهم باذى ولست احمل سـلاحا . ولكـن المزاح السخيف بدا ينقلب جدا ، النصل الحـاد يحاذي عنقي ثـم « يزكزكه » ثم .. يا الهي !! وانفصل عني جسـدي فجاة وتحولت الى نسمة ثقيلة من الهواء طارت بعيدا بعيدا عن هذا الشيء الذي كان يدعى ذات يوم لبنان . ام انني ضللت الطريـق فجرى لي مـا جرى . قل لي يا لبنان .. يا لبنان .. يا لبنان .. اين انت ؟؟

واستمر الرعد طوال امس يتكلم .

١٩٧٥/١١/١٥

حتى لا يضحك التاريخ ويبكي اولادنـا !

ربما كان اهم القرارات الثلاثة التـي اتخذتها هيئـة الامـم المتحدة بعد مناقشاتها هذا الاسبوع لقضية فلسطين هو قرارهـا الخاص بالايديولوجية الصهيونية واعتبارها احد اشكال التفكيـر والتمييز العنصري .

والقرار في واقع الامر ليس خاصا بفلسطين وحدها ، بقـدر ما يخص الضمير الانساني اينما كان . وقد كانت خريطة التصويت المضاءة بالنيون في قاعة الهيئة الدولية ، بمثابة خريطـة جديـدة للوعي البشري المعاصر ، ترسم بدقة بالغة حقيقة التغيرات التـي طرات على الانسانية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

والطريف ان ميلاد الامم المتحـدة كان لوفـاة الايديولوجيـة النازية والفاشية ورمـزا فكريـا لانتصار الديمقراطيـة . وبشاء « التطور » ان يضع على المحك بعد اكثر من ربع قرن مبادىء مـا يسمى « بالعالم الحر » فتكون نتيجة الامتحان ما يلي :

١ ــ ان تقف الولايات المتحدة وبريطانيـا والمانيـا الغربيـة وايطاليا وفرنسا وغيرهم من دول الغرب الراسمالي الـى جـانب الايديولوجية العنصرية .

٢ ــ ان يقف الاتحـاد السوفياتي والصين وكوبـا واوروبـا الشرقية ضد الايديولوجية العنصرية .

٣ ـ ان يقف ما يسمى بالعالم الثالث ـ ومن ضمنه الدول العربية ـ ضد الايديولوجية العنصرية .

هذا التقسيم « الفكري » الجديد للعالم، هو اكثر التقسيمات وضوحا لخريطة الانسانية المعاصرة . . فالمعايير الاقتصادية او الصناعية او السياسية او الاجتماعية او الدينية ، لا تدلنا بهذه الدرجة من الوضوح على تضاريس الخريطة العالمية الجديدة. . ذلك ان تشابك الثروات ومعدلات التنمية والمخططات الاستراتيجية ، وتداخل النظم الاجتماعية والعسكرية والعقائدية من شأنه ان يخلط الاوراق ويضلنا عن رؤية الصورة البانوراميه الشاملة .

اما الآن ، وبعد هزيمة النازية والفاشية بأكثر من ربع قرن ، فتجيء قضية فلسطين لتكون سببا ومناسبة لا اكثر ، لامتحان الضمير البشري في درس العنصرية التي اكتوى العالم بنارها في اتون الحرب الثانية . واذا « بالتطور » يشير الى ان بعض الدول التي ناضلت بالدم من اجل الديمقراطية ، تقف الى جانب النازية الجديدة ، وان الدول التي شقت بعد الحرب طريقا « جذريا » جديدا في الاقتصاد والسياسة ـ اي الدول الاشتراكية ـ هي التي استمرت حتى اليوم في نضالها ضد مختلف اسماء العنصرية، وان الدول حديثة الاستقلال من نير التبعية الاستعمارية والاضطهاد العرقي والقهر العنصري تقف ـ بالطبع ـ ضد ايديولوجية القهر والاضطهاد .

والحق ان هذا التقسيم الجديد ليس عفويا ولا من قبيل المصادفات ، بل هو يلخص من ناحية مجموعة من المفارقات ومن ناحية اخرى مجموعة من الحقائق الاقتصادية والسياسية . . التي ينبغي في ضوئها ـ نحن ابناء الشعوب المستقلة حديثا والتي في سبيلها الى الاستقلال ـ ان نعيد النظر في « حركة » بلادنا السياسية .

اما مجموعة المفارقات فيمكن ايجازها في ان تشريعات الغرب الراسمالي وقوانينه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، تلتزم عموما بمبادىء الثورات الفرنسية والانجليزية والاميركية القائمة على الحرية والاخاء والمساواة والمرتكزة على قواعد العقد الاجتماعي داخليا ووثيقة حقوق الانسان خارجيا ، حتى ان تمثال الحرية هو الذي يواجه المرء عند مدخل نيويورك . ومع ذلك فان دول هذه « المبادىء » هي التي صوتت الى جانب النازية الجديدة، الايديولوجية الصهيونية فلسفة العرق اليهودي المتحققة في « دولة » قائمة على تحويل الدين الى قومية ، والتي تمارس بشهادة الضمير العالمي ابشع الوان التمييز العنصري ، والقائمة ايضا على العدوان والتوسع ، تماما كالنازية القديمة ولكن في صورة مصغرة هي « العالم » العربي .

واما مجموعة الحقائق فهي ان دول الغرب الراسمالي ــ بقيادة الولايات المتحدة ــ تتخذ قراراتها بانسجام مع واقعها بغض النظر عن نفاقها العقائدي . . فالمجتمع الاميركي لا زال في جوهره مجتمعا عنصريا قوامه التفرقة اللونية بين ابناء الوطن الواحد . والسياسة الاميركية الخارجية التي تتباكى على مجازر هتلر ، ارتكبت في فيتنام وكمبوديا وغيرهما اكثر المذابح همجية في التاريخ الحديث ضد « الانسان الاصفر » ، اما فرنسا ، فيكفي ما يحدث للعمال الجزائريين والمغاربة ــ والعرب عموما ــ لنوقن انها لم تتخلص بعد من الامراض العنصرية التي لازمتها في الهند الصينية وشمال افريقيا . وفي ايرلندا لا زال الانجليز يمارسون اقذر حرب عنصرية بين الكاثوليك والبروتستانت . اي ان دول هذا « العالم الحر » هي في واقع الامر دول « العالم العنصري » رغم الحضارة التكنولوجية الحديثة ورغم النصوص الدستورية المستنيرة .

ولاننا لسنا عنصريين فاننا لا نقول ـ مثلا ـ ان الانسان الابيض عدواني بطبيعته ولا نستذل انفسنا ونقول انه متفوق بطبيعته ، ذلك ان الانسان الابيض في اقطار اخرى كالبلدان الاشتراكية ، يناهض العنصرية داخليا وخارجيا بثبات وحزم لا يلين . وكان العالم الاشتراكي في مقدمة الذين حددوا معالم خريطة الوعي الانساني الجديد ، في اقتراع الامم المتحدة امس .

.. واذن ، فالسبب الحقيقي هو « جوهر النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي» في الغرب ، حيث يلازم التطور الراسمالي بالضرورة مختلف اشكال التفرقة .. فوق سيقان التفاوت الطبقي الحاد تنمو كافة اشكال التفرقة غير « الانسانية » كالتفرقة الدينية والعرقية واللونية . وليس غريبا اذن ان يصبح خصوم هتلر بالامس اصدقاء هرتزل اليوم ، فقد حاربوا النازية بالامس لانها كانت تهدد ديمقراطيتهم الاقتصادية ، ويحالفون النازية الجديدة اليوم لانها تعكس ما آلت اليه الديمقراطية في الغرب الراسمالي المعاصر من تدهور وسقوط . ولعلهم غدا يعيدون الاعتبار الى « المغفور له » المرحوم هتلر جنبا الى جنب مع « سيىء الذكر » هرتزل .

ليس هذا مهما ، فهم يمضون نحو طريق مسدود ، والمهم هو نحن الذين يتعين علينا ان نفهم درس « العنصرية » بالامس في الامم المتحدة فهما عميقا .. فالامر ليس انتصارا معنويا على « اسرائيل » بقدر ما ينبغي ان يكون انتصارا على انفسنا ولانفسنا. والانتصار على النفس يتطلب مواجهة شجاعة مع « الذات » نعترف فيها :

● بأنه لا تزال بين ظهرانينا رواسب عنصرية في الفكر والسلوك والقوانين ، وانه لا بد من تطهير مجتمعاتنا من هذه القاذورات المنحدرة الينا عبر عصور الانحطاط والتخلف ، وعبر

قرون من الانظمة الطبقية المتعفنة ، وعبر عشرات السنين من الاستعمار الغربي . ولا سبيل لهذا « التطهير » بالنوايا الحسنة والمواعظ الاخلاقية ، وانما بتغييرات راديكالية في بنية المجتمع الحضارية على مختلف الجبهات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية .

● تتميز بلادنا — وضمنا ما يسمى بالعالم الثالث — اننا لم نحسم « طريق التطور » في مرحلة التحرر الوطني بعد الاستقلال . وقد اوضحت لنا خريطة الامس في الامم المتحدة ان نظاما معينا للتطور هو الذي ينتهي حتما بمباركة العنصرية والدفاع عنها ، وان نظاما آخر للتطور هو الذي يناضل العنصرية بثبات حتى النهاية . ولاننا نعيش في قلب العالم وفي رحاب الربع الاخير من القرن العشرين ، لا بد من ان نسلك اقتصاديا وسياسيا وفق « الاختيار الصعب » الذي علينا ان نحسه لمصلحة انساننا والبشرية بأسرها .

★★★

وذلك حتى لا يكون موقفنا امس من التصويت في الامم المتحدة موقفا جزئيا ومرحليا ومتعلقا فقط بمشكلتنا الوطنية مع « اسرائيل » . وحتى لا نفاجأ بعد عشر سنوات مثلا وقد تغيرت معالم خريطة التصويت ضد العنصرية ، واصبح بعضنا في مواقع المؤيد لها والمدافع عنها !!

حينذاك سوف يضحك علينا التاريخ .. ويبكي اولادنا .

٧٥/١١/١٣

من حقك ان تصدق ، ومن حقك ايضا الا تصدق ما سأقوله لك ، ما دامت عيوننا فقدت الكثير من قدرتها على الرؤية وسط الدوامة الحمراء ..

ولكني ، امانة مع النفس وراحة للضمير ، سأروي لك ما حدث ، سواء صدقت او لم تصدق :

القصة الاولى لشاب عمل في الفترة الاخيرة قناصا ، استهوته « اللعبة » ، كما يقول صديقه ، لعدة اسباب .. فهو « مثقف » عائد الى بلده بعد غربة طويلة في اوروبا واصل خلالها الليل بالنهار ليتعلم ما يوفر على وطنه « الخبرة الاجنبية » . ولكنه حين عاد صدمته حقيقة مروعة ، وهي انه تعلم كل شيء الا قواعد اللعبة اللبنانية ، فلم يجد مكانه اللائق به بين ابناء مهنته . وبدأ يبحث عن لقمة العيش بكافة الوسائل الشريفة التي قد تهيء له الحد الكفاف ولكنها لا تخلي نفسه من العذاب والمرارة .

.. ومع الجولة الاولى والثانية والثالثة من جولات « الدوامة الحمراء » اكتشف فجأة قانونا جديدا للوجود والعدم هو «العبث». راى بعينيه وشم بأنفه ولمس بيديه ان البريء في هذه المأساة هو الذي يموت ، وان القاتل لا يصيبه اذى . اكتشف ان ذلك يتم بصورة متواترة دقيقة كأنها القاعدة ، وغيرها الاستثناء . حينئذ

قرر في لحظة صوفية غريبة تشبه الجنون لم تتوحد خلالها ذاته بذات الله ، بل انفصمت الى ذاتين احداهما تراقب الاخرى بفزع هائل ولكنها لا تملك نهيها عما نوت وقررت . نعم فقد قرر الشاب « المثقف » ان يمسك بالبندقية ذات المنظار وان يبدأ في اصطياد البشر دون هدف، بل عبثا في عبث . لم تكن هناك اية قضية تحرك صدره بالانفعال ولم يكن يتقاضى اجرا ولم تكن لديه ايديولوجية تهز قلبه بالدفاع او الهجوم . وانما كان يرمي ضحيته برصاصة او رصاصتين ، ثم ينزل من « علياء مجده » في البناية التي اختارها مركزا للاطلاق ، ويسحب الجثة مفتشا جيوبها عن اية اوراق تكشف هويتها . كلا لم يكن يبحث عن هويتها الدينية ، بل هويتها الاجتماعية . يريد ان يعرف ماذا كان يعمل صاحبها : مديرا ام شحاذا متزوجا ام اعزبا سعيدا ام تعيسا في حياته .

والغريب ــ كما يقول صديقه ــ ان قانون العبث تأكد لديه اكثر فأكثر ، فرصاصاته الطائشة لم تصب سوى الفقراء والمسحوقين والمرضى والضائعين ، ولم تصب قط واحدا من الذين « سرقوا مكانه في المجتمع الذي عاد من اجله » كما كان يردد ، او واحدا من « صناع اللعبة اللبنانية التي لم يجدها في اوروبا » كما كان يكرر وهو يبكي احيانا كثيرة .

ثم وقع حادث فظيع . صوب بندقيته نحو شخص ما كان يمر ــ كالعادة ــ صدفة . وقتلته الرصاصة الاولى . ونزل صاحبنا من اعلى العمارة التي يتمركز فيها ليسحب الجثة ويفتش اوراقها، واذا بها لشقيقة التوأم والوحيد !! ولم تمر ثوان معدودة حتى اطلق الرصاص في رأسه بثبات عجيب ، وتمدد على الفور الى جانب اخيه . . وانبثقت عن جسديهما نافورة من الدماء غطت وجه الارض بسحابة حمراء قانية .

★★★

والقصة الثانية لاسرة من طائفة معينة ، تسكن في حي تغلب على سكانه هوية طائفة اخرى . جاء المسلحون واختطفوا الاسرة ، وذهبوا بأفرادها الى بيت ما بغية الاحتفاظ برهائنهم . لم يكن لهذه الاسرة اية اعمال مشينة ، ولم يكن عليها اية شبهات ، كان ذنبها الوحيد الهوية الطائفية واختيارها العفوي لهذا الحي الذي لم تشعر فيه يوما بالقلق او التهديد . ولكنها فوجئت بهذا الخطف المباغت فحملت قلوبها على اكفها ومضت خلف المسلحين نحو المجهول .

وما ان وصلت أعتاب « البيت » الذي اختاره الخاطفون ، حتى تكلمت القلوب مع بعضها البعض لغة الدهشة والاستغراب . وما ان دخل افرادها البيت حتى قفز اهله في مشهد مثير يأخذون « ضيوفهم » بالاحضان والقبلات ! ولم يفهم المسلحون شيئا ، انتقلت الدهشة الى عيونهم وكأنها لا تصدق ما ترى .. فقد كان المخطوفون من الاصدقاء الحميمين لاهل هذا البيت بالذات رغم اختلاف الهوية !! وامام هذه « الصدفة » المذهلة التي اصابت البعض بالخجل والبعض الآخر بالارتباك ، انهمرت من عيون الاسرة دموع الفرح ، وعادت ــ مرة اخرى ــ الى بيتها في الحي ذاته ، وقد زادت اصرارا على البقاء !!

★★★

قلت لك في البداية : صدق او لا تصدق ، فهذا من حقك ما دامت عيوننا فقدت الكثير من قدرتها على الرؤية وسط الدوامة الحمراء .. ولكني ، امانة مع النفس وراحة للضمير ، رويت لك ما حدث لاسألك انت بالذات يا من تقرأ هذه السطور : الى اي مدى يمكن لهذا الوطن ان يعيش اذا تحكمت فيه الصدفة العمياء وقانون العبث ؟! واذا سادت شريعة « الغابة » الى هذا المدى ، الا تظن معي انه يمكن ان نتحول بالفعل لا بالمجاز الى حيوانات ؟؟

٧٥/١١/١٤

ليس قولا مجازيا ، ان الوطن العربي ــ بأســره ــ لم يستقل بعد ، رغم خلو اجزاء عريضة في هذا الوطن من جنود الاحتلال . وليست مبالغة ان لبنان من بين الدول العربية الخالية شوارها من هؤلاء الجنود ، يصلح نموذجا للبلد الذي غادره الاجنبي من الشباك ليدخل من البــاب !

كيف ؟

ربما كانت « اصول البلاغة » تملي على البعض الصراخ باننــا امة واحدة من المحيط الى الخليج ، بينما « يعملون » على ترسيخ واقع اقليمي ضيق الافق . ولكن بلاغة الحقائق هي ان هذا الوطــن رغم التمزق ، وحدة واحــدة كالجسم البشــري اذا جــرح احــد اعضائه او بتر تأثرت بقيــة الاعضاء . والعكس ايضا صحيح ، اذا اكتسب جزء ما دماء جديدة جرت في كل الشرايين واحيت مختلف الاجزاء .

وليس ذلك ، ايضــا ، تعبيــرا « انشائيــا » ، فالتكامــل الاقتصادي العربي ــ مثلا ــ هو ضرورة حياتية ملحة قبل ان يكون « دعوة » قومية : فالاراضي الزراعية الخصبة فــي بعض الاقطــار تبلغ ملايين الهكتارات ، ولا يلزمها سوى « الانسان » و « المــال »

حتى تكفي العرب جميعا الى درجة التصدير .. بينما هناك اقطار اخرى فقيرة في الارض وغنية بالانسان ، واقطار من نـوع ثالـث فقيرة في كل شيء وغنية بالمال . ورغم هـذه الامكانيات المتاحـة للتكامل ، فان الارض تظل بورا ، والانسان عاطلا عن العمل ، والمال مصادرا في الخزائن .

كيف ، مـرة اخـرى ؟

هل هو « الماضي » الذي فتت الدولة الواحدة الى دويلات ؟ نعم . هل هو « التاريخ » الذي اورثنا نظما اقليمية منحطة كرست التخلف وابقت على التجزئة ؟ نعم ونعم . ولكن ليس ذلك كل شيء! فالاحتجاج بالتراث القديم وحده لا يغفر الخطايا .

.. والحقيقة الفاجعة هي اننا لم نستقل بعد ، فالاجنبي غير ثيابه الكاكي وارتدى الثياب الخضراء والزرقاء والبيضاء ، لم يعد يتمخطر في الثكنات او دار المنـدوب السامي ، بـل اصبحت لـه بنوك وشركات وجامعات وكنائس ومؤسسات ! ولم يعـد يركـب الدبابات والمصفحات ويمسـك المدافـع ، بـل يركـب السيارات ويمسك السيجار .

.. ولم يغير الاجنبي المودرن اهدافه ابدا ، لا زالت الخامات الاولية والايدي العاملة الرخيصة والنفوذ الاستراتيجي هي كل مـا يطمح اليه ، ولكن بوسائل جديدة تظهرنا احيانا كما لو كنا اصحاب القرار والسلطة والهيلمان !!

واولى هذه الوسائل ، هي تحول الوحدة العربية بل التكامل العربي من مستوى الضرورة الى الحلم . وقد كانت « اسـرائيل » هي اكبر الوسائل (العسكرية والسياسية معا) للحيلولة دون قيام هذا التكامل .. ثم كان الاعتماد على انظمة سياسية غنية بالمـواد الاولية او الايدي العاملة الرخيصة او الكفاءات التقنية او الموقـع الاستراتيجي ، هو الوسيلة الثانيـة لتكريس التجزئة .. وكـان

التحالف مع طبقات اجتماعية مستفيدة من « فـرق السعـر » ولا يعنيها في كثير او قليل توظيف اموالهـا او اراضيها او كفاءاتهـا البشرية او ايدي عمالها لتقدم « المجتمع » وحماية « الوطن » هـو الوسيلة الثالثة التي رسخت الحدود الوهمية بمزيد من الاسـلاك الشائكة والالغام .

.. اي ان « العنصر الداخلي » ـ بشجاعة يجب ان نعترف ـ هو الذي اتاح للاجنبي ان يعود من اوسع الابواب ، فلم تكـد بعض اقطار المشرق والمغرب العربي تحصل على « استقلالها » قبيل انتهاء الحرب الثانية حتى بدأت « اسرائيل » تشق طريقها الى الوجـود وحتى بدأت الانظمة الاقطاعية والرجعية والعسكريـة تهيمن لمنـع مقادير « الخريطة الجديدة » وتزرع اشارات الضوء الاحمر لمنـع العبور العربي الى قطف ثمار الاستقلال .

فبالرغم من هبوب رياح التغيير بالثورة الوطنية التي قادهـا جمال عبد الناصر في بداية الخمسينات وما شجعت عليه من ثورات مماثلة في بقاع اخرى من الوطن العربي الا ان العواصف المضـادة للشراع الوطني الوحدوي التقدمي سرعان مـا انتكست بالشعلـة سواء بالانفصال عام ١٩٦١ او بالهزيمة عام ١٩٦٧ او بالنصر عـام ١٩٧٣ .

فالتركيبة الاجتماعية للوطن العربـي والتـي يرتكـز عليهـا الاستعمار الجديد المهذب ، لا زالت هي الاقوى .. سواء بالانظمـة اللاديمقراطية او ببنائها القبلي العشائري الطائفي . ومن هنا كـان تضافر بنيتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية هـو الحاجـز الحقيقي دون الاستقلال .

ولعل الجانب الايجابي الوحيد لهذه الحصيلة القائمة هي ان

الوحدة القومية للوطن العربي باتت تعني لاعرض الجماهير ، انهـا الاستقلال والديمقراطية والعـدل الاجتماعـي .. بينمـا النزعـة الاقليمية بمختلف ايديولوجيتها بل اوهامها العرقيـة والطائفيـة والعنصرية ، باتت تعني القهر والدكتاتورية والبؤس .. والاستعمار الجديد المهـذب !

ولبنان منذ عام ١٩٤٣ الى اليـوم هو مجـرد نمـوذج مكثف للوطن الذي لم يستقل بعد .. انه ليس شـذوذا عن القاعـدة ولا استثناء للقانـون .

وربما كان جديرا بنا ان نتأمل الفرق بين الاستقلال اللبناني الذي تم « انجازه » والاستقلال الذي لم ينجز بعد ، فقد نكتشف « معنى » الأحداث الدامية !!

٧٥/١١/٢٢

« في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان اللــه الكلمـــــة » .

و « الله محبـــة » .

هذا هو تعريف الانجيل لله : انه الكلمة ، وهو الحب ، اي انه في عبارة واحدة « كلمة حب » .

.. و « اريد رحمة لا ذبيحة » .

و « بيتي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة لصوص » هذه ايضا كلمات المسيح ، هذه « ارادته » وهذا « بيته » .

★★★

لمن كان يسوع يوجه الخطاب ؟

كان يتوجه به الى اليهود ، ومن بعدهم الى العالم اجمع .

لمــاذا ؟

لان « صورة يهوه » في التوراة ـــ اله اليهود ـــ كانت نقيضا للحب ، حتى انهم حطموا الوصايا العشر التي جاءهم بها موسى ، واذابوا مصاغ نسائهم وكنعوا منه عجلا ذهبيـــا وسجدوا له فـــي صحراء سيناء بعد طردهم من مصر .

والتوراة بكاملها ملحمة دموية توجز الصراع بين اله اليهــود والــه موسى ..

لذلك اقبلت المسيحية حلا جذريا لهذا الصراع ، فبعد ان كان « يهوه » الها لعشيرة يكاد يكون رديفا لمارس اله الحرب عند القدماء ، اصبح الله لكل البشر ، اصبح ايضا هو الحب .

.. والمرة اليتيمة التي تخلى فيها المسيح عن حلمه وقال : « ما جئت لالقي سلاما بل سيفا » وامسك السوط ودخل الهيكل « فقلب موائد الصيارفة وباعة الحمام » وصرخ بأعلى صوته « بيتي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مفارة لصوص » كان يضع الخط الفاصل بين وثنية التجارة وعبادة الله « لا احد يستطيع ان يخدم سيدين : الله والمال » .

وهكذا قامت المسيحية على انقاض اليهودية ، حين راح يسوع يحدد القيم الجديدة بقوله صراحة « قيل للقدماء كذا وكذا.. اما انا فأقول لكم كيت وكيت » . وهي القيم التي تفتح صدر الله للانسانية جمعاء دون تفرقة بين عرق وعرق او بين لون ولون ، ولا تجعل من الملكية الفردية او « التجارة تحت سقف المعبد » امتيازا بل « عصابة في مفارة للصوص » .

اي ان المسيح — برؤيا واضحة للمستقبل — كان يربط في جلاء لا يقبل الشك بين عنصرية المؤمنين بيهوه واسلوب حياتهم القائم على « عبادة المال » سواء كان عجلا ذهبيا في سيناء أو البيع والشراء في هيكل سليمان . وكان يفرق بحسم قاطع — كحد السيف وبطرف السوط — بين هؤلاء والذين آمنوا بأن الله « كلمة حب » وان ارادته « رحمة لا ذبيحة » وان بيته « بيت الصلاة يدعى » . لذلك كانت الكنيسة عند المسيح هي « جماعة المؤمنين » وليست « المؤسسة » التي عرفت التاريخ الدامي للمسيحية .

★★★

ولم ينتصر « يهوه » على المسيح بالرغم من ان اليهود ساقوه الى الصلب . ولم ينتصر الرومان الذين كانوا يلقون بالمسيحيين في افواه الاسود ويرمون بهم احياء في الزيت المغلي ، ولم تنتصر

محاكم التفتيش وصكوك الغفران في شراء الضمير المسيحي .

ذلك ان الصراع بين يهوه اليهودي ويسوع الناصري ظل قائما على مدى التاريخ ، لا بين اليهود والمسيحيين فحسب ، بل بين المسيحيين وبعضهم البعض او بمعنى ادق بين الكنيسة « المؤسسة » والكنيسة « جماعة المؤمنين » .. ذلك ان المسيحية لم تكن قط — حتى في اظلم عصورها — عرقا وجنسية . هكذا اضطهدت روما المسيحية مصر المسيحية اضطهادا يندى له جبين البشر ، حتى ان « السنة القبطية » التي يؤرخ بها المسيحيون المصريون فصول السنة الزراعية هي « عام الشهداء » الذي يبدأ باليوم الذي قتل فيه الرومان اربعماية الف مصري !! ومنذ ذلك التاريخ اصبحت الكنيسة المصرية قلعة للنضال الوطني ضد الاستعمار ايا كان لونه وعقيدته . وعندما كتب اسقف كانتربري في انجلترا عن « العدل الاشتراكي » في الاتحاد السوفياتي ، وقال حرفيا ان مسيحية الملحدين اعمق ايمانا برسالة يسوع من مسيحية المؤمنين بالفوارق الطبقية ، دعوه منذ ذلك الوقت بالاسقف الاحمر . وفي عصر مضى الم يحرق المسيحيون جان دارك المسيحية لانها ارادت الحرية لوطنها فرنسا من براثن الانجليز ؟

وفي السنوات الاخيرة ظهرت حركتان مسيحيتان متعارضتان في الاسلوب والهدف : آباء ورهبان الكنيسة الكاثوليكية في اميركا اللاتينية ينزلون الى ساحة الكفاح المسلح جنبا الى جنب مع الشيوعيين ضد الاستعمار الاميركي والانظمة الدكتاتورية العميلة لاحتكارات المواد الاولية ، ومجلس الكنائس العالمي الذي تأسس بمبادرة من وكالة المخابرات المركزية . الرهبان الكاثوليك يموتون في احراج بوليفيا وغابات اميركا اللاتينية دفاعا عن الارض والانسان — دفاعا عن المسيحية الحقيقية — ومجلس الكنائس العالمي يشرب الويسكي والشمبانيا في صحة العملاء « الملحدة » المسفوكة بالوديان وقمم الجبال .

تلك هي الكنيسة « المؤسسة » وهؤلاء هم الكنيسة « جماعة المؤمنين » : الآباء المقاتلون ترجموا رسالة المسيح بلغة العصر فراحوا يناضلون ضد يهوه الجديد، الاميركي العنصري الاستعماري القاتل للحرية والعدل وكرامة الانسان . ومجلس الكنائس راح يجمع كافة المذاهب الرسمية للمسيحية تحت راية صليبية جديدة لا ليقاتل الفقر والحرمان والتشرد بل ليناضل « الالحاد » !

من هو المؤمن ومن هو الملحد ؟ هل المؤمن هو الذي يصدر بيانا بالامس يحتج على وصف الصهيونية بالعنصرية ؟ اليس العمود الفقري للصهيونية هو اقامة « وطن قومي لليهود » وهل هناك يا مجلس الكنائس العالمي « وطن قومي للمسيحية » ام ان اميركا المسيحية نفسها قامت بثورة « قومية » ضد بريطانيا المسيحية ؟ اولم تناضل « الحبشة » المسيحية ايطاليا المسيحية الفازية . ليس هناك على وجه الارض وطن قومي للمسيحيين ، لان المسيحية قامت على انقاض عرش يهوه العنصري ، لانها مجموعة من القيم المعادية للعرق وراس المال وليست وطنا ، او فلنقل انها وطن للانسانية كلها .

ام انكم لا زلتم تصلبون المسيح كل يوم ، بعد ان انكرتم الله « الكلمة » والله « المحبة » وبعد ان حولتم بيت الله الى مغارة لصوص ؟

٧٥/١١/١٦

بالرغم من ان الحريق اللبناني صناعة لبنانية اساسا ــ فالحطب لبناني وكذلك عود الثقاب ــ الا ان هذا لا يمنع مطلقا ان هذا لا يمنع مطلقا ان البيئة العربية والمناخ الدولي لهما دور سواء باتجاه الريح او بغياب المطر !

والرياح العربية بدات في صحراء سيناء بالاتفاقية الشهيرة، وقد ساعد اتجاهها بغير شك على اشتعال اللهب اللبناني واتساع رقعته . والمطر الغربي الخجول لا يستطيع ان يطفىء شمعة ، بل لعل البرق والرعد الذي صاحبه لحظات خاطفة قد اجج نيران التوتر والرعب !

والمشهد العربي يدعو فعلا الى الرثاء ، لا لانه قد وصل ــ حمد الله وسلامته ــ الى مقاعد المتفرجين فحسب ، بل لانه بات لا يشعر بأن الحريق اللبناني يمتد رويدا رويدا الى هذه المقاعد ذاتها . . فالجحيم اللبناني ــ اذا كنا قوميين عرب حقا ــ لن يقتصر بأية حال على عشرة آلاف كيلو متر مربع ، بل انه سيرتفع ويتسع حتى ليشمل « الهيكل » بأكمله !!

. . فاذا كان احد الاسباب لجهنم اللبنانية ، اتفاقية سيناء ،

فان الرد اللبناني لن يكون الانتحار بمفرده . انه لن ينتحر انتحارا رومانتيكيا من فوق صخرة الروشة ، ولن ينتحر انتحـارا بوذيـا نبيلا من اجل الخلاص . انه على الارجح سوف ينتحـر انتحـارا شمشونيا فيحطم المعبد عليه وعلى « اشقائه » العرب !

وليست المسألة مطلقا هي بضعـة ملاييـن مـن الجنيهـات والدولارات والدنانير فـي المصارف اللبنانيـة ، ولا هـي بضـع مؤسسات وشركات وسفارات وبنوك ، ولا هي بضعة مصالح وركائز وجسور يمكن ان تتحول رمادا يتطاير مع رماد الجثث المحروقـة ، ويتبدد مع ضياع الارواح المزهوقة !

ابدا ..

المسألة اخطر من ذلك بكثير، فلبنان بكل المصالح العربيةداخله ليس اكثر من عمود في بناء المعبد العربي الذي يمكـن ان يتحطم ، والنار اللبنانية سوف تمتد واقعيا لا مجازا الى خـارج الحـدود الاقليمية ، سوف تتسرب فوق قمم الجبال ومع مياه البحر الـى كافة ارجاء الوطن الكبير . وما تم تصديره من رياح سيناء والنفط وغيرهما سوف يعاد الى اصحابه كاملا مع « الاربـاح والفوائـد » القانونية والمهربة !

ذلك أننا لا ينبغي ان نكون « قوميين » في توريد السبب ولا نكون كذلك في الحصول على النتائج !

ان الحريق لبناني أصلا وفرعا ، ولكن الرياح العربية التـي اسهمت في اتساعه ، لا تدري ان قذائف اللهب سوف ترتد الـى سماء الارض التي تحركت منهـا ، سـواء كانت سـماء الممـرات الاكترونية او سماء النفط « المنخفض » الاسعار او سـماء الصمت

العربي المطبق على كل ما يجري في مصر او لبنان او بقيـة ارجـاء الوطن الكبيـر .

.. والصمت لا يغفر الخطايا ، ولكنه اطالة ــ واعية أو غيـر واعية ــ للحريق الذي يمضي سعيدا باتجاه الريح العربيـة حتـى يحرق مقاعد المتفرجين .

وحين يلسع اللهب ظهور البعض يكون الوقت قـد فات .. بعدما أصبح الملعب « خرابة » تعوي فيها القطط والكلاب !!

١٩٧٥/١١/٢٧

امتحان اسرائيلي لجميع اللبنانيين

غارة « اسرائيل » على الشمال والجنوب ليست مجـرد رد على قرار المتحدة ومجلس الامن بشأن منظمة التحرير الفلسطينية. ليست الغارة ايضا مجرد جواب على النشاط الفدائي الاخير فـي الارض المحتلة .

ولكن الغارة في جوهرها امتحان للبنانيين في مادة « الوطن»! فالمخيمات الفلسطينية التي هوجمت بضراوة منقطعة النظيـر اول أمس ، ليست منصوبة فوق ارض المريخ او كوكب الزهرة ، وانمـا فوق ارض لبنانية ، وكأن « اسرائيل » تشير بغير قصد الـى ان حدود لبنان تبدأ من الجنوب الى الشمال لا مـن الاشـرفية الـى كسروان ولا من الشياح الى صيدا !

هذه هي الحدود الحقيقية سواء كان سكانها من الفلسطينيين أو من الهنود الحمر ، فهم ضيوف على الارض وليسوا هم الارض . وحين تقتل « اسرائيل » عشرة او مائة او الف من هؤلاء السكان ، فانها تفعل في اللحظة عينها مـا هو أبشع للبنان : انهـا تنتهـك السيادة والامن !! وهـذا هو الدرس الثانـي في امتحـان مـادة « الوطن » .. فاذا كانت الحدود تمتد من الشمال الـى الجنوب لا من القنطاري الى رأس النبع ، فان السيادة والامن تعني مباشـرة عدم انتهاك هذه الحدود ، حينئذ فحسب يصبح مطلب السيـادة

والامن مطلبا وطنيا ، ويصبح العـدو الحقيقـي للسيادة والامـن اللبنانيين هو « اسرائيل » لا اعداءها من الفلسطينيين او الضيوف المؤقتين على ارض لبـنان .

ويصبح من ثم مشهد الـدم طيلة الاشهـر الثمانيـة الماضية مشهدا مريبا ، لان السلاح والرجال راحـوا يدافعون عـن حـدود وهمية ، بدلا من التوجه الى حـدود « الوطـن » . ولا شـك ان الفلسطينيين كانوا سيصحبون اكثر الناس سـعادة لو ان كافـة البنادق والصواريخ والمدافع تجمعت هناك عنـد تلـك الحـدود الصحيحة . ولا شك ان بنادقهم كانت ستتخذ مواقعها فـي اول الجبهة ، لان حماية الحـدود اللبنانيـة هـي حمايـة لـلارواح الفلسطينيـة .

وهذا هو الدرس الثالث في امتحان مادة « الوطن » ، فـاذا كان الفلسطينيون ــ اليوم ــ هـم الوسـيلة التـي تتـذرع بهـا « اسرائيل » ، فان لبنان هو الهدف . وحـين يترك الفلسطينيون هذه الارض غدا ــ مهما طال الطريق الـى الغد ــ فان « اسرائيل » لن تعدم الوسائل الجديدة لضرب لبنان .. فالتوسـع الصهيونـي عقيدة ثابتة ، والاستمرار في تهجير اليهود من أوطانهم الاصليـة يحتاج لمزيد من الارض . ولا شك ان ارض الجنوب الخصبة ومياه نهر الليطاني من البنود الاولى في جدول التوسع الاسرائيلي .

ولا شك ايضا ان هذا الجـدول يتسع لطبيعـة « الوضـع الخاص » في لبنـان . وسواء كانـت « اسرائيل » قـد اشتركت مباشرة في القتال اللبناني بواسطة شبكات التخريب المنظمـة ، أو بصورة غير مباشرة عن طريق شبكات التجسس ، فانه يسعدهـا الى غير حد ان تنشأ الى جوارها دويلات على شاكلتها ومثالها حتى لا تظل « غريبة » في المنطقة بتكوينها الديني واسسها العنصريـة . لذلك فهي لا ترتاح مطلقا للانفراج الداخلي في لبنان . ولا ترتـاح اكثر اذا صاحب هذا الانفـراج تخطيـط اقتصـادي واجتماعـي

وسياسي من شأنه معالجة « الازمة » من الجـذور ، ففـي هـذا التخطيط اجهاض لحلمها بتفتيت العالم العربي اكثر مما هو مفتت. وهي تترجم عدم ارتياحهـا كالعـادة بالغـارات الوحشيـة عـلى الفلسطينيين في الشمال والجنوب وغدا في العاصمة وضواحيها.. وتصبح الطرق غير آمنة وحذرة لا بسبب دواعي أمنية لبنانية ، بل لدواعي « الامن الاسرائيلي » وهذا هو الدرس الرابع في امتحـان مـادة « الوطـن » .

انه امتحان لجميع اللبنانيين من اقصى اليمين الـى اقصـى اليسار وما بينهما من درجـات الشعور بأن لبـنان ليس مقاطعـة اسرائيلية ، بل هو أولا واخيرا ارض اللبنانيين وحدهـم : فهـل ينجحون في الامتحان ؟

٧٥/١٢/٤

طبعة منقحة من التقسيم يدعونهـا « كونفدرالية الطوائف » هي الفتيل الجديد الذي اشعل حرب الاستنزاف الجارية الآن في بيروت والضواحي . .

فقد هدات « الحرب » ــ دون أن تضع اوزارها ــ حين اخفق مشروع التقسيم محليا وعربيا وعالميا ، ثم توترت الاجـواء حيـن افتى بعضهم بالبديل ، وهو انه يمكن قيام اتحـاد كونفدرالي بـين الطوائف وتصبح بيروت بمقتضى هذا الاتحاد مدينـة مفتوحـة او العاصمة المركزية المفتوحة .

ومن المؤسف أن « الجهل » هو سيد الموقف الدرامي اللبناني، فالمثل الذي يعطونه على شرعية وامكانية هذه الكونفدرالية الطائفية هو سويسرا . وفي استطاعتهم اذا ارادوا المضي في هذا التصور الجاهل للخريطة الدولية ان يضيفوا الولايات المتحدة ذاتها والاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا !! وكلها « نمـاذج » للوحـدة والاتحـاد والفيدرالية والكونفدرالية وغيرها من مفردات الوحدة أو الاتحادات القومية والديموقراطية .

ولكن ليس مـن بينها عـلى الاطـلاق فيدراليـة طائفيـة او كونفدرالية عنصرية : الولايات المتحدة مثلا ليست حاصـل جمـع ولايات بيضاء وولايات سوداء . والاتحاد السوفياتي ليس حاصل

جمع ولايات اشتراكية وولايات راسمالية . وسويسرا ــ يا سادة يا كرام ــ ليست حاصل جمع ولايات ارثوذكسية وولايات كاثوليكية !

ان النموذج الاميركي الذي يتمتع بمساحة جغرافية هائلة تتسع فيها المسافات يرمي من نظام الاستقلال الذاتي للولاية ــ وفق الدستور وبواكير الثورة القومية على الاحتلال البريطاني ــ الى نوع من الديموقراطية والليبرالية السياسية تتيح سرعة الحركة والحسم في المشكلات الثانوية للولاية . ولكن السلطة المركزية هي المرجع الاول والاخير ، والرئاسة المركزية هي المحور الشامل للسلطة الاميركية ، والتخطيط الشامل أمنيا واقتصاديا وسياسيا هو الاسلوب الذي يخضع له التشريع والتنفيذ في الولايات المتحدة. لذلك ليست هناك مثلا احزاب اقليمية للولايات ، وليست هناك مجالس للوزارة أو للرئاسة ، وانما هنالك قضاء شعبي مستقل وحاكم لا تخرج سلطاته عن سلطات المحافظ عندنا . وهكذا فالكونفرس بمجلسيه والوزارة ورئيس الجمهورية ومجلس الامن القومي هي دائرة السلطة المركزية الواحدة ــ رغم تعدد الولايات ــ التي تخطط وتنفذ سياسة اميركا الداخلية والخارجية .

والاتحاد السوفياتي الذي يضم حوالي ٤٥ قومية وحوالي ١٥ جمهورية بعضها « اعضاء » في الامم المتحدة يرمي الى تحقيق ديموقراطية شعبية بين القوميات المختلفة ذات التقاليد والتراثات التاريخية المتباينة وذات مستويات التطور الاجتماعي المغايرة لبعضها البعض .. ولكن في اطار قيادة سياسية موحدة توحيدا مركزيا صارما ، هي الحزب الشيوعي السوفياتي بمجلسه الاعلى (البرلمان) والبريزديوم والامانة العامة .

اما سويسرا التي تضم ثلاثة اقاليم ، احدها يقع على الحدود الالمانية والآخر على الحدود الفرنسية والثالث على الحدود الايطالية ، فانها ليست « اتحادا » شكليا ، والا لما أمكن فرض

حيادها السياسي في زمن الحرب ، وانما هي اتحاد ديموقراطي له سلطته المركزية وامتداداتها الهرمية داخل الاقاليم الثلاثة والتي لا تشكل عدة تجمعات ، بل تجمعا واحدا بلغات ثلاث يصب في النهاية عند « حدود الوطن الواحدة » بدستوره الواحد وتشريعاته المركزية الواحدة ووسائل تنفيذها الموحدة .

والقاسم المشترك الاول بين هذه الامثلة انها انظمة مركزية ديموقراطية ، بعضها اشتراكي كالاتحاد السوفياتي والاتحاد اليوغوسلافي ، وبعضها الآخر ليبرالي كأميركا وسويسرا . والقاسم المشترك الثاني ان جميعها اتحادات علمانية لا تعرف الطائفية ولا تسمع عنها . والقاسم المشترك الثالث ان الفوارق القومية او الاجتماعية بين اقسامها في طريق الذوبان ، وانظمتها الاتحادية هي وسيلة لتحقيق هذا الهدف ، وليست وسيلة لتكريس الانقسام او تجاهله .

لذلك عرفت هذه الاشكال الاتحادية سواء في ميلادها او تطورها ، العمل السلمي والاستقرار بشكل عام لا تغيره الاستثناءات .

اما الفتوى اللبنانية فهي « صيغة فريدة » حقا بين الصيغ السياسية في العالم : لانها اولا تبني على بحر من الدماء ، ولانها تستهدف تكريس واقع سلبي ، ولانها اخيرا تعتمد على اكثر الاسس تخلفا في بناء الدول وهو الاساس الطائفي .

واذا كان التعايش في ظل لبنان الكبير ليس صيغة فريدة ولا شذوذا ، فالاديان تجتمع في اوطان كثيرة دون دماء ، فان فتوى الكونفدرالية الطائفية بدعة جديدة تستنزف الدماء بلا معنى ..

فكما ان اخفاق التقسيم اوقف « الحرب » فان اخفاق الطبعة المنقحة منه ، سوف يوقف « حرب الاستنزاف » حتما .. لانها بالفعل لا بالتورية ، حرب بلا معنى .

٥٨/١١/٥٨

« أعداء الفقراء »

حين سئلت شخصية سعودية هامة ، اين تقفون من الاحداث اللبنانية ، اجابت : اذا كان الصراع بين اليمين واليسار فنحن مع اليمين ، واذا كان الصراع بين المسيحيين والمسلمين فنحن على الحياد !

كان ذلك في بداية الحوادث منذ شهور . ولكن اذاعة لندن والصحف العالمية اوقعت « الفكر السياسي السعودي » في مأزق لا تنفع معه الدبلوماسية الساذجة ، حين راحت تشير الى احد الاحزاب بقولها « الحزب المسيحي اليميني » بينما تشير الى الحركة الوطنية اللبنانية بقولها « المسلمون اليساريون » .

اي ان السياسة السعودية فوجئت ـ للمرة الالف تقريبا ـ بان اشهر معاجم اللغة العربية لا يوافقها مطلقا على ان الاسلام يرادف اليمين ، بل ان « لؤلؤة العدل » في اعظم تقاليد الفكر الاسلامي هي لؤلؤة حمراء ، معلقة على صدور الفقراء والكادحين والذين يناضلون من اجلهم .

و « الفكر السياسي » في السعودية ـ اذا جازت تسميته بهذا التعبير ـ هو اكثر اسكال الفكر العربي بلبلة وتمزقا وانفصالا بين الوجدان والسلوك .. فهو من ناحية ليس فكرا دينيا خالصا ، لان ارتباطاته المالية والاقتصادية كلها مع المسيحيين في الغرب

وفي لبنان . وهو تابع سياسيا وايديولوجيا لهـذه الارتباطـات . ولكن هذا لا يمنعه من الدفاع الكلامي عن « القدس » !

وفي مؤتمر الرباط الاخير للقمة العربية جرت مناقشة حادة حول الدعم الذي يمكن ان تدفعه السعودية لتسليح العرب . وكانت الحجة السعودية في « البخل » ان هذه الاموال تذهب الى جيوب الشيوعيين ، وكان الرد العربي ان السلاح يصبح عربيا بمجرد ان يصل الى المقاتلين العرب ، وانه بهذا السلاح نقتل العدو الصهيوني ونربح الحياة للعرب مسلمين ومسيحيين .

وظل الراي الرسمي السعودي في جمال عبد الناصر انـــه « ضد الاسلام » لانه يؤمم المصالح الاستعمارية والرأسمالية ويمنح الفقراء بعض العدل . وحين وقعت هزيمة ١٩٦٧ قال السعوديون انها من « غضب الله » لان مصر ذهبت بعيدا عن الايمان ، لم يقل احدهم كلمة واحدة في « اسرائيل » او « الاستعمار » .

وحين ظهر معمر القذافي رجلا يدعو الى الاسلام ولكن علـى نحو مختلف عن « الاسلام السعودي » ، فهو يؤمم ويشتم امريكـا ويعشق مصر وعبد الناصر ، كانت السعودية اول من وضع اسلام الرئيس الليبي في قفص الاتهام .

وحين وقعت حرب تشرين وشاركت السعوديـــة بحظـــر النفط ، قلنـــا ان « قومية » الناس اقـوى مـــن خصوماتهـــم العقائدية .. ولكن ما لبث الحظر ان رفع واصبحت السعودية في مقدمة الدول التـي خفضت الاسعـــار حتـى لا يتأذى الاقتصاد الغربي .

وكان المأمول عند السلطات المصريـة ـ بعـد غيـاب عبـــد الناصر ! ـ ان السعودية سوف تعطي ما كانت تحجبه في ظـــل الناصرية ، ولكنه ليس سرا مـا حدث ، بل فضيحـة مدويـة : اذ نشرت احدى الصحف الرجعية في مصر ان « الهبة » السعوديـة بلغت مليار دولار ، ثم تكشف الحال عن مائة مليون دولار لا غيـر !

وعانت مصر في بعض الاوقات من نقص بترولي فلـم « تمنحنـا » السعودية برميلا . وعانت مصر ولا تزال من اهوال مجاعة حقيقية ، ولكن المسؤولين السعوديين وضعوا في اذانهم قطنا حتى لا يرتفع « ضفتهم » ولا اقول حتى لا يسمعون !!

ومن المثير ان حماة الدين حين زحفوا علـى مصر بعد غياب عبد الناصر ، كان همهم الوحيد فتـح الكازينوهات والكابريهات والشقق المفروشة ، وكان ذلك من الاسباب الجوهرية لغلاء الاسعار وخصوصا في مجال الاسكان .

.. اي ان « الاسلام » فـي واقع الامر لا علاقة لـه بالفكر السياسي في السعودية ، بـل النظام العبودي الذي يكتفي مـن « الشريعة » بقطع اليد وقطع الراس لحساب الارصدة التـي ينفق بعضهم الملايين منها في ليلة قمار واحدة ، والتـي يراكمها البعض الاخر من « عمولات » سمسرة اميركية شهيرة !!

وهكذا ..

فانهم حين يتدخلون في لبنان ، فانهم لا يرفعون لـواء محمد وعمر بن الخطاب وابي ذر الغفاري ، لان هؤلاء — فـي عرفهم — يساريون مع الفقراء ، وانما هم يرفعون لواء الفرقة والانقسام فـي صفوف المسلمين انفسهم .

.. وايا كانت اتفاقاتهم السرية مـع اعـداء اليسار ، فان عداءهم للاسلام الحقيقي ، وصداقتهم العميقـة مـع الاستعمار الاجنبي ، هي محور نشاطهم اللبناني .

فلنحذر .

١٩٧٥/١١/٢٦

صلـوات الحـب والمـوت

(١)

صحيح ان اروع الشعر كتبه العشاق فوق الاطلال !

وصحيح ان بعضا من القصائد العظيمة كتبها اصحابها عشية الانتحـار !

ولكن « الحب » لم يتوقف ، فمن الانقاض بنى عشاق آخرون اخلد معابد الحب !

كذلك « الحياة » لم تتوقف ، فمن ذكريات المنتصرين شيـد الاحياء اجمل صلوات البقاء !

(٢)

لم يتصور الملك خوفو لحظة واحـدة معنى الموت ، فشيـد الهرم الاكبر .

وظل علماء الاثار جيلا بعد جيل يبحثون عـن جثة فرعون دون جدوى .

واقبل نابليون وصوب مدافعه الى الهرم العتيـد فلم يهتز ، ولكن آثار القصف على القمة ظلت شاهدة الـى اليوم بأن « رسول الحضارة » كان عدوا للحضارة .

وذهب خوفو

وبقـــي الهــرم
قال البعض انه دليل العبودية
وقال آخرون انه دليل العبقرية
وقلت انا : انها صلاة الحب ، صلاة من الحجر
فالملك يمــوت
والعبودية تموت
ويبقــى الحــب !

(٣)

كتابان متعارضان صفحة فصفحة وحرفا فحرفا
عنوان الاول « اصول الدين » يقـــول ان المسيحية طبعـة منقحة عن الاســطورة المصريـــة الشهيرة « ايــزيس واوزوريس وحورس » وانه ليس هناك وجود تاريخي لشخصية المسيح !

وعنوان الثاني « المسيح فلسطينيا » يقول بالتاريـخ والمنطق ان يسوع لا يمت بصلة قرابة الى « يعقوب ــ اسرائيل » ولا الـــى « سبط يهوذا » وانه بشهادة الانجيل كان يتكلم الارامية !

رغم ذلك فالكتابان يلتقيان في الجوهر ، سواء كـان وجـود المسيح رمزيا او حقيقيا .

يلتقيان في جوهر « الفداء » : فازوريس هــو الــه الخصب القتيل في صندوق عثرت عليه ايزيس داخل شجرة عنـد شاطىء بيبلوس في قضاء جبيل ، والمسيح هو الحب المصلوب على خشبة عثرت عليها مريم عند الجلجلة .

كلاهما مات من اجل الحب
وكلاهما قام من بين الاموات !!

(٤)

في اليونان القديمة قصتان فارقتان

تقول الاولى ان الالهة حكمت على سيزيف بأن يظـــل طيلة حياته يرمي حجرا من قمة الجبل الى السفح ، ومن السفح الـى القمة . هكذا الى ما لا نهاية بلا مستقر للحجر ولا توقف للعبة .

وتقول الثانية ان الالهة حكمت عـلى بروميثيوس بـأن تظـل شفاهه قريبة من الماء دون ان تبتل ، لانه سرق « الشعلة » من ربة النور واضاء الكون .

آلاف المجلدات راحت تفسر القصة الاولى ، ولكن البيركامي وحده هو الذي جعل منها عنوانا على « العبث » .

آلاف المجلدات ايضا راحت تفسر القصة الثانية ، ولكن شلي وحده هو الذي جعل منها عنوانا على « الالتزام » .

هل هما قصتان متعارضتان ؟

أم أن الالتزام هو الرد الوحيد على العبث .

أم انهما معا جوهر الوجود : نقيضاه المتصارعان الـــى الابد فكل منا سيزيف وبروميثيوس في وقت واحد ؟!

وما هي جريمتنا ؟ انها التمرد على الالهة ، فلكل عصر آلهته !!

(٥)

وقف الحلاج بين السيف والسلطان يصلي
لم يكن امامه سوى الفقراء والكلمة !
رأى « الصوفية » توحدا بذات الله
ورأى الفقراء أبناء الله
خلع المسوح وخرج الى المحرقة
لم يره أحد لحظة الشهادة
فقد كان يصلي بالدم من اجل الفقراء
كـان عاشقـا
فتوحد بالله وبأبناء الله

ووقف ابن حنبل يتلقى سياط العذاب ، لعله يقول كالمعتزلة بحداثــة القرآن .

وكان المتوكل ــ صاحب الراي الاقرب الى الصواب ــ هـــو الجــلاد !

ولكن شعرة في ابن حنبل لم تهتز ، رغم الخطا

ظل تحت النيران يستشرف اهـــوال الجحيم بقلب جسور حتى النهاية .

وقدم الاسلام شهيدا عظيما لصلابة الراي وحرية العقيدة

هل مات الحلاج وابن حنبل ؟

ام ان انفاسهما تتردد في الضلوع بعـــد مئات السنين فـــي صدور العشاق ــ الشهداء ، الذين يسقطون كل يوم ؟

١٩٧٥/١١/٢٧

فرنسا اللبنانية
واميركا الفلسطينية

سواء اخطأ المترجمون ووكالات الانباء في نقل تصريحات الوفد الفرنسي الى لبنان ، او انه هو الذي تعمد اصطيادهم في شباك الغموض ، فان النص الرسمي لمجموعة احاديثه اللبنانية صدر امس في باريس مشيرا الى ان عدد الفلسطينيين في لبنان « بالغ الكثافة » ، وان التجاوزات التي يتحدث عنها بعض اللبنانيين ليست نتيجة مخطط فلسطيني متعمد ، بل هي نتيجة الكثافة العددية وما يترتب عليها من احتكاكات . واضاف دي مورفيل موضحا فكرته انه اذا كانت المعضلات اللبنانية الخالصة تحتاج الى « حل لبناني محض » ، فان المعضلات اللبنانية الفلسطينية تحتاج الى « حل دولي » .

في هذا الوقت تماما كانت الولايات المتحدة تواجه المشكلة الفلسطينية على طريقتها . كانت اصداء بيان ساوندرز امام الكونغرس حول احتمال قيام كيان فلسطيني مستقل لا زالت ترن في اذن مندوب اميركا في مجلس الامن وهو يقبل حلا وسطا بين المشروع الداعي الى ربط التمديد لقوات الامم المتحدة في الجولان بمشاركة الفلسطينيين المباشرة في حل ازمة الشرق الاوسط ، والمشروع الاسرائيلي الرافض لهذه الفكرة من اساسها . وكان

الحل الوسط هو اقرار التمديد ستة اشهر لقوات الامم المتحدة ، واصدار بيان ــ ملحق يدعو الفلسطينيين الى المشاركة في مناقشات مجلس الامن حول قضيتهم .

وهكذا يبدو تحت سطح الماء جسرا من المطاط بين « اقوال » المبعوث الفرنسي الى لبنان و « حلول » اميركا في الكونغرس ومجلس الامن و « غارات » اسرائيل على شمال وجنوب لبنان فوق المخيمات الفلسطينية .

هذا الجسر الفرنسي الاميركي الاسرائيلي ، يتكون من بعض المعطيات الجديدة في الشرق الاوسط : أولها النجاحات الدبلوماسية الهائلة لمنظمة التحرير الفلسطينية على صعيد الراي العام العالمي ممثلا في قرارات هيئة الامم المتحدة الاخيرة . ثانيها عدم توقف الاعمال الفدائية المؤثرة داخل الارض المحتلة جنبا الى جنب مع توقف الاعمال « المثيرة » كخطف الطائرات . ثالثها المصالح الغربية المتزايدة في العالم العربي بعد حرب اكتوبر عموما واتفاقية سيناء الثانية خصوصا . رابعها الاضطرابات اللبنانية بكل ما ترمز اليه وما يمكن ان تسفر عنه بالنسبة لاستراتيجية الغرب الامنية والاقتصادية . خامسها تصعيد الاتحاد السوفياتي لموقفه من الحق العربي عموما والحق الفلسطيني خصوصا .

تلك هي المعطيات الجديدة التي بنت جسرا من المطاط يربط بين فرنسا اللبنانية واميركا الفلسطينية والغارات الاسرائيلية . وهو الجسر الذي لا يمانع في قيام دولة فلسطينية تعترف سلفا بدولة « اسرائيل » ، ولا يمانع في مشاركة منظمة التحرير بأعمال مؤتمر جنيف بشرط اعترافها مقدما بحق « اسرائيل » في الوجود ووقفها « اعمال العنف » داخل الحدود الاسرائيلية .

فرنسا ترى في هذا « الحل » تخفيفا لكثافة الفلسطينيين في لبنان وتأمينا لمصالحها المتنامية في العالم العربي . واميركا بهذا الحل تتظاهر بأنها تمسك بالحبل من الوسط فتحتفظ

باسرائيل والعرب معا . واسرائيل تضغط بالقنابل والصواريخ على لبنان الفلسطينية لفرض هذا الحل .

والاطراف الثلاثة لديهم « رصيد عربي » من القبول بأمثال الحل المطروح بدءا من عام ٦٧ وقرار مجلس الامن الشهير رقم ٢٤٢ الى حرب ٧٣ والقرار رقم ٣٣٨ الى اتفاقية فك الاشتباك الاول على الجبهتين المصرية والسورية الى اتفاقية سيناء الاخيرة. ومضمون هذا الرصيد من « القبول العربي » ان العرب يتمنعون في البداية ثم يرضخون في النهاية سواء كانوا مهزومين او منتصرين . مضمون هذا الرصيد ايضا هو الاعتراف التدريجي باسرائيل ، وان يكن اعترافا مقنعا في البداية ، فانه يصير مكشوفا وسافرا في النهاية .

هذا الرصيد السلبي هو الذي يتفاعل مع المعطيات الجديدة في ازمة الشرق الاوسط ، فيصنع الجسر المطاطي الفرنسي الاميركي الاسرائيلي ، ويغري بما يسمونه « حلا وسطا » .

وهو ليس كذلك بأي معنى من المعاني ، لان اية دولة فلسطينية تعترف باسرائيل تنهي مبرر وجودها من قبل ان تولد ، ولان منظمة التحرير لن تتحول الى منظمة تبرير .

ولان الرصيد العربي قد يكون مديونا بين عامي ٦٧ و٧٣ ولكنه كان دائنا عام ٥٦ في مصر حين أجلت بالدم اساطيل فرنسا وبريطانيا واسرائيل ، وكان دائنا حين انتصرت الثورة الجزائرية بعد سنوات الدم على ١٣٠ عاما من الاستعمار الفرنسي ، وكان دائنا حين انتصرت اليمن الديمقراطية على بريطانيا ، بقوة السلاح. وكان ولا يزال دائنا منذ اطلق الفلسطيني اول رصاصة عام ١٩٦٥ .

لذلك فالمعادلة الغربية الاسرائيلية الراهنة تخطىء الحساب اذا تمسكت بالرصيد العربي السلبي وكأنه الحقيقة .. فالمعطيات الجديدة هي الحقيقة التي تذيب جسر المطاط في مياه النهر الجاري ، الى الابد .

٧٥/١٢/٥

القـرآن لا يحتـرق
.. ولا الكنيسـة ايضـا

لم تحترق مصاحف القرآن الكريم ، وهي فـي طريقها مـن بيروت الى السعودية . ليس هـذا الخبـر صحيحا . كذلك لم تحترق مطرانية طرابلس ولا الكنيسة الانجيلية . ليس هذا الخبر ايضا صحيحا .

وانما الصحيح هو ان الذين احرقوا الشاحنة فـي عاريا هم الذين احترقوا ، لان الكلمـة لا تحترق . والذيـن احرقوا بناء المطرانية هم الذين احترقوا لان الايمان لا يحترق .

والمسيحيون العرب ـ واللبنانيون منهم ـ لا يحفظون القرآن فحسب ، بل يدرسونه ويعلمونه لغيرهم ، ويرونه جزءا لا ينفصل من تراثهم الروحي والحضاري . هكذا كان مكـرم عبيـد والقس سرجيوس ونظمي لوقا في مصر ، وهكذا كان ميشال عفلق وانطون سعادة ، من كبار الذين تمثلوا الاسلام واستوعبوا ابعاده الضميرية والثقافية والعربية .

والمسلمون العرب ـ واللبنانيون منهم ـ لا يحرقون الكنائس انما يبنونها منذ عمر بن الخطاب الـذي رفض ان يصلي داخـل كنيسة القيامة في القدس ، حتى لا يأتي من بعده فيحول الكنيسة الى مسجد .. الى جمال عبد الناصر الذي فتـح الاكتتاب لبناء الكاتدرائية المرقسية الكبرى في القاهرة بمائة الف جنيه !

والذين يحرقون القرآن او الكنيسة قــد تحمــل شهادات ميلادهم هوية الدين المسيحي او الدين الاسلامي، ولكنهم في حقيقة الامر ليسوا مسيحيين او مسلمين ، بــل هــم وحدهم النازيين والفاشست بمختلف ازيائهم القديمة والجديدة . ولم تنس البشرية المعاصرة بعد أن جوبلز ــ المسيحي ! ــ وزير دعاية هتلر ، هو الذي كان يجمع نسخ الانجيل على هيئة هرم فيحرقها ويبول عليها هــو ورفاقه . ولم ينس التاريخ ايضا ان الخليفة المنصور هـــو الذي احرق مؤلفات ابن رشد ، الفيلسوف الاسلامي العظيم !

والاخوان المسلمون هم الذين احرقوا ذات يــوم احـــدى الكنائس المصرية بايحاء من الانجليز والملك حتـــى يشعلوا نيــران الفتنة الطائفية في البلاد ، فالعصابات النازيـــة لا دين لهــا وهي تتحالف باختلاف اديانها ضد « الكلمة » ايا كانت ، وبكافة المعانـي التي تحملها الثقافة والحضارة .

واذكر فيلما اميركيا قديما يدعى « ٤٥١ فهرنهيت » وهـــي درجة الحرارة التي يشتعل عندها الورق . والفيلم وثيقــة رمزية عن المكارثية ، حيث اصبــح الكتاب خطرا فـــي ذاتـــه . قامت الاطفائيات بحرق المكاتب العامة والخاصة . وكانت الشرطة تقبض على كل متهم بالقراءة او حيازة الكتب . ولكن « الكلمة » افلتت من الارهاب بطريقة لا تخطر على بـــال . راح بعض الناس يحفظــون الكتب عن ظهر قلب . ويستبدلون باسمائهم اسماء المؤلفين الذين حفظوهم ، فهذا شكسبير وذاك دانتي والثالث تولستوي والرابــع دوستويفسكي وهكذا . وتجمعوا بعيدا في جزيرة نائيــة لا تطالها النيران . وكان المشهد الاخير من الفيلم مؤثرا الى ابعد الحدود : تحول احد الاطفائيين الى « قارىء » سرا ، وراح عجوز يحتضر في الجزيرة المهجورة يتلو الصفحة الاخيرة من كتاب على مسامع صبي يستعد لان يكون بديلا للعجوز حين يموت .

.. فالكلمة لا تموت ، وهذا مـــا تدركــه عصابات الارهاب

النازية من كل دين .. انها لا تستطيع ان « تفكر » وتحارب الكلمة بالكلمة فتلجأ الى العضل ، ولكن العضل يقتـل الورق والخشب والحديد ، ولا يقتل الكلمات . لذلك كانت النيران التي تطلقها على القرآن او الانجيل او شكسبير او الحلاج او ابن حنبل ، اعجز من ان تحرق كلماتهم جميعا . بل ان النيران تعـود وتحرق صدور الذين اطلقوها وتكوي قلوبهم ، لانهم يعون حتى العظم انهم يحاولون حرق « الرمز » المجرد من المادة القابلة للاحتراق ، عبثا في عبث. لذلك هم الذين يحترقون بنيرانهم ، لا اكثر ولا اقل .. فالحضارات ورموزها لا تحترق بعود كبريت او رصاصة ، وانما هـي تحـرق الذين يتوهمون القدرة على احراقها .

لا تصدقوا اذن ان القرآن قد احترق ، او الكنيسة ، فالخبر على هذا النحو وكما اوردته الصحف ليس صحيحـا . والصحيح ان عصابة نازية بيننا احترق بعض افرادها في نقطة ما من الطريق الى عاليه ، واحترق بعضها الاخر فـي نقطـة اخرى .. فـي طرابلس !

٧٥/١٢/٧

يوم السبت الماضي ظهرت نتيجـة « الامتحـان الاسرائيلي » الذي عقده العدو لجميع اللبنانيين حين القى بنيرانه الوحشية على المخيمات الفلسطينية من الشمال الى الجنوب ، وكأنـه اشار بغير قصد الى حدود « الوطن » .

يوم السبت ظهرت النتيجة ، فـاذا باللبنانيين يسقطـون سقوطا ذريعا ، ولا يحصلون حتى على الصفر . لم يكـن سقوطا ملحميا نبيلا ، ولكنه كان سقوطا همجيا منحطا .

السقوط النبيل هو « نجاح » بمعنى من المعاني ، لانه سقوط يروي حدود « الوطن » بالدم ، لو انه كان سقوطا امام الاسرائيليين وحرابهم . ولكن السقوط المنحط ان نجيب فـي مادة « الوطن » على سؤال الحدود ، فاذا بها قائمة على الهوية ، اذا بهـا قائمـة هناك بين الكنيسة والمسجد وبين القرآن والانجيل ، ثـم تتواضع ـ بل تتضاءل ـ حتى لتصبح بيـن الاشرفية وراس النبـع وبين الصيفي وعين المريسة وبين اللعازارية والامبير !!

هكذا بدأ السقوط المنحط عند الكحالـة فأحرقوا الشاحنة المليئة بالمصاحف . وكان الرد الوطني رائعا : توقفت سيارة فيات امام حاجز عاليه فقال صاحبها وكأنه يسلم امره لله لحظة الاعدام :

انا ماروني ، اجابه المناضل : امـــا نحــن فتقدميون اشتراكيون وقوميون وليس من عادتنا القتل على الهوية . اننا هنا نحافظ على الامن فقط ، ونمنع المسلحين الغرباء عن المنطقة من التسلل بقصد التخريب . تلك هي « الهوية » التـي نبحث عنها ، ومـــا دمت لا تملك سلاحا فتفضل ، صاحبتك السلامـة ، ومضـت السـيارة والماروني لا يصدق انه ولد من جديد او انه قام من بين الاموات .

اما الرد الذي سقط في امتحان مادة « الوطن » فاجاب على نحو مختلف . امسك الرجال والنساء والاطفال وهم فـي طريقهم الى لقمة العيش او في طريق عودتهم مزودين بسلاح واحـد هـو الايمان بلبنان ، هو النجاح في مادة الوطن . سلاح يبني ولا يهدم ، سلاح يحيي ولا يقتل ، سلاح يمطر ولا يحرق . ولكن الساقطين من الهمج المنحطين قتلوهم على الهوية ، في مجزرة جماعية فريدة في تاريخ البشر ، قتلوهم لانهم آثروا حدود الوطن علـى حدود الطائفة والعشيرة ، لانهم كانوا يتصورون العدو رابضا هناك بعيـدا عنـد حدود بنت جبيل ولم يتصوروا قط انه قد « تناسخ » واصبح في قلب البلد !

من هنا ينبغي ان نفهم « اقتحام » القـوى الوطنية لمعاقـل العدو المنسوخ ، انه ليس اشتراكا في اسلوب القتل على الهوية ولا دفاعا عن الحدود الطائفية ولا احتلالا للفنادق والقنطاري والوسط التجاري .. كلا ، اننا بذلك نفقد الرؤية الصحيحة ولا نعود نميـز بين الالوان . والصحيح ان المقـاتلين الوطنيين لا زالـوا وطنييـن يحققون للبنانيين النجاح في مادة الوطن . انهم يدمرون الحـدود الوهمية بين القرآن والانجيل وبين الكنيسة والمسجد وبين المسلم والمسيحي وبين الاشرفية ورأس النبع حتى تتجه العيون والبنادق الى الحدود الحقيقية بين الشمال والجنوب ، انهم يحررون المواقع التي يتمترس وراءها العدو المنسوخ الذي يرتدي طاقية الاخفـاء

ويمزقون عن وجهه القناع اللبناني المزيف ، فاذا به الوجه الاسرائيلي الاميركي دون زيادة او نقصان .

ان المقاتلين الوطنيين لا يفعلون اكثر من كشف حقيقة الهوية التي احرقت شاحنة المصاحف ودمرت الكنائس وذبحت العزل من السلاح ، فاذا بها هوية الطيارين والطائرات التي احرقت ودمرت وذبحت الارض اللبنانية والمخيمات الفلسطينية من الشمال الى الجنوب . الطيارون والطائرات التي اشارت خطوطها البيضاء في سماء لبنان بغير قصد الى حدود الوطن ، انه ذات المخطط الذي بدأ – بقصد مقصود – طيلة ثلاثة ايام متوالية ، انه امتحان الهوية .

هل سقط اللبنانيون حقا في الامتحان ؟ يبدو انني اخطأت ، فالقناع ليس وجها . والذين سقطوا ليسوا لبنانيين ماضيا ولا حاضرا ولا مستقبلا . انهم العدو المنسوخ وقد سقط على ارضنا سهوا بمظلات غير مرئية !

١٩٧٥/١٢/١٠

حرب تحرير وطني .. لا حرب اهلية !

حين يضيق الثوب على الطفل ، هل نقوم بتوسيع الثوب ، ام نقتطع عدة كيلوات من جسد الصبي ؟ وحين تضيق النظرية على الواقع ، هل نصلي للنظرية وننفي الواقع خارج الوجود ، ام نقوم بتطويرها وننقذ الواقع من سكين الخيال ؟

صادفني هذا السؤال امس ، اثناء مناقشة حارة مع احد الصحفيين الاجانب ، قال لي : الفرق بين الماضي والحاضر هو الفرق بين الحرب الاهلية الاسبانية عام ١٩٣٦ وحرب انغولا الشعبية عام ١٩٧٥ . حرب الاسبان كانت بالفعل بينهم وبين بعضهم البعض ، كانت حربا بين الفاشية والديمقراطية . وقد انتصرت دكتاتورية فرانكو ولا تزال . اما حرب الانغوليين فليست بينهم وبين انفسهم ، بل بين مجموع الشعب والمرتزقة من جنوب افريقيا وفلول الاستعمار البرتغالي ، فهي حرب تحرير وطنية ، حرب من اجل الاستقلال الحقيقي ، حتى ولو ارتدت بعض « الفرق » على الشاطىء الآخر اقنعة انغولية ، ثم سألني بغتة : ما رايك في الحرب اللبنانية ؟ هل هي حقا حرب بين المسيحيين والمسلمين من « اهل » لبنان ؟ ام هي حرب « اجتماعية » بين الفقراء والاغنياء من « اهل » لبنان ؟ ام هي حرب تنازع السيادة والامن بين الفلسطينيين و « اهل » لبنان ؟

كان صديقي يهدف في النهاية من تكرار لفظة « اهل » ان الحرب الدائرة ـ في مختلف الاحتمالات ـ هي حرب اهلية . قلت له : لقد بدات حديثك بداية صحيحة ، واختتمته بنهاية خاطئة . ومصدر الخطأ هو « التعميم » ، هو النظرية الصحيحة في جوهرها ولكنها تحتاج عند التطبيق الى معاناة الكشف .. فالواقع اللبناني ـ من الخارج ـ هو ما تقول مزيج مركب من المسألة الطائفية والمسألة الاجتماعية والمسألة اللبنانية ـ الفلسطينية . ولكنه من الداخل اعمق من ذلك بكثير ، وربما اعقد من ذلك بكثير .

انه من الداخل ـ وباختصار شديد ـ يخوض حرب تحرير « وطني »، يخوض حرب الاستقلال الذي « شبّه له » عام ١٩٤٣ . لقد « توهم » اللبنانيون انهم حصلوا على استقلالهم فوق طبق من الفضة الفرنسية عام ١٩٤٣ ولكنهم دفعوا الثمن باهظا طيلة الاشهر الثمانية الماضية ليفيقوا من هذا الوهم . والحرب الدائرة الآن هي المخاض الاليم للاستقلال الحقيقي ، هي الصراع المر بين الوهم والحقيقة . ذلك أن هناك من يتشبث حتى الموت بأوهام ـ وامتيازات ـ الطبق الفضي الفرنسي المحفور قعره بالرقم ١٩٤٣ وهناك من يناضل بالدم من اجل « بطاقة وطن » سيد ومستقل . وهي ليست بطاقة تموين من الذهب ، ولكنها بطاقة آلام مرة .

وتأمل معي : حين كان اللبنانيون يعيشون في « سلام » الوهم ، لم تكن اسرائيل تفكر في انتهاك حدودهم لا في الشمال والجنوب ولا من مطار بيروت الى شارع فردان . حتى عندما شارك الجيش اللبناني في حرب ١٩٤٨ لم يفقد الوهم اللبناني ـ اعني الاستقلال المذكور ـ شبرا ، وكذلك الامر في حرب ١٩٦٧ .

هنا لفت نظري الصديق وكأنه عثر على « الحقيقة » : انهم الفلسطينيون اذن ! قلت : لقد كانت اسرائيل هي التي طردت قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني الى جنوب لبنان ، ولم تكن تغير عليهم الا بعد ان تحولوا من مرحلة اللجوء الى حركة تحرر

وطني . وسواء كانت على ارض لبنان او لم تكن فهي حليفة طبيعية لحركة التحرر اللبنانية من الوهم ومن اجل الاستقلال الحقيقـي ، وسواء كانت على ارض لبنان او لم تكن فان اسرائيل ما كانت لتقف مكتوفة الايدي عن لبنان الذي ينشد التحرر والاستقلال .

هكذا ينبغي ان نعيد النظر فيما يجري على الارض اللبنانية ، فالطائفية والصـراع الاجتماعي والفلسطينيون مظاهـر خارجيـة للحرب ، تخدعنا فنسميها حربا اهلية وفقـا للمقاييس الرسمية للحروب الاهلية ، ولكنها في واقع الامر حرب تحرير وطني ، تنشد بالطبع القضاء على الطائفية والفقر ، ولكنها في الاسـاس ـ ومـن اجل هذه الاهداف ذاتها ـ تناضـل لتحريـر ارضهـا جغرافيـا واقتصاديا وسياسيا من التبعية للاجنبي . وليست مصادفة لذلك ان تستخدم اميركا حق الفيتو حين يضـع الـراي العـام العالمـي اسرائيل في قفص الاتهام ، وليست مصادفـة ان توقت اسرائيـل حملتها الوحشية على الشمال والجنوب ، فيبـدا مسلسل حـرق شاحنة المصاحف ومجزرة السبت البربريـة . وليست مصادفـة بعدئذ ان تكـون الولايات المتحـدة وبلجيكا وفرنسا هـي المصـدر الرئيسي لتسليح الاقنعة اللبنانية ومـن تحتهـا الوجـوه العـدوة لاستقلال لبـنان .

.. فقد آن الاوان للتفرقة بوضوح وحسم بين فريق يقاتـل في قلب البلد للاحتفاظ باطرافها في الشمال والجنوب ، وفريـق آخر يقايض على هذه الاطراف مقابل شارع واحد في لبـنان هـو شـارع المصـارف .

١٩٧٥/١٢/١١

عيد الفداء الكبير

اليوم عيد « الضحية » .

والناس في بلادي يفضلون هذه اللفظة الدراجة على التعبير الرسمي الفصيح « عيد الاضحى » .

وعيد الضحية هو عيد الفداء ، عيد الخلاص بالموت ! لذلك فهو ليس عيد المسلمين وحدهم ، ولا عيد العرب وحدهم ، بل عيد الانسانية كلها !! والاديان جميعها تذكر قصة الفداء في صلب ايمانها . التوراة والانجيل والقرآن ، وكافة الكتب المقدسة لدى الاديان الاخرى ، تذكر الفداء وتتذكر ان الخلاص دائما بالموت . حتى اصحاب الاديان البدائية والوثنية ، حتى شعوب ما قبل التاريخ المكتوب لا تتخلى عن قصة الفداء .. قد يختلف الشكل او الرمز ، ولكن مضمون الخلاص لا يختلف بين شعب وشعب ولا بين دين وآخر .

هذا ما يقوله لنا على الاقل السير جيمس فريزر في كتابه الشامخ « الفصن الذهبي » عن الاصول الاولى لمجموعة الحضارات التي شكلت حياة الانسان الاول .

وهذا ما يقوله لنا على الاقل كتاب الثورات بدءا من سبارتاكوس محرر العبيد من روما القديمة الى عبد الله بن محمد في ثورة الزنج الى غيفارا وغسان كنفاني وكمال ناصر وغيرهم من الملايين التي استشهدت في القارات الخمس في القرن العشرين .

لذلك كله كان عيد الضحية هو عيد الانسانية كلها وعبر التاريخ القديم والوسيط والحديث ، التاريخ الذي مضى والتاريخ الذي سيأتي .

ولم تكن صدفة قط ان تحتفل جميع الاديان والشعوب والاجناس والالوان بمعنى « الفداء » مهما اختلفت الرموز من ديونيزوس اليوناني الى اوزوريس المصري الى تموز البابلي الى الفينيق الى ابراهيم واسماعيل الى المسيح ..

لم تكن صدفة على الاطلاق، لان الخلاص بالموت — او الفداء — هو سر الاسرار في حياة الجنس البشري ، حيث يدفع المرء حياته نفسها من اجل الآخرين ، ومن اجل « الايمان » بواقع افضل للاخرين من الواقع الذي عاشه الفادي نفسه معهم .

هكذا كان الفداء وسيظل رؤيا ونبوءة يتجاوز فيها الشهيد اعتاب الحاضر لان عينيه التحمتا بنور المستقبل .

لذلك كان عيد الاضحى هذا العام ، عيدا لبنانيا خالصا بقدر ما هو عيد للعرب والمسلمين والانسانية جمعاء .

انه العيد الذي يجتمع في ظلاله طائر الفينيق القديم وقد احترق بالنار هو وعشه ، واذا به يبعث من الرماد طائرا جديدا يحلق في ارجاء المعمورة ليجمع اطيب النباتات ويبني عشه من جديد .. في هذه الظلال المقدسة يجتمع ايضا ابراهيم — ابو الانبياء — الذي لم يوفر ابنه البكر من الذبح الا حين سمع صوت الله ، وقد اختبر ايمانه ، بان يرفع السكين عن وحيده ، ويلتفت بالقرب منه حتى يفي بالوعد وينحر الخروف رمزا وقربانا .. وفي هذه الظلال المقدسة ايضا يجتمع المسيح الذي باعه يهوذا بثلاثين من الفضه وسلمه الى اليهود وقد سلموه بدورهم الى بيلاطس البنطي الحاكم الروماني ، فما كان منه الا ان غسل يديه من دم البريء . اما اليهود فصاحوا « اصلبه . اصلبه . دمه علينا وعلى اولادنا » .

هكذا يجتمع للبنانيين وحدهم هـذا التـراث العظيـم مـن الفداء . ومن المعاني البارزة ان ينهض فينيق وان يحيـا اسماعيل وان يبعث المسيح من جديد . لذلك كان الفداء هو عيد الخـلاص بالموت ، هو عيد الشهداء . لذلك مرة اخرى ، كان عيـد الاضحى هو عيد لبنان . لبنان الـذي احترق مـع الفينيق وطالتـه سكين خروف الضحية وصلب مع المسيح ، هو ذاته لبنان الذي سينهض من تحت الرماد ويولد من جديـد كاسماعيل ، ويدحرج صخـرة القبر كالمسيح ويقوم من بين الاموات .

انه عيد لبنان الوطني الديمقراطي العربي المستقل ، لبـنان العلماني العادل بين بنيـه بمختلف هوياتهـم وانتماءاتهـم ، عيـد شهداء الاشهر الثمانية الذين حملوا هذه المعاني في قلوبهم ودخلوا المحرقة بشجاعة الانبياء ورؤى المرسلين .

ولان العيد عيدهم ، فان باقة الورد التي يمكن ان نقدمها لهم هي باقة حمراء ، بلون دمنا الذي نستكمل بـه طريقهـم ، فنحقق الحلم ونرفع عاليا راية الخلاص .

٧٥/١٢/١٢

لليسار واليسار الدولي حكايــة طويلة

(١)

لا تفعل مثلي ولا تقرأ كتب التاريخ !

فالذين احتلوا بلادي وبلادك من المغرب وتونس والجزائر الى سوريا ولبنان على فترات مجموعها بلغ ١٣٠ عاما ليسوا الفرنسيين بل جنود الجيش الاحمر من السوفيات (لا تضحك ســاخرا بـأن الاتحاد السوفياتي عمره اقل من ستين عامــا ، فأخطــاء الارقــام سببها الشيخوخة وتدهور الذاكرة او عدم دقة الآلة الحاسبة) . ولم يكن نابليون بونابرت هو الذي شن الحملة الشهيرة على مصر ، وانما كان المرحوم جوزيف ستالين (لا تهزأ من جهلي مــرة اخرى وتقول ان الرجل الفرنسي كان قصيرا وان الآخر كانت له شوارب، فالصور الفوتوغرافية في القانون الجنائي ليست دليلا على شيء).

كذلك فان الذين احتلوا مصر والسودان والعــراق والكويت وجنوب اليمن حوالي قرن من الزمان ليسوا هم الانجليز بل جنود الجيش الاحمر الصيني والكوري والفيتنامــي (ارجــوك لا تخطىء حساب الزمن مرة اخرى وتقول لي ان الصين الشعبيــة احتفلت بمرور ربع قرن على ميلادها منذ عام ، وان وجــوه الانجليز حمراء بينما وجوه الكوريين والفيتناميين صفراء ، فالزمن مسألة نسبية

وكذلك الوان الوجوه ... فاليوم الواحد في التوراة كان معناه الف سنة ، ووجهك يتغير بين الوان الطيف في لحظة واحدة اذا كنت تعيش في بلد يدعى بيروت مثلا) .

وايضا ، فان الذين استعمروا ليبيا لم يكن الايطاليون والذين استعمروا الصحراء الغربية لم يكن الاسبان ، بل كانت الجيوش الحمراء لبولندا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر والمانيا الديمقراطية ورومانيا . وليس مهما ان هذه الدول الحمراء كلها لم تصبح من اليسار الدولي الا غداة الحرب العالمية الثانية ، فانها كانت سوداء وزرقاء وخضراء وبيضاء قبل هذا التاريخ القريب !

ايضا وايضا لا تصدق ان الصليبيين الذين هجموا على هذه الديار في حملات متلاحقة عبر ثمانين عاما ، كانوا من الانجليز والفرنسيين والالمان والاسبان والطلاينة ، فليس هذا صحيحا . والصحيح ان تحالفا مثيرا من جيش البانيا الشعبية بقيادة انور خوجه وجيش كوبا بقيادة كاسترو هما اللذان اقتحما معاقل القدس ، ثم اندحرا فلولا متناثرة على يدي صلاح الدين !!

... اسمعك تتهمني باثنين احلاهما مر : اما انني مزور للتاريخ او جاهل ، ليكن فانني لا ارى سوى « اليسار الدولي » الذي يستعمر ويخرب ويدمر ، وانت حر .

(٢)

لا تفعل مثلي وتقرا كتب « الحاضر » !

فان جمال عبد الناصر طرد الانجليز من مصر لانه يساري متعصب يكره الاجانب وينشد الاستقلال — والعياذ بالله — لبلاده . كذلك استعادت الناصرية ثروات مصر من البنوك والشركات الاجنبية ، لانها مذهب يساري لا يحترم العهود والمعاهدات التي إعطاها ملوك مصر السابقين للدول العظمى الراقية المتحضرة ، وفضل عليهم — يا للانانية — شعب مصر . وحين امم الناصريون

مصالح الراسماليين الكبار واشركوا العمـال فـي ادارة المصانـع وارباحها واعادوا بعض الارض لبعض الفلاحين وفتحوا الجامعـات لابناء وبنات الفقراء وانشأوا المصانع والمزارع الحديثة ، فقد كانوا يساريين متطرفين يأكلون حق الغني في استغلال الفقير ويزرعون بذور الفتنة بدلا من ترسيخ التعاون والتآخي بين الحملان والذئاب في الغابة البشرية التي هكذا ارادها الله .

كذلك الامر في الجزائـر حين قـاد هواري بومـدين جيش التحرير ليسفك دم الفرنسيين المتحضرين ثماني سنوات متصلـة فيحصل على ذلك الاستقلال (يا لها من كلمة !) وينهب الجزائريون ارض بلادهم وحدهم ، ويستردون ميـراث اجـدادهم ، وتديـر ادمغتهم هم ايضا لعبة التأميم والتعريب ، فاذا بهم مخالب لليسار الدولي حين يعطون الغلبة للفقراء المتخلفين على الاغنياء الراقين .

وفي ليبيا ، بالرغم من ايمانهـم بالاسـلام ، فانهـم ليسوا مسلمين كملوك النفط وامرائه العظام .. بـل هم يطردون القواعد الانجليزية والاميركية من بلادهم (وقد كانت قائمة ـ يا لجهلهم ! ـ لحمايتهم من جيرانهم العرب ، وكانت جسرا لدعم اسرائيل في ردع هؤلاء العرب) . ولكنهم للاسف مسلمـون يساريـون ، يؤممـون ويبنون بلادهم وكأن البدو يمكن ان يصبحوا يوما شعبا متحضرا .

وفي اليمن الجنوبية والعراق، يسفر اليسار عن وجهه تماما. انهم جميعا « وطنيون » ـ يا لهذا التعبير المسـتورد ـ يحاولـون اقامة جبهات تقدمية (اليس هذا التعبير مستوردا ايضا ، وهـل في قاموسنا كلمة بهذا الاسم ؟) اي جبهـة الطبقـات المتواضعـة المتعطشـة الى السلطة ودم الاغنياء !!

... اعوذ بالله من هذا « الوباء » اليساري المنتشر في ارجاء العالم العربي . حتى الاقطار التي سلمت من اذاه بفضـل المصـل الاميركي الاسرائيلي الجيد الصنع ، بعضها ضعفت فـي شراينـه

القدرة على المقاومة ، وبعضها الآخر ينخر في جدرانه السوس ، هذه الاجيال الجديدة من « الحشرات » التي تعلمت النطق كالبشر وبدات ــ مثلنا ــ تقرا لغات المتحضرين ، وتلك هي الطامة الكبرى !

... اسمعك تقهقه في سرك قائلا : ومع ذلك فان تلك البلدان العربية اليسارية لا تتمتع بهذه الصيغة اللبنانية الفريدة التي اتت في ثمانية اشهر على الاخضر واليابس ! ليكن فانت لا تعرف اليسار مثلي . وعلى اية حال انت حر .

(٣)

لا تفعل مثلي وتقرا كتب الدين !

وحينذاك تقول لي مثلا ان المسيح ومحمد وجميع الانبياء كانوا يساريين !

فالمسيح كان نصيرا للفقراء لانه كان واحدا منهم ، كان نجارا .. هكذا بلغ حقده على الاثرياء حين قال ان « دخول جمل من ثقب ابرة ايسر من دخول غني ملكوت السماوات » وهكذا كان يقول لكل من يريد عن جهل ان يتبعه « بع كل مالك واتبعني » ، وهكذا كان علمانيا حين قال « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وهكذا لم يكن عشائريا حين قيل له اخوتك ينادونك فأجاب مشيرا الى الجميع هؤلاء هم اخوتي .

كان المسيح يساريا ، ولكنه لم يفلت من قبضة الاغنياء والكهنة فصلبوه .

وقام محمد بثورة شاملة على مجتمع قريش الذي ينتمي اليه . وهناك شاهد ليس مسيحيا ولا مسلما ولكنه من اصل يهودي هو الكاتب الفرنسي المعاصر « مكسيم رودنسون » . يقول في كتابين كبيرين احدهما عن الرسول والآخر عن الرسالة ان محمدا كان ذروة « التقدم اليساري » في عصره . اسمعوه يقول لاهله وعشيرته « يا معشر قريش لا اغنى عنكم من الله شيئا . يا

بني عبد مناف لا اغني عنكم من الله شيئا . ويا صفية عمة رسول الله لا اغني عنك من الله شيئا » . ويرفض الاسلام عنصرية الـدم من اساسها فيجيء في سورة الطارق (٥ — ٧) ما نصه في القرآن الكريم « فلينظر الانسان مما خلق . خلق من ماء دافق يخرج مـن بين الصلب والترائب » وفي سورة المؤمنـون (١٢ — ١٤) ننقـل حرفيا « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » . وفي ســورة النساء (١) « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكـر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان اكرمكم عند الله اتقاكـم » . وللبيت حرمته المصونة في الاسلام « يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتـــا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها ، ذلكم خيـر لكـم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يـؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هي ازكى لكم والله بما تعملون عليم » (سورة النور (٢٧ — ٢٨) . واخيرا فالعمل لا راس المـال هو قدس اقداس البشرية « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (سورة التوبة ١٠٥) .

... الم اقل لك ان قراءة الدين تجلب البلاء .

فها هي ذي المسيحية والاسلام يتفقان مع اليسار واليســـار الدولي على هذه المعاني الغريبة عن تقاليدنا ، فهما متحالفان للاسف ضد الدكتاتورية والعنصرية والعشائرية والطائفية، اكاد اقول — ويا للهول — ان الاديان هي الاخرى يسارية !!

... ولكني حذرتك منذ البداية الا تفعل مثلـي وتقـرا كتب التاريخ وكتب الدين واية كتب اخرى .. فاللعنة هـي انـــك اذا بدات بفتح الكتب فسوف تنتهي — ويا للعار — يساريا !!!

٧٥/١٢/١٤

كان المغفور له جلالة الملك فيصل هو أول من تفضل بصياغة التناقضات العربية بأنها ثمرة شرين خطيرين هما اليسار والصهيونية . وقد أبدى جلالته ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ اجتهادا في تأصيل فكرته بقوله ان منبعهما واحد وان اختلفت الوسائل لتحقيق غاية واحدة في النهاية ، هي الاستيلاء على العالم . ثم اقسم جلالته ان يصلي في القدس ، ولكن المنية قد وافته قبل وفائه بالقسم .

والمغفور له الملك فيصل لم يكن استثناء بين الرؤساء والملوك العرب ، فكثيرون منهم يعتقدون بأن اليسار والصهيونية هما سبب الكوارث التي تحل بين حين وآخر بهذا القطر أو ذاك من أقطار الامة العربية .

واراني اوافق تقريبا على هذا الراي ! قلت « تقريبا » لانني أريد اعادة صياغة الفكرة على النحو التالي : ان اليسار العربي والصهيونية هما قطبا الصراع في المنطقة ، وهما اللذان يتسببان في مختلف الاضطرابات السلمية والدموية على السواء !!

ولكن ، من هو اليسار العربي ، وماذا تكون الصهيونية ؟ لنأخذ مثلا محددا ، لا زال مشتعلا بنيران الحجيم ، هو لبنان . من هو اليسار اللبناني ؟

● انه أولا ، القطاعات الواسعة من العمال والمزارعين وصغار المنتجين في الجبال والسهول والسواحل ، وصغار الحرفيين والموظفين في الدولة والقطاع الخاص ، وصغار المستخدمين في التوكيلات التجارية والشركات وبقية مرافق الخدمات وهياكل الاستهلاك .

● انهم ثانيا ، مختلف شرائح الراسمالية الوطنية ، أي هذه الفئات غير المرتبطة عضويا بالراس المال الاجنبي ، والتي تحاول بالزراعة المتواضعة والصناعة الاستهلاكية ان تجد سوقها الرئيسي على أرض لبنان ، ولا يتسع طموحها لاكثر من بعض الاسواق المجاورة في الاقطار العربية المحيطة . والانتاج السلعي هو رأسمالها وليس الانتاج المصرفي لراس المال المالي .

● اذا جمعنا أولا وثانيا فاننا نستطيع القول بأن جماهير اليسار اللبناني تصل الى حوالي ٩٥ بالمئة من مجموع الشعب . انها جماهير « يسارية » حتى ولو لم تدرك ذلك بانخفاض مستوى الوعي أو بحيلولة التقاليد الرجعية العريقة (في القيم والعلاقات الاجتماعية) دون بلورة هذا الوعي . انها يسارية بمعنى ان مصالحها الجوهرية اقتصاديا وسياسيا تقف على يسار النظام الدستوري والقانوني وبالتالي التشريعي والتنفيذي . وهو النظام الذي يفيد عمليا ٥ بالمئة من مجموع الشعب فقط ، ويضعها على قمة السلطة .

● اليسار اللبناني ايضا هو مجموعة الطلائع التي تستهدف بالفكر أو بالعمل أو بهما معا ، تغيير المعادلة الاقتصادية والسياسية اللبنانية الراهنة لمصلحة الاكثرية الساحقة من الشعب اللبناني . ومعادلتها الجديدة تنشد اقامة مجتمع راسمالي (لعلها مفاجأة !) أي ان عموده الفقري هو الاقتصاد الحر والعلمنة الشاملة والليبرالية السياسية ، بشرط أن يكون الاقتصاد الحر وطنيا لا توكيلا أجنبيا ، وان تبدأ العلمنة بفصل الدين عن الدولة ، وان تشيد الليبرالية على أساس الانتخاب التمثيلي النسبي المباشر

لاعلى رموز السلطة والمجلس النيابي على حد سواء .

● لذلك فاليسار اللبناني يقوم تاريخيا في هذه المرحلة بمهام الثورة البرجوازية الديمقراطية ، ولا يتوهم مطلقا انه بصدد ثورة اشتراكية من اي نوع . ولذلك فهو موضوعيا جبهة وطنية عريضة من كافة الاحزاب والشخصيات التي لا ترى مستقبلا للبنان بغير تحريره وطنيا من أنياب التبعية الاستعمارية والبنية العشائرية والصيغة الطائفية . انه يضم رجالا كغبطة البطريرك خريش والياس الرابع والمطران جورج خضر والمطران غريغوار حداد ، جنبا الى جنب مع تجمع المسيحيين الملتزمين والحزب الديمقراطي (اميل بيطار وجوزيف مغيزل) وغيرهم عشرات الرجال والمنظمات الوطنية المسيحية في صف واحد مع الناصريين والقوميين الاجتماعيين والماركسيين والتقدميين الاشتراكيين .

هذا هو اليسار اللبناني في هذه المرحلة ، وهو يسار فريد في صيغته ، لخصوصية التجربة اللبنانية ، وخصوصية المهام الملقاة على عاتقها . انها تستهدف تغيير المجتمع فعلا ، ولكن الى نظام راسمالي حديث ومتطور . انه يسار يقوم بما اخفق اليمين في تحقيقه وهو التحرر الوطني . بل يكاد المرء أن يتساءل : أين هو اليمين في لبنان ؟

ولعل السؤال يمكن تعديله ــ اذا اعترفنا مع البعض بأن الصراع اللبناني محوره اليسار والصهيونية ــ فتصبح الصياغة الصريحة الامينة هي : ما دمنا قد عرفنا اليسار وقواه وأهدافه في لبنان ، فماذا تكون الصهيونية ، من هي في لبنان .. لا في اسرائيل ؟ !

اكيد ، ليسوا هم الفلسطينيين !!

٧٥/١٢/١٥

خاتمة

اخطفوا هـذه الكاتبـة
.. واحرقوا روايتها !!

باختصار شديد ، انني اطالب بالقبض على غـادة السمان ، فاذا لم تستطع قوى الامن ــ كعاتها ــ ان تنفذ الطلب ، فاني انصح اقرب عصابة باختطافها . كذلك اتوسل الى مجلس ادارة العصابة المدربة على الخطف والحرق ان تشن حملة مفاجئـة على شـركات التوزيع والمكتبات العامة والخاصة في لبنان والعالم العربي بهـدف الاستيلاء على روايتها المسماة « بيروت ٧٥ » كدليل ادانة عـلى ما يلـي :

اولا : انه بتاريخ احد أيـام شهر آذار ١٩٧٥ صدرت روايـة للمؤلفة المذكورة تقول فيها بلسان البصارة فايزة حرفيا (ص ٤٨) « أرى حزنا كثيرا .. أرى دما .. كثيرا من الـدم » . ولـم يكـد يمضي شهر على نشر هذه الكلمات حتى انشقت الارض اللبنانيـة عن بحر من الدماء لا زالت موجاته الحمراء تهدر الى اليوم .. مما يؤكد ان الكاتبة المذكورة كانت على معرفة تامة بما سيجري ، وانها بالتالي ضالعة في التخطيط لما حدث !

ثانيا : يؤكد الواقعة السابقة كدليل دامغ على الاشتراك في التخطيط للاحداث الدامية ما جرى من حوار بين فلاح جنوبي عجوز واحد أصحاب الاراضي انتهى بأن لطمه البك العجوز لطمة اخرسته « ربما لوقت طويل .. وربما لانفجار قريب ! » كما جاء بالنص (ص ٤٦) وفوق ان هذه العبارة تحمل معنى التحريض ـ تحريض الفقراء على الاغنياء !! ـ فانها تدل مباشرة على الاشتراك في فعل جنائي متوقع يهدف الى الفتنة الجماعية . وهذا ما حدث فعلا .

ثالثا : صورت المتهمة الشريحة الاجتماعية الممتازة والقائدة للمجتمع اللبناني الحر والسيد المستقل بأنها « منحرفة وطنيا » فهي لا تبالي بزيارات الطائرات الاسرائيلية المتلاحقة للمجال الجوي اللبناني ، وتقول على لسانهم زورا وبهتانا ان هذه الطائرات « لا تؤذي ولا تضر » و « يريدون ارهاب الفدائيين فقط » (ص ١٦) . وتزعم كاذبة ان هؤلاء البكوات يسمون الفدائيين كاذاعة العدو تماما بالارهابيين والمخربين (ص ٤٦) وانهم ينصحون القرى الحدودية بنصيحة العدو التقليدية وذريعته « لا تأووا المخربين » . وهو محض افتراء وزيف على سادة البلاد .

رابعا : اساءت المؤلفة عن سابق عمد وتصميم الى صورة الدولة عموما واجهزة الامن خصوصا حين صورت المجتمع اللبناني ـ رائد الصيغة الفريدة في العالم اجمع ـ على انه مجموعة دويلات وعشائر ، يخضع فيها رجل الامن تليفونيا لسيد الاقطاعية او زعيم القبيلة ، فتتحول الضحية ـ من احد الفقراء المدافعين جهلا عن الشرف الرفيع ـ الى جلاد يدخل السجن ، ويتحول الجلاد الى قاض يعدل في حكمه ويراف بالضحية فتصبح « زلمته » تطلب رضاءه والمغفرة بعد ان كان يطلب الثأر للعار . ويتبين من هذه الصورة اية سخرية وتشويه تلصقه المتهمة بحضور الدولة ونزاهة حماة العدل فيها .

خامسا : ولا يقتصر تلويثها لصورة لبنان الحضاري الفريد من نوعه على ذلك ، بل تتمادى في غيها حين تمعن في تصويره كغابة من الوحوش يلتهم كبيرها صغيرها بلا ضابط من القانون او الاخلاق ، فكل شيء عندنا — تأملوا الكذب المفضوح — قابل للبيع بدءا من الجسد وصولا الى الروح ، بدءا من افخاذ المرأة وانتهاء بالله والوطن والعائلة . ولست بحاجة الى الاستشهاد بنصوص حرفية من روايتها المذكورة لاني لا أكاد اجد حرفا واحدا فيها يخرج عن هذه المعاني المبتذلة الغريبة على تقاليدنا من عهد الفينيقيين الى عهد فخر الدين !

سادسا : وتنهي الكاتبة روايتها المستوردة من « اليسار الدولي » بأشنع ما يمكن توجيهه الى أرزة لبنان الخالدة ، اذ هي تدفع احدى شخصياتها الى انتزاع اسم « بيروت » من مدخل عاصمة النور والعقل والحضارة التي حملت الى الانسانية كلها مشعل الحرف ، لتضع مكانها لافتة مخزية بعنوان « مستشفى المجانين » !!

★★★

وقد كان من الممكن ان استرسل — ايها الفرسان النبلاء ، منقذي لبنان من فوهة الجحيم — لولا انني أريدكم بالتضحية بجزء يسير من وقتكم الثمين بين خطف وخطف مضاد او بين قتل وتشويه جثة او بين حريق وانفجار جديد أن تسارعوا الآن الآن فورا باختطاف غادة السمان حية لا ميتة ! لا تقتلوها ، بل اجعلوها فقط تعترف . تعترف وتعترف . حتى نتعرف على بقية أبعاد المؤامرة ، وما اذا كان هناك جحيم آخر غير هذا الجحيم .

ثم احرقوا روايتها — وثيقة العار ! — « بيروت ٧٥ » .

غالي شكري

فهرس

ملاحظة

كان من المقرر ان يضم هذا الكتاب وثائق عرس السلم اللبناني عام ١٩٧٥ ولكن توالي الاحداث والمتغيرات يفرض استكمال هذه الوثائق التي سيضمها المؤلف الى كتابه القادم .

مؤلفات غالــي شكري

١ ـ سلامة موسى وازمة الضمير العربي
٢ ـ أزمة الجنس في القصة العربية
٣ ـ المنتمي : دراسه في أدب نجيب محفوظ
٤ ـ ماذا أضافوا الى ضمير العصر ؟
٥ ـ أمريكا والحرب الفكرية
٦ ـ شعرنا الحديث .. الى اين ؟
٧ ـ ثورة المعتزل : دراسة في ادب توفيق الحكيم
٨ ـ ادب المقاومــة
٩ ـ الرواية العربية في رحلة العذاب
١٠ ـ مذكرات ثقافة تحتضر
١١ ـ عروبة مصر وامتحان التاريخ
١٢ ـ ذكريات الجيل الضائع
١٣ ـ التراث والثورة
١٤ ـ ماذا يبقى من طه حسين ؟
١٥ ـ صراع الاجيال في الادب المعاصر
١٦ ـ من الارشيف السري للثقافة المصرية
١٧ ـ ثقافتنا بين نعم ولا
١٨ ـ عرس الدم في لبنان